

لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم

تأليف

الإمام الحافظ أبي العبّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي

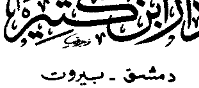
٥٧٨ - ٦٥٦ هجرية

الجزء السّابع مع الفهارس العلمية

حقّقه وعلّق عليه وقدّم له

محيي الدين ديب مستو | يوسف علي بديوي

أحمد محمد السيّد | محمود إبراهيم بزّال



دمشق - بيروت



دمشق - بيروت

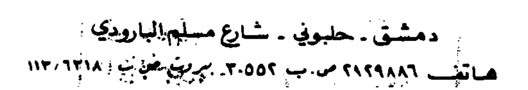
بسم الله الرحمن الرحيم

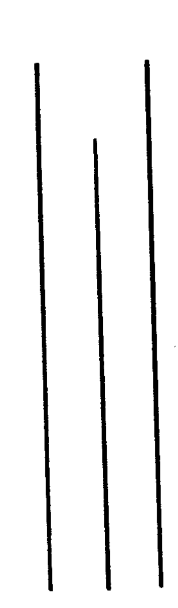
الطَّبعَة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٠٢-٢٠٤٤٥٩




دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي
هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢ . بيروت ص.ب ١١٣/٦٣١٨




المفهم
لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم

الفهرس الألفبائي
للكتب الواردة في تلخيص مسلم والمفهم

(٣٧)
كتاب الأذكار والدعوات

(١) باب
الترغيب في ذكر الله تعالى

[٢٦١٣] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، ....

---

(٣٧)
كتاب الأذكار والدّعوات

[(١) ومن باب: الترغيب في ذكر الله تعالى][1]

معنى ظنّ الإجابة عند الدعاء

(قوله تعالى: «أنا عند ظنِّ عبدي بي») قيل: معناه ظنّ الإجابة عند الدعاء، وظنُّ القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن قبول الأعمال عند فعلها على شروطها تمسُّكاً بصادق وعده، وجزيل فضله. قلت: ويؤيِّده قولُه ﷺ: «ادعُوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[2]. وكذلك ينبغي للتائب والمستغفر، وللعامل أن يجتهدَ في القيام بما عليه من ذلك، مُوقِناً أن اللَّهَ تعالى يقبلُ عمله، ويغفرُ ذنبه،

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.
(٢) رواه الترمذي (٣٤٧٤).

وأنا معه حين يذكرني، ....

فإن اللَّهَ تعالى قد وعد بقبول التوبة الصَّادقة، والأعمال الصَّالحة، فأمَّا لو عمل هذه الأعمال، وهو يعتقد، أو يظنُّ أنَّ اللَّهَ تعالى لا يقبلها، وأنها لا تنفعُه، فذلك هو القنوطُ من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله، وهو من أعظم الكبائر، ومَن مات على ذلك وَصَلَ إلى ما ظنَّ منه، كما قد جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ عبدي بي ما شاءَ»[١]. فأما ظنُّ المغفرة والرَّحمة مع الإصرار على المعصية، فذلك محضُ الجهل، والغرَّة، وهو يجرُّ إلى مذهب المرجئة، وقد قال ﷺ: «الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على الله»[٢]. والظن: تغليبُ أحد المجوَّزين بسبب يقتضي التغليب، فلو خلا عن السبب المغلِّب لم يكن ظنّاً بل غرَّةً وتمنياً. وقد تقدَّم في الجنائز الكلامُ على قوله: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بالله»[٣].

و (قوله: «وأنا معه حين يذكرني») أصلُ الذِّكر: التنبهُ بالقلب للمذكور، والتيقظ له، ومنه قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] أي: تذكّروها. وقوله ﷺ: «من نام عن صلاة، أو نسيها فليصلِّها إذا ذكرها»[٤]. أي: إذا تذكرها بقلبه. وهو في القرآن كثير. وسُمِّي القولُ باللسان ذِكْراً؛ لأنه دَلالةٌ على الذِّكر القلبي، غير أنَّه قد كثر اسمُ الذكر على القول اللِّساني حتى صار هو السَّابق للفهم، وأصلٌ مع الحضور والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وكما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أي: مطَّلعٌ عليكم،

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩١ و ٤/ ١٠٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٣٣)، (وابن المبارك في الزهد (٩٠٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦١).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣).

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٣/ ٢٨٩ و ٥/ ٢١٦ و ٢٥١ و ٦/ ٣٩٧). وانظر: المصنف لابن أبي شيبة (٢/ ٦٤).

إنْ ذكرني في نفسه؛ ذكرته في نفسي، وإنْ ذكرني في ملأٍ ؛ ذكرته في ملأ خيرٍ منهُم، ....

ومحيطٌ بكم، وقد ينجرُّ مع ذلك الحفظ والنصر. كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: أحفظكما ممن يريدُ كيدَكما.

مكانة الذاكر

وإذا تقرر هذا فيمكن أن يكون معنى: «وأنا معه إذا ذكرني» أن مَن ذكر اللَّهَ في نفسه مُفرَّغةً مما سواه رفع اللَّهُ عن قلبه الغفلات، والموانع، وصار كأنَّه يرى اللَّهَ ويشاهده ـ وهي: الحالةُ العليا التي هي: أن تذكَر اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تصلْ إلى هذه الحالة، فلا أقلَّ من أن يذكره، وهو عالمٌ بأن اللَّهَ يسمعُه ويراه. ومَن كان هكذا كان اللَّهُ له أنيساً إذا ناجاه، ومجيباً إذا دعاه، وحافِظاً له من كلِّ ما يتوقّعه ويخشاه، ورفيقاً به يوم يتوفَّاه، ومُحِلاًّ له من الفردوس أعلاه.

و (قوله: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي») النفس: اسْمٌ مشترك يُطلق على نفس الحيوان، وهي المتوفاةُ بالموت والنوم، ويطلق ويراد به: الدَّم، واللَّهُ تعالى مُنزَّه عن ذينك المعنيين، ويطلق ويُراد به ذات الشيء وحقيقته، كما يقال: رأيت زيداً نفسه عينه، أي: ذاته. وقد يطلق ويراد به الغيبُ كما قد قيل في قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: ما في غيبك.

ثواب ذِكْر الله

والأليقُ بهذا الحديث: أن يكون معناه: أن من ذَكَر اللَّهَ تعالى خالياً منفرداً بحيث لا يطَّلع أحدٌ من الخليقة على ذِكْره، جازاه اللَّهُ على ذلك بأن يذكره بما أعدَّ له من كرامته التي أخفاها عن خليقته. حتى لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون. وقد قلنا: إنّ التسليم هو الطريقُ المستقيم.

و (قوله: «وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم») يعني: أن من يذكره في ملأ من الناس ذكره اللَّهُ في ملأ من الملائكة، أي: أثنى عليه، ونوَّه باسمه في الملائكة، وأمر جبريلَ أن يُنادي بذكره في ملائكة السموات كما تقدَّم، وهو ظاهِرٌ

وإن تقرَّب مني شِبْراً تقربت منه ذراعاً، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وإنْ أتاني يمشي؛ أتيتُه هرولةً».

وفي رواية: «إنَّ الله يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني».

رواه أحمد (٢/ ٢٥١)، والبخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) (٢ و ١٩)، والترمذيُّ (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢).

في تفضيل الملائكة على بني آدم، وهو أحدُ القولين للعلماء. وللمسألة غورٌ ليس هذا موضعُ ذكره.

و (قوله: «وإن تقرَّب إليّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً... إلى قوله: أتيته هرولةً») هذه كلُّها أمثالٌ ضُرِبت لمن عمل عملاً من أعمال الطاعات، وقصد به التقرُّب إلى الله تعالى، يدلُّ على أنَّ اللَّهَ تعالى لا يضيعُ عملَ عامل وإن قلَّ، بل يقبله ويجعل له ثوابَه مضاعفاً. ولا يَفْهَمُ مِن هذا الحديث: الخُطَا: نقل الأقدام؛ إلا من ساوى الحُمر في الأفهام. فإن قيل: مقتضى ظاهر هذا الخطاب: أنَّ مَن عمل حسنةً جُوزي بمثليها، فإن الذراعَ: شبران، والباع: ذراعان. وقد تقرَّر في الكتاب والسُّنَّة: أن أقلَّ ما يُجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعافٍ كثيرةٍ لا تُحصَى، فكيف وَجْه الجمع؟ قلنا: هذا الحديثُ ما سيق لبيان مقدارِ الأجور، وعَدَد تضاعيفها، وإنما سِيق لتحقيق أنَّ اللَّهَ تعالى لا يضيعُ عمل عاملٍ ـ قليلاً كان أو كثيراً ـ وأن اللَّهَ تعالى يُسْرع إلى قبوله، وإلى مضاعفة الثواب عليه إسراع من جيء إليه بشيء فبادر لأخذه، وتبشبش له بشبشةَ من سُرَّ به، ووقع منه الموقع، ألا ترى قوله: «مَن[1] أتاني يمشي أتيتُه هرولة»، وفي لفظ آخر: «أسرعتُ إليه». ولا تتقدَّر الهرولةُ والإسراع بضعفي المشي، وأما عددُ الأضعاف،

لا يضيع الله عَمَل عاملٍ وإن قلَّ

(١) في التلخيص: «وإن».

[٢٦١٤] وعنه؛ قال: كان رسولُ الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرَّ على جبلٍ يقال له: جُمْدَانُ. فقال: «سيروا! هذا جُمْدَانُ؛ سبق المُفَرِّدون». قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟! قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

رواه أحمد (٢/ ٣٢٣)، ومسلم (٢٦٧٦)، والترمذيُّ (٣٥٩٦).

* * *

فيؤخذ من موضعٍ آخر لا من هذا الحديث. والله أعلم.

و (قوله: «هذا جُمْدَان») هو بضم الجيم وسكون الميم، وهو جبلٌ بين قُدَيْد وعُسْفان من منازل أسلم.

و (قوله: «سبق المُفَرِّدون») قال القاضي: ضبطتُه عن متقني شيوخنا بفتح الفاء وكسر الراء. قال الهروي: قال أبو العباس عن ابن الأعرابي: فَرَّد الرجل: إذا تفقَّه، واعتزلَ النَّاس، وخلا بمراعاة الأمر والنهي. وقال الأزهريُّ: هم المتخلقون[1] من الناس بذكر الله تعالى. وقد فسَّرهم النبيُّ ﷺ فقال: «هم الذاكرون اللَّهَ كثيراً والذَّاكرات». وقال في غير كتاب مسلم: «هم المُسْتَهْتِرُون بذكر الله تعالى، يضعُ عنهم الذكرُ أوزارهم فيردون يوم القيامة خِفافاً»[2]. وإنما ذكر النبيّ ﷺ هذا القولَ عقيب قوله: «هذا جُمْدان»، لأنَّ جُمْدان جبل منفرد بنفسه هنالك، ليس بحذائه جبلٌ مثله، فكأنه تفرَّد هناك فذكره بهؤلاء المفرِّدين. والله أعلم. وهؤلاء القومُ سبقوا في الدنيا إلى الأحوال السَّنِيَّة، وفي الآخرة إلى المنازل العلية.

سَبْقُ الذاكرين

و (قوله: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات») هذه الكثرةُ المذكورةُ هنا هي

---

(١) في (ز) و (م ٤): المتحلَّون.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩٦).

. . . .

المأمورُ بها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وهذا المساقُ يدلُّ على أنَّ هذا الذكر الكثيرَ واجبٌ، ولذلك لم يكتف بالأمر حتى أكَّده بالمصدر، ولم يكتف بالمصدر حتى أكده بالصفة، ومثل هذا لا يكونُ في المندوب. وظهر أنه ذكرٌ كثيرٌ واجب، ولا يقول أحدٌ بوجوب الذِّكر باللسان دائماً، وعلى كلِّ حال، كما هو ظاهرُ هذا الأمر، فتعيَّن أن يكونَ ذكرَ القلب، كما قاله مجاهد. وقال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس شيءٌ من الفرائض إلا وله حدٌّ ينتهي إليه إلا ذِكْرُ الله، ولم يقلْ هو ولا غيره ـ فيما علمناه ـ أن ذكرَ الله باللسان يجبُ على الدوام، فلزِم أنه ذكرُ القلب، وإذا ثبتَ ذلك، فذكر القلبُ لله تعالى، إما على جهة الإيمان والتصديق بوجوده، وصفات كماله وأسمائه فهذا يجبُ استدامته بالقلب ذكراً أو حكماً في حال الغفلة؛ لأنه لا ينفكُّ عنه إلا بنقيضه، وهو الكفر. والذكر الذي ليس راجعاً إلى الإيمان: هو ذكرُ الله عند الأَخْذ في الأفعال، فيجبُ على كلِّ مكلَّفٍ ألا يقدمَ على فِعْل من الأفعال، ولا قول من الأقوال ـ ظاهراً ولا باطناً ـ إلاَّ حتى يعرف حُكْمَ الله في ذلك الفعل؛ لإمكان أن يكونَ الشرعُ مَنَعَهُ منه، فإما على طريق الاجتهاد إن كان مجتهداً، أو على طريق التقليد إن كان غير مجتهد، ولا ينفكُّ المكلَّفُ عن فِعْلٍ أو قول دائماً، فَذِكْرُ اللَّهِ يجبُ عليه دائماً، ولذلك قال بعضُ السلف: اذكرِ اللَّهَ عند همِّك إذا هممتَ، وحُكْمك إذا حكمت، وقَسْمك إذا قَسمتَ، وما عدا هذين الذِّكْرَيْن لا يجبُ استدامتُه ولا كثرته. والله أعلم.

استدامة ذِكْر الله باللسان والقلب

* * *

(٢) بـــاب
فضل مجالس الذكر والاستغفار

[٢٦١٥] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ لِلَّه تبارك وتعالى ملائكةً سيَّارةً فُضْلاً يَتَبَّعُون مجالس الذكر؛ فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكرٌ قعدوا معهم، وحَفَّ بعضُهم بعضاً بأجنحتهم. حتى يملؤوا ما بينهم وبين

---

(٢) ومن بـــاب: فضـل مجالـس الذكـر

(قوله: «إن لله ملائكةً سيارةً فَضْلاً») بفتح الفاء وإسكان الضاد. روايةُ الشيوخ في مسلم والبخاري. أي: زيادة على كتّاب الناس، وعند الهروي: فضلٌ - برفع اللام - على أنه خبرُ مبتدأ. ووقع عند بعضهم: فُضُلاً - بضم الفاء والضاد -. وكأنه تأوَّله على أنه جمع فاضل، ولا تساعده العربية، ولا المعنى. وعند بعضهم: فُضَلاء - بضم الفاء وفتح الضاد والمد والهمز - كظرفاء. والملائكة وإن كانوا كلّهم كذلك، فليس هذا موضع ذكر ذلك، والصواب التقييد الأول.

و (قوله: «فإذا وجدوا مجلسَ ذكرٍ قعدوا معهم، وحفَّ بعضُهم بعضاً بأجنحتهم») هذه روايةُ السجزيِّ والسَّمرقندي، أي: يحدقون حولهم، ومصداقها في البخاري: «يحفُّونهم بأجنحتهم»، وفي كتاب ابن عيسى: وحطّ - بحاء وطاء مهملتين - ومعناه: أشار بعضهم لبعض بالنزول، ووقع عند العذريِّ: حظ: - بالظاء القائمة المعجمة - وعند بعضهم: بالساقطة، وليسا بشيءٍ، وهما تصحيف.

و (قوله: «سيَّارة») يعني: سائرين، كما قال في رواية أخرى: «سيَّاحين».

و (قوله: «فإذا وجدوا مجلس ذكر قعدوا معهم») يعني: مجالس العلم والتذكير. وهي المجالس التي يذكر فيها كلامُ الله، وسُنَّة رسوله، وأخبار السلف الصالحين، وكلام الأئمة الزهَّاد المتقدِّمين، المبرَّأة عن التصنُّع والبِدَع، والمنزَّهة عن المقاصد الرديَّة والطمع، وهذه المجالسُ قد انعدمتْ في هذا الزمان، وعُوِّض

مجالس العلم والتذكير

السَّماء الدنيا، فإذا تفرقوا عَرجُوا وصَعِـدُوا إلى السَّماء. قال: فيسألهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو أعلم ـ: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادٍ لك في الأرض يُسَبِّحونك، ويكبِّرونَك، ويهلِّلونك، ويَحْمَدونَك، ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جَنّتك. قال: وهل رَأَوْا جنَّتي؟ قالوا: لا. أيْ رَبِّ! قال: فكيف لو رأوا جنَّتي؟! قالوا: ويستجيرونك.

منها الكذب والبِدَع، ومزامير الشّيطان. نعوذُ بالله من حُضُورها، ونسأله العافية من شرورها.

و (قوله: «فيسألهم ـ وهن أعلم ـ: من أين جئتم؟») هذا السؤالُ من الله تعالى للملائكة، هو على جهة التّنبيه للملائكة على قولها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وإظهارٌ لتحقيق قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وهو من نحو مباهاة الله تعالى الملائكة بأهل عرفة حين قال لهم: «ما أراد هؤلاء؟ انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثاً غبراً، أشهدكم أني قد غفرتُ لهم»(١). وكذلك نُصَّ عليه في الحديث.

و (قوله: «ويمجدونك») أي: يعظِّمونك بذكر صفات كمالك وجلالك. وقد تقدَّم: أنّ أصلُ المجد الكثرة، ومنه قولهم: في كلِّ شجرة نارٌ، واستمجد المرخُ والعفار.

مزيّة المعاينة على العلم

و (قوله: «كيف لو رأوا جَنَّتي؟») هذا يدلُّ على أنَّ للمعاينة زيادةَ مزيَّةٍ على العلم في التحقيق والوضوح؛ فإن هؤلاء القوم المتذكِّرين للجنة والنار كانوا عالمين بذلك، ومع ذلك: فإن اللَّهَ تعالى قال: «فكيف لو رأوها» يعني: لو رأوها لحصلَ من اليقين والتحقيق زيادةٌ على ما عندهم، ولتحصيل هذه الزيادة سأل موسى الرُّؤية، والخليل مشاهدة إحياء الموتى، وقد تقدَّم هذا المعنى.

---

(١) رواه ابن خزيمة (٢٨٤٠)، والبغوي في شرح السنة (١٩٣١).

قال: ومِمَّ يَسْتجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب! قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟! قالوا: ويستغفرونك. قال: فيقول: قد غفرتُ لهم، وأعطيتُهم ما سألوا، وأجرتُهم ممَّا استجاروا. قال: يقولون: رَبِّ فيهم فلانٌ عبد خطَّاءٌ؛ إنما مرَّ فجلس معهم! قال: فيقول: وله غفرتُ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

رواه أحمد (٢/ ٣٥٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

* * *

و (قول الملائكة: «فيهم فلان عبدٌ خطَّاء، إنما مرَّ فجلس معهم») إنما استبعدتِ الملائكةُ أن يدخلَ هذا مع أهل المجلس في المغفرة؛ لأنه لم تكن عادتُه حضور مجالس الذِّكر، وإنما كانت عادته ملازمة الخطايا، فعرض له هذا المجلس، فجلسه، فدخل مع أهله فيما قُسِم لهم من المغفرة والرحمة. فيستفاد منه الترغيب العظيم، في حضور مجالس الذِّكْر، ومجالسة العلماء والصَّالحين، وملازمتهم.

الترغيب في حضور مجالس الذِّكْر

و (قوله: «هم القومُ لا يَشْقَى بهم جليسُهم») هذه مبالغةٌ في إكرامهم، وزيادةٌ في إعلاء مكانتهم، ألَا ترى: أنه أكرمَ جليسَهم بنحو ما أُكرِمُوا به لأجلهم، وإن لم يشفعُوا فيه، ولا طَلَبُوا له شيئاً، وهذه حالةٌ شريفة، ومنزلة منيفة، لا خيَّبنا اللَّهُ منهم، وجعلنا من أهلها.

الذاكرون لا يشقى جليسُهم

* * *

(٣) بـــاب

فضل إحصاء أسماء الله تعالى

[٢٦١٦] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً مَنْ حَفِظَها دخل الجنَّة واللَّهُ وِتْر يحب الوتر».

وفي رواية: «وإنَّ للَّهِ تسعةً وتسعين اسماً مئة إلا واحداً؛ من أحصاها دخل الجنة».

رواه أحمد (٢/ ٢٦٧)، ومسلم (٢٦٧٧) (٥ و ٦)، والترمذيُّ (٣٥٠٦)، وابن ماجه (٣٨٦٠).

* * *

---

(٣) ومن بـــاب: فضل إحصاء أسماء الله تعالى

(قوله: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً ـ مئة إلا واحداً ـ») الاسم في العرف العام: هو الكلمة الدالَّة على معنًى مفردٍ، وبهذا الاعتبار لا فرقَ بين الاسم والفعل والحرف، إذ كلُّ واحدٍ منها يصدقُ عليه ذلك الحدُّ، فلا فعل، ولا حرف في العرف العام، وإنما ذلك اصطلاحُ النحويين والمنطقيين، وليس ذلك من غرضنا. وإذا فهمتَ هذا غلط من قال: إن الاسم هو المسمَّى حقيقة، كما قالت طائفةٌ من جهَّال الحشوية؛ فإنهم صرَّحوا بذلك واعتقدوه حتى ألزموا على ذلك أنَّ من قال: سمٌّ: ماتَ، ومن قال نار: احترقَ. وهؤلاء أخسُّ من أن يُشتغل بمخاطبتهم، وأما من قال من النحويين، ومن المتكلِّمين: الاسم هو المسمَّى، فحاشاهم أن يُريدوا هذه الحماقة، وإنما أرادُوا: أنه هو من حيث أنه لا يدلُّ إلا عليه، ولا يُفيد إلا هو، فإن كان ذلك الاسم من الأسماء الدالَّة على ذات المسمَّى دلَّ عليها من غير مزيد أمر آخر، وإن كانَ من الأسماء الدالَّة على معنىً زائدٍ: دلَّ

. . . .

على تلك الذات منسوبةً إلى ذلك الزائد خاصة دون غيره. وبيان ذلك: أنَّك إذا قلتَ: زيد ـ مثلاً ـ فهو يدلُّ على ذاتٍ مشخَّصة في الوجود من غير زيادة ولا نُقصان، فلو قلتَ ـ مثلاً ـ: العالم؛ دلَّ هذا على تلك الذات منسوبةً إلى العلم، وكذلك لو قلت: الغنيّ؛ دلَّ ذلك على تلك الذات مع إضافة مالٍ إليها، وكذلك لو قلت: الفقير؛ دلَّ على تلك الذات مع سلب المال عنها، وهذا جارٍ في كلِّ ما يُقال عليه: اسم بالعرف العام. ومن هنا صحَّ عقلاً أن تكثر الأسماءُ المختلفة على ذاتٍ واحدة، ولا تُوجب تعدُّداً فيها، ولا تكثيراً، وقد غَمُضَ فهمُ هذا مع وضوحه، على بعض أئمة المتكلِّمين، وفرَّ منه هرباً من لزوم تعددٍ في ذات الإله حتىَّ تأوَّل هذا الحديث؛ بأن قال: إن الاسم فيه يُراد به التسمية، ورأى أن هذا يُخلِّصه من التكثُّر، وهذا فرار من غير مفرٍّ إلى غير مفرٍّ، وذلك أنَّ التسميةَ إنما هي وضع الاسم، أو ذكر الاسم، فإنه يُقال لمن سمَّى ابنَه عند ولادته بزيد؛ سمَّى يُسمِّي تسميةً، وكذلك نقولُ لمن ذكرَ اسم زيد لغيره، وعلى هذا فالتسمية هي نسبةُ الاسم إلى مسمَّاه، فإذا قلنا: إنَّ للَّه تعالى تسعةً وتسعين تسمية اقتضى ذلك: أن يكونَ له تسعةٌ وتسعون اسماً ينسبُها كلّها إليه، فبقي الإلزام بعد ذلك التكلُّف والتعسُّف، والحق ما ذكرناه، والمفهم الإله. وقد يقال: الاسم هو المسمَّى، ويعني به: أن هذه الكلمة التي هي الاسم قد يُطلق ويُراد به المسمَّى، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] أي: سبح ربَّك، فأُريد بالاسم المسمَّى، وهذا بحث لفظي لا ينبغي أن يُنكرَ، ولا جرمَ قال به في هذه الآية، وفيما يُشبهها جماعة من علماء اللسان وغيرهم، وإذا تقرَّرَ هذا فافهم أن أسماء الحقِّ سبحانه وإن تعدَّدت فلا تعدُّدَ في ذاتِه تعالى، ولا تركيبَ، لا عقلياً كترتيب المحدودات، ولا محسوساً كترتيب الجسمانيات، وإنما تعدَّدت أسماؤه تعالى بحسب الاعتبارات الزائدة على الذات، ثم هذه الأسماء من جهة دلالتها على أربعة أضرب؛ فمنها: ما يدلُّ على الذات مجرَّدة كاسم الله تعالى على قولِ من يقول:

مسوِّغات تعدّد أسماء الله الحسنى

دلالات أسمائه عز وجل

. . . .

إنه علمٌ غير مشتق، وهو الخليل وغيره؛ لأنه يدلُّ على الوجود الحقِّ الموصوف بصفات الجلال والكمال دلالة مطلقة غير مقيدة بقيد؛ ولأنه أشهر أسمائه حتى تعرفَ كلُّ أسمائه به، فيقال: الرحمن: اسم الله، ولا يقال الله اسم الرحمن؛ ولأن العربَ عاملته معاملة الأسماء الأعلام في النِّداء، فجمعوا بينه وبين ياء النداء، ولو كان مشتقاً لكانت لامُه زائدة، وحينئذ لا يُجمع بينه وبينها في النداء، كما لا تقول العربُ: يا لحارث ولا يا لعبَّاس. ولاستيفاء المباحث علم الاشتقاق.

ومنها: ما يدلُّ على صفات الباري تعالى الثابتة له كالعالم والقادر، والسميع والبصير.

ومنها: ما يدلُّ على إضافة أمر ما إليه، كالخالق، والرَّازق.

ومنها: ما يدلُّ على سلب شيءٍ عنه، كالقدُّوس، والسَّلام. وهذه الأقسام الأربعة لازمة منحصرة، دائرة بين النفي والإثبات، فاختبرْها تجدْها كذلك.

و (قوله: «مئةً إلا واحداً») تأكيد للجملة الأولى، ليرفعَ به وهم متوهم في النطق أو الكتابة؛ لأن تسعةً مقاربةٌ لسبعة فيهما. ومئة منصوبة بدل من تسعة.

معنى إحصاء أسمائه عز وجل

و (قوله: «مَنْ أَحْصاها دخلَ الجنة») هذه الجملة خبر ثانٍ للمئة المذكورة في الجملة الأولى، غير أن هذه الجملة هي الفائدة المقصودةُ لعينها، والجملة الأولى مقصودة لها، لا أن مقصودَها حصر الأسماء فيما ذكر، وهذا كقول القائل: لزيد مئة دينار، أعدَّها للصدقة، لا يُفهم من هذا: أنه ليس له مال غير المئة دينار، وإنما يُفهم أن هذه المئة هي التي أعدَّها للصدقة لا غيرها. وقد دلَّ على أنَّ لله أسماءَ أُخر ما قدَّمناه من قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك بكلِّ اسمٍ سَمَّيت به نفسَك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[1]. وقوله: «فأحمده بمحامدَ لا أقدر عليها، إلا أن

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩١) عن عبد الله بن مسعود.

....

يُلْهِمنيها الله»(١). وقد بحثَ الناس عن هذه الأسماء في الكتاب والسُّنة، فجمعُوها في كتبهم كالخطَّابي، والقُشيري، وغيرهما، فمن أرادَها وجدَها. وقد روى الترمذي حديث أبي هريرة هذا، وزادَ فيه ذكرَ الأسماء وتعديدَها إلى تسعة وتسعينَ، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفُه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث(٢).

والإحصاء في الكلام: على ثلاث مراتب؛ أولها: العدد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]. والثانية: بمعنى الفهم، ومنه يُقال: رجلٌ ذو حَصَاةٍ أي: ذو لُبٍّ وفهم، ومنه سُمِّي العقل: حصاة، قال كعبُ بن سعد الغنوي:

وأَنَّ لِسانَ المَرْءِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ   حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

والثالثة(٣): بمعنى الإطاقة على العمل والقوّة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: لن تُطيقوا العملَ بذلك، والمرجو من كرم الله تعالى، أنَّ من حصلَ له إحصاءُ هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صِحَّة النيَّة أن يُدخلَه الله الجنَّة، لكنَّ المرتبة الأُولى: هي مرتبة أصحاب اليمين، والثانية: للسابقين، والثالثة: للصِّدِّيقين، ونعني بإطاقتها حسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها، والاتصاف بقدر الممكن منها، كما أشارَ إليه الطوسيُّ في «المقصد الأسنى».

معنى وحدانية الله

و (قوله: «والله وترٌ يحبُّ الوترَ») قد تقدَّم أن الوترَ: الفردُ، والشفع: الزَّوج، وأن معنى وحدانية الله تعالى: أنَّه واحدٌ في ذاته فلا انقسامَ له، وواحدٌ في إلهيته، فلا نظيرَ له، وواحدٌ في مُلْكه ومِلكه فلا شريكَ له.

(١) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).
(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٧).
(٣) في جميع النسخ: «الثالث» والصواب ما أثبتناه.

. . . .

محبته عز وجل للوتر المشروع

و (قوله: «يحبُّ الوترَ») ظاهرُه: أن الوترَ هنا للجنس: لا معهودَ جرى ذكره يُحمل عليه، فيكون معناه على هذا: أنه يحبُّ كل وتر شرعه، وأمر به، كالمقرب، فإنَّها وترُ صلاة النهار، ووتر صلاة الليل، وكالصلوات الخمس، فإنها وتر، وكالوتر في مِرَارِ الطَّهارة، وغسل الميِّت، ونحو هذا مما شُرِع فيه الوترُ، ومعنى محبَّته لهذا النوع: أنه أمرَ به، وأثابَ عليه. ويصلحُ ذلك للعموم لما خلقَه وتراً من مخلوقاته كالسموات السبع، والأرضينَ السبع، والذراري السَّبع، وكآدمَ الذي خلقَه من تراب، وعيسى الذي خلقه من غير أب، وهكذا كلُّ ما خلقه الله وتراً من مخلوقاته، ومعنى محبَّته لهذا النوع أنَّه خصَّصها بذلك لِحِكَمِ علمها، وأمورٍ قدَّرها. ويُحتمل أن يُريد بذلك الوتر واحداً بعينه، فقيل: هو صلاة الوتر، وقيل: يوم الجمعة، وقيل: يوم عرفة، وقيل: آدم، وقيل غير ذلك. وقيل: يحتمل أن يكون معناه منصرفاً إلى صفة من يعبد الله بالوحدانية والتفرُّد على سبيل الإخلاص، والاختصاص.

المراد بالوتر: التوحيد

قلـتُ: وهذه الأقوال كلُّها متكافئة، وأشبَهُ ما تقدَّم: حملُه على العموم، وقد ظهرَ لي وجه، وأرجو أن يكونَ أولى بالمقصود، وهو أن الوترَ يُراد به التوحيد، فيكون معناه إن الله تعالى في ذاته وكماله، وأفعاله واحدٌ، ويحبُّ التوحيد، أي: يُوحَّد ويُعتقدُ انفرادُه دون خلقِه، فيلتئمُ أوَّلُ الحديث وآخرُه، وظاهرُه وباطنُه.

* * *

(٤) بــاب
فضل قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له

[٢٦١٧] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «من قال: لا إله إلا اللَّهُ وحدَه، لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيءٍ قدير في يومٍ مئة مرة، كانت له عَدْلَ عَشْرِ رقابٍ، وكُتِبَ له بها مئة حسنةٍ، ومُحِيَتْ عنه مئةُ سيئةٍ، ....

(٤ و ٥) ومـن بـاب: فضل التهليل والتسبيح والتحميد(١)

(قوله في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير؛ في يوم مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مئةُ حسنة، ومحيتْ عنه مئةُ سيئة») يعني: أنَّ ثوابَ هذه الكلمات بمنزلة ثوابَ مَن أعتق عشر رقاب، وقد تقدَّم في العتق: أن من أعتقَ رقبةً واحدة أعتق اللَّهُ بكل عضو منها عضواً منه من النار، ثم يُزاد مع ذلك كَتْبُ مئة حسنة، ومَحْوُ مئة سيئة، يُجْمَعُ ذلك كله له، وكلُّ واحدٍ من هذه الحسنات مضاعفةٌ بعشرٍ، كما قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وكما في حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ المذكور بعد هذا، وهذا الحديث وجميع ما في الباب من الأحاديث يدلُّ على: أن ذِكْرَ اللَّهِ تعالى أفضلُ الأعمال كلِّها، وقد صرَّح بهذا المعنى في آخر هذا الحديث حين قال: «ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك». وأنصُّ ما في هذا الباب ما خرَّجه مالكٌ عن أبي الدَّرداء قال: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها

ذِكْر الله أفضل الأعمال

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان بابين من التلخيص، وهما: باب: فضل قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وباب: فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ

عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تَلْقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْر الله»[١]. وهذا لا يقوله أبو الدرداء من رأيه، ولا بنظره؛ فإنه لا يتوصَّلُ إليه برأيه، فلا يقوله إلا عن النبي ﷺ غير أنه سكت عن رَفعه للعِلْم بذلك عند مَن حدَّثه بذلك. وقد رواه الترمذي مرفوعاً[٢]، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي») يعني: أن اللَّهَ تعالى يحفظُه من الشَّيطان في ذلك اليوم فلا يقدرُ منه على زلَّة، ولا وسوسة ببركة تلك الكلمات.

قلـــتُ: وهذه الأجورُ العظيمةُ، والعوائد الجمة إنما تحصل كاملة لمن قام بحقِّ هذه الكلمات، فأحضر معانيها بقلبه، وتأمَّلها بفهمه، واتَّضحت له معانيها، وخاض في بحار معرفتها، ورتع في رياض زهرتها، ووصل فيها إلى عين اليقين؛ فإن لم يكن، فإلى علم اليقين، وهذا هو الإحسانُ في الذِّكْر؛ فإنه من أعظم العبادات. وقد قال ﷺ فيما قدمناه في الإحسان: «أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٣].

الإحسان في الذِّكْر

ثم لما كان الذاكرون في إدراكاتهم وفهومهم مختلفين كانت أجورُهم على ذلك بحسب ما أدركوا، وعلى هذا ينزل اختلافُ مقادير الأجور، والثواب المذكور في أحاديث الأذكار، فإنك تجدُ في بعضها ثواباً عظيماً مضاعفاً، وتجد تلك الأذكار بأعيانها في رواية أخرى أكثر أو أقلَّ، كما اتفق هنا في حديث أبي هريرة

اختلاف الثواب باختلاف أحوال الذاكرين

---

(١) رواه مالك في الموطَّأ (١/ ٢١١).
(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٤).
(٣) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٣)، والنسائي (٨/ ٩٧).

مما جاء به إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك. ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرةٍ حُطَّتْ خطاياه ولو كانت مِثْلَ زَبَدِ البحر».

رواه أحمد (٢/ ٣٠٢)، والبخاريُّ (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١)، والترمذيُّ (٣٤٦٨)، وابن ماجه (٣٧٩٨).

[٢٦١٨] وعن أبي أيوبَ، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قالَ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، لهُ الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ عَشْرَ مراتٍ؛ كان كَمَنْ أَعْتَقَ أربعة أنفسٍ مِنْ ولد إسماعيلَ».

رواه البخاريُّ (٦٤٠٤)، ومسلم (٢٦٩٣)، والترمذيُّ (٣٥٨٤).

* * *

المتقدِّم، فإنَّ فيه: ما ذكرناه من الثواب، وتجد تلك الأذكار بأعيانها وقد علَّق عليها من ثواب عتق الرقاب أكثر مما علَّقه على حديث أبي هريرة، وذلك أنه قال في حديث أبي هريرة: «من قال ذلك في يوم مئة مرة كانت له عدل عشر رقاب»، وفي حديث أبي أيوب: «من قالها عشر مرات كانت له عدل أربع رقاب». وعلى هذا فمن قال ذلك مئة مرة كانت له عدل أربعين رقبة، وكذلك تجده في غير هذه الأذكار، فيرجع الاختلافُ الذي في الأجور لاختلاف أحوال الذَّاكرين، وبهذا يرتفعُ الاضطراب بين أحاديث هذا الباب، والله الموفِّق للصواب.

و (قوله: «إلا أحد عمل أكثر من ذلك») أي: قال، فسمَّى القولَ عملاً، كما قد صرَّح به في الرواية الأخرى. والذكرُ من الأعمال التي لا تنفعُ إلا بالنيَّة والإخلاص.

(٥) بـــاب

فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

[٢٦١٩] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مئة مرة، لم يأت أحدٌ يوم القيامة، بأفْضَلَ مِمَّا جاء به، إلا أحدٌ قال مثل ما قال، أو زاد عليه».

رواه أحمد (٢/ ٣٠٢)، والبخاريُّ (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩٢)، والترمذيُّ (٣٤٦٦)، وابن ماجه (٣٨١٢).

[٢٦٢٠] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)، والترمذي (٣٤٦٧).

[٢٦٢١] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أقولَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشَّمْسُ».

رواه مسلم (٢٦٩٥)، والترمذيُّ (٣٥٩٧).

و (قوله: «لأن أقولَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمس») أي: من أن تكون له الدنيا بكلِّيتها، فيحتمل أن يكون هذا على جهة الإغياء على طريقة العرب في ذلك. ويحتمل أن يكون معنى ذلك:

[٢٦٢٢] وعن سعدِ بن أبي وقاصٍ، قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال: علِّمني كلاماً أقوله! قال: «قل: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحانَ اللَّهِ ربِّ العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم». قال: فهؤلاء لربِّي، فما لي؟ قال: قل: «اللهم اغفرْ لي، وارْحمني، واهْدِني، وارزقني». وزاد من حديث أبي مالكٍ الأشجعيِّ: «وعافني»، ويجمع أصابعه إلى الإبهام. قال:

أن تلك الأذكارَ أحبُّ إليه من أن تكون له الدنيا فينفقها في سبيل الله، وفي أوجه البرِّ والخير، وإلا فالدنيا من حيث هي دنيا لا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة، وكذلك هي عند أنبيائه، وأهل معرفته، فكيف تكون أحبّ إليه من ذكر أسماء الله وصفاته، التي يحصلُ بها ذلك الثواب العظيم، والحظ الجزيل؟.

و(قوله: «الله أكبر كبيراً») نصب كبيراً على أنه مفعول بفعلٍ مضمرٍ تقديره: أكبر كبيراً، هذا قولُ بعض النحويين.

و (قوله: «والحمد لله كثيراً») نصب كثيراً على: أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ. كأنه قال: والحمد لله حمداً كثيراً.

و (قوله: فهؤلاء لربي) أي: هؤلاء الكلمات هي حق الله تعالى؛ إذ هي أوصافُه. فما لي؟ أي: فما الذي أذكره لحقِّي وحظِّي؟ فدلَّه ﷺ على دعاءٍ يشملُ له مصالح الدنيا والآخرة، فقال: قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني» أي: اغفر لي ذنوبي السالفة، وارحمني بنعمك المتوالية، واهدني إلى السبيل الموصل إليك، وارزقني ما أستعين به على ذلك، ويغنيني عن غيرك، وعافني عما ينقض لي شيئاً أو ينقصه.

و (قوله: ويجمعُ بين أصابعه) أي: عند الكلمات المدعو بها عليك، تمكيناً لها في النفس، وضبطاً لها في الحفظ.

«فإنَّ هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك».

رواه أحمد (١/ ١٨٥)، ومسلم (٢٦٩٦).

[٢٦٢٣] وعن سعدِ بن أبي وقاصٍ، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «أَيَعْجِزُ أحدُكم أن يَكْسِبَ كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ؟»، فسأله سائلٌ مِنْ جلسائه: كيف يكسِبُ أحدُنا ألف حسنة؟! قال: «يُسَبِّحُ مئة تسبيحةٍ، فيُكْتَبُ له ألفُ حسنةٍ، أو يُحَطُّ عنه ألفُ خطيئةٍ».

رواه أحمد (١/ ١٨٥)، ومسلم (٢٦٩٨)، والترمذيُّ (٣٤٦٣).

* * *

و (قوله: «فإن هؤلاء تجمع دنياك وآخرتك») أي: هذه الدعوات تجمعُ لك خيرات الدَّارين، وتكفيك شرورهما.

و (قوله: «يكتب اللَّهُ له ألف حسنةٍ أو يحطُّ) كذا وقع هذا اللفظُ في بعض النسخ بألف قبل الواو، وفي بعضها بإسقاط الألف، وهو صحيحٌ روايةً ومعنىً: لأن اللَّهَ قد جمع ذلك كلَّه لقائل تلك الكلمات كما تقدم، ولو صحت روايةُ الألف لحملت على المذهب الكوفي في أن (أو) تكون بمعنى الواو.

* * *

(٦) بـــاب
يذكر الله تعالى بوقار وتعظيم
وفضل لا حول ولا قوة إلا بالله

[٢٦٢٤] عن أبي موسى، قال: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في سفرٍ ـ وفي روايةٍ: في غزاةٍ ـ فجعل النَّاسُ يجهرون بالتكبير.

وفي روايةٍ: فجعل رجلٌ كلما علا ثَنِيَّةً نادى: لا إله إلا اللَّهُ والله أكبر، فقال النَّبيُّ ﷺ: «يا أيُّها النَّاسُ اربَعُوا على أَنْفُسِكُم؛ إنَّكُم لستم تدعون أصَمَّ، ولا غائباً، إنَّكُم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم». قال: وأنا خَلْفَهُ؛ وأنا أقول: لا حول ولا قوَّة إلا بالله. فقال: «يا عبدَ اللَّهِ بنَ قيسٍ! ألا أدلُّك على كنز مِنْ كنوز الجنَّة؟»، فقلت: بلى يا رسول الله! قال: «قل: لا حول ولا قوَّة إلا بالله».

[(٦) ومن بـــاب: يذكر الله تعالى بوقار وتعظيم
وفضل لا حول ولا قوة إلا بالله][١]

(قوله ﷺ: «أيها الناسُ اربعوا على أنفسكم، إنكم لستم تدعون أصمَّ ولا غائباً») أي: ارفقوا. يقال: ربع الرجلُ يربع: إذا وقف وتحبَّس، ومنه قولهم: اربع على ضلعك، أي: ارفق بنفسك. وإنما قال: «لستم تدعون أصمَّ ولا غائباً» لأنهم رَفَعُوا أصواتهم كما تُرفع لمن كان أصمَّ، أو غائباً. ثم قال: «تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم». ثم مثَّل لهم بما بين أيديهم فيما يُحِسُّونه ويدركونه، فقال: «تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عُنِق راحلته؟» فهذه معيَّةٌ وقربٌ بالاطلاع والمشاهدة، لا بالمكان والزمان.

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

وفي روايةٍ: «والذي تدعونه أقربُ إلى أحدِكم من عُنُقِ راحلةِ أحدِكمْ».

رواه أحمد (٤/ ٣٩٤)، والبخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤) (٤٤ ـ ٤٦).

* * *

(٧) بـــاب
تجديد الاستغفار والتوبة في اليوم مئة مرة

[٢٦٢٥] عن الأغرِّ المزني ـ وكانت له صُحْبَةٌ ـ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّه لَيُغَانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله في اليوم مئةَ مرةٍ».

رواه أحمد (٤/ ٢٦٠)، ومسلم (٢٧٠٢) (٤١)، وأبو داود (١٥١٥).

[(٧) ومن بـــاب: تجديد التوبة والاستغفار في اليوم مئة مرة][(١)]

سببُ استغفار النبي ﷺ

(قوله: «إنه ليُغانّ على قلبي وإني لأستغفرُ الله في اليوم مئة مرة») ليُغان: ليغطَّى، والغَيْنُ: التغطية، ومنه يُقال للغيم: الغين، لأنه يُغطِّي. ولا يُظنُّ أن أحداً قالَ إن قلب النبي ﷺ تأثَّر بسبب ذنب وقع منه بغيْنٍ أو ريْنٍ، أو طُبع عليه، فإنَّ من جوّز الصغائر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يقلْ إنها إذا وقعت منهم أثّرت في قلوبهم كما تُؤثِّر الذنوبُ في قلوب العُصاة، بل: هم مغفور لهم ومُكرَّمون، وغير مُؤاخذينَ بشيء من ذلك، فثبتَ بهذا أن ذلك الغينَ ليس هو بسبب ذنبٍ، ولكن اختلفوا في ذلك الغَيْن. فقالت طائفةٌ: إنه عبارة عن فتراتٍ وغفلاتٍ عن

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

[٢٦٢٦] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها النَّاس توبوا إلى الله، ....

الذكر الذي كان دأبَه، فكان يستغفرُ الله من تلك الفتراتِ[1]، وقيل: كان ذلك بسبب ما اطَّلَع عليه من أحوال أُمَّته. وما يكون منها بعدَه، فكان يستغفرُ اللَّهَ لهم. وقيل: كان ذلك لما يشغله من النظر في أمور أُمَّته ومصالحهم، ومحاربة عدوِّه عن عظيم مقامه، فكان يرى أن ذلك ـ وإن كان من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال ـ نزولٌ عن علوِّ درجاته ورفعة مقامه، فيستغفرُ ربَّه من ذلك، وقيل: كان ذلك حال خشية وإعظامٍ لله تعالى. والاستغفارُ الذي صدرَ منه لم يكن لأجل ذلك الغَيْن بل للقيام بالعبادة، ألا ترى قولَه في الحديث: «إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللَّهَ» فأخبرَ بأمرين مستأنفين ليس أحدُهما معلَّقاً على آخر. وقال بعضُ أرباب الإشارات: إن النبيَّ ﷺ كان دائمَ الترقي في المقامات سريعَ التَّنقُّل في المنازلات، فكان إذا ترقَّى من مقام إلى غيره اطَّلع على المنتقل عنه، فظهرَ له: أنه نقصٌ بالنسبة إلى المنتقل إليه، فكان يستغفرُ الله من الأوَّل ويتوبُ منه. كما قال في الحديث: وقد أشار الجُنيد ـ رحمه الله ـ إلى هذا بقوله: حسناتُ الأبرار سيئات المُقرَّبين، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «يا أيُّها النَّاسُ! توبوا إلى الله») أمر على جهة الوجوب، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، وكما قال تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] ولا خلافَ أنها واجبة على كلِّ من أذنبَ، وهي في اللغة: الرجوع. يُقال: تاب وثابَ وأثابَ وأنابَ وآب، بمعنى: رجع. وهي في الشرع: الرجوعُ عما هو مذمومٌ في الشرع إلى ما هو محمود فيه، وسيأتي استيفاء الكلام فيها في الرقائق ـ إن شاء الله تعالى ـ.

معنى التوبة لغة وشرعاً

(١) في (ز): الغمرات.

فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرةٍ».

رواه أحمد (٤/ ٢٦٠)، ومسلم (٢٧٠٢) (٤٢).

* * *

استدامة التوبة وتجديدها

و (قوله: «فإني أتوبُ إلى الله في اليوم مئة مرَّة») هذا يدلُّ على استدامة التوبة، وأن الإنسانَ مهما ذكرَ ذنبَه جدَّد التوبةَ؛ لأنه من حصول الذنب على يقين، ومن الخروج عن عقوبته على شكٍّ، فحقٌّ التائب أن يجعلَ ذنبَه نُصب عينيه، وينوحَ دائماً عليه، حتى يتحقَّقَ أنه قد غُفر له ذنبُه، ولا يتحقَّقُ أمثالنا ذلك إلا بلقاء الله تعالى، فواجبٌ عليه ملازمةَ الخوف من الله تعالى، والرجوعَ إلى الله بالندم على ما فعلَ، وبالعزم على ألَّا يعودَ إليه، والإقلاع عنه. ثم لو قدَّرنا أنه تحقَّق أنه غُفر له ذلك الذنب تعيَّنت عليه وظيفة الشكر، كما قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[1]. وإنَّما أخبرَ النبيُّ ﷺ بأنَّه يُكرِّر توبتَه كلَّ يوم مع كونِه مغفوراً له، ليُلحِقَ به غيرُه نفسَه بطريق الأولى؛ لأن غيره يقول: إذا كانت حال من تحقَّق مغفرة ذنوبه هكذا، كانت حال من هو من ذلك في شك أحرى، وأولى، وكذلك القولُ في الاستغفار والتوبة يقتضي شيئاً يُتاب منه؛ إلا أن ذلك منقسمٌ بحسب حال من صدرَ منه ذلك الشيء، فتوبة العوامّ من السيئات، وتوبة الخواصّ من الغفلات، وتوبة خواصّ الخواصّ من الالتفات إلى الحسنات، هكذا قاله بعضُ أرباب القلوب، وهو كلامٌ حسن في نفسه، بالغٌ في فنِّه.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١١٥)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٨) بــاب
لِيُحقِّق الدَّاعي طِلبته وليعزمْ في دعائه

[٢٦٢٧] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولنَّ أحدُكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئت! اللهم ارحمني إن شئت! لِيَعْزِم في الدعاء؛ فإنَّ الله صانعٌ ما شاء لا مكرَه له».

---

(٨) ومن بــاب: قوله ليُحقِّق الداعي طِلْبَته وليعـزمْ في دُعائه

(قوله: «لا يقولن أحدُكم: اللهم اغفرْ لي إن شئتَ») إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدلُّ على فتور الرغبة، وقِلَّة التهمُّم بالمطلوب. وكأن هذا القول يتضمَّنُ: أن هذا المطلوب إنْ حصلَ، وإلا استغني عنه، ومن كان هذا حاله لم يُتحقَّقْ من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدُّعاء، وكان ذلك دليلاً على قِلَّة اكترائه بذنوبه، وبرحمة ربه، وأيضاً فإنه لا يكون مُوقناً بالإجابة، وقد قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ اللَّهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[1]. ثم إن النبيَّ ﷺ لم يكتفِ بالنهي عن ذلك حتى أمرَ بنقيضه فقال: «ليعزمْ في الدعاء» أي: ليجزمْ في طلبتِه، وليحقِّق رغبتَه ويتيقَّن الإجابة؛ فإنه إذا فعلَ ذلك: دلَّ على علمه بعظيم قدر ما يطلبُ من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقرٌ لما يطلبُ، مضطرٌ إليه، وقد وعدَ الله المُضْطرَّ بالإجابة بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

عدم تقييد الاستغفار والرحمة بالمشيئة

و (قوله: «فإنَّ الله صانعٌ ما شاءَ لا مُكرِهَ له») إظهارٌ لعدم فائدة تقييد الاستغفار والرحمة بالمشيئة؛ لأن الله تعالى لا يضطره إلى فعل شيءٍ، دعاءٌ، ولا

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٤).

رواه أحمد (٢/ ٢٤٣)، والبخاريُّ (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) (٩)، والترمذيُّ (٣٤٩٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٨٢)، وابن ماجه (٣٨٥٤).

[٢٦٢٨] ونحوه عن أنسٍ.

رواه أحمد (٣/ ١٠١)، والبخاريُّ (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

* * *

(٩) بـــاب
في أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ

[٢٦٢٩] عن أنسٍ، قال: كان أكثرُ دعوةٍ يدعو بها النَّبيُّ ﷺ يقول: «اللهمَّ آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار». قال:

غيرُه، بل يفعل ما يُريد ويحكمُ ما يشاء، ولذلك قيَّدَ الله تعالى الإجابةَ بالمشيئة في قوله: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١] فلا معنى لاشتراط مشيئته فيما هذا سبيلُه، فأما اشتراطُهـا في الإيمان فقد تقدَّم القول فيه.

(٩) ومن بـــاب: أكثر ما كانَ النبيُّ ﷺ يدعو به

إنما كان أكثرُ دعاء النبيِّ ﷺ بقوله: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة»؛ لأنها من الدعوات الجوامع التي تتضمن خيرَ الدنيا والآخرة وذلك أنَّ حسنةً نكرة في سياق الطلب، فكانت عامَّة، فكأنه يقول: أعطني كلَّ حالة حسنة في الدنيا والآخرة. وقد اختلفت أقوال المفسرين في الآية اختلافاً يدلُّ على عدم التوقيف، وعلى قلة التأمُّل لموضع الكلمات، فقيل: الحسنة في الدنيا هي: العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة، وقيل: العافية والعاقبة. وقيل: المال وحسن المآل،

وكان أنسٌ إذا أراد أن يدعو بدعوةٍ دعا بها، فإذا أراد أن يدعوَ بدعاء، دعا بها فيه.

رواه أحمد (٣/ ٢٠٨)، ومسلم (٢٦٩٠) (٢٦)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٥٤).

[٢٦٣٠] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ عادَ رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مثل الفَرْخ، فقال رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيءٍ أو تسأله إياه؟!» قال: نعم. كنتُ أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجِّله لي في الدنيا! فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه ـ أو: لا تستطيعه ـ أفلا قلت: اللهمّ آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النَّار».

وفي روايةٍ: فدعا الله له، فشفاه.

رواه أحمد (٣/ ١٠٧)، ومسلم (٢٦٨٨) (٢٣)، والترمذيُّ (٣٤٨٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٥٣).

* * *

وقيل: المرأة الصالحة والحور العين، والصحيح: الحمل على العموم، والله أعلم.

و (قوله: إنه ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ حتى صارَ مثل الفرخ) أي: ضَعُفَ ونحلَ في جسمه، وخفي كلامُه، وتشبيهه له بالفرخ: يدلُّ على أنه تناثر أكثرُ شعره، ويُحتمل أن يكونَ شبَّهه به لضعفه، والأوَّل أوقع في التشبيه. ومعلومٌ أن مثلَ هذا المرض لا يبقى معه شعر ولا قوَّة.

عذاب الآخرة لا يطيقه أحد

و (قوله ﷺ: «سبحان الله! لا تُطيقه») يعني أن عذابَ الآخرة لا يُطيقه أحدٌ

(١٠) بـــاب

ما يدعى به وما يتعوذ منه

[٢٦٣١] عـن أبـي بكـر الصـدِّيـق، رضـي الله عنـه، أنّـه قـال لرسول الله ﷺ: علِّمْنِي دعاءً أدعو به في صلاتي ـ في روايةٍ: في بيتي ـ قال: «قل: اللهمَّ! إنِّي ظلمتُ نفسي ظلماً كبيراً». ـ وفي روايةٍ: «كثيراً» ـ

في الدنيا؛ لأن نشأة الدنيا ضعيفة لا تحتملُ العذابَ الشديدَ، والألمَ العظيمَ، بل إذا عَظُمَ عليه ذلك هلكَ ومات، فأما نشأة الآخرة فهي للبقاء، إما في نعيم، أو في عذاب، إذ لا موتَ، كما قال في حقِّ الكفار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] ـ فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة ـ ثم إن النبيَّ ﷺ أرشدَه إلى أحسنِ ما يُقال؛ وهو قوله: «آتنا في الدُّنيا حسنة».

(١٠) ومن بـــاب: ما يُدْعَى به وما يتعوَّذ منه

(قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي) إنما خصَّ الصلاة؛ لأنها بالإجابة أجدر، وقد قال ﷺ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء»[١]. وقد تقدَّم: أن الظلم: وَضْعُ الشيء في غير موضعه، وظلمُ الإنسان لنفسه: هو تركُها مع هواها حتى يصدرَ عنها من المعاصي ما يوجبُ عقوبتها. وغفران الذنوب: هو سترها بالتوبة منها، أو بالعفو عنها.

و (قوله: «فاغفرْ لي مغفرةً من عندك») أي: تفضُّلاً من عندك، وإن لم أكن لها أهلاً، وإلا فالمغفرةُ، والرحمة، وكلُّ شيءٍ من عنده تعالى. وقد أكَّد ذلك قولُه: «وارحمني إنك أنت الغفورُ الرحيم» أي: لأنك الكثيرُ المغفرة والرحمة،

حُكْـم السجع في الدعاء

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، والنسائي (٢/ ٢٢٦).

ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني؛ إنَّك أنت الغفور الرحيم».

رواه أحمد (١/ ٣)، والبخاريُّ (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) (٤٨)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وابن ماجه (٣٨٣٥).

[٢٦٣٢] وعن عائشة، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهمَّ! إنِّي أعوذ بك من فتنة النَّار، وعذاب النَّار، وفتنةِ القبر، وعذابِ القبر، ومن شرِّ فتنة الغنى، ومن شرِّ فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنةِ

لا لأني أستحقّ ذلك، وقد استحبَّ بعضُ العلماء أن يُدعى بهذا الدعاء في الصلاة قبل التسليم، والصلاة كلُّها عند علمائنا محلٌّ للدعاء، غير أنه يُكره الدعاء في الركوع، وأقربه للإجابة: السجود، كما قلناه. وقد قدَّمنا: أنه يجوزُ أن يدعى في الصلاة بكل دعاء كان بألفاظ القرآن، أو بألفاظ السُّنَّة، أو غيرها خلافاً لمن منع ذلك إذا كان بألفاظ الناس، وهو أحمد بن حنبل وأبو حنيفة.

و (قوله: «اللهم إنِّي أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب القبر») الفتنة هنا: هي ضلالُ أهل النار المفضي بهم إلى عذاب النار. وفتنةُ القبر: هي الضلالُ عن صواب إجابة الملكين فيه، وهما: منكر ونكير ـ كما تقدَّم ـ. وعذاب القبر: هو ضربُ مَن لم يوفّق للجواب بمطارق الحديد، وتعذيبه إلى يوم القيامة. وشرُّ فتنة الغِنى: هي الحرصُ على الجمع للمال، وحبّه حتى يكتسبه من غير حِلِّه، ويمنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه. وشر فتنة الفقر: يعني به: الفقر المدقع الذي لا يصحبه صبر ولا ورع، حتى يتورَّط صاحبُه بسببه فيما لا يليقُ بأهل الأديان، ولا بأهل المروءات، حتى لا يبالي بسبب فاقته على أي حرامٍ وثب، ولا في أي ركاكة تورَّط، وقيل: المرادُ به فقر النفس الذي لا يردّه ملك الدنيا بحذافيرها. وليس في شيءٍ من هذه الأحاديث ما يدلُّ على أنَّ الغِنى أفضلُ من الفقر، ولا أن الفقرَ أفضلُ

المسيح الدَّجال، اللهُمَّ! اغسل خطاياي بماء الثَّلج والبَرَدِ، ونقِّ قلبي من الخطايا؛ كما نقَّيْتَ الثوبَ الأبيضَ من الدَّنسِ، وباعِدْ بيني وبين خطايايَ، كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهُمَّ! فإنِّي أعوذ بك من الكسل، والهَرَمِ، والمأثم، والمغرم».

رواه أحمد (٦/ ٨٨)، والبخاريُّ (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩) في كتاب الذكر (٤٩)، والترمذيُّ (٣٤٩٥)، وابن ماجه (٣٨٣٨).

[٢٦٣٣] وعن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم! إنِّي أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والهرم، والبخل». ـ وفي روايةٍ: «وأرذل العمر وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات».

رواه أحمد (٣/ ١١٣)، والبخاريُّ (٦٣٦٩)، ومسلم (٢٧٠٦) (٥٠ و ٥٢)، والنسائي (٨/ ٢٥٨).

من الغنى؛ لأن الغِنى والفقر المذكورين هنا مذمومان باتفاق العقلاء. وقد تكلَّمنا على مسألة التفضيل فيما تقدَّم.

والكسل المتعوَّذ منه هو التثاقل عن الطاعات، وعن السعي في تحصيل المصالح الدِّينية والدُّنيوية. والعجز المتعوَّذ منه: هو عدمُ القدرة على تلك الأمور. والهرم المتعوَّذ منه: هو المعبَّر عنه في الحديث الآخر: بأرذل العمر، وهو: ضَعْف القوى، واختلال الحواس والعقل الذي يعودُ الكبير بسببه إلى أسوأ من حال الصغير، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يسٓ: ٦٨].

[٢٦٣٤] وعن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتَعوذ من سوء القضاء، ومن دَرَكِ الشَّقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جَهْدِ البلاء. قال سفيان بن عيينة: أشكُّ أنّي زدت واحدةً منها.

رواه أحمد (٢/ ٢٤٦)، والبخاريُّ (٦٦١٦)، ومسلم (٢٧٠٧)، والنسائيُّ (٨/ ٢٦٩).

* * *

و (قوله: كان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء) يُروى بفتح الراء وبإسكانها، فبالفتح: الاسم، وبالإسكان: المصدر، وهما متقاربان، والمتعوَّذ منه: أن يَلْحَقَه شقاءٌ في الدنيا يُتعبه[1]، ويثقله، وفي الآخرة: يعذبه. وجهد البلاء: يروى بفتح الجيم وضمها. قال ابنُ دريد: هما لُغتان بمعنى واحدٍ، وهو: التعب والمشقة، وقال غيره ـ وهو نفطويه ـ بالضم: وهو الوسع والطاقة، وبالفتح: المبالغة والغاية. وروي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: جهدُ البلاء: قلَّة المال، وكثرة العيال. وشماتة الأعداء: هي ظفرهم به، أو فرحهم بما يلحقه من الضرر والمصائب. وقد جاء هذا الدُّعاءُ مسجعاً ـ كما ترى الآن ـ، ذلك السَّجع لم يكن متكلَّفاً، وإنما يُكره من ذلك ما كان مُتكلَّفاً ـ كما تقدَّم ـ. وإنما دعا النبيُّ ﷺ بهذه الدعوات، وتعوَّذ بهذه التعوذات إظهاراً للعبودية، وبياناً للمشروعية؛ ليُقْتَدى بدعواته ـ ويُتَعَوَّذ بتعويذاته ـ، والله أعلم.

* * *

(١) في (ز): يعميه.

(١١) بـــاب
ما يقول إذا نزل مَنْزِلاً وإذا أمسى

[٢٦٣٥] عن خولةَ بنتِ حكيمِ السُّلَميَّةِ، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نزل مَنْزِلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامَّاتِ من شرِّ ما خلق؛ لم يَضُرَّهُ شيءٌ حتى يرتحلَ من منزله ذلك».

وفي روايةٍ: قال عليه الصلاة والسلام: «إذا نزل أحدُكم مَنْزِلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق...» وذكره.

رواه أحمد (٦/ ٣٧٧)، ومسلم (٢٧٠٨)، والترمذيُّ (٣٤٣٧).

---

(١١) ومن بـــاب: ما يقول إذا نزل منزلاً وعند النوم

(قوله: «إذا نزل أحدُكم مَنْزِلاً، فليقل: أعوذُ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خَلَق») قيلَ معناه: الكاملات اللاتي لا يَلْحقها نقص، ولا عيب، كما يلحقُ كلام البشر. وقيل معناه: الشافية الكافية. وقيل: الكلمات ـ هنا ـ هي: القرآنُ؛ فإن اللَّهَ تعالى قد أخبر عنه بأنه هُدى وشِفاء، وهذا الأمرُ على جهة الإرشاد إلى ما يُدْفَعُ به الأذى، ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى، والتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه، المرغَّب فيه. وعلى هذا فحقُّ المتعوِّذ بالله تعالى، وبأسمائه وصفاته أن يصدقَ اللَّهَ في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويُحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه.

ما يجب على المتعوِّذ بالله

و (قوله: «فإنه لا يضرُّه شيءٌ حتى يرتحلَ منه») هذا خبرٌ صحيح، وقولٌ صادق علمنا صدقَه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعتُ هذا الخبر عملتُ عليه، فلم يضرَّني شيءٌ إلى أن تركته، فلدغتني عقربٌ بالمهدية ليلاً، فتفكرتُ في نفسي، فإذا بي قد نسيتُ أن أتعوَّذَ بتلك الكلمات، فقلت لنفسي ـ ذاماً لها وموبِّخاً ـ ما قاله ﷺ

[٢٦٣٦] وعن أبي هريرة، قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيت من عقربٍ لدغتني البارحة! قال: «أَمَا لو قلتَ حينَ أمسيْتَ: أعوذُ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق؛ لم تَضُرَّك».

رواه أحمد (٢/ ٣٧٥)، ومسلم (٢٧٠٩).

* * *

(١٢) بـــاب
ما يقول عند النوم
وأخذ المضجع وما بعد ذلك

[٢٦٣٧] عن البراء بن عازبٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا أخذْتَ مَضْجَعَكَ فتوضَّأْ وضوءكَ للصَّلاة، ثم اضطجِعْ على شِقِّك الأيمنِ، ثم

للرجل الملدوغ: «أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق. لم تضرك».

[(١٢) ومن بـــاب: ما يقول عند النوم
وأخذ المضجع وما بعد ذلك][1]

(قوله: «إذا أخذتَ مضجعك، فتوضَّأ وضوءك للصَّلاة، ثم اضطجعْ على شِقِّك الأيمن») هذا الأمرُ على جهة النَّدب؛ لأنَّ النومَ وفاة، وربما يكون موتاً، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]، ولما كان الموتُ

---

(١) هذا العنوان لم يرد في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

قـل: اللهم! إني أسلمتُ وجهي إليكَ، وفوضْتُ أمري إليكَ، وألجأت ظهري إليك؛ رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت

كذلك نَدَب النبيُّ ﷺ النائمَ إلى أن يستعدَّ للموت بالطَّهارة، والاضطجاع على اليمين، على الهيئة التي يُوضَعُ عليها في قبره. وقيل: الحكمةُ في الاضطجاع على اليمين، أن يتعلَّق القلبُ إلى الجانب الأيمن، فلا يثقلُ النومُ، وفيه دليلٌ على: أنَّ النومَ على طهارة كاملة أفضل، ويتأكَّد الأمرُ في حقِّ الجُنُب، غير أن الشرعَ قد جعل وضوءَ الجنب عند النوم بدلاً من غُسْله تخفيفاً عنه، وإلا فذلك الأصل يقتضي: ألَّا ينامَ حتى يغتسل. وقد تقدَّم القولُ في الأمر في حقِّ الجُنُب عند النوم والطهارة.

فَضْـل النـوم على طهارة

و (قوله: «قل: اللهم إني أسلمتُ وجهي إليك»، وفي رواية: «نفسي» بدل: «وجهي») وكلاهما بمعنى: الذات والشَّخص. فكأنه قال: أسلمتُ ذاتي وشخصي. وقد قيل: إنَّ معنى الوجه: القصد، والعمل الصَّالح، ولذلك جاء في روايةٍ: «أسلمت نفسي إليك، ووجهتُ وجهي إليك» فجمع بينهما، فدلَّ ذلك على أنهما أمران مُتغايران كما قُلناه. ومعنى أسلمتُ: سلَّمت، واستسلمت، أي: سلَّمتُها لك؛ إذ لا قدرةَ لي على تدبيرها، ولا على جَلْب ما ينفعها، ولا على دَفْع ما يضرُّها، بل: أَمْرُها إليكَ مُسلَّمٌ تفعلُ فيها ما تريـد، واستسلمتُ لما تفعلُ فيها، فلا اعتراضَ على ما تفعل، ولا مُعارضة.

معنى: أسلمت نفسي إليك

و (قوله: «وفوضتُ أمري إليك») أي: توكَّلتُ عليك في أمري كلِّه؛ لتكفيني همَّه، وتتولَّى إصلاحَه.

و (قوله: «وألجأتُ ظهري إليك») أي: أسندتُه إليك لتقوِّيه وتعينه على ما ينفعني؛ لأنَّ من استند إلى شيءٍ تقوَّى به، واستعان.

و (قوله: «رغبة ورهبة إليك») أي: طمعاً في رفدك وثوابك، وخوفاً منك، ومن أليم عقابك.

بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، واجعلهن من آخر كلامك فإنْ متَّ من ليلتك؛ مُتَّ وأنت على الفطرة».

وفي روايةٍ: «وإنْ أصبحتَ أصبْتَ خيراً».

قال: فردَّدْتُهُنَّ لأَسْتَذْكِرَهُنَّ، فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت، قال: «قل آمنت بنبيك الذي أرسلت».

رواه أحمد (٤/ ٢٩٠)، والبخاريّ (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠) (٥٦ و ٥٨)، وأبو داود (٥٠٤٧).

و (قوله: «فإن متَّ متَّ على الفطرة») أي: على دِيْن الإسلام، كما قال في الحديث الآخر: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»[1].

ارتباط التوحيد بالعمل

قلتُ: هكذا قال الشيوخ في هذا الحديث، وفيه نظر؛ لأنه: إذا كان قائل هذه الكلمات المقتضية للمعاني التي ذكرناها من التوحيد، والتسليم، والرضا إلى أن يموتَ على الفطرة، كما يموتُ من قال: لا إله إلا الله، ولم يخطر له شيء من تلك الأمور، فأين فائدة تلك الكلمات العظيمة، وتلك المقامات الشريفة؟. فالجواب: أن كلّاً منهما ـ وإن مات على فطرة الإسلام ـ فبين الفطرتين ما بين الحالتين، ففطرة الطائفة الأولى: فطرة المقرَّبين والصِّدِّيقين، وفطرة الثانية: فطرة أصحاب اليمين.

و (قوله: «وإن أصبحتَ أصبتَ خيراً») أي: صلاحاً في ذلك وزيادة في أجرك، وأعمالك.

و (قوله: «قل: آمنتُ بنبيِّكَ الذي أرسلتَ») هذا حجَّة لمن لم يُجز نقل الحديث بالمعنى، وهو الصحيحُ من مذهب مالك، وقد ذكرنا الخلافَ فيه، ولا

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣، ٢٤٧)، وأبو داود (٣١١٦).

[٢٦٣٨] وعنه؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أخذ مَضْجَعَهُ قال: «اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت»، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا

معنى النبي والرسول

شكَّ في أن لفظ النبوة من النبأ، وهو الخبر، فالنبيُّ في العُرْف: هو المنبَّأ من جهة الله تعالى لأمر يقتضي تكليفاً، فإن أُمرَ بتبليغه إلى غيره فهو رسول، وإلا فهو نبيٌّ غيرُ رسول. وعلى هذا فكلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً؛ لأنَّ الرسولَ والنبيَّ قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ، وافترقا في أمرٍ خاص[1] وهو الرسالة، فإذا قلتَ: محمّد رسولُ الله، تضمَّن ذلك أنه نبيٌّ رسولٌ، فلما اجتمعا في النبيِّ ﷺ أرادَ أن يجمعَ بينهما في اللفظ حتى يُفْهَم من كل واحد منهما من حيث النطق ما وُضع له، وأيضاً فليخرجْ عما يُشبه تكرار اللفظ من غير فائدة؛ لأنه إذا قال: ورسولِكَ، فقد فهم منه أنه أرسلَه، فإذا قال الذي أرسلتَ صار كالحشو الذي لا فائدة له، بخلاف نبيِّك الذي أرسلتَ، فإنهما لا تكرار فيهما لا مُحقَّقاً ولا مُتوهَّماً. والله تعالى أعلم.

و (قوله: «اللهم باسمك أحيا، وباسمِكَ أموتُ») أي: بكَ يكون ذلك، فالاسم هنا: هو المسمَّى، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، أي: سبِّح ربَّك. هذا قول الشارحين.

قلــتُ: وقد استفدتُ فيه من بعض مشايخنا معنى آخر وهو: أنه يحتملُ أنه يعني باسمِك المُحيي المميت من أسمائه تعالى، ومعنى ذلك: أن الله تعالى إنما سمَّى نفسَه بأسمائه الحسنى؛ لأن معانيها ثابتةٌ في حقِّه وواجبةٌ له، فكلُّ ما ظهرَ في الوجود من الآثار إنما هي صادرة عن تلك المقتضيات، فكلُّ إحياء في الدنيا والآخرة: إنما هو صادرٌ عن قدرته على الإحياء، وكذلك القول في الإماتة، وفي الرحمة والملك، وغير ذلك من المعاني التي تدلُّ عليها أسماؤه، فكأنه قال:

---

(١) زيادة من (ز).

بعدما أماتنا وإليه النُّشُور».

رواه أحمد (٤/ ٣٠٢)، ومسلم (٢٧١١).

[٢٦٣٩] وعن عبد الله بن الحارث يحدث عن عبد الله بن عمر: أنَّه أمر رجلاً إذا أخذ مضجعه قال: «اللهُمَّ! خَلَقْتَ نفسي وأنت توفَّاها، لك مماتُها ومحياها، إنْ أَحْيَيْتَها فاحفَظْها، وإن أمتَّها فاغفرْ لها، اللهم! أسألك العافية». فقال له رجل: سمعت هذا من عمر؟ قال: مِنْ خيرٍ مِنْ عُمَرَ، مِنْ رسول الله ﷺ.

رواه مسلم (٢٧١٢)).

[٢٦٤٠] وعن أبي هريرة، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يأمرُنَا إذا أخذنا مَضْجَعنا أنْ نقول: «اللهم! ربَّ السَّمـوات، وربَّ الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا، وربَّ كلِّ شيء، فالقَ الحبِّ والنوى، ومنزلَ التوراة

باسمك المحيـي أحيا، وباسمك المميت أموت، وكذلك القول في سائر الأسماء الدَّالَّة على المعاني. وبسط ذلك يستدعي تطويلاً، وفيما ذكرناه تنبيه يكتفي به النَّبيه.

و (قوله: «وإليك النشور») أي: المرجع بعد الإحياء. يقال: نشر الله الموتى فنُشروا، أي: أحياهم فحَيُوا، وخرجوا من قبورهم منتشرين، أي: جماعات في تفرقة، كما قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

و (قوله: «لك مماتها ومحياها») أي: موتها وحياتها، أي: ذلك لك وحدكَ لا لغيرك.

و (قوله: «فالقَ الحَبِّ والنَّوى») أي: شاقَّ الحبَّة، فيُخْرِجُ منها سنبلةً، والنواة: فيخرجُ منها نخلةً. ومنه القَسَم المشهور عن عليٍّ: والذي فلقَ الحبَّة، وبرأ النَّسَمة، أي: شقَّها.

والإنجيل والفرقانَ؛ أعوذُ بك من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ أنت آخذٌ بناصيته. اللهم! أنت الأول فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخرُ فليس بعدكَ شيءٌ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطنُ فليس دونك شيءٌ؛ اقض عنا الدَّيْنَ، وأَغْنِنَا من الفقر».

رواه أحمد (٢/ ٣٨١)، ومسلم (٢٧١٣) (٦٢)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذيّ (٣٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٨٣).

و (قول الرجل لابن عمر: سمعتَ من ابن عمر؟ فقال: من خيرٍ من ابن عمر) هكذا رواه السمرقندي بزيادة ابن في الموضعين، وهو وهم؛ لأن القائل: سمعتُ من خيرٍ من عمر، هو ابنُ عمر لا عمر، وكذلك رواية الجماعة، وهو الصحيحُ.

وأصلُ ربٍّ: اسم فاعل من ربَّ الشيء يربُّه: إذا أصلحَه، وقام عليه، ثم إنه يُقال: على السَّيِّد والمالك.

و (قوله: «أنت الأوَّل فليس قبلك شيء... الحديث إلى آخره») تضمَّن هذا الدعاء من أسماء الله تعالى ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقد اختلفت عبارات العلماء في ذلك، وأرشق عباراتهم في ذلك قول من قال: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب. وقيل: الأول بالإبداء، والآخر بالإفناء، والظاهر بالآيات، والباطن عن الإدراكات. وقيل: الأول: القديم، والآخر: الباقي، والظاهر: الغالب، والباطن: الخفيّ اللطيف، الرفيق بالخلق. وهذا القول يُناسب الحديث، وهو بمعناه.

و (قوله: «فليس فوقكَ شيء») أي: لا يقهرُك شيءٌ.

و (قوله: «فليس دونَك شيء») أي: لا شيءَ ألطفُ منك، ولا أرفق.

[٢٦٤١] وعنه؛ قال: أَتَتْ فاطمة النَّبيَّ ﷺ تسأله خادماً فقال لها: «قولي: اللهم! ربَّ السَّمـواتِ السَّبع. . .» بمثل ما تقدم.

وفي روايةٍ: كان يأمرنا إذا أراد أحدُنا أن ينام أنْ يضطجع على شِقِّه الأيمنِ، ثم يقول: اللهم. . .» كما تقدَّم.

رواه مسلم (٢٧١٣) (٦١ و ٦٣).

[٢٦٤٢] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا أوى أحدُكم إلى فراشه فليأخُذْ داخلةَ إزارِه فَلْيَنْفُضْ بها فراشَه، وليسمِّ الله؛ فإنَّه لا يعلم ما خَلَفَه بعده على فراشه؛ فإذا أراد أن يضطجع فَلْيَضْطَجِعْ على شِقِّه الأيمنِ،

و (قوله: «إذا أوى أحدُكم إلى فراشه») أي: انضمَّ. قال الأزهري: آوى وأوى بمعنًى واحدٍ، لازمٌ ومتعدٌّ، وفي الصحاح عن أبي زيد: آويته أنا إيواءً وأَوَيْتُه: إذا أنزلتُه بك. فعلتُ وأفعلتُ بمعنى. فأما أويتُ له، بمعنى رثيت له، فبالقصر لا غير. قال ذو الرُّمة:

. . . . وَلَوْ أَنِّي اسْتَأْوَيْتُهُ مَا أَوَى لِيَا[1]

و (قوله: «فليأخذْ داخلةَ إزارِه فلينفضْ بها فراشَه، وليسمِّ اللَّهَ، فإنه لا يعلمُ ما خلفَه بعدَه على فراشه») داخلة الإزار: هي ما يلي الجسد من طَرَفَيّ الإزار.

من حِكَم نَفْض الفراش قبل النوم

قلـتُ: هذا الحديث يتضمَّن الإرشاد إلى مصلحتين: إحداهما معلومـةٌ ظاهرة وهي: أن الإنسانَ إذا قام عن فراشه لا يدري ما دَبَّ عليه بعدَه من الحيوانات ذوات السُّموم، فينبغي له إذا أرادَ أن ينام عليه أن يتفقَّده، ويمسحَه، لإمكان أن يكونَ فيه شيءٌ يخفى من رطوبة أو غيرها، فهذه مصلحة ظاهرة، وأما

---

(١) هذا عجز بيت، وصدره:

على أَمرِ من لم يَشوِني ضَرُّ أَمْره

وليقلْ: سبحانك ربي! لك وضعت جنبي، وبك أرفعه. إنْ أمسَكْتَ نفسي فاغفرْ لها، وإنْ أرسلتها فاحفظْها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وفي روايةٍ: ثُمَّ لْيَقُلْ: «باسمِكَ ربي وضعتُ جنبي فإنْ أحييتَ نَفْسِي فارْحَمْها».

رواه البخاريُّ (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤)، وأبو داود (٥٠٥٠)، والترمذيّ (٣٤٠١).

[٢٦٤٣] وعن ثابتٍ عن أنسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ إذا أوى إلى

اختصاص هذا النفض بداخلة الإزار فمصلحة لم تظهر لنا، بل: إنما ظهرتْ تلك للنبيِّ ﷺ بنور النُّبوة، وإنما الذي علينا نحن الامتثالُ. ويقع لي: أن النبيَّ ﷺ علم فيه خاصيَّة طبيّة تنفعُ من ضرر بعض الحيوانات كما قد أمرَ بذلك في حقِّ العائن كما تقدَّم. والله تعالى أعلم. ويدلُّ على ذلك ما زاده الترمذيُّ في هذا الحديث: «فليأخذْ صَنِفَةَ إزاره، فلينفضْ بها فراشَه ثلاثاً»[1]. فحذا بها حذوَ تكرار الرُّقى.

و (قوله: «لكَ وضعتُ جنبي، وبك أرفعُه») كذا صحَّ: لك وضعت، باللام، لا بالباء، وبك أرفعه: روي بالباء وباللاَّم، فالباء للاستعانة. أي: بك أستعينُ على وضع جنبي ورفعه. فاللاَّم يحتمل أن يكونَ معناه: لك تقرَّبت بذلك. فإنَّ نومَه إنما كانَ ليستجمَّ به لما عليه من الوظائف؛ ولأنه كان يوحى إليه في نومه، ولأنه كان يُقتدى به، فصارَ نومُه عبادة، وأما يقظته. فلا تخفى أنها كانت كلُّها عبادة، ويحتمل أن يكونَ معناه لك وضعتُ جنبي لتحفظَه، ولك رفعتُه لترحمَه.

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٠١) وهي نفس الرواية التي أشرنا إليها في التلخيص.

فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا؛ فكم مِمَّنْ لا كافيَ له ولا مُؤوِيَ».

رواه أحمد (٣/ ١٥٣)، ومسلم (٢٧١٥)، وأبو داود (٥٠٥٣)، والترمذيُّ (٣٣٩٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٣).

* * *

(١٣) بـــاب
مجموعة أدعية كان النبي ﷺ يدعو بها

[٢٦٤٤] عن عائشة، قالت: كان رسولُ الله ﷺ يقول: «اللهم! إنِّي أعوذ بك من شرِّ ما عَمِلْتُ وما لم أَعْمَلْ».

رواه أحمد (٦/ ٢٧٨)، ومسلم (٢٧١٦) (٦٦)، وأبو داود (١٥٥٠)، والنسائي (٣/ ٥٦) و (٨/ ٢٨١).

و (قوله: «فكم ممن لا كافيَ له، ولا مُؤوي») أي: كثير من الناس ممن أرادَ الله إهلاكَه، فلم يُطعمْه، ولم يسقِه، ولم يكسِه؛ إما لأنَّه أعدمَ هذه الأمورَ في حقِّه، وإما لأنه لم يُقْدِرْه على الانتفاع بها حتى هلكَ، هذا ظاهره. ويحتمل أن يكونَ معناه، فكم من أهل الجهل والكفر بالله تعالى لا يعرفُ أن له إلهاً يُطعمُه ويَسقيه، ويُؤويه، ولا يُقرُّ بذلك، فصارَ الإله في حقِّه وفي اعتقاده كأنه معدومٌ.

(١٣) ومن بـــاب: مجموع أدعية كان النبيُّ ﷺ يدعو بها

(قوله: «اللهم إنِّي أعوذُ بك من شرِّ ما عملتُ، وما لم أعمل») هذا كقوله التعوذ من شرّ في الحديث الآخر: «اللهم إني أعوذُ بك من كلِّ شر». غير أنه نبَّه في هذا على الأعمال

[٢٦٤٥] وعن ابن عباسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «اللهم! لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليكَ توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، اللهم! إنِّي أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يموت؛ والجن والإنس يموتون».

رواه أحمد (١/ ٣٠٢)، والبخاريُّ (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

[٢٦٤٦] وعن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا كان في سفرٍ فأسْحَرَ يقول: «سمَّع سامعٌ بحمد الله وحُسْنِ بلائه علينا، ....

معنى زائد، وهو أنه قد يعملُ الإنسانُ العملَ لا يقصد به إلا الخير، ويكون في باطن أمره شرٌّ لا يعلمه، فاستعاذ منه. ويؤيـد هذا أنه قد روي في غير كتاب مسلم: «من شر ما علمت، وما لم أعلم». ويحتمل أن يريدَ به ما عمل غيره، فيما يظن أنه يقتدي به فيه.

و (قوله: «وإليك أنبت») أي: تُبْت ورجعت.

و (قوله: «وبك خاصمت») أي: بإعانتك، وتعليمك، وبكلامك جادلتُ المخالفين فيك حتى خصمتهُم.

و (قوله: «والجن والإنس يموتون») إنما خصَّ هذين النوعين بالموت؛ وإن كان جميعُ الحيوان يموت؛ لأن هذين النوعين هما المكلَّفان المقصودان بالتبليغ، والله أعلم.

و(قوله: إذا كان في سفر فأسحر) أي: استيقظ في السحر، أو خرج في السحر. والسحر: آخر الليل.

و (قوله: «سمَّع سامعٌ بحمد الله وحُسْن بلائه») وجدتُه في كتاب شيخنا أبي الصبر أيوب: سَمَّع بفتح السين والميم وتشديدها. قال القاضي: أي بلغ من سمع

ربَّنا صاحِبْنا، وأفضِلْ علينا؛ عائذاً بالله من النار».

رواه مسلم (٢٧١٨)، وأبو داود (٥٠٨٦).

[٢٦٤٧] وعن أبي موسى الأشعريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم! اغفرْ لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منِّي؛ اللهم! اغفر لي جِدِّي، وهزلي، وخطئي، وعمدي ـ وكل ذلك عندي ـ؛ اللهم! اغفر لي ما قدمتُ، وما أخرتُ، وما

قولي. وقيَّده الخطابي: سَمِع سامع: بفتح السين وكسر الميم، وتخفيفها، وهكذا أذكرُ أني قرأته؛ أي: استمع سامع، وشاهد شاهد بحمدنا ربنا على نعمه.

قلـتُ: وعلى هذين التقييدين والتفسيرين فهو خبرٌ بمعنى الأمر، أي: ليسمعْ سامع وليبلِّغ، وهذا نحو قوله: «تصدق رجل بديناره، ودرهمه»[1] أي: ليتصدَّق. وجمع عليه ثيابه. أي: ليجمع، وقد تقدَّم القولُ في نحو هذا. وحسن بلائه؛ بمعنى: ابتلائه، وقد تقدَّم: أن أصلَ الابتلاء: الاختبار، وقد يكون نعمة، وقد يكون نِقمة.

و (قوله: «ربّنا صاحِبْنَا») أي: بحفظك، وكفايتك، وهدايتك.

و (قوله: عائذاً بالله من النار)، هو منصوبٌ على الحال؛ أي: أقولُ ذلك في هذه الحال.

و (قوله: «اللهم اغفرْ لي جِدِّي وهزلي، وخَطَئي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي») قد تقدَّم القولُ في عصمة الأنبياء من الذنوب، وفي معنى ذنوبهم غير مرَّة، ونزيدُ هنا نكتتين:

إحداهما: أنّا وإن قلنا: إن الذنوب تقع منهم، غير أنهم يتوقعون وقوعها،

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

أسررتُ، وما أعلنت، وما أنت أعلم به منِّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كلِّ شيءٍ قدير».

رواه أحمد (٤/ ٤١٧)، والبخاريُّ (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩).

[٢٦٤٨] وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم! أصلحْ لي ديني؛ الذي هو عصمة أمري، وأصلحْ لي دنيايَ؛ التي فيها

وأنّ ذلك ممكن، وكانوا يتخوفون من وقوع الممكن المتوقع، ويقدرونه واقعاً فيتعوَّذون منه، وعلى هذا فيكون قوله: «وكلّ ذلك عندي» أي: ممكن الوقوع عندي، ودليل صحة ذلك أنهم مُكلَّفون باجتناب المعاصي كلّها كما كلّفه غيرهم، فلولا صحةُ إمكان الوقوع لما صحَّ التكليف.

والثانية: أنّ هذه التعويذات، وهذه الدعوات والتضرعات قيامٌ بحق وظيفة العبودية، واعتراف بحقِّ الربوبية، ليقتدي بهم مذنبو أممهم، ويسلكوا مناهجَ سبلهم، فتستجاب دعوتهم، وتقبل توبتهم، والله تعالى أعلم. وقد أطنب الناسُ في ذلك، وما ذكرناه خلاصته.

أسماء الله الحسنى المزدوجة

و (قوله: «أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر») أي: المقدِّم لمن شئتَ بالتوبة، والولاية، والطاعة. والمؤخر لمن شئت بضد ذلك. والأولى: أنه تعالى مقدِّم كلَّ مقدَّم في الدنيا والآخرة، ومؤخِّر كلَّ مؤخَّر في الدنيا والآخرة، وهذان الاسمان من أسماء الله تعالى المزدوجة كالأول والآخر، والمبدىء والمعيد، والقابض والباسط، والخافض والرافع، والضار والنافع، فهذه الأسماءُ لا تقال إلا مزدوجة، كما جاءت في الكتاب والسنَّة. هكذا قال بعضُ العلماء، ولم يجزْ أن يقالَ: يا خافض حتى يضم إليه: يا رافع.

دعاءٌ عظيمٌ جامعٌ

و (قوله: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمةُ أمري») أي: رباطه

معاشي، وأصلح لي آخرتي؛ التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كلِّ خير، واجعل الموت راحةً لي من كلِّ شرٍّ».

رواه أحمد (٤/ ٣٩٩)، ومسلم (٢٧٢٠).

[٢٦٤٩] وعن عبد الله بن مسعودٍ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم! إنِّي أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى».

وفي روايةٍ: «العفة» بدل «العفاف».

رواه أحمد (١/ ٤١١)، ومسلم (٢٧٢١)، والترمذيُّ (٣٤٨٩)، وابن ماجه (٣٨٣٢).

[٢٦٥٠] وعن زيدِ بن أرقمَ، قال: لا أقولُ لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: «اللهم! إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل، والجبْنِ والبُخْل، والهَرَم، وعذاب القبر. اللهم! آت نفسي

وعماده، والأمر بمعنى الشأن، ومعنى هذا أن الدِّينَ إن فسد لم يصلحْ للإنسان دنيا ولا آخرة. وهذا دعاءٌ عظيم جَمَع خيرَ الدنيا والآخرة، والدين والدنيا، فحقٌّ على كلِّ سامع له أن يحفظَه، ويدعو به آناء الليل وآناء النهار، لعلَّ الإنسان يوافقُ ساعةَ إجابة، فيحصل على خير الدنيا والآخرة.

و (قوله: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى... الحديث») الهدى يعني: إلى الصراط المستقيم، وهو صراطُ الذين أنعم عليهم، والتقى: يعني الخوف من الله، والحذر من مخالفته، ويعني بالعفاف: الصِّيانة من مطامع الدنيا، وبالغنى: غِنى النفس.

تقواها، وزكِّها أنت خَيْرُ مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها. اللهم! إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعوةٍ لا يستجابُ لها».

رواه أحمد (٣/ ١١٣)، ومسلم (٢٧٢٢)، والترمذي (٣٥٦٧)، والنسائي (٨/ ٢٦٠).

[٢٦٥١] وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعزَّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

رواه أحمد (٢/ ٤٩٤)، والبخاري (٤١١٤)، ومسلم (٢٧٢٤).

[٢٦٥٢] وعن عبد الله بن عمر، قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم! إنِّي أعوذ بك من زوالِ نِعْمَتِك، وتحوُّلِ عافيتك، وفجأةِ نِقْمَتِك، وجميع سَخَطِك».

رواه مسلم (٢٧٣٩)، وأبو داود (١٥٤٥).

* * *

و (قوله: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع») هو الذي لا يُعمل به، كما قال ﷺ: «العلمُ الذي لا يُعمل به كالكنز الذي لا يُنفق منه، أتعب صاحبُه نفسَه في جمعه، ثم لم يصلْ إلى نفعه»[١].

و (قوله: «فلا شيء بعده») أي: لا شيء ينصر، ولا يدفع غيره.

---

(١) رواه ابن خير في فهرسته ص (٥).

(١٤) بـــاب:
ما يقال عند الصَّباح وعند المساء

[٢٦٥٣] عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: كان نبيُّ الله ﷺ إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملكُ لله، والحمد لله، لا إله إلا اللَّهُ وحدَه، لا شريك له». قال: أُراه قال فيهن: «له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، رب! أسألك خيرَ ما في هذه الليلةِ وخيرَ ما بعدها، وأعوذ بك من شرِّ هذه الليلة وشرِّ ما بعدها، رب! أعوذ بك من الكسل وسوء الكِبَر ـ وفي روايةٍ: «وفتنة الدنيا» ـ ربِّ! أعوذ بك من عذاب في النار وعذابٍ في القبر».

وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله».

رواه أحمـــد (١/ ٤٤٠)، ومسلـــم (٢٧٢٣) (٧٤ و ٧٥ و ٧٦)، وأبو داود (٥٠٧١)، والترمذيُّ (٣٣٩٠).

* * *

[(١٤) ومن بـــاب: ما يقال عند الصباح وعند المساء][1]

(قوله: «من الكسل وسُوء الكِبْر») يُروى بفتح الباء وإسكانها، وبالفتح يعني به: الهرم. وقد قلنا: إن المرادَ بذلك: أرذل العمر، وبالإسكان: يعني بذلك: كبر النفس المذموم المحرَّم الذي تقدَّم ذكره.

* * *

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(١٥) بـــاب
كثرة ثواب الدعوات الجوامع
وما جاء في أن الدَّاعي يستحضر
معاني دعواته في قلبه

[٢٦٥٤] عن ابن عباسٍ، عن جويرية: أنَّ النبي ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حين صلَّى الصُّبْحَ وهي في مسجدها؛ ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟»، قالت: نعم. قال النَّبيُّ ﷺ: «لقد قلتُ بعدك أربعَ كلماتٍ ثلاث مراتٍ لو وزنت بما قُلْتِ منذ اليوم لَوَزَنَتْهُنَّ: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه،...............

[(١٥) ومن بـــاب: كثرة ثواب الدعوات الجوامع
وما جاء في أن الداعي يستحضر معاني
دعواته في قلبه][(١)]

(قوله: «لو وزنتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن») أي: لرجحتْ عليهن في الثواب. وهو دليلٌ على أن الدعوات والأذكار الجوامع يحصلُ عليهن من الثواب أضعاف ما يحصل على ما ليست كذلك. ولذلك كان ﷺ يحبُّ الدعوات الجوامع.

ثواب الدعوات والأذكـــار الجوامع

و (قوله: «سبحان الله، وبحمده») هذا الكلامُ على اختصاره جملتان؛ إحداهما: جملة سبحان الله؛ فإنها واقعة موقع المصدر، والمصدر يدلُّ على صدره، فكأنه قال: سبحت الله التسبيحَ الكثير، أو التسبيح كلّه، على قول مَن قال: إن سبحان الله: اسمُ علمٍ للتسبيح، وبحمده: مُتعلِّق بمحذوفٍ تقديره: وأثني

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومِدادَ كلماته».

وفي روايةٍ: «سبحانَ الله عَدَدَ خلقِه، سبحانَ الله رِضا نفسِه، سبحان الله زِنة عَرْشِه، سبحان الله مِدادَ كلماتِه».

رواه أحمد (١/ ٢٥٨)، ومسلم (٢٧٢٦)، وأبو داود (١٥٠٣)، والنسائيُّ في الكبرى (٩٩٩٢).

[٢٦٥٥] عن عليٍّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «قل: اللهم! اهدني، وسدِّدْني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسدادِ سدادَ السهم».

رواه أحمد (١/ ١٥٤)، ومسلم (٢٧٢٥)، وأبو داود (٤٢٢٥)، والنسائي (٨/ ١٧٧).

* * *

عليه بحمده؛ أي: بذكر صفات كماله وجلاله، فهذه جملةٌ ثانية غير الجملة الأولى.

و (قوله: «مِداد كلماته») هو بكسر الميم، وبألف بين الدالين، ويعني به: كلامه القديم المنزَّه عن الحروف، والأصوات، وعن الانقطاع، والتغييرات، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. وزنة عرشه؛ أي: وزنه الذي لا يعلمُ مقداره إلا الله. ورِضا نفسه: يعني أن رضاه عمن رضي عنه من النبيِّين والصَّالحين لا ينقطع، ولا ينقضي، وإنما ذكر النبيُّ ﷺ هذه الأمورَ على جهة الإغياء، والكثرة التي لا تنحصر، مُنبِّهاً على أنَّ الذاكرَ بهذه الكلمات ينبغي له أن يكون بحيث لو تمكَّن من تسبيح الله وتحميده وتعظيمه عَدَداً لا يتناهى ولا ينحصر لفعل ذلك، فحصل له من الثواب ما لا يدخلُ في حساب.

و (قوله: «واذكرْ بالهدى هدايتَك الطريق، والسدادِ سدادَ السهم») هذا الأمرُ

(١٦) بـــاب
التسلي عند الفاقات بالأذكار
وما يدعَى به عند الكرب

[٢٦٥٦] عن عليٍّ بن أبي طالب: أنَّ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ اشتكت ما تلقى من الرَّحى في يدها، وأَتى النبيَّ ﷺ سبيٌ، فانطلقت، فلم تجده، ولقيت عائشةَ، فأخبرتها، فلما جاء النَّبيُّ ﷺ أخبرته عائشةُ بمجيء

الاهتمام بالدعاء واستحضار معانيه

منه ﷺ يدلُّ على أنَّ الذي ينبغي له أن يهتمَّ بدعائه فيستحضر معانيَ دعواته في قلبه، ويبالغ في ذِكْرها بلفظه بضربٍ من الأمثال، وتأكيد الأقوال، فإذا قال: اهدني الصراطَ المستقيم، وسدِّدني سدادَ السَّهم الصَّائب كان أبلغ وأهم من قوله: اهدني وسدِّدني فقط، وهذا واضحٌ.

(١٦) ومن بـــاب: التسلي عند الفاقات بالأذكار

(قوله: إن فاطمة اشتكتْ ما تلقى من الرَّحى في يدها) يعني: من مشقَّة الطَّحن في الرَّحى. وفي غير كتاب مسلم: أنها جرَّت بالرحى حتى مجلت يدها، وقمَّت البيتَ حتى اغبرَّ شعرُها، وخبزتْ حتى تغيَّر وجهها. ففيه دليلٌ على: أنَّ المرأةَ وإن كانت شريفةً عليها أن تخدمَ بيتَ زوجها، وتقومَ بعمله الخاصِّ به. وبه قال بعضُ أهل العلم، وقيل: ليس عليها شيءٌ من ذلك سواءٌ كانت شريفة أو دنيئة، حكاه ابن خوازمنداد عن بعض أصحابنا، ومشهور مذهب مالك الفرق بين الشريفة فلا يلزمها، وبين مَن ليسَ كذلك فيلزمها. ومحملُ هذا الحديث على أنَّ فاطمة تبرَّعت بذلك، ولا خلافَ في استحباب ذلك لمن تبرع به؛ لأنه معونةٌ للزوج، وهي مندوبٌ إليها، وقد تقدَّم هذا في النكاح. وفيه ما يدلُّ على ما كان عليه ذلك الصَّدرُ الصَّالح مِن شَظَف العيش وشدَّة الحال، وأنَّ الله تعالى حماهم

خدمة المرأة في بيت زوجها

فاطمةَ إليها، فجاء النَّبيُّ ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقومُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «على مكانِكُما!»، فقعد بيننا حتى وجدْتُ بَرْدَ قدمه على صدري، وقال: «ألا أُعلِّمُكُما خيراً ممَّا سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما أنْ تكبِّرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما».

زاد في روايةٍ: قال عليٌّ: ما تركته منذ سمعتُه من النَّبيِّ ﷺ. قيل له: ولا ليلةَ صفِّين؟ قال: ولا ليلةَ صفِّين.

رواه أحمد (١/ ١٣٦)، والبخاريُّ (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧).

الدُّنيا مع أنَّه مكَّنهم منها، وهي سُنَّةُ الله في الأنبياء والأولياء، كما قال ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»[(١)].

و (قوله: فجاء وقد أخذنا مضاجعنا) كان هذا المجيءُ بالليل؛ لأنه قد جاء في بعض طرقه أنه قال: طَرَقهما ليلاً.

و (قوله: «على مكانكما») أي: اثبتا على مكانكما، والزماه. وقعود النبيِّ ﷺ بين ابنته وبين عليٍّ دليلٌ على جواز مثل ذلك، وأنه لا يُعابُ على مَن فعله إذا لم يؤدِّ ذلك إلى اطِّلاع على عورة، أو إلى شيءٍ ممنوع شرعاً.

و (قوله: «ما ألفيتيه عندنا»[(٢)]) أي: ما وجدت الخادمَ عندنا، ثم إنه أحالهما على التَّسبيح والتَّهليل والتَّكبير؛ ليكون ذلك عِوَضاً من الدُّعاء عند الكرب والحاجة، كما كانت عادتُه عند الكرب على ما يأتي في الحديث المذكور بعد هذا. ويمكنُ أن يكون من جهة أنه أحبَّ لابنته ما يحبُّ لنفسه، إذ كانت بضعةً منه، من

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٧٢)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣).

(٢) هذه العبارة ليست في التلخيص، وإنما هي في صحيح مسلم برقم (٢٧٢٨) (٨١).

[٢٦٥٧] وعن ابن عباسٍ، أنَّ النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا اللَّهُ ربُّ العرشِ العظيم، لا إله إلا اللَّهُ ربُّ السمواتِ، وربُّ الأرض، ربُّ العرش الكريمُ».

وفي روايةٍ: إذا حَزَبَهُ (أمرٌ) مكان (عند الكرب).

رواه أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاريُّ (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

* * *

إيثار الفقر، وتحمُّل شدَّته والصَّبر عليه، ترفيعاً لمنازلهم، وتعظيماً لأجورهم، وبهذين المعنيين، أو أحدهما تكونُ تلك الأذكارُ خيراً لهما من خادم، أي: من التصريح بسؤال خادم، والله تعالى أعلم.

دعاء الكرب

و (قوله: كان ﷺ يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم... الحديث») قال الطبريُّ: كان السلفُ يدعون بهذا الدعاء، ويسمُّونه: دعاء الكرب، فإن قيل: كيف يُسمَّى هذا دعاءً، وليس فيه من معنى الدعاء شيءٌ، وإنما هو تعظيمٌ لله تعالى، وثناءٌ عليه؟ فالجواب: إنَّ هذا يسمَّى دعاءً لوجهين:

أحدهما: أنه يُستفتحُ به الدعاء، ومِن بعده يدعو. وقد ورد في بعض طرقه: «ثم يدعو».

وثانيهما: أن ابنَ عُيينة قال ـ وقد سُئِل عن هذا ـ: أما علمت أنَّ اللَّهَ تعالى يقول: «إذا شغل عبدي ثناؤه عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين؟»[١].

وقد قال أمية بن أبي الصلت:

إذا أثنَى عَلَيْكَ المرءُ يَوْماً ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِكَ[٢] الثَّناءُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦).

(٢) في (ز): تعرضه.

(١٧) بـــاب
ما يقال عند صراخ الديكة ونهيق الحمير

[٢٦٥٨] عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الدِّيَكة فاسألوا الله من فضله؛ فإنَّها رأت مَلَكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشَّيطان؛ فإنها رأت شيطاناً».

قلــتُ: وهذا الكلامُ حسن، وتتميمه أن ذلك إنما كان لنكتتين:

إحداهما: كرم المثنى عليه، فإنه إذا اكتفى بالثناء عن السُّؤال دل ذلك على سهولة البذل عليه، والمبالغة في كَرَم الحقِّ.

وثانيهما: أن المثني لما آثر الثناء؛ الذي هو حقُّ المثنى عليه على حقِّ نفسه؛ الذي هو حاجته، بُودر إلى قضاء حاجته من غير إحواج إلى إظهار مذلَّة السؤال مجازاةً له على ذلك الإيثار، والله تعالى أعلم. ومما قد جاء منصوصاً عليه، وسُمِّي دعاءً؛ وإن لم يكن فيه دعاء ولا طلب؛ ما أخرجه النسائي من حديث سعد ابن أبي وقاص. قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دعوةُ ذي النون إذ دعـا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين؛ فإنه لن يدعوَ بها مسلم في شيءٍ إلا استجيب له»[١]. ومعنى إذا حزبه أمر؛ أي: أصابه ودهمه، وهو بالحاء المهملة وبالزاي، وبالباء المعجمة بواحدة.

[(١٧) ومن بـــاب: ما يقال عند صراخ الديكة ونهيق الحمير][٢]

الدعاء بالخير عند صياح الديكة

(قوله: «إذا سمعتم صياحَ الديكة فاسألوا اللَّهَ من فضله، فإنها رأتْ مَلَكاً») هذا يدلُّ على: أن اللَّهَ تعالى خَلَق للديكة إدراكاً تدركُ به الملائكةَ، كما خلق

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (١٠٤٩٢).

(٢) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

رواه أحمد (٢/ ٣٢١)، والبخاريُّ (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩)، وأبو داود (٥١٠٢)، والترمذي (٣٤٥٩)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩١).

* * *

(١٨) باب
أحبُّ الكلام إلى الله تعالى

[٢٦٥٩] عن أبي ذرٍّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ سئلَ: أيُّ الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده».

للحمير إدراكاً تدركَ به الشياطين. ويفيد: أن كل نوع من الملائكة والشياطين موجودان، وهذا معلومٌ من الشرع قطعاً، والمنكر لشيءٍ منهما كافرٌ، وكأنه إنما أمر النبيُّ ﷺ بالدعاء عند صراخ الديكة لتؤمِّنَ الملائكة على ذلك الدعاء، فتتوافق الدعوتان، فيستجاب للداعي، والله أعلم.

التعوذ من الشيطان عند نهيق الحمير

وإنما أمر بالتعوُّذ من الشيطان عند نهيق الحمير، لأن الشيطانَ لما حضر يُخاف من شرِّه، فينبغي أن يُتَعَوَّذَ منه.

[(١٨) ومن باب: أحب الكلام إلى الله تعالى][(١)]

(قوله ﷺ وقد سئل ـ أي الكلام أفضل؟ ـ فقال: «ما اصطفى اللَّهُ لملائكته، أو لعباده: سبحان الله وبحمده». وفي الرواية الأخرى: «إن أحبَّ الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»).

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

وفي روايةٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ له: «ألا أخبرك بأحبِّ الكلام إلى الله؟»، قلتُ: أخبرني يا رسول الله! قال: «إنَّ أحبَّ الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده».

رواه أحمد (٥/ ١٦١)، ومسلم (٢٧٣١) (٨٤ و ٨٥).

* * *

قلتُ: هذا الحديثُ يعارضُه قوله في حديث أبي هريرة المتقدم في فضل التهليل. ولم يأتِ أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك. وقوله: «أفضلُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله»[١]. وقد تقدَّم في حديث سمرة ابن جندب قوله ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»[٢] فقد مضى هذا الحديث بأن الأربعةَ متساويةٌ في الأفضلية والأحبيّة من غير مراعاة تقديم بعضها على بعضٍ، ولا تأخيره، وأن التسبيحَ وحده لا ينفردُ بالأفضلية، ولا التهليل وحده أيضاً ينفردُ بها. وإذا ثبت ذلك فحيث أطلق أن أحد هذه الأذكار الأربعة أفضل الكلام أو أحبّه، إنما يُراد إذا انضمت إلى أخواتها الثلاث المذكورة في هذا الحديث. إما مجموعة في اللفظ، أو في القلب بالذكر؛ لأن اللفظَ إذا دلَّ على واحدٍ منهما بالمطابقة دلَّ على سائرها باللزوم. وبيان ذلك: أن معنى سبحان الله: البراءة له من كلِّ النقائص، والتنزيه عما لا يليق بجلاله، ومن جملتها تنزيهُه عن الشركاء، والأنداد، وهذا معنى لا إله إلا الله. هذا مدلولُ اللفظ من جهة مطابقته، ولما وجب تنزيهُه عن صفات النقص لزم اتصافه بصفات الكمال؛ إذ لا واسطة بينهما، وهي المعبَّر عنها بالحمد لله. ثم لما تنزَّه عن صفات النقص، واتصف بصفات الكمال وجبت له العظمةُ والجلال،

معنى: سبحان الله

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٢١٤ و ٢١٥)، والترمذي (٣٥٧٩).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١١)، وابن ماجه (٣٨١١).

(١٩) بـــاب
ما يقال عند الأكل والشرب
والدعاء للمسلم بظهر الغيب

[٢٦٦٠] عن أنس بن مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ليرضى عن العبد يأكلُ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عليها، أو يشربُ الشَّربة فيحمَدُه عليها».

رواه أحمد (٣/ ١٠٠)، ومسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٧).

وهو معنى: الله أكبر. فقد ظهر لك أن هذه الأربعة الأذكار متلازمة في المعنى، وأنها قد شملها لفظُ الأحبِّية، كما جاء في الحديث. فمن نطق بجميعها فقد ذكر الله تعالى بأحب الكلام إلى الله، لفظاً ومعنى، ومن نطق بأحدها فقد ذكر الله ببعض أحب الكلام نطقاً، وبجميعها معنىً من جهة اللزوم الذي ذكرناه. فتدبَّرْ هذه الطريقةَ، فإنها حسنةٌ، وبها يرتفعُ التعارضُ المتوهَّم بين تلك الأحاديث ـ والله تعالى أعلم ـ. ولم أجدْ في كلام المشايخ ما يقنع، وقد استخرت اللَّهَ فيما ذكرته.

[(١٩) ومن بـــاب: ما يقال عند الأكل والشرب والدعاء للمسلم بظهر الغيب][١]

(قوله: «إن الله ليرضى عن العبد يأكلُ الأكلة، فيحمده عليها، أو يشربُ الشربة، فيحمده عليها») قد تقدَّم أن الأكلة بفتح الهمزة: المرة الواحدة من الأكل، وبالضم: اللقمة، ويصلح هذا اللفظ هنا للتقييدين، وبالفتح وجدتُه مقيداً في كتاب شيخنا. والحمد هنا بمعنى الشكر، وقد قدَّمنا: أن الحمدَ يُوضَعُ موضعَ الشكر،

(١) هذا العنوان لم يردْ في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

[٢٦٦١] وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عبدٍ مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثلٍ».

رواه مسلم (٢٧٣٢) (٨٦).

* * *

شكرُ النعمة سببُ نيل رضا الله

ولا يُوضع الشكرُ موضعَ الحمد، وفيه دلالةٌ على أن شكر النعمة، وإن قلَّت سَبَبُ نيل رضا الله تعالى؛ الذي هو أشرفُ أحوال أهل الجنة، وسيأتي قولُ اللَّهِ عز وجل لأهل الجنة حين يقولون: «أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خَلْقِك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ [فيقولون: ما هو؟ ألم تُبيِّض وجوهَنا، وتُدْخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟][1]، فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً»[2]. وإنما كان الشكرُ سَبَباً لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمَّن معرفةَ المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وبإيصالها إلى المنعَم عليه، تفضُّلاً من المنعم، وكرماً، ومِنَّة، وإن المنعَم عليه فقير محتاجٌ إلى تلك النعم، ولا غِنى به عنها، فقد تضمَّن ذلك معرفة حق الله وفضله، وحق العبد وفاقته، وفقره، فجعل اللَّهُ تعالى جزاءَ تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة.

تعريف المسلم

و (قوله: «ما من عبدٍ مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال المَلَك: ولك بمثلٍ») المسلم هنا: هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، الذي يحبُّ للناس ما يحبُّ لنفسه؛ لأنَّ هذا هو الذي يحملُه حالُه وشفقتُه على أخيه المسلم أن يدعوَ

دعاء المسلم لأخيه في غيبته

له بظهر الغيب، أي: في حال غيبته عنه، وإنما خصَّ حالةَ الغَيْبَةَ بالذكر لبعدها عن الرياء، والأغراض المفسدة أو المنقصة؛ فإنه في حال الغَيْبة يتمحَّض الإخلاص، ويصحُّ قصد وجه الله تعالى بذلك، فيوافقه الملكُ في الدعاء، ويبشِّره على لسان رسوله ﷺ بأن له مثل ما دعا به لأخيه. والأخوَّة هنا: هي الأخوة الدينية، وقد

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من (ع) و (م ٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢٠) بـــاب
يستجاب للعبد ما لم يَعْجَلْ أو يدعو بإثم

[٢٦٦٢] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، فيقولُ: قد دعوت فلا يُستجابُ لي».

رواه أحمد (٢/ ٤٨٧)، والبخاريُّ (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)، وأبو داود (١٤٨٤)، والترمذي (٦٣٨٧)، وابن ماجه (٣٨٥٣).

[٢٦٦٣] وعنه؛ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثمٍ أو قطيعة رحمٍ ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله! ما

تكون معها صداقةٌ ومعرفة، وقد لا يكون، وقد يتعيَّن، وقد لا يتعين، فإن الإنسانَ إذا دعا لإخوانه المسلمين حيث كانوا، وصَدَقَ اللَّهَ في دعائه، وأخلص فيه في حال الغَيْبة عنهم، أو عن بعضهم، قال الملكُ له ذلك القول، بل قد يكون ثوابُه أعظم؛ لأنه دعا بالخير، وقَصَده للإسلام، ولكل المسلمين، والله تعالى أعلم.

[(٢٠) ومن بـــاب: يستجاب للعبد ما لم يعجل أو يدعو بإثم][(١)]

(قوله: «يُستجاب للمسلم ما لم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعة رحم») يعني بالعبد: الصالح لقبول دعائه، فإن إجابةَ الدعاء لا بُدَّ لها من شروطٍ في الداعي، وفي الدعاء، وفي الشيء المدعو به، فمن شَرْط الداعي بأن يكون عالماً بأنه لا قادر على حاجته إلا الله تعالى، وأن الوسائطَ في قبضته، ومسخَّرة بتسخيره، وأن يدعوَ بنيَّةٍ صادقة، وحضور قلب، وأن يكون مجتنباً لأكل الحرام، كما قدَّمناه، وألَّا

شروط الداعي

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوتُ، وقد دعوت؛ فلم أَرَ يستجاب لي، فَيَسْتَحْسِرُ عند ذلك، ويَدَعُ الدُّعاء!».

رواه مسلم (٢٧٣٥) (٩٢).

* * *

يحلُّ من الدعاء فيتركه ويقول: قد دعوتُ فلم يُستجبْ لي كما قال في الحديث.

شروط المدعو في الدعاء

ومن شروط المدعو فيه أن يكونَ من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً، كما قال: ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رحم، فيدخل في الإثم كلُّ ما يأثَمُ به من الذنوب، ويدخل في قطيعة الرحم جميعُ حقوق المسلمين، ومظالمهم. وقد بيَّنا أن الرحمَ ضربان: رحم الإسلام، ورحم القرابة. ويستحسر: يعني: ويملُّ. يقال: حسر البعير يحسُر، ويحسِر حسوراً: أعيا. واستحسر وتحسَّر مثله. وفائدة هذا: استدامةُ الدعاء، وترك اليأس من الإجابة، ودوام رجائهما، واستدامة الإلحاح في الدعاء؛ فإن الله يحبُّ الملحِّين عليه في الدعاء، وكيف لا؟ والدعاء مخ العبادة وخلاصة العبودية. والقائل: قد دعوت، فلم أر يُستجاب لي، ويَتْرُك ـ قانطاً ـ من رحمة الله، وفي صورة الممتنِّ بدعائه على ربه، ثم إنه جاهل بالإجابة، فإنه يظنها إسعافه في عين ما طلب، فقد يعلم الله تعالى: أن في عين ما طلب مفسدة، فيصرفه عنها، فتكون إجابته في الصرف، وقد يعلمُ اللَّهُ أن تأخيرَه إلى وقت آخر أصلح للداعي، وقد يؤخره لأنه سبحانه يحبُّ استماعَ دعائه، ودوام تضرُّعه، فتكثر أجوره حتى يكون ذلك أعظم وأفضل من عين المدعو به لو قضي له، وقد قال ﷺ: «ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يُستجاب له، وإما أن يُدَّخر له، وإما أن يُكفَّر عنه»[١]، ثم بعد هذا كله فإجابة الدعاء ـ وإن وردت في مواضع من الشرع مطلقة ـ فهي مقيَّدة بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

استدامة الدعاء وترك اليأس من الإجابة

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٦٨).

(٢١) بـــاب
الدعاء بصالح ما عمل من الأعمال

[٢٦٦٤] عن ابن عمر؛ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «بينما ثلاثة نفرٍ ـ في روايةٍ: ممن كان قبلكم ـ يتمشون أخذهم الطوفان فأووا إلى غارٍ في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرةٌ من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحةً لله، فادعوا الله تعالى بها لعلَّهُ يَفْرُجُها عنكم! فقال أحدهم: اللهم! إنَّه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبيةٌ صغارٌ أرعى عليهم، فإذا أرَحْتُ عليهم؛ حلبتُ، فبدأت بوالديَّ، فسقيتهما قبل بَنِيَّ وإني نأى بي ذاتَ يومٍ الشَّجر فلم آتِ حتى أمسيتُ، فوجدتُهما قد ناما، فحلبتُ كما كنتُ أحلُب، فجئتُ

---

(٢١) ومن بـــاب: الدعاء بصالح ما عُمِل من الأعمال

غريب حديث الغار: الطوفان هنا: المطر الكثير. وأووا إلى غار: أي: انضمُّوا، وقد تقدَّم أنه يُمَدُّ ويُقْصَر. فانحطَّت: نزلت. فأطبقت عليهم: أي: صارت على باب الغار كالطبق، وأرعى عليهم: أي أرعى الماشية وأكتسب بها لأجل العيال والأبوين. ونأى بي الشجر: أي: بَعُد عليه ابتغاء الشجر الذي رعاه بماشيته. والحِلاب: إناء يُحلب فيه، وهو المحلب أيضاً، وقد يكون اللبن. ويتضاغون: يضجُّون من الجوع، والضُّغاء ممدود، مضموم الأول، صوت الذِّلَّة والفاقة. والدأب: الحال اللازمة، والعادة المتكررة. وافرج: افتح. والفُرجة بضم الفاء؛ لأنه من السَّعة، فإذا كان بمعنى الراحة قلت فيه: فَرْجَة وفَرَجٌ، وفعلُ كلِّ واحدٍ منهما فَرَجَ بالفتح والتخفيف، يَفْرُج بالضم لا غير. والغبوق: شرب العشيِّ، والصبوح: شرب الصباح، والجاشرية: عند انغلاق الفجر، يقال: جشر الصبح، أي: انفلق. وبغيت: طلبت.

بالحِلاب، فقمتُ عند رؤوسهما أكرهُ أنْ أوقظَهُما من نومهما، وأكره أن أسقيَ الصِّبيةَ قبلهما، والصبيةُ يتضاغَوْنَ عند قدميَّ، فلم يزلْ ذلك دأبي ودأبُهم حتى طَلَعَ الفَجْرُ، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافْرُجْ لنا فُرْجَة نرى منها السَّماء! فَفَرَجَ اللَّهُ منها فُرْجةً، فرأوا منها السَّماء. وقال الآخر: اللهم! إنِّي كانت لي ابنةُ عمٍّ أحببتُها كأشدِّ ما يحبُّ الرجالُ النساءَ. وطلبتُ إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمئة دينارٍ، فتعبتُ حتى جمعتُ مئةَ دينارٍ. ـ وفي روايةٍ: عشرين ومئةً ـ فجئتُها بها، فلمَّا وقعتُ بين رجليها قالت: يا عبد الله! اتق الله! ولا تَفْتَح الخَاتَم إلا بحقه، فقمتُ عنها! فإنْ كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافْرُجْ لنا منها فرجةً، ففَرج لهم! وقال الآخر: اللهم! إنِّي كنت استأجرتُ أجيراً بفَرَقِ أَرُزٍّ فلما قضى عمله قال: أعطني حقي فعرضْتُ عليه فَرَقَه فرغِبَ عنه، فلم أزلْ أزرعُه حتى جمعتُ منه بقراً ورعَاءها، فجاءني، فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي! قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها. فقال: اتق الله ولا تستهزىء بي! فقلت: إني لا أستهزىء بك، خذ ذلك البقر ورعاءَها! فأخذه، فذهب به. فإنْ كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافْرُجْ لنا ما بقي، فَفَرَجَ الله ما بقي». ـ وفي روايةٍ: «وخرجوا يمشون» ـ.

رواه البخاريُّ (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

* * *

و (قوله: لا تفضّ[١] الخاتم إلا بحقه). الفضّ: الكسر والفتح، والخاتم: كناية عن الفرج، وعذرة البكارة، وحقُّه: التزويج المشروع. والفَرَقُ: مكيال يسع

(١) هذه اللفظة من رواية البخاري رقم (٢٢١٥) كما جاء في التخريج. ورواية مسلم كما في التلخيص: «لا تفتح».

(٢٢) بــاب
فضل الدوام على الذكر

[٢٦٦٥] عــن حَنْظَلَــة الأُسَيْــديِّ ـ قــال: وكــان مــن كتَّــاب رسول الله ﷺ ـ قال: لقيني أبو بكرٍ فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يُذَكِّرُنا بالجنَّة والنار؛ كأنَّا رأيَ عينٍ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عَافَسْنا الأزواج، والأولاد، والضَّيْعاتِ؛ نسينا كثيراً! قال

ثلاثة آصع، ويقال: بفتح الراء، وهو الأفصح، وقال ابنُ دريد: ويقال بسكونها، وقد أنكره غيره، وفيه أبوابٌ من الفقه لا تخفى.

[(٢٢) ومن بــاب: فضل الدوام على الذكر][(١)]

قـول حنظلة الأُسَيْدي: هو بتخفيف الياء منسوب إلى أُسَيْد، قَيْلٌ[(٢)] من بني تميم. ومن رواه الأسدي فقد أخطأ، وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ.

و (قوله: نافقَ حنظلة). إنكار منه على نفسه لما وجد منها في خلوتها خلاف ما يظهر منها بحضرة النبيِّ ﷺ فخافَ أن يكون ذلك من أنواع النِّفاق، وأراد من نفسه أن يستديمَ تلك الحالة التي كان يجدُها عند موعظة النبي ﷺ ولا يشتغل عنها بشيء.

و (قوله: يُذكِّرنا بالجنّة والنَّار، كأنَّا رأيَ عَيْنٍ). الذي قرأته وقيَّدْته رأيَ عين منصوباً على المصدر، كأنه قال: كأنَّا نراها رأيَ عين. قال القاضي: ضبطناه بالضم أي: كأنَّا بحالٍ من يراهما، ويصحُّ النصب على المصدر.

و (قــولــه: عــافَسْنــا الأزواجَ، والأولاد، والضَّيْعَات) الـروايـة الصحيحـة

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(٢) «قَيْل»: القَيْل: الملك، جمع أقيال وقُيول.

أبو بكر: فوالله! إنا لَنَلْقَى مثل هذا. فانطلقتُ أنا وأبو بكرٍ حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلةُ يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟»، قلت: يا رسول الله! نكون عندك تُذَكِّرُنا بالنَّار والجنة؛ كأنا رأي عينٍ، فإذا خرجنا من عندك عافَسْنا الأزواج، والأولاد، والضيعاتِ، نسينا

المعروفة: عافسنا بالعين المهملة، وبالفاء والسين المهملة، ومعناه: عالجنا وحاولنا. في الصحاح: المعافسة: المعالجة، يعني أنهم إذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ اشتغلوا بهذه الأمور، وتركوا تلك الحالة الشريفة التي كانوا يجدُونها عند سماع موعظة رسول الله ﷺ ومشاهدته، وروى الخطَّابيُّ هذا الحرفَ: عانسنا بالنون، وفسَّره بلاعبنا، ورواه القتيبي: عانشنا؛ بالنون والشين المعجمة، وفسَّره بعانقنا، والتقييد الأول أولى روايةً ومعنىً. وقد جاء مفسراً في الرواية الأخرى فقال: ضاحكت الصِّبيان، ولاعبتُ المرأة. والضيعات: جمع ضيعة، وهي: ما يكون معاش الرجل منه من مال، أو حرفة، أو صناعة. وقد تقدَّم ذكرها.

دوام الأحوال من المحال في عالم الإنسان

و (قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: والله! إنا لنلقى مثل هذا) ردٌّ على غلاة الصوفية الذين يزعمون دوام مثل تلك الحال، ولا يُعرِّجون بسببها على أهل ولا مال، ووجهُ الردِّ أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أفضلُ الناس كلِّهم بعد رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة، ومع ذلك فلم يدَّعِ خروجاً عن جبلَّة البشرية، ولا تعاطى من دوام الذِّكر وعدم الفترة ما هو خاصَّة الملائكة. وقد ادَّعى قومٌ منهم دوامَ الأحوال، وهو بما ذكرناه شبه المحال، وإنما الذي يدومُ المقامات، لكنها تتفاوت فيها المنازلات. والمقام: ما يحصل للإنسان بسعيه وكسبه. والحالُ: ما يحصلُ له بهبة ربِّه. ولذلك قالوا: المقاماتُ مكاسب، والأحوالُ مواهب، ومَنْ طابَ وقته علا نعته، ومن صفا وارِدُه طابَ وِرْدُه. وعلى الجملة فسُنَّة الله في هذا العالم الإنساني جعلُ تمكينهم في تلوينهم، ومشاهدتهم في مكابدتهم. وسرُّ ذلك أن هذا العالم متوسِّط بين عالمي الملائكة والشياطين، فمكَّن الملائكةَ في الخير بحيث يفعلون ما يُؤمرون، ويُسبِّحون الليلَ والنهار لا يَفْتُرون، ومكَّن الشياطين في الشرِّ والإغواء

كثيراً! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! لو تدومون على ما تكونون عندي؛ وفي الذِّكر؛ لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكُم، وفي طُرُقِكُم، ولكن يا حَنْظَلَة! ساعةً، وساعةً ـ ثلاث مرات ـ».

رواه مسلم (٢٧٥٠) (١٢).

* * *

بحيث لا يغفلون، وجعلَ هذا العالم الإنساني متلوِّناً فيُمكِّنه ويُلوِّنه، ويُفنيه ويُبقيه، ويَشهده ويَفقده، وإليه أشارَ صاحبُ الشفاعة بقوله: «ولكن يا حنظلة! ساعةً وساعة». وقال في حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: «وعلى العاقل أن يكونَ له ساعاتٍ: ساعةٌ يناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يُحاسبُ فيها نفسه، وساعة يُفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب»[1]. هكذا الكمال، وما عداه تُرَّهاتٌ وخيال.

مشاهدة الأمور بالله تعالى وقت صفاء حالة الذكر

و (قوله: «لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة») هكذا صحَّت الرواية بالواو العاطفة للطَّرف الثاني على الأول، ويُفيد أنه وَقَّف مصافحة الملائكة على حصول حالتين لنا: على حال مشاهدة الجنة والنار مع ذكر الله تعالى ودوام ذلك، فيعني ـ والله تعالى أعلم ـ أن التمكن: إنما هو أن يشاهد الأمور كلَّها بالله تعالى، فإذا شاهدَ الجنة مثلاً لم يحجبْه ما يُشاهدُ من نعيمها وحسنها من رؤية الله تعالى؛ بل: لا يلتفت إليها من حيث هي جنَّة؛ بل: من حيث هي أنها محل القرب من الله تعالى، ومحلُّ رؤيته، ومشاهدته، فيكون فرقه في جمعه، وعطاؤه في منعه، ومن كان كذلك ناسبَ الملائكة في معرفتها، فبادرت إلى إكرامه، ومشافهتِه، وإعظامِه، ومُصافحته. والمسؤول من الكريم المتعال أن يمنحنا من صفاء هذه الأحوال.

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦ ـ ١٦٨)، وابن حبان (٣٦١).

(٣٨)
كتاب الرقاق

(١) باب
وجوب التوبة وفضلها

وقد تقدم قوله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مئة مرة».

[٢٦٦٦] وعن عبد الله ـ هو ابنُ مسعود ـ قال: سمعتُ

---

(٣٨)
كتاب الرّقاق

(١ و ٢) ومن باب: وجوب التوبة وفضلها[1]

معنى التوبة

قد تقدَّم القولُ في وجوب التوبة، وفي معناها اللغوي، وقد اختلفت عباراتُ العلماء والمشايخ فيها، فقائلٌ يقول: إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزمُ على ألَّا يعود، والآخر يقول: إنها الإقلاعُ عن الذنب، ورابع يجمع بين تلك الأمور الثلاثة، فيقول: إنها الندمُ على ذنبٍ وقع، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألاَّ يعود إليه، وهذا أكملُها؛ غير أنه مع ما فيه من التركيب المحذور في الحدود غير مانع، ولا جامع.

---

(١) شرح المؤلف تحت هذا العنوان ما أشكل في أحاديث هذا الباب، والباب الذي يليه بعنوان: باب: ما يُخاف من عقاب الله على المعاصي.

. . . .

بيان الأول: أنه قد يندم، ويقلع، ويعزم، ولا يكون تائباً شرعاً، إذ قد يفعل ذلك شحاً على ماله، أو لئلا يعيِّره الناسُ من ذلك. ولا تصحُّ التوبةُ الشرعية إلا بالنية، والإخلاص فإنها من أعظم العبادات الواجبات؛ ولذلك قال تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

متى تصحّ التوبة الشرعية؟

وأما الثاني: فبيانُه أنه يخرجُ منه مَنْ زنى مثلاً، ثم قطع ذكره، فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنى، وأما العزمُ والإقلاعُ فغير متصوَّرين منه، ومع ذلك فالتوبةُ من الزنى صحيحةٌ في حقِّه إجماعاً، وبهذا اغترَّ من قال: إنَّ النَّدمَ يكفي في حدِّ التوبة، وليس بصحيح؛ لأنه لو ندم ولم يقلع، وعزم على العود لم يكن تائباً اتفاقاً، ولما فهم بعضُ المحققين هذا حدَّ التوبة بحدٍّ آخر، فقال: هي تركُ اختيار ذنبٍ سبق منك مثله حقيقة أو تقديراً لأجل الله تعالى، وهذا أسدُّ العبارات وأجمعها، وبيان ذلك: أن التائبَ لا بُدَّ أن يكون تاركاً للذنب، غير أنَّ ذلك الذنبَ الماضي قد وقع، وفرغ منه، فلا يصحُّ تركه؛ إذ هو غير متمكن من عينه لا تركاً ولا فعلاً، وإنما هو متمكِّنٌ من مثله حقيقة، وهو زنىً آخر مثلاً، فلو جُبَّ لم تصحَّ منه حقيقةُ الزنى، بل: الذي يصحُّ منه أن يقدِّر أنه لو كان متمكِّناً من الزنى لتركه. فلو قدَّرنا مَن لم يقعْ منه ذنبٌ لم يصحَّ منه إلا اتقاء ما يمكن أن يقع، لا ترك مثل ما وقع، فيكون متقياً لا تائباً، فتدبَّر هذا.

و(قوله: لأجل الله تعالى)؛ تحرُّزٌ من ترك ذلك لغير الله تعالى؛ إذ ذلك لا يكونُ تائباً اتفاقاً، فلا يكون فعله ذلك توبة، وهذا واضح، وإذا تقرَّر هذا فاعلمْ أن الباعثَ على التوبة تنبيهٌ إلهي ينبِّه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها؛ فإنها سمومٌ مهلكةٌ تفوِّت على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وتحجبه عن معرفة الله تعالى في الدنيا، وعن تقريبه وكرامته في الدار الآخرة. ومَن انكشف له هذا، وتفقَّد نفسَه وَجَد نفسه مشحونةَ بهذا السمِّ، ومملوءة بهذه الآفات، فلا شكَّ في أنَّ

الباعث على التوبة

رسول الله ﷺ يقول: «لَلَّهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمنِ مِنْ رجلٍ في أرضٍ دَوِّيَّة مَهْلِكَةٍ، معه راحلتُه، عليها طعامُه وشرابه، فنام، فاستيقظ وقد

مَن حصل له علمُ ذلك انبعث منه خوفُ هجوم الهلاك، فتعيَّن عليه المبادرةُ لطلب أمرٍ يدفع به عن نفسه ضررَ ما يتوقعه، ويخافه. فحينئذ ينبعث منه الندم على ما فرَّط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى، فيصدقُ عليه أنه تائب، فإن لم يكنْ كذلك كان مصرّاً على المعصية، ومُلازِماً لأسباب الهلكة.

ثم اعلم بعد هذا: أن الذنوبَ إما كفر، وإمَّا غيره، فتوبةُ الكفر عند موته مقطوعٌ بقبولها، وما عداها فمقبولة، إن شاء الله بوعده الصدق، وقولِه الحق. وأعني بالقبول: الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجعَ كمن لم يعملْ ذنباً، كما قال ﷺ: «التائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له»[١]. ثم إن الذنبَ الذي يُتاب منه إما حق الله تعالى، وإما حقّ لغيره، فحقُّ الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك الذي ذكرناه، غير أن منها: ما لم يكتفِ الشرعُ منه بمجرد الترك، بل: أضاف إلى ذلك في بعضها قضاءً كالصلاة والصوم، ومنها: ما أضاف إليها كفارةً كالحنث في الأيمان والظهار وغير ذلك، فلا يرتفعُ ضَرَرُ ذلك الذنب إلا بتركه، وفعل ما أمره الله تعالى به من القضاء والكفَّارة. وأما حقوقُ الآدميين، فلا بُدَّ من إيصالها إلى مستحقِّيها، فإن لم توصلْ إلى أربابها لم يتخلَّصْ من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفِعْل ما أمره الله به، ومَن اجتهد في الخروج عن الحقوق، فلم يقدرْ على الخروج منها، فعفو الله مأمول، وفضلُه مبذول، وكم ضمن من التبعات، وكم بدَّل من السيئات بالحسنات، وتفصيلُ ما أجملناه موجودٌ في كتب مشايخ الإسلام ـ رحمهم الله ـ.

أنواع الذنوب التي يُتاب منها

و (قوله: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوِّيَّة مهلكة. . . الحديث») هذا مثلٌ قُصِدَ به بيانُ سرعة قبول الله تعالى لتوبة عبده التائب

سرعة قبول الله لتوبة عبده

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠).

ذهبتْ، فطلبها حتى أدركَه العطشُ، ثم قال: أرجعُ إلى مكاني الذي كنتُ فيه فأنامُ حتى أموتَ، فوضعَ رأسَهُ على ساعِدِه ليموتَ، فاستيقظ وعنده راحلتُه، وعليها زادُه، وطعامُه، وشرابُه، فاللَّهُ أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن مِنْ هذا براحلته وزاده».

رواه أحمد (١/ ٣٨٣)، والبخاريُّ (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤)، والترمذيُّ (٢٤٩٩ و ٢٥٠٠).

فإنه يُقبلَ عليه بمغفرته ورحمته، ويعامله معاملة مَن يفرح به. ووجهُ هذا المثل: أن العاصيَ حصلَ بسبب معصيته في قبضة الشيطان وأَسْره. وقد أشرف على الهلاك. فإذا لطفَ اللَّهُ تعالى به، وأرشده للتوبة خرجَ من شُؤم تلك المعصية، وتخلَّص من أَسْر الشيطان، ومن المهلكة التي أشرف عليها، فأقبل اللَّهُ تعالى عليه برحمته ومغفرته، وبادر إلى ذلك مبادرة هذا الذي قد انتهى به الفرح، واستفزَّه السرور إلى أن نطق بالمحال، ولم يشعرْ به لشدَّة سُروره وفَرَحه، وإلا فالفرحُ الذي هو من صفاتنا محالٌ على الله تعالى؛ لأنه اهتزازٌ وطرب، يجده الإنسانُ من نفسه عند ظفره بغرض يستكملُ به الإنسانُ نقصانَه، ويسدُّ به خلَّته، أو يدفع عن نفسه ضرراً، أو نقصاً، وكلُّ ذلك محالٌ على الله تعالى، فإنه الكاملُ بذاته، الغني بوجوده، الذي لا يلحقه نقص ولا قصور، لكن هذا الفرحَ عندنا له ثمرةٌ وفائدة، وهو الإقبالُ على الشيء المفروح به، وإحلاله المحلَّ الأعلى، وهذا هو الذي يصحُّ في حقِّه تعالى، فعبَّر عن ثمرة الفرح بالفرح على طريقة العرب في تسميتها الشيءَ باسم ما جاوره، أو كان منه بسبب. وقد قدَّمنا أنَّ ذلك القانونَ جارٍ في كل ما أطلقه اللَّهُ تعالى على نفسه من الصفات التي لا تليقُ به، كالغضب، والرضا، والضحك وغير ذلك.

و (قوله: «دَوِّيَّة مهلكة») الروايةُ المشهورةُ بفتح الدال، وتشديد الواو المكسورة، وتشديد الياء مفتوحة، وهي: القفر والفلاة. وجمعها: داوي. قال

[٢٦٦٧] ومن حديث أنسٍ: «فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح: اللهم! أنت عبدي وأنا ربُّك ـ أخطأ من شدة الفرح ـ».

رواه أحمد (٣/ ٢١٣)، والبخاريُّ (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) (٧).

* * *

الخليل: الداوية: المفازة. وقال الهروي في خُطْبة الحجاج:

قَـدْ لَفَّهـا اللَّيْـلُ بِعَصْلَبِـيِّ أَرْوَعَ خَـرَّاجٍ مِـنَ الـدَّاويِّ

قـال: يعنـي الفلـوات. الـواحـدة: داويـة. فـي الصحـاح: الدَّوُّ والـدوِّيُّ: المفازة، وكذلك الدوِّيَّة، لأنها مفازةٌ مثلها فنُسِبت إليها، قال: والدوُّ أيضاً موضع، وهو من أرض العرب. وربما قالوا: داوِيَّةٌ، قلبوا الواو الأولى الساكنة ألفاً لانفتاح ما قبلها، ولا يُقاسُ عليه.

و (قوله: «مَهلكة»). الرواية بفتح الميم واللام، أي: يهلك فيها، وقد قُيِّد مُهلكة بضم الميم وكسر اللام، اسم فاعل، أي: يهلك مَن يدخل فيها، وإنما سُمِّيت القفر المفازة من قولهم: فوز الرجل، إذا هلك. وقيل: بل على طريق التفاؤل، كما يقال للديغ: سليم.

و (قول الحارث بن سويد: حدثني عبد الله حديثين، أحدهما عن رسول الله ﷺ، والآخر عن نفسه). ثم حدَّث بالحديث الذي ذكرناه في التوبة. ولم يذكر مسلمٌ الحديثَ الأول الذي حدَّث به نفسه، وقد ذكر البخاريُّ والترمذيُّ وغيرهما، فقال: المؤمـن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخافُ أن يقعَ عليه، والفاجر يرى ذنوبَه كذبابٍ مرَّ على أنفه فقال به هكـذا[1] فهذا هو الذي حدثه ابنُ مسعود عن نفسه، لا أنه رفعه للنبي ﷺ وهو صحيح المعنى، يشهدُ له ما في الوجود من خوف المؤمن، وتهاون الفاجر والمنافق.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٣)، والبخاري (٦٣٠٨)، والترمذي (٢٤٩٧).

(٢) بـــاب

ما يخاف من عقاب الله على المعاصي

[٢٦٦٨] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العُقُوبة؛ ما طمِعَ بجنته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرَّحمة؛ ما قَنَط من جنته أحدٌ».

رواه أحمد (٢/ ٣٣٤)، ومسلم (٢٧٥٥)، والترمذي (٣٥٣٦).

[٢٦٦٩] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «قال رجلٌ ـ لم يعمل حسنةً قط ـ لأهله إذا مات فحرِّقوه، ثم اذْرُوا نصفه في البرِّ ونصْفَه في البحر،

و (قوله: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عند اللَّهِ من العقوبة ما طمعَ بجنَّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»). يعني: لو علم ذلك، وجرّد النظر إليه، ولم يلتفت إلى مقابله، وأما إذا نظر إلى مقابل كلٍّ واحد من الطرفين، فالكافر ييأس من رحمة الله تعالى، والمؤمن يرجو رحمة الله تعالى، ويخافُ عقابه، كما قال بعضهم: لو وُزِن خوفُ المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

و (قوله: «قال رجلٌ لم يعملْ خيراً[1] قطُّ») هذه الروايةُ فيها توسُّعٌ في العبارة؛ لأنا نعلمُ قطعاً أنَّ هذا الرجلَ كان متديِّناً بدين حقّ، ومَن كان كذلك لا بدَّ أن يعملَ حسنة: صوماً، أو صلاة، أو تلفّظاً بخير، أو شيئاً من الخير الذي تقتضيه شريعتُه، وإنما الرجلُ كان خطّاءً، كثير المعاصي، وقد نصّ على هذا المعنى في رواية أخرى في الأصل فقال: «أسرف رجل على نفسه فلما حضرته الوفاة...»[2] وذكر الحديث.

---

(١) في التلخيص: حسنة.

(٢) انظر هذه الرواية في صحيح مسلم (٢٧٥٦) (٢٥).

فوالله! لئن قَدَر الله عليه ليعذبنَّه عذاباً لا يعذِّبُهُ أحداً من العالمين، فلما مات الرجل فَعَلوا ما أمَرهم به. فأمر الله البرَّ فجمع ما فيه، وأمر البحر

حُكم من شك في صفة من صفات الله

و (قوله: «لئن قَدَر اللَّهُ عليه ليعذبنَّه») الروايةُ التي لا يُعْرَفُ غيرُها قَدَر بتخفيف الدال، وظاهرُ هذا اللفظ أنه شكّ في كون الله تعالى يقدرُ على إحيائه وإعادته، ولذلك أَمَرَ أهلَه أن يحرقوه، ويسحقوه، ويذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فكأنه توقَّع إذا فُعِل به ذلك تعذَّرتْ إعادتُه. وقد أوضح هذا المعنى ما رواه بعضُ الرواة في غير كتاب مسلم قال: «فلعلِّي أُضِلُّ اللَّه» أي: أغيبُ عنه. وهذا ظاهرٌ في شكِّ الرجل في علم الله تعالى، والأُولى ظاهرةٌ في شكِّه في أنه تعالى يقدرُ على إعادته، ولما كان هذا انقسم الناسُ في تأويل هذا الحديث قسمين: القسم الأول طائفة حملتْ ذلك على ظاهره، وقالوا: إن هذا الرجلَ جَهِلَ صفتين مِن صفات الله تعالى وهما: العلم والقدرة، ومَن جهل ذلك لم يخرجْ من اسم الإيمان، بخلاف مَن جحدها، وإليه رجع أبو الحسن الأشعري، مع أنه قد كان تقدَّم له قولٌ آخر بأنه مكفر. وهو مذهبُ الطبري.

قلتُ: وهذه الطائفةُ انصرفتْ عن معنى الحديث إلى معنى آخر، اخْتَلَفَ فيه المتكلمون. وهو تكفيرُ مَن اعترف بأنّ اللَّهَ قادرٌ بلا قدرة، وعالمٌ بلا علم، ومريدٌ بلا إرادة، فهل يُكفَّر أم لا يكفَّر؟ على اختلاف القولين المتقدِّمَيْن. ولا يختلف المسلمون في أن مَن جهلَ أو شكَّ في كون الباري تعالى عالماً به وقادراً على إعادته كافر، حلال الدم في الدنيا، مخلَّد في النار في الآخرة؛ لأن ذلك معلومٌ من الشرع بالضرورة، وجَحْدُه أو الشك فيه تكذيبٌ للرسول ﷺ قطعاً. فمقتضى الحديث بظاهره أنَّ الرجلَ كافرٌ على مُقتضى شريعتنا. ولذلك قالت طائفةٌ: فلعلَّ شَرْعَ ذلك الرجل لم يكنْ فيه الحكمُ بتكفيرِ مَن جَهِلَ ذلك، أو شكّ فيه، والتكفيرُ حكمٌ من الأحكام الشرعية فيجوزُ أن تختلفَ الشرائع فيه، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب! وأنت أعلم. فغفر الله له».

رواه البخاريُّ (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦) (٢٤).

قلتُ: وهذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ هاتين القاعدتين من ضروريات الشرائع، إذ لا تصحُّ شريعةٌ مع الجهل، فإن اللَّهَ عالمٌ، قادر، مُريد، ولا مع الشكِّ فيها، فلا بُدَّ أن تنصَّ الرسلُ لقومهم على هذه الصفات، مع أنَّ العقولَ تدلُّ عليها، فيكون العلمُ بها[1] ضرورياً من كلِّ الشرائع، كما كان ذلك ضرورياً في شرعنا، فيكون جاحدُ ذلك والشاكُّ فيه مكذِّباً لرسوله، وتكذيبُ الرسل كفرٌ في كلِّ شرعٍ بالضرورة. وقالت طائفةٌ ثالثة: يجوزُ أن تكونَ شريعةُ أولئك القوم أنَّ الكافر يُغْفَرُ له، فإنَّ هذا جائزٌ عقلاً، فلا يبعدُ أن يكونَ ذلك شرعاً مع القَطْع بأنَّ ذلك لا يصحُّ في شرعنا، ومَن شكَّ فيه فهو كافر.

قلتُ: وهذا يتطلَّبُ أيضاً أحاديثَ الشفاعة المتقدمة في الإيمان، فإنَّها تقتضي أنَّ أهلَ التوحيد المعذَّبين في النار إذا شَفَعَ فيهم أنبياؤهم، وشفع نبيُّنا ﷺ حتى لا يبقى أحدٌ من أمته في النار قال حينئذ نبيُّنا: «يا رب! ائذنْ لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول الله له: ليس ذاك إليك، فحينئذٍ يقولُ الله: وعزَّتي وجلالي! لأُخرجنَّ مَن قال لا إله إلا الله»[2]. وعموماتُ القرآن تدلُّ على أنَّ من مات كافراً، كائناً من كان، لا يخرج من النار، ولا تناله شفاعةُ شافعٍ.

خلود الكافر في النار

القسم الثاني: قالوا إنه لم يكنْ جاهلاً بصفةٍ من صفات الله تعالى، ولا شاكّاً في شيءٍ منها، وتأوَّلوا الحديثَ تأويلاتٍ:

أحدها: أن الرجلَ صَدَر عنه ما صَدَرَ حالةَ خوفٍ غالبٍ عليه، فغَلِط، فلم

---

(١) في (ز): بذلك.

(٢) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) (٣٢٦).

[٢٦٧٠] وعن أبي سعيدٍ الخدري، عن النَّبيِّ ﷺ: «أنَّ رجلاً فيمن كان قبلكم رَاشَهُ الله مالاً وولداً، فقال لولده: لَتَفْعَلُنَّ ما آمركم به، أو لأُوَلِّيَنَّ ميراثي غيرَكُم! إذا أنا متُّ فأحرقوني ـ وأكبر علمي أنه قال ـ: ثم

يُؤاخَذْ بقوله ذلك، كما لم يُؤَاخَذِ القائلُ: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»[1].

وثانيها: أن هذا جارٍ على نحو ما قد جرى في كلام العرب البليغ ممَّا يُسمِّيه أهلُ النقد: تجاهل العارف، وسمَّاه ابنُ المعتز: مَزْج الشكّ باليقين، وهو نحو قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وكقول الشاعر:

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بَيْنَ جَلاَجِلٍ وبَيْنَ النَّقَا أأنتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

وقد علم أنها هي. ومثله كثير.

وثالثها: أن «قدر» معناه: «ضيّق». يعني أن الله تعالى إن ناقشه الحساب وضيّقه عليه ليعذبنه أشد العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضيق عليه، وهذا التأويلُ حَسَن، لكنه يخصّ لفظ قدر، والتأويلُ الأول أولى لأنه يعمّ: (قدر)، و (لعلّي أضل الله) ويشهد لكون هذا الحديث مُؤَوَّلاً، وليس على ظاهره قوله في آخر الحديث حين قال اللَّهُ له: «ما حَمَلَكَ على ما صنعت؟ فقال: خشيتُك يا رب». فلو كان جاهلاً بالله، أو بصفاته، لما خافه، ولما عمل شيئاً لله، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «راشه الله مالاً») كذا الرواية الصحيحة، ومعناه: أكسبه الله مالاً. قال ابنُ الأعرابي: الرياش: المال. قال القتبي: أصلُه من الريش، كأن المعدمَ لا نهوضَ له مثل المقصوص من الطير. وعند الفاسي: رأسه بألف مهموزة وسين مهملة، وهو تصحيفٌ، ولا وَجْه له. وفي رواية: «رغسه الله مالاً وولداً» بغين

---

(١) انظره في التلخيص برقم (٢٧٧٢).

اسحقوني، واذروني في الرِّيح فإنِّي لم أبْتَهِرْ عند الله خيراً، وإن الله يَقْدِرُ عليَّ أن يُعَذِّبني! قال: فأخذ منهم ميثاقاً، ففعلوا ذلك به وربي! فقال الله: ما حملك على ما فعلت؟! قال: مخافتك! قال: فما تَلَافَاهُ غيرُها».

وفي روايةٍ: «رَغَسَهُ اللَّهُ مالاً وولداً»، وفيها: «لم يبتئر عند الله خيراً». فسَّرها قتادةُ: لم يدَّخِر.

وفي أخرى: «ما ابتأر».

وفي أخرى: «ما امتأر».

رواه البخاريُّ (٣٤٧٨)، ومسلم (٢٧٥٧) (٢٧ و ٢٨).

* * *

معجمة وسين مهملة، أي: أعطاه اللَّهُ تعالى مِن ذلك كثيراً. قال أبو عبيد: يقال: رَغَسه الله يرغسُه رغساً: إذا كان مالُه نامياً كثيراً، وكذلك هو في الحسب.

و (قوله: «فلم يبتهر») بالهاء رواية الشيوخ، وعند ابن ماهان: لم يبتئر، بالهمزة، وكلاهما بمعنى واحد، والهمزة تبدل من الهاء، وكذلك ابتار وامتار بالباء، والميم فإنها تبدل منها. وقد فسّرها في الأصل فقال: لم يدَّخر. وهو تفسيرٌ صحيح، ويشهدُ له المعنى والمساق.

و (قوله: «فإنَّ اللَّهَ يقدرُ على أن يُعَذِّبني») وجدنا الروايات والنسخ تختلفُ في ضبط هذه الكلمات، وحاصلُه يرجع إلى تقييدين:

أحدهما: تشديد إنّ مكسورة ونصب الاسم المعظَّم بها، ويقدر مرفوعاً فعل مضارع، وهو خبر إنَّ، على أنَّ يعذِّبنى متعلّق به، وهذا خبرٌ محقَّق عن الرجل، أخبر به عن نفسه أن الله يقدر على تعذيبه، وهي روايةٌ صحيحة لقول من قال: لم يكن جاهلاً ولا شاكّاً، وإنما كان خائفاً.

(٣) بـــاب

في رجاء مغفرة الله تعالى وسعة رحمته

[٢٦٧١] عن عبد الله بن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحدٌ أَحَبَّ إليه المدحُ من الله عزَّ وجلَّ، من أجل ذلك مَدَحَ نفسه. وليس

وثانيهما: تخفيف إنْ المكسورة، ورفع اسم الله تعالى بعدها، وجزم يقدرْ بها عليَّ مشددة الياء، ويعذِّبْني مجزومٌ على جواب الشرط. وهذه الروايةُ مصحِّحةٌ لقول مَن قال: إن الرجلَ كان شاكّاً على ما ذكرناه. والأول أشبه ما اخترناه، والله تعالى أعلم.

ومعظمُ فوائد هذا الحديث أنَّ المسرفَ على نفسه لا ييْأسُ من رحمة الله تعالى ومغفرته، وفيه ما يدلُّ على أنه كان من شرائع مَن قبلنا أنَّ للرجل أن يُورث ماله من يشاء من الناس، فنسخ ذلك شرعُنا.

عدم اليأس من رحمة الله

(٣) ومن بـــاب: رجاء مغفرة الله سبحانه وسعة رحمته

(قوله: «ليس أحدٌ أحبُّ إليه المدح من الله»). القيدُ الصَّحيح رفع أحب على أنه خبر مقدَّم، ومبتدؤه المدح، والجملة خبر ليس. وقد قيَّده بعضُ الناس: أحبَّ بالنصب على أنه خبر ليس، وفيه بُعْدٌ وتكلف، وقد تقدَّم القولُ في محبة الله غير مرَّة، ومعناها هنا: أن اللَّهَ تعالى يثيبُ مادحيه بما لا يثيبُ أحدٌ من الخلق مادحَه.

ثواب الله تعالى لمادحيه

و(قوله: «من أجل ذلك مَدَح نفسه») أي: من أجل أن يثيبَ مادحيه مَدَح نفسه، لا أنه يهتزُّ للمدح ويرتاحُ له؛ فإنَّ ذلك من سمات فقرنا وحُدوثنا، وهو مُنَزَّهٌ عن ذلك كلِّه، وقد تقدَّم القولُ في غَيْرة الله تعالى في الحدود.

أحدٌ أغْيَرَ من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش. وليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل».

رواه أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاريُّ (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠) (٣٥).

[٢٦٧٢] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يَغَارُ، وإنَّ المؤمن يغار، وغيرةُ الله أن يأتي المؤمنُ ما حَرَّم عليه».

رواه أحمد (٢/ ٣٤٣)، والبخاريُّ (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١)، والترمذيُّ (١١٦٨).

[٢٦٧٣] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي

و (قوله: «وليس أحدٌ أحبُّ إليه العذر من الله تعالى») أي: الاعتذار، يعني: التقدمة بالبيان والأعذار. ويحتمل أن يريدَ الاعتذار من عباده له من ذنوبهم إذا استغفروا منها.

الصبور: من أسماء الله تعالى

و (قوله: «ما أحدٌ أصبر على أذىً يسمعُه من الله»[1]) الصبر في اللغة: حبس النفس على ما تكرهه، أو يشقُّ عليها، وذلك على الله تعالى محالٌ، لكنه قد يكون معه الصفحُ عن الجاني، والحلم عليه، والرِّفق به، وكلُّ ذلك موجودٌ من الله تعالى فحسنٌ أن يُطلق الله تعالى ذلك على نفسه، وقد سمَّى نفسه بالصبور كما جاء في الحديث.

---

(١) ليست هذه العبارة في أحاديث الباب، ولكنها منتزعة من حديثٍ لمسلم برقم (٢٨٠٤) (٤٩) كتاب: صفات المنافقين.

بيده! لو لَمْ تُذْنِبُوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفرُ لهم».

رواه مسلم (٢٧٤٩).

[٢٦٧٤] وعن أبي أيوب: نحوه.

رواه مسلم (٢٧٤٨) (٩ و ١٠)، والترمذيُّ (٣٥٣٣).

[٢٦٧٥] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلقَ كتب في كتابٍ على نفسه ـ فهو موضوع عنده ـ: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي».

رواه أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاريُّ (٧٥٥٤)، ومسلم (٢٧٥١) (١٦).

و (قوله: «لو لم تذنبوا لذهب اللَّهُ بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، ويستغفرون الله فيغفر لهم») هذا خبرٌ من الله تعالى عن ممكنٍ مقدوَرِ الوقوع مع علم الله تعالى بأنه لا يقع، فحصلَ منه أنَّ اللَّهَ تعالى يعلمُ حالَ المقدَّر الوقوع، كما يعلمُ حالَ المحقَّق الوقوع، ونحو من هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقد عبَّر بعض العلماء عن هذا بأن قال: إنَّ اللَّهَ تعالى يعلمُ ما كان وما يكون، وما لو كان كيف كان يكون، وحاصلُ هذا الحديث: أنَّ اللَّهَ تعالى سَبَقَ في علمه أنه يخلقُ مَن يعصيه فيتوب، فيغفر له، فلو قُدِّر أَلَّا عاصي يظهرُ في الوجود لذهب اللَّهُ تعالى بالطائعين إلى جنّته، ولخلق من يعصيه فيغفر له، حتى يُوجِد ما سبق في علمه، ويُظْهِر من مغفرته ما تضمَّنه اسمُه الغفَّار، ففيه من الفوائد رجاءُ مغفرته والطماعية في سَعَة رحمته.

[٢٦٧٦] وعنه؛ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ لله مئةَ رحمةٍ، أنزل منها رحمةً بين الجنِّ، والإنس، والبهائم، والهوامِّ، فبها يتعاطفون، وبها

رحمة الله وغضبه

و (قوله: «لما قضى اللَّهُ الخَلْق كَتَب في كتابٍ عنده[1] على نفسه») أي: لما أظهر قضاءه، وأبرز أمره لمن شاء، أظهر كتاباً في اللوح المحفوظ، أو فيما شاءه فقضـاه خبر حقّ، ووعد صدق: «إن رحمتي تغلب غضبي» أي: تسبقه وتزيد عليه. وقد تقدَّم القولُ في غضب الله ورضاه، وأنَّ ذينك يرجعان إلى إرادته، وإلى مُتعلَّقها من إيصال المنافع والألطاف إلى المرحوم، أو إيصال المضارّ والانتقام للمغضوب عليه، فيرجع غضبُه إذاً ورحمته إلى الأفعال، وهو المرادُ بهذا الحديث. وإذا ظهر هذا فمعنى غَلَبَة الرحمة، أو سبقها على ما جاء في الرواية الأخرى: أن رِفقَه بالخلق، وإنعامَه عليهم، ولُطْفَه بهم، أكثر من انتقامه، وأخذه، كيف لا؟ وابتداؤه الخَلْق وتكميله وإتقانه، وترتيبه، وخلق أول نوع الإنسان في الجنة، كلُّ ذلك رحمتُه السابقة، وكذلك ما رتّب على ذلك من النّعم والألطاف في الدنيا والآخرة، وكلُّ ذلك رحماتٌ متلاحقات، ولو بدأ بالانتقام لما كمل لهذا العالم نظام. ثم العجب أنَّ الانتقامَ به كملت الرحمة والإنعام، وذلك أن بانتقامه من الكافرين كملتْ رحمتُه على المؤمنين، وبذلك حصل صلاحُهم وإصلاحهم، وتمَّ لهم دينُهم وفلاحُهم، وظهر لهم قدرُ نعمة الله عليهم في صرف ذلك الانتقام عنهم، فقد ظهر أنَّ رحمته سبقتْ غَضَبَه، وإنعامَه غلبَ انتقامه.

المراد برحمة الله في الدنيا والآخرة

و (قوله: «إن لله مئةَ رحمة أنزلَ منها رحمة») هذا نصٌّ في أنَّ الرحمةَ يُراد بها متعلَّقُ إرادة الحقِّ سُبحانه، لا نفس الإرادة، وأنها راجعةٌ إلى المنافع والنِّعم، ومقتضى هذا الحديث: أنَّ الله تعالى علم أنَّ أنواعَ النعم التي ينعمُ بها على خَلْقه مئةُ نوع، فأرسل منها فيهم في هذه الدَّار نوعاً واحداً، فيه انتظمت مصالحهم،

---

(١) ليست في التلخيص.

يتراحمون، وبها تعطفُ الوحشُ على وَلَدِها، وأخَّرَ الله تسعاً وتسعين رحمةً يرحمُ بها عبادَه يوم القيامة».

رواه أحمد (٢/ ٤٣٤)، ومسلم (٢٧٥٢) (١٩)، وابن ماجه (٤٢٩٣).

[٢٦٧٧] وعن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ يوم خلقَ السمواتِ والأرض مئةَ رحمةٍ، كلُّ رحمةٍ طباقَ ما بين السَّماء

وحصلت مرافقُهم، كما نبَّه عليها في بقيَّة الحديث، فإذا كان يوم القيامة كمَّل لعباده المؤمنين ما بقي في علمه، وهو التسعةُ والتسعون، فكملت الرحمة كلّها للمؤمنين، وهو المشارُ إليه بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وهو الذي صرَّح به النبيُّ ﷺ حيث قال لهم: «إنَّ في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، بَلْهَ ما أطْلَعَكُمْ عليه»[١]. وعند هذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فإنَّ رحيماً من أبنية المبالغة التي لا شيءَ أبلغُ منها، ويُفهم مِن هذا أنَّ الكافرين لا يبقى لهم في النار رحمة، ولا تنالهم نعمة، لا من جنس رحمات الدُّنيا، ولا من غيرها، إذ كَمُل كلّ ما علم الله من الرحمات للمؤمنين، ختم اللَّهُ لنا بما ختم للمؤمنين، ووقانا أحوالَ الكافرين.

وما قلناه في هذا الحديث أولى مِن قول مَن قال: إنّ معنى قوله: «إنّ لله مئةَ رحمة» الإغياء والتكثير؛ لأنه لم تَجْرِ عادتُهم بذلك في مئة، وإنما جرتْ بالسبعين، ولو جرتْ بذلك لكان ذلك مجازاً، وما ذكرناه حقيقة، فكان أولى، والله أعلم.

و (قوله: «إنَّ الله خَلَقَ ـ يوم خلق السَّموات والأرضَ ـ مئة رحمة» معنى خَلَـق الله مئـة رحمة

---

(١) رواه مسلم (٢٨٢٥).

والأرض، فجعل منها في الأرض رحمةً فبها تعطفُ الوالدة على ولدها، والوحشُ والطير بعضها على بعض، وإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة.

رواه أحمد (٤٣٩٥)، ومسلم (٢٧٥٣) (٢١).

[٢٦٧٨] وعن عمرَ بنِ الخطَّاب؛ قال: قَدِمَ على رسول الله ﷺ سَبْيٌ؛ فإذا امرأةٌ من السَّبي تبتغي؛ إذا وجدت صبيّاً في السَّبي أخذته، فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أتَرَوْن هذه طارحةً ولدَها في النار؟» قلنا: لا والله! وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها».

رواه البخاريُّ (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

* * *

خَلَقَ ـ هنا ـ: قدَّر، وهو أصلُ هذا اللفظ، كما قال زهير:

ولأنْـتَ تَفْـرِي مـا خَلَقْـتَ وَبَعْـ ـضُ القَـوْمِ يَخْلُـقُ ثُـمَّ لا يَفْـرِي

أي: يقدِّر، ويكون معناه: إنَّ اللَّهَ أظهر تقديرَه لتلك الرحمات، أي: علمه بها يوم أظهر تقديره لاختراع السموات. ويصحُّ أن يُقال: إنَّ معنى خلق: اخترع وأوجد يوم خلق السَّموات والأرض المئة الرحمة، فأرسل في هذا العالم نوعاً واحداً من تلك الأنواع، وادَّخر في الجنة سائرها ليوم القيامة.

و (قوله: «كل رحمة طباقَ بين السماء والأرض») إغياء وتكثير، وقد جاء هذا الإغياءُ بهذا النوع كثيراً في الشرع واللغة، وقد جاء في بعض ألفاظ رواة مسلم: «جعل اللَّهُ الرُّحم مئةَ جُزْء» روي بضم الراء وفتحها، وهو بمعنى الرحمة، واللفظ الذي ذكرناه هو الأصح والأوضح.

و (قوله: فإذا امرأةٌ من السَّبي تبتغي إذا وجدتْ صبياً أخذته) قال القاضي:

(٤) بـــاب
من عاد إلى الذنب فَلْيَعُدْ إلى الاستغفار

[٢٦٧٩] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ فيما يحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ، قال: «أذنبَ عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم! اغفر لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم: أنَّ له ربّاً يغفرُ الذَّنب، ويأخذ بالذّنب،

كذا في جميع نسخ مسلم، ولرواته فيه وهم، وفي كتاب البخاري: تسعى، مكان تبتغي. وهو وَجْهُ الكلام وصوابُه.

قلــتُ: ولا خفاءَ بحسن رواية تسعى، ووضوحها، لكن لرواية (تبتغي) وجهٌ واضح، فلا يُغلَّط الرواةُ كلُّهم، وذلك أن تبتغي معناه: تطلب ولدها، وحذف مفعوله للعلم به.

[(٤) ومن بـــاب: من عاد إلى الذنب فليعد إلى الاستغفار](١)

(قوله: «أذنبَ عبدٌ ذنباً فقال: اللَّهُمَّ اغفرْ لي ذنبي، فقال تباركَ وتعالى: أذنبَ عبدي ذنباً علمَ أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ بالذنب») يدلُّ على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته، وحلمه وكرمه، ولا شكَّ في أن هذا الاستغفار ليس هو الذي ينطقُ به اللسان، بل الذي يثبتُ معناه في الجِنان، فيحلُّ به عقد الإصرار، ويندمُ معه على ما سلفَ من الأوزار. فإذاً الاستغفار ترجمةُ التوبة، وعبارةٌ عنها، ولذلك قال: «خيارُكم كلُّ مُفْتَنٍ توَّابٍ»(٢). قيل: هو الذي يتكرَّر منه الذنب والتوبة، فكلَّما وقع في الذنب عادَ إلى التوبة، وأما من قال

فَضْل الاستغفار وعظيم فضل الله

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧١٢٠) عن النعمان بن سعد، و (٧١٢١) عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ.

ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ ربِّ! اغفرْ لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم: أنَّ له رباً يغفر الذَّنب، ويأخذ بالذَّنبِ ثم عاد فأذنب فقال: أيْ ربِّ! اغفر لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم: أنَّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؛ اعملْ ما شئت فقد غفرت لك».

رواه أحمد (٢/ ٤٠٥)، والبخاريّ (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) (٢٩).

* * *

بلسانه: أستغفر الله، وقلبُه مصرٌّ على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبار إذ لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. وفائدة هذا الحديث أنَّ العودَ إلى الذنب، وإن كان أقبحَ من ابتدائه، لأنه انضاف إلى الذنب نقضُ التوبة، فالعودُ إلى التوبة أحسنُ من ابتدائها، لأنها: انضافَ إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافرَ للذنوب سواه.

و (قوله: «اعملْ ما شئتَ فقد غفرتُ لك») قد تقدَّم القول فيه، ونزيد هنا نكتة، وهي: أن هذا الأمر يحتملُ أن يكون معناه الإكرام، فيكون من باب قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦]. وآخر الكلام خبر عن حالِ المُخاطَب؛ لأنه مغفور له ما سلفَ من ذنبه، ومحفوظ ـ إن شاء الله ـ فيما يستقبلُ من شأنه.

* * *

(٥) بـــاب
في قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾

[٢٦٨٠] عن عبد الله بن مسعود، قال: جاء رجلٌ إلى النَّبـيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإنِّي أصبتُ منها ما دون أن أمسَّها فأنا هذا فاقض فيَّ ما شئت؟ فقال له عمر: لقد سترك الله

---

(٥) ومن بـــاب: في قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾

(قوله: «إني عالجتُ امرأةً») أي: حاولتها لأصيبَ منها غرضاً وشهوة، وأقصى المدينة: ما بَعُد منها، يعني موضعاً خالياً عن الناس.

و (قوله: إني أصبتُ منها ما دونَ أن أمسَّها) أي: لم أجامعْها، وقد قال في رواية أخرى: إن الذي أصابَ منها قبلةً قبَّلها، وإياها عنى في الرواية الأخرى بقوله: أصبتُ حَدّاً، ويحتمل أن يكون معناه أصبت منها شيئاً ممنوعاً، لأن الحدَّ في أصله هو المنع، ويحتمل أنه ظنَّ أن في ذلك حدّاً فأطلق عليه ذلك. وهو الظاهرُ من قوله: أصبتُ حدّاً فأقمْ عليَّ كتابَ الله.

و (قوله: فانطلقَ فأتبعَه النبيُّ ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ١١٤]). إنما دعاه النبيُّ ﷺ بعد انصرافه عنه، لأن الله تعالى أنزلَ الآية بعد انصرافه بسبب سؤال الرجل المذكور كما جاء نصّاً في رواية أخـرى: أن رجلاً أصابَ من امرأة قبلةً فأتى النبيَّ ﷺ فذكرَ ذلك له. قال: فنزلت الآية[١]. فبيّن أن الآية نزلت بسبب ذلك الرجل. وإقامة الصلاة: القيام بفعلها على سُنَّتها والمثابرة عليها. وطرفا النهار: هما الصبح والعصر. وقيل: الظهر والعصر، وقيل: العشاء والمغرب. وزلفاً من الليل: بفتح اللام على قراءة الجماعة، وهي السَّاعات المتقاربة، جمع زُلفة، وهي القربة والمنزلة،

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٣) عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ.

لو سترت على نفسك! قال: فلم يرد عليه النَّبيُّ ﷺ شيئاً، فقام الرَّجل فانطلق، فأتبعه النَّبيُّ ﷺ رجلاً دعاه، فتلا عليه هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، فقال رجل من القوم: يا نبي الله! هذا له خاصةً؟ قال: «بل للنَّاس كافةً».

رواه أحمد (١/ ٤٤٥)، ومسلم (٢٧٦٣) (٤٢)، وأبو داود (٤٤٦٨)، والترمذيُّ (٣١١٢)، والنسائيّ في الكبرى (٧٣٢٤)، وابن ماجه (١٣٩٨).

[٢٦٨١] وعن أنسٍ، قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أصبت حداً فأقمه عليَّ! قال: وحضرت الصلاة، فصلَّى مع

وقرأها يزيد بضم اللام، وابن محيصن: بسكونها. والمراد المغرب والعشاء، والله أعلم.

و (قوله: إن الحسنات يُذهبن السيئات) يعني: الصلوات الخمس، كما قد جاء مفسّراً عنه ﷺ. قاله الطبري، وقال مجاهد: هي: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله.

قلتُ: واللفظ بحكم عمومه صالح لما قالاه، ولزيادة عليه، كما قال ﷺ: «الصلوات الخمسُ، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفَّارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(١). وقد تقدَّم القول في معنى هذا الحديث في الطهارة.

و (قوله: ذلك ذكرى للذاكرين) أي: تذكُّر لمن تذكَّر، واتِّعاظ لمن اتَّعظَ. وقيل: إن هذا الرجل هو عمرو بن غزيّة، كان يبيعُ التمر، فقال لامرأة: في البيت

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٥٩)، ومسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وابن ماجه (١٠٨٦).

رسول الله ﷺ، فلما قضى الصَّلاة قال: يا رسول الله! إني أصبت حداً فأقم فيّ كتاب الله! قال: «هل حضرت معنا الصلاة؟» قال: نعم. قال: «قد غفر لك».

رواه مسلم (٢٧٦٤).

[٢٦٨٢] وفي روايةٍ: [عن أبي أمامة] قال: «أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟ قال: بلى. قال: ثم شهدت الصلاة معنا؟ قال: نعم. قال: «فإنَّ الله قد غفر لك حدَّك!» أو قال: «ذنبك».

رواه مسلم (٢٧٦٥).

* * *

(٦) بـــاب
لا ييأسُ من قبول التوبة
ولو قتل مئة نفسٍ

[٢٦٨٣] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «كان فيمنْ كان قَبلَكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنَّه قتل تسعةً وتسعين نفساً؛ فهل له من

تمرٌ أجودُ من هذا، فدخلت، فوثبَ عليها وقبَّلها ثم تركها نادماً. فجاء باكياً إلى النبي ﷺ فنزلتِ الآيةُ، فقال له: «هل حضرتَ معنا الصلاة؟» فقال: نعم. قال: «غُفِرَ لك»، وقيل: إنها كانت صلاة العصر.

[(٦) ومن بـــاب: لا يَيْأسُ من قبول التوبة ولو قتلَ مئة نفس][1]

(قول الراهب لقاتل التسعة والتسعين إنه لا توبة له). دليلٌ على: قِلَّة علم

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

توبةٍ؟ فقال: لا. فقتله، فكمل به مئة! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنَّه قتل مئة نفسٍ؛ فهل له من توبة؟ قال: نعم!

ذلك الراهب، وعدم فطنته، حيث لم يُصبْ وجهَ الفتيا، ولا سلكَ طريق التحرُّز على نفسه، ممن صارَ القتل له عادة معتادة، فقد صار هذا مثل الأسد الذي لا يُبالي بمن يفترسُه، فكان حقُّه ألَّا يشافهه بمنع التوبة مداراةً لدفع القتل عن نفسه، كما يُدارى الأسدُ الضاري، لكنه أعان على نفسه، فإنه لما آيسه من رحمة الله وتوبته قَتَلَه، بحكم سَبُعيته ويأسه من رحمة الله وتوبته عليه، ولما لطفَ الله به بقيَ في نفسه الرغبة في السؤال عن حاله. فما زالَ يبحثُ إلى أن ساقَه الله تعالى إلى هذا الرجل العالم الفاضل، فلما سألَه نطقَ بالحق والصواب، فقال له: ومن يحولُ بينكَ وبينها؟ مفتياً ومنكراً على من ينفيها عنه، ثم إنه أحالَه على ما ينفعه، وهو مفارقته لأرضه التي كانت غلبت عليه بحكم عادة أهلها الفاسدة، ولقومه الذين كانوا يُعينونه على ذلك، ويحملونه عليه. وبهذا يُعلم فضلُ العلم على العبادة، فإنَّ الأوَّلَ غلبت عليه الرهبانية. واغترَّ بوصف الناس له بالعلم، فأفتى بغير علم، فهلكَ في نفسه وأهلكَ غيرَه. والثاني كان مشتغلاً بالعلم ومعتنياً به، فوُفِّق للحقِّ، فأحياه الله في نفسه، وأحيا به النَّاسَ. قال القاضي: ومذهبُ أهل السنَّة والجماعة أن التوبة تُكفِّر القتل كسائر الذنوب، وهو قول كافَّة العلماء، وما رُوي عن بعضهم من تشديد في الزجر وتورية في القول فإنما ذلكَ لئلا يجترىء الناس على الدماء، وقد اختلف في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] فقيل معناه: إنْ جازاه، وقيل: الخلود: طول الإقامة لا التأبيد، وقيل: الآية في رجل بعينه قتلَ رجلاً له عليه دم بعد أخذ الدية ثم ارتدَّ، وقد تقدَّم القول على أن كلَّ ما دون الشرك يجوزُ أن يغفرَه الله تعالى، وأنه ليس من ذلك شيء كفراً؛ قتلاً كان أو ترك صلاة أو غيرها، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. ولقوله في حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: «تبايعوني على ألَّا تُشركوا بالله شيئاً، ولا

فضل العلم على العبادة

ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا، وكذا، فإنَّ بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنَّها أرضُ سوء! فانطلق حتى إذا نَصفَ الطريقَ أتاه ملكُ الموتِ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه

تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم الله إلا بالحق، فمن أصاب شيئاً من ذلك فعُوقب به، فهو كفَّارة له، ومن أصابَ شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمرُه إلى الله إن شاءَ عفا عنه، وإن شاء عذَّبه»(١)، ولقوله ﷺ في حديث عبادة أيضاً: «خمسُ صلواتٍ افترضَهُنَّ الله عز وجل على العباد، فمن جاءَ بهنَّ لم يضيِّع منهن شيئاً كان له عند الله عهدٌ أن يغفرَ له، ومن لم يأتِ بهنَّ فليس له عند الله عهدٌ إن شاء غفرَ له وإنْ شاء عذَّبه»(٢). وهذه حجج صريحة تبيِّن فسادَ مذهب المكفرة بشيء من ذلك.

و (قوله: «نَصَفَ الطريقَ») أي: بلغ نصفَه، يقال: نصفَ الماءَ والشجرةَ وغيرَهما؛ إذا بلغَ نصف ذلك.

و (قوله: نأى بصدره) أي: نهضَ به مع ثقل ما أصابَه من الموت، وذلك دليلٌ على صحة توبته وصدق رغبته.

و (قوله: «فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: إنه جاء تائباً مقبلاً بقلبه»). هذا نصٌّ صريح في أن الله تعالى أطلعَ ملائكة الرحمة على ما في قلبه من صِحة قصده إلى التوبة وحرصه عليها، وأن ذلك خفي على ملائكة العذاب حتى قالت: إنه لم يعملْ خيراً قط. ولو اطَّلعتْ على ما في قلبه من التوبة، لما صحَّ لها أن تقولَ هذا، ولا تُنازعَ ملائكة الرحمة في قولها: إنه

---

(١) رواه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩)، والترمذي (١٤٣٩).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣١٥)، وأبو داود (٤٢٥)، وابن حبان (١٧٣١) الإحسان.

إلى الله! وقالت ملائكة العذاب: إنَّه لم يعملْ خيراً قطُّ! فأتاهم ملك في صورة آدميٍّ؛ فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكةُ الرحمة». قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا: أنَّه لما أتاه الموتُ نأى

جاء تائباً مقبلاً بقلبه، بل شهدت بما في علمها، كما شهدَ الآخرون بما تحقَّقوه. لكنَّ شهادةَ ملائكة الرحمة على إثبات، وشهادةَ ملائكة العذاب على عدم علم، وشهادة الإثبات مقدَّمة. فلا جرمَ لمَّا تنازع الصنفان وخرجَ كلاهما عن الشهادة إلى الدعاوى، بعث الله إليهما ملكاً حاكماً يفصل بينهما، وصوَّره بصورة الآدميِّ، إخفاءً عن الملائكة وتنويهاً ببني آدم، وأنَّ منهم من يصلحُ لأن يفصلَ بين الملائكة إذا تنازعوا.

حُكم المتخاصمَيْن إذا حكّما رجلاً بينهما

و (قوله: «فجعلوه بينهم») فيه حجَّة لمالك على قوله إن المتخاصِمَيْن إذا حكَّما بينهما رجلاً يصلح للتحكيم لزمهما ما يحكمُ به، وقد خالفَه في ذلك الشافعي.

جواز الحكم بالقرائن

و (قوله: «فقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له»). دليل على أن الحاكم إذا تعارضتْ الأقوال عنده، وتعذَّرتْ الشهادات، وأمكنَه أن يستدلَّ بالقرائن على ترجيح بعض الدعاوى، نفذ الحكم بذلك، كما فعلَه سليمانُ عليه السلام حيث قال: ائتوني بالسِّكين أشقُّه بينهما.

تنبيـــه: قال القاضي: جعلَ الله قربَه من القرية علامة للملَك عند اختلافهم مع عدمهم معرفة حقيقة باطنه التي اطَّلَع الله عليها، ولو تحقَّقوا توبتَه لم يختلفوا ولم يحتاجوا للمقايسة.

قلـــتُ: وهذه غفلة منه عن قول ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله عز وجل. وهذا نص في أن ملائكة الرحمة علمت ما في قلبه، فلو علمت

بصدره، وزاد في أخرى: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي».

رواه أحمد (٣/ ٢٠)، والبخاريُّ (٣٤٧)، ومسلم (٢٧٦٦) (٤٦ و ٤٨)، وابن ماجه (٢٦٢٢).

* * *

ملائكة العذاب ما في قلبه لما تنازعوا، لأن الملائكة كلّهم، لا يخفى عليهم أن التوبة إذا صحَّت في القلب، وعُمل على مقتضاها بالجوارح بالقدر الممكن مقبولة بفضل الله تعالى ووعده الصادق، والأحسن ما ذكرناه إن شاء الله تعالى، وإنما جعلَ الله قربَ تلك الأرض سبباً مرجِّحاً لحجَّة ملائكة الرحمة. ومصدِّقاً لصحة التوبة، وفيه دليل على أن أعمالَ الظاهر عنوانٌ على الباطن.

قبول التوبة الصادقة

و (قوله: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرَّبي»). إنما كان ذلك لما حكم الحاكمُ بقياس الأرض. ويُفهم منه أنَّ الرجلَ كان أقربَ إلى الأرض التي خرجَ منها، فلو تركَ الله الأرضَ على حالها، لقبضته ملائكةُ العذاب، لكن غمرته الألطاف الإلهية، وسبقت له العناية الأزلية، فقرّبت البعيد، وألانت الحديد. ويُستفاد منه أن الذنوبَ وإن عظمت، فعفو الله أعظمُ منها، وأنَّ من أُلهم صدقَ التوبة. فقد سُلك به طريق اللطف والقربة.

عفو الله أعظم من الذنوب

* * *

(٧) بـــاب
يهجر من ظهرت معصيته حتى تتحقق توبته
وقبول الله تعالى للتوبة الصادقة
وكيف تكون أحوال التائب

[٢٦٨٤] عن كعبِ بن مالكٍ؛ يحدِّثُ حديثه عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛ وهو يريدُ الرُّوم، ونصارى العربِ بالشَّام، قال كعبُ بن مالكٍ: لـم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلا في غزوة تبوكَ؛ غير أنِّي قد تخلفْتُ في غزوة بدرٍ، ولم يعاتِبْ أحداً تخلَّف عنه، إنَّما خرج رسولُ الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ، ولقد شهدْتُ مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ العقبةِ حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهد بدرٍ، وإن كانتْ بدرٌ أذكرَ في النَّاس منها، وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوكَ: أنِّي لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسرَ منِّي حين تخلفتُ عنه تلك الغزوة، والله! ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُّ حتى جمعتُهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ؛ واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، واستقبل عدوّاً كثيراً، فجلَّى للمسلمينَ أمرهم؛ ليتأهبوا أُهْبَةَ

---

(٧) ومن بـــاب: يُهْجَرُ من ظهرتْ معصيتُه حتى تتحقَّق توبتُه، وقبول الله تعالى للتوبة الصَّادقة، وكيف تكون أحوالُ التائب

العِيرُ: الإبلُ التي عليها أحمالُها. وقد جلَّى للناس أمرهم؛ أي: كشفه وأوضحه. يعني: أنه بيَّن لهم وَجْهَه.

غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريدُ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعهم كتابُ حافظٍ (يريد بذلك الديوان) قال كعب: فَقَلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب يظن أنَّ ذلك سيخفى له ما لم يَنْزِلْ فيه وحيٌ من الله عز وجل، وغزا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمارُ والظلال، فأنا إليها أَصْعَرُ، فتجهز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه، وطفِقْتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم فأرجعُ ولم أقضِ شيئاً، وأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردْتُ، فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجِدُّ، فأصبحَ رسولُ الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جَهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتَفَارَط الغزو، فهَمَمْتُ أن أرتحل فأدركَهُم ـ فيا ليتني فعلت ـ ثم لم يُقدَّرْ ذلك لي، فطفِقْتُ إذا خرجت في النَّاس بعد خروج رسول الله ﷺ يَحْزُنُنِي أنِّي لا أرى لي أسوةً إلا رجلاً مغموصاً عليه في النِّفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكُرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكاً، فقال ـ وهو جالس في القوم بتبوك ـ: «ما فعل كعب بن مالك؟»، قال رجل من بني

و (قوله: فقلَّ رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ يظنُّ أنَّ ذلك سيخفى له) كذا وقع هذا الكلامُ في سائر روايات مسلمٍ، وفي نُسَخه، وسقط من الكلام (إلا) قبل (يظن) وبه يستقيمُ الكلام. وهي إيجابٌ بعدما تضمَّنه (قلَّ) من معنى النفي، لأن معنى قوله: قلَّ رجل بمعنى: ما رجل، فكأنه قال: ما رجل يريدُ أن يتغيَّبَ إلا ظنَّ أنَّ ذلك سيخفى له.

و (قوله: فأنا إليها أصعرُ) هو بالعين المهملة، ومعناه: أميلُ.

و (قوله: وتفارطَ الغزو) أي: تقدَّم الغزاةُ. والفرط والفارط: المتقدِّم. وجمعه: فُرَّاط. والأُسوة: القدوة. والمغموص عليه: المعيبُ، المتَّهم، المحتقر.

سَلِمَة: يا رسول الله! حبسه برداه والنظر في عِطْفيه! فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبَيِّضاً، يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة». فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه المنافقون.

فقال كعبُ بن مالك: فلما بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من

و (قوله: حَبَسه بُرْداه والنظرُ في عِطْفَيْه) البُرْدان: يعني به: الرداء والإزار، والرداء والقميص، وسمَّاهما بُرْدين؛ لأنَّ القميصَ والإزار قد يكونان من بُرود، والبرودُ: ثيابٌ من اليمن فيها خطوط. ويحتملُ أنَّ تسميتها بُرْدَيْن على طريقة: العمرين، والبكرين، والقمرين. والعِطْفُ: الجانب. وكأنَّ هذا القائلَ كان في نفسه حِقْدٌ، ولعلَّه كان منافقاً، فنَسبَ كعباً إلى الزهو والكبر، وكانت نسبةً باطلةً بدليل شهادة العدل الفاضل معاذ بن جبل، إذ قال: بئسَ ما قلت. والله يا رسول الله! ما عَلِمْنا عليه إلَّا خيراً. فيه جوازُ الذّمِّ والتقبيح للمتكلِّم في حقِّ المسلم بالعيب والقبيح، ونصرة المسلم في حال غَيْبته، والرَّدّ عن عِرْضه.

جواز الذم للمتكلم في حق المسلم

و (قوله: إذ رأى رجلاً مُبَيِّضاً يزولُ به السراب)، هو بكسر الياء: اسمُ فاعل، من: بيَّض فهو مُبيِّض؛ أي: أظهر بياضَ نفسه في السراب. ويزول: يتحرك ويضطرب. والسَّراب: ما يُرى نصفَ النهار كأنَّه ماء.

و (قوله: «كُنْ أبا خيثمة») هذه صيغةُ أمرٍ، ومعناها الخبر، أي: هو أبو خيثمة، وقيل معناها: لِتوجدْ أبا خيثمة، واسمه عبد الله، وقيل: مالك بن قيس. ولمزه المنافقون: عابوه، واللمز: الطَّعن والعيب. وقافلاً: راجعاً. والبثُّ: أشدُّ الحزن. وطفِقت: أخذت، وهي من أفعال المقاربة على ما تقدَّم. وأظلَّ قادماً: أقبل، وهو رباعيٌّ. وزاح: ذهب وزال. وأجمعتُ صِدْقَه: عزمتُ عليه.

تبوكَ؛ حضرني بثِّي، فطفقت أتذكَّرُ الكذبَ، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأيٍ من أهلي، فلما قيل لي: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عني الباطلُ حتى عرفتُ أنِّي لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعتُ صِدْقَه، وصبَّح رسولُ الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكَلَ سرائرَهُم إلى الله، حتى جئتُ فلما سلمتُ تبسم تبسُّم المغضَب! ثم قال: «تعالَ»، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنِّي سأخرج من سحطه بعذرٍ، ولقد أُعْطِيْتُ جدلاً، ولكنِّي والله! لقد علمتُ لئن حدثتُك اليومَ حديثَ كَذِبٍ ترضى به عنِّي ليوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَك عليّ، ولئنْ حدَّثتُك حديث صدقٍ تَجدُ عليَّ فيه إنِّي لأرجو فيه عُقبى اللَّهِ. والله! ما كان لي عذرٌ. والله! ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسرَ منِّي حين تخلفتُ عنك! قال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق!

مشروعية الصلاة ركعتين في المسجد بعد السفر

و (قوله: وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه) إنما كان يفعلُ ذلك ليبدأ بتعظيم بيت الله قبل بيته، وليقوم بشكر نعمة الله تعالى عليه في سلامته، ويُسلِّم عليه الناس، وليسنَّ ذلك في شرعه. والجدل: الخصومة المحكمة. والظَّهر هنا: الإبلُ التي يُحْمَلُ على ظهورها. ومُرارة بن ربيعة، كذا وقع في كتاب مسلم، وذكره البخاري: ابن الربيع. وذكره أبو عمر بالوجهين، ونسبه مسلم فقال: العامري. والصواب: العَمْري، وكذا ذكره البخاريُّ، وابن إسحاق، وأبو عمر بن عبد البر، وهو منسوبٌ لعمرو بن عوف.

فقم حتى يقضي الله فيك». فقمتُ، وثار رجالٌ من بني سَلِمَة، فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبتَ ذنباً قبل هذا! لقد عَجَزْتَ في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون؟! فقد كان كافيَك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّبَ نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحدٍ؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك! قال: قلت: من هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ ربيعةَ العامريُّ، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقفيُّ. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً؛ فيهما أسوةٌ. قال: فمضيتُ حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ من بين من تخلَّف عنه، قال: فاجْتَنَبَنا النَّاس، وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبِثْنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأمَّا صاحبايَ فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان! وأمَّا أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجْلَدَهُم، فكنت أخرج فأشهدُ الصَّلاة، وأطوفُ في الأسواق، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلـمُ عليـه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في

و (قوله: نهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا ـ أيها الثلاثةُ ـ) هو دليلٌ على وجوب هجران مَن ظَهرتْ معصيتُه، فلا يُسلَّم عليه إلا أن يُقْلِعَ وتظهرَ توبتُه. والثلاثةُ مرفوع على الصفة لـ (أي)، ويجوز نصبُه على الاختصاص، وحكى سيبويه: اللهم اغفر لنا أيتها العصابةَ. وتنكرت: تغيَّرت. واستكانا: سكنا، أي: خضعا وذلًّا، وأشبّ القوم: أصغرهم. وأجلدهم: أقواهم. وأسارقهُ النظر: أي أنظر إليه بطَرْف خفيٍّ. وتسوَّرتُ الجدار؛ أي: علوتُ سُوره. وأَنْشُدُكَ الله؛ أي: أسألك بالله، ومنه النشيد، وهو: رفعُ الصوت بالشِّعر وغيره.

نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنِّي، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مَشَيْتُ حتى تسوَّرتُ جدار حائطِ أبي قَتَادةَ ـ وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ ـ فسلَّمْتُ عليه، فوالله ما ردَّ عليّ السَّلام! فقلت له: يا أبا قتادة! أَنْشُدُك بالله! هل تعلمنَّ أنِّي أحبُّ الله ورسوله؟ قال: فسكَتَ، فعُدْتُ فناشدته، فسكتَ، فعدْتُ فناشدْتُه، فقال: اللَّهُ ورسوله أعلم! ففاضت عيناي، وتولَّيْتُ حتى تسورتُ الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من نَبَط أهل الشام، مِمَّنْ قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فَطَفِقَ النَّاس يشيرون له إليَّ حتَّى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من مَلِكِ غسَّان ـ وكنت كاتباً ـ فقرأته، فإذا فيه: أمَّا بعد! فإنَّه قد بلغنا: أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يَجْعَلْكَ الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نواسِكَ. قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء! فتأممت بها التَّنُور، فسجرتُها بها، حتى إذا

و (قول أبي قتادة: الله ورسوله أعلم) ظاهِرُه: أنه أجابه عند إلحاحه عليه بالسُّؤال، فيكون قد كلَّمه. فيكون مخالفاً للنهي. وقد تُؤوِّل بأنّ أبا قتادة قال ذلك لنفسه مُخبراً عن اعتقاده، ولم يقصد كلامَه ولا إسماعه.

قلـــتُ: ويحتملُ أن يقال: إنَّ أبا قتادة فهم أنَّ الكلامَ الذي نُهي عنه إنما هو الحديثُ معه والمباسطة، وإفادة المعاني، فأما مثل هذا الكلام الذي يقتضي الإبعاد والمنافرة، فلا ـ والله أعلم ـ ألا ترى أنه لم يردَّ عليه السلام، ولا التفت لحديثه؟! والنّبطي: واحد النَّبط، وهم العامرون لتلك الأراضي، وسمُّوا بذلك لأنهم ينبطون المياه؛ أي: يستخرجونها. وتأمَّمتُ بها التنورَ فسجرتُها؛ أي: قصدتُ بالصحيفة التنور فرميتُها فيه، وأحرقتها، ويقال: تيمم بالياء وبالهمزة. والمَضِيعَة: بفتح

مضت أربعون من الخمسين واستلبثَ الوحيُ إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرُك أن تعْتَزِلَ امرأتَك، قال: فقلت: أطلِّقها؛ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزِلْها، فلا تقرَبَنَّها! قال: فأرسل إلى صاحِبَيَّ بمثلِ ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر! قال: فجاءت امرأة هلال بن أميَّة رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادمٌ؛ فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا! ولكن لا يَقْرَبَنَّكِ»، فقالت: إنَّه واللهِ! ما به حركةٌ إلى شيء، وواللهِ ما زالَ يبكي منذُ كانَ من أمره ما كانَ، إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتِكَ فقد أذنَ لامرأةِ هلالِ بن أُميّة أنْ تَخْدُمَه. قال: فقلت: لا أستأذنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدريني ماذا يقولُ رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ. قال: فلبثتُ بذلك عشرَ لَيالٍ فكَمُلَ لنا خمسون ليلةً مِن حينَ نُهي عن كلامِنا. قال: ثم صَلَّيْتُ صلاةَ الفجرِ صباحَ خمسينَ ليلةً على ظهر بيتٍ من بُيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكرَ الله عزَّ وجلَّ منَّا، قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارِخٍ أَوْفى على سَلْعٍ يقولُ بأعلى صوته: يا كعبَ بن مالكٍ أبشرْ، قال:

الميم وكسر الضاد، وسكونها: الضَّياع، وهو الإهمالُ، وترك المبالاة به حتى يضيع.

و (قوله: الحقي بأهلكِ فكوني عندهم حتى يقضيَ اللَّهُ في هذا الأمر) هذا يدلُّ على أنّ: الحقي بأهلك ليس من ألفاظ الطلاق، لا من صرائحه، ولا من كناياته الظاهرة، وغايتُه: أن يكون مما يحتمل أن يُرادَ به الطلاق إذا نوى ذلك.

و (قوله: وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رحبت) أي: بِرُحْبها، وما مصدرية،

فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أن قد جاءَ فرجٌ. قال: فآذنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بتوبةِ الله علينا حين صَلَّى صلاةَ الفجر، فذهبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنا، فذهبَ قِبَلَ صاحبيَّ مُبَشِّرونَ، وركضَ رجلٌ إليَّ فَرَساً، وسَعَى ساعٍ من أسلمَ قِبَلِي، وأوفى الجبلَ فكانَ الصوتُ أسرعَ من الفَرَس، فلمّا جاءَني الذي سمعتُ صوتَه يُبَشِّرُني نزعتُ ثَوْبيَّ، فكسوتُهما إيّاه ببشارته، والله ما أملكُ غيرَهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهما وانطلقتُ أتأمَّمُ رسولَ الله ﷺ، يَتَلَقَّاني النّاسُ فَوْجاً فَوْجاً، يُهَنِّئوني بالتوبةِ، ويقولون: لِتَهْنِئْكَ توبةُ الله عليكَ حتّى دخلتُ المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحولَه النّاسُ، فقامَ طلحةُ بن عُبيد الله يُهرولُ حتى صافَحني، وهنَّأني، والله ما قامَ رجلٌ

والرحب ـ بضم الراء ـ: السعة. وأوفى: أطلَّ وأشرف. وسَلْع: ـ بفتح السين وسكون اللام ـ: جبل بالمدينة معروف.

و (قوله: فخررت ساجداً) هذه سجدةُ الشكر، وظاهِرُ هذا أنَّها كانت معلومةً عندهم، معمولاً بها فيما بينهم، وقال بها الشافعي ومالك في أحد قولَيْه، ومشهورُ مذهبه الكراهة. وركضُ الفرس: إجراؤه الجري الشديد. وكِسْوَتُه للبشير ثوبيه مع كونه ليس له غيرهما، دليلٌ على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصولَ ما يستبشرُ به، وهو دليلٌ على جواز إظهار الفرح بأمور الخير والدِّين، وجواز البَذْل والهِبات عندها، وقد نحر عمرُ لما حفظ سورة البقرة جزوراً.

جواز إظهار الفرح بأمور الخير والدين

و (قوله: فتلقَّاني الناسُ فوجاً فوجاً يُهنئوني بالتوبة) أي: زمرة زمرة، وجماعة بعد جماعة. وفيه دليلٌ على جواز التَّهنئة بأمور الخير، بل على نُدْبتيها إذا كانت دِينيّة؛ فإنَّه إظهارُ السرور بما يُسَرُّ به أخوه المسلم، وإظهار المحبة، وتصفية القلب بالمودة.

جواز التهنئة بأمور الخير

حكم القيام للداخل

و (قوله: فقام طلحةُ بن عبيد الله يهرولُ حتى صافحني وهنَّأني) دليلٌ لمن

من المهاجرين غيرُه. قال: فكانَ كعبٌ لا ينساها لطلحةَ. قال كعبٌ: فلمّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قالَ وهو يَبْرُقُ وجهُه مِن السُّرور، ويقول: «أبشرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولدتكَ أُمُّك». قال: فقلت: أمِنْ عندكَ يا رسولَ الله أم مِن عندِ الله؟ فقالَ: «لا، بل من عند الله». وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه كأنَّ وجهَه قطعةُ قمرٍ. قال: وكنّا نعرفُ ذلك.

قال: فلمّا جلستُ بين يديْه، قلت: يا رسولَ الله! إنَّ من تَوْبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله، وإلى رسولِه ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أمسكْ بعضَ مالِكَ فهو خيرٌ لك». قال: فقلت: فإني أمسكُ سَهْمِيَ الذي بخيبَر، قال: وقلت: يا رسولَ الله! إنَّ اللَّهَ إنما نجّاني بالصِّدْقِ، وإنَّ من

قال بجواز القيام للدَّاخل والمصافحة. وقد بيَّنّا الخلافَ في ذلك في الجهاد.

و (قوله: وكان كعب لا ينساها لطلحة) أي: تلك القومة، والبشاشة التي صدرتْ له منه. ومعناه: أن تلك الفعلةَ أكَّدت في قلبه محبَّته، وألزمته حُرْمته حتى عدَّها من الأيدي الجسيمة، والمنن العظيمة.

و (قوله: إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله) أي: إنَّ من علامات صدق توبتي، أو من شُكْر توبتي أن أتصدَّق بمالي، أي إن عليَّ ذلك، فهي صيغةُ نَذْر والتزام، خرج مخرجَ الشكر وابتغاء الثَّواب. أقرَّ عليه النبيُّ ﷺ فكان ذلك جائزاً، ولم يدخلْ في عموم النّذر المنهي عنه بقوله: «لا تنذروا»[1] وقد بيّنا ذلك فيما تقدَّم. وعلى مُقتضى هذا اللفظ فقد وجب عليه إخراجُ كلِّ ماله، لكن لما كان ذلك يُؤدي إلى أن يبقى فقيراً محتاجاً، وربما يُفضي

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤١٢)، والبخاري (٦٦٩٤)، ومسلم (١٦٤٠) (٥ و ٦).

توبتي أَلَّا أُحَدِّثَ إلا صِدْقاً ما بقيتُ. قال: فوالله ما علمتُ أنَّ أحداً من المسلمينَ أبلاه الله في صِدْقِ الحديثِ منذُ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أَبلاني اللَّهُ به، والله ما تعمَّدتُ كِذْبَةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإنِّي لأرجو أن يحفظَني الله فيما بقيَ، قال: فأنزلَ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

به ذلك إلى سؤال الناس، وإلى الدخول في مفاسد، اكتفى الشرع منه ببعضه فقال: «أمسك عليك بعضَ مالك فهو خيرٌ لك» وهذا البعضُ الذي أمره بإمساكه هو الأكثرُ، والمتصدَّق به هو الأقل، كما قال في حديث سعد: «الثلث والثلث كثير»[1] كما تقدم.

و (قوله: فما أعلمُ أحداً أبلاه اللَّهُ في صِدْق الحديث أحسن مما أبلاني) أي: أنعم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]؛ أي: نعمة. ويقال في الخير والشر، ثلاثياً ورباعياً، وقد جمع بينهما زهير فقال:

.... وأَبلاهُما خَيْرَ البَلاَءِ الذِي يَبْلُو[2]

وأصله من الابتلاء، وهو الامتحان والاختبار. ويُمتحن بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٧] والعسرة: الشدة وسُوء الحال، وهو العسر أيضاً، وتزيغ: تميلُ وتذهب ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٧٩)، والبخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (١٦٢٨) (٥).

(٢) هذا عجز بيت، وصدره:

جَزَى اللَّهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بكم

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩]. قال كعبٌ: واللهِ ما أنعمَ الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعدَ أن هداني الله للإسلام أعظمَ في نفسي من صِدْقي رسولَ الله ﷺ ألَّا أكونَ كذبتُه فأهلكَ كما هلكَ الذين كذبوا، إن اللَّهَ قالَ للذين كَذَبُوا حينَ أنزلَ الوحيَ شرَّ ما قالَ لأحدٍ، وقال سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦]. قال كعبٌ: كنّا خُلِّفْنا أيُّها الثلاثةُ عن أَمْرِ أولئكَ الذين قبلَ منهم رسولُ الله ﷺ حينَ حلفوا له، فبايعَهم، واستغفرَ لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا حتَّى قضَى الله فيه، فبذلكَ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨] وليس الذي ذكرَ اللَّهُ مما خُلِّفنا تَخلُّفنا

[التوبة: ١١٧] أي: ألهمهم أسبابَ التوبة، وأعانهم عليها، ليتوبوا، أي: ليقبلها منهم. وقيل: تاب عليهم قبل توبتهم، وليتوبوا: أي: ليدوموا عليها.

و (قوله: ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ بعد أن هَدَاني للإسلام أعظم في نفسي من صِدْقي رسول الله ﷺ ألا أكون كَذَبته فأهلك) كذا عند جميع رواة مسلم والبخاري: ألا أكون وهي زائدة، وتقدير الكلام: أن أكون، وكما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] معناه: أن تسجد، وقد رواه الأصيلي عن البخاري: إلا أن أكون كذبته، وليست بشيءٍ، والأولى الصواب. والرّجس: المستخبث، المستقذر، المذموم.

و (قوله: كنا خُلِّفْنا أيها الثلاثة) أي: أُخِّروا عن المنافقين، ولم يُقْضَ فيهم بشيءٍ، وقد بيَّن ذلك في بقية الحديث.

عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيّانا، وإرجاؤُه أمرَنا عمَّن حلفَ له، واعتذرَ إليه فقبلَ منه.

رواه أحمد (٦/ ٣٨٦)، والبخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩) (٥٣)، وأبو داود (٢٢٠٢)، والنسائي (٢/ ٥٣).

* * *

(٨) باب
تقبل التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها

[٢٦٨٥] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تابَ قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ من مَغْرِبِها تابَ اللَّهُ عليه».

رواه أحمد (٢/ ٤٢٧)، ومسلم (٢٧٠٣).

---

(٨) ومن باب: من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب اللَّهُ عليه

يعني: أن التوبةَ تصحُّ وتُقْبَلُ دائماً إلى الوقت الذي تطلعُ فيه الشمسُ من حيث تغرب، فإذا كان ذلك طبع على كلِّ قلب بما فيه، ولم تنفعْ توبةُ أحد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] وسرُّ ذلك وسَبَبُه: أنَّ ذلك هو أوَّلُ قيامِ الساعة؛ فإذا شُوهِد ذلك، وعُويِنَ حصل الإيمانُ الضروري، وارتفع الإيمانُ بالغَيب الذي هو المكلَّفُ به، وسيأتي القولُ في تحقيق القولِ في طلوع الشمس من مغربها.

[٢٦٨٦] وعن أبي موسى، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يدَه باللَّيْلِ ليتوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، ويَبْسُطُ يدَه بالنَّهار ليتوبَ مُسيءُ اللَّيْلِ حتَّى تطلعَ الشَّمسُ مِن مَغْرِبِها».

رواه أحمد (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (٢٧٥٩) (٣١).

* * *

استدامة اللطف والرحمة من الله تعالى

و (قوله: «إنَّ الله يَبْسُطُ يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار، ويَبْسُطُ يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل») وقد تقدم الكلامُ على اليد المنسوبة لله تعالى غير مرَّة، وهذا الحديثُ أُجري مجرى المثل الذي يُفهم منه دوامُ قبول التوبة، واستدامة اللُّطف والرَّحمة، وهذا تنزُّلٌ عن مقتضى: الغنيِّ، القوي، القاهر، إلى مقتضى: اللطيف، الرؤوف، الغافر، وهو نحو قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقوله ﷺ: «من يُقرض غير عدوم، ولا ظلوم»[1]. فَمِنْ لطيفِ لطْفِه: أنه خاطَبَنا مخاطبة الأَخْذ لنفسه، المحتاج. ومن عجائب كَرَمه: أنه استقرض منَّا ماله استقراض مَن احتاج، فنسأله بعظمته وجلاله، وبحقِّ محمد وآله؛ أي: يُعامِلَنا بِلُطْفه، وعفوه، وإفضاله.

* * *

---

(١) رواه مسلم (٧٥٨) (١٧١).

(٣٩)
كتاب الزهد

(١) باب
هوان الدُّنيا على الله تعالى وأنَّها سجنُ المؤمن

[٢٦٨٧] عن جابرِ بنِ عبد الله: أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بالسُّوق داخلاً من بعض العالية والناس كَنَفَتَيه، فمرَّ بجَدْيٍ أسكَّ ميِّتٍ، فتناوله، فأخذ

---

(٣٩)
كتاب الزهد

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦) باب: هوان الدُّنيا على الله تعالى، وأنَّها سجنُ المؤمن[١]

(قوله: والناس كَنَفَتَيه) أي: بجنبتيه، ويُروى كتفيه: تثنية كتف، وهو منصوبٌ على الظرف، وهو خبرُ المبتدأ.

و (قوله: بِجَدْيٍ أَسَكَّ) أي: صغير الأذنين، ضيِّق صماخهما، وقيل: هو الذي لا يسمع.

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب، والأبواب التي تليه، وهي: باب ما للعبد من ماله، وما الذي يبقى على قبره. وباب: ما يحذر من بسط الدنيا، =

بأُذنِه، ثم قال: «أيُّكم يحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟». فقالوا: ما نحبُّ: أنَّه لنا بشيءٍ وما نصنع به؟! قال: «أتحبون أنه لكم؟!»، قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنَّه أسَكُّ، فكيف وهو ميت؟! قال: «فوالله! للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكُم!».

رواه أحمد (٣/ ٣٦٥)، ومسلم (٢٩٥٧) (٢).

و (قوله: «واللَّهِ للدنيا أهونُ على الله من هذا عليكم») الدنيا: وزنها فُعْلى وألفها للتأنيث، وهي من الدُّنو بمعنى القرب، وهي صفةٌ لموصوف محذوف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] غير أنه قد كثر استعمالها استعمال الأسماء، فاستغني عن موصوفها، كما جاء في هذا الحديث. والمرادُ: الدار الدُّنيا، أو الحياة الدُّنيا التي تقابلها الدَّار الأخرى، أو الحياة الأخرى، ومعنى هوان الدنيا على الله: أنَّ الله تعالى لم يجعلْها مقصودةً لنفسها؛ بل: جعلها طريقاً موصلةً إلى ما هو المقصودُ لنفسه، وأنه لم يجعلْها دارَ إقامة، ولا جزاء، وإنما جعلها دارَ رحلةٍ وبلاء، وأنه مَلَّكها في الغالب الكفرةَ والجهَّالَ، وحماها الأنبياءَ، والأولياءَ، والأبدال. وقد أوضح النبيُّ ﷺ هذا المعنى فقال: «لو كانت الدُّنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى الكافرَ منها شربةَ ماء»[1]، وحسبك بها هواناً، أن الله قد صغَّرها، وحقَّرها، وذمَّها، وأبغضها، وأبغضَ أهلها، ومُحِبِّيها، ولم يرضَ لعاقلٍ فيها إلا بالتزوُّد منها، والتأهُّب للارتحال عنها، ويكفيك من ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الدُّنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم، أو متعلِّم»[2]

معنى هوان الدنيا على الله

= ومن التنافس. وباب: لا تنظر إلى من فضَّل الله عليك في الدنيا، وانظر إلى من فُضِّلْتَ عليه. وباب: في الابتلاء بالدنيا وكيف يعمل فيها، وباب: الخمول في الدنيا والتقلُّل منها.

(١) رواه ابن ماجه (٤١١٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٢).

[٢٦٨٨] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنيا سجنُ المؤمن وجنَّةُ الكافر».

رواه أحمد (٢/ ٣٢٣)، ومسلم (٢٩٥٦)، والترمذيُّ (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣).

* * *

رواه من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب. ولا يُفْهَمُ من هذا الحديث إباحةُ لعن الدنيا وسبّها مطلقاً؛ لما رويناه من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر، إنه إذا قال العبدُ: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن اللَّهُ أعصانا لربِّه»[1]. خرجه الشريفُ أبو القاسم زيد بن عبد الله بن مسعود الهاشمي. وهذا يقتضي المنع من سبِّ الدنيا، ولَعْنها، ووجهُ الجمع بينهما: أن المباحَ لَعْنُه من الدنيا ما كان منها مُبْعِداً عن الله، وشاغِلاً عنه، كما قال بعضُ السلف: كلُّ ما شغلك عن الله تعالى من مال وولد فهو عليك مشؤوم، وهو الذي نبَّه اللَّهُ على ذمِّه بقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وأما ما كان من الدنيا يُقرِّبُ إلى الله تعالى، ويُعين على عبادة الله تعالى، فهو المحمودُ بكلِّ لسان، والمحبوب لكلِّ إنسان، فمثلُ هذا لا يسب، بل: يرغَّب فيه، ويُحَبّ، وإليه الإشارةُ بالاستثناء حيث قال: «إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالم، أو متعلم» وهو المصرَّحُ به في قوله: «فإنها نعمتْ مطيَّةُ المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر» وبهذا يرتفعُ التعارضُ بين الحديثين. والله أعلم.

المنع من سبِّ الدنيا ولعنها

و (قوله: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر») إنما كانت الدُّنيا كذلك لأنَّ

معنى: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

---

(١) رواه ابن عدي (١/ ٣٠٤).

(٢) بـــاب
ما للعبد من ماله
وما الذي يبقى عليه في قبره

[٢٦٨٩] عن مطرِّفٍ، عن أبيه، قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر..﴾ ....

المؤمنَ فيها مقيَّدٌ بقيود التكاليف، فلا يقدر على حركةٍ ولا سكون إلا أن يفسحَ له الشرعُ، فيفكّ قيده، ويُمكِّنَه من الفعل أو الترك، مع ما هو فيه من توالي أنواع البلايا والمحن والمكابدات من الهموم، والغموم، والأسقام، والآلام، ومكابدة الأنداد، والأضداد، والعيال، والأولاد. وعلى الجملة: «وأشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى الرجلُ بحسب دينه»[١] كما قاله ﷺ. وأيُّ سِجْنٍ أعظمُ من هذا؟! ثم هو في هذا السجن على غاية الخوف والوجل، إذ لا يدري بماذا يُخْتَم له من عمل. كيف وهو يتوقَّعُ أمراً لا شيءَ أعظمُ منه، ويخاف هلاكاً لا هلاكَ فوقه؟! فلولا أنه يرتجي الخلاصَ من هذا السجن لهلك مكانه، لكنه لطف به، فهوّن عليه ذلك كلَّه بما وعد على صبره، وبما كُشِف له من حميد عاقبة أمره. والكافر منفكٌّ عن تلك الحالات بالتكاليف، آمنٌ من تلك المخاويف، مقبلٌ على لذَّاته، منهمكٌ في شهواته، معتزٌّ بمساعدة الأيام، يأكلُ ويتمتَّع كما تأكل الأنعام، وعن قريب يستيقظُ من هذه الأحلام، ويحصل في السجن الذي لا يُرام، فنسألُ اللّهَ السلامةَ من أهوال يوم القيامة.

و (قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]) يعني: شغلكم الإكثارُ من الدنيا ومن الالتفات إليها عما هو الأولى بكم من الاستعداد للآخرة، وهذا الخطابُ

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٣٤٣).

قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي! قال: وهل لك يا بـنَ آدمَ مِـنْ مالك إلا ما أكَلْتَ فأفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبليْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ؟».

رواه أحمد (٤/ ٢٤)، ومسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٢٣٤٢)، والنسائيُّ (٦/ ٢٣٨).

[٢٦٩٠] وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «يقولُ العبد: مالي مالي! إنَّما له مِنْ ماله ثلاث: ما أكلِ فأفنى، أو لَبِسَ فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ، وتاركُه للنَّاس».

رواه مسلم (٢٩٥٩).

[٢٦٩١] وعن أنسِ بن مالكٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَتْبَعُ الميِّتَ ثلاثةٌ؛ فيرجع اثنان، ويبقى واحدٌ؛ يتبعه أهلُه، وماله، وعمله؛ فيرجع أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه».

رواه البخاريُّ (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، والترمذيُّ (٢٣٧٩).

* * *

للجمهور إذ جنسُ الإنسان على ذلك مفطور، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢١]، وكما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤].

و (قوله: «يقول ابن آدم مالي مالي») أي: يغترُّ بنسبة المال إليه وكونه في يديه، حتى ربما يعجب به ويفخر به، ولعلَّه ممن تعب هو في جمعه، ويصل غيره إلى نفعه، ثم أخبر بالأوجه التي ينتفعُ بالمال فيها، وافتتحَ الكلام بـ (إنما) التي هي للتحقيق والحصر فقال: «إنما له من ماله ثلاث» وذكر الحديث.

و (قوله: «أو أعطى فاقتنى») هكذا وقع هذا اللفظُ عند جمهورهم، وَوَجْهُه:

(٣) بـــاب
ما يحذر من بسط الدنيا ومن التنافس

[٢٦٩٢] عن عمرو بنِ عوفٍ ـ وهو حليف بني عامر بن لؤي ـ وكان شهد بدراً مع رسول الله ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسولُ الله ﷺ هو صالَحَ أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاءَ بنَ الحضرميِّ، فقدم أبو عبيدةَ بمالٍ من البحرين، فسمِعَت الأنصار بقدوم أبي عبيدةَ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنُّكم سمعتم: أنَّ أبا عبيدةَ قَدِمَ بشيءٍ من البحرين؟». فقالوا: أجل يا رسول الله! قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم! فوالله! ما الفَقْرَ أخشى عليكم؛ ولكنِّي أخشى عليكم أن تُبْسَط الدنيا عليكم، كما بُسِطَتْ

أعطى الصدقة فاقتنى الثوابَ لنفسه، كما قال في الرواية الأخرى: «تصدقت فأمضيت»[1]، وقد رواه ابن ماهان: «فأقنى» بمعنى: أكسب غيره، كما قال تعالى: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨].

و (قوله: فوافوا صلاةَ الفجر مع رسول الله ﷺ) أي: جاؤوا فاجتمعوا عند صلاة الصبح معه ليقسِمَ بينهم ما جاءَ به أبو عبيدة؛ لأنهم أرهقتهم الحاجةُ والفاقةُ التي كانوا عليها، لا الحرص على الدنيا، ولا الرغبة فيها، ولذلك قال لهم رسول الله ﷺ: «أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم»، وهذا تهوينٌ منه عليهم ما هم فيه من الشدة، وبشارةٌ لهم بتعجيل الفتح عليهم.

و (قوله: «واللّهِ ما الفقرَ أخشى عليكم») الفقر منصوب على أنه مفعول مقدَّم

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨) (٣).

على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلِكَكُم كما أهلكتهم».

وفي روايةٍ: «وتُلهيَكُم كما ألهتْهُم (بدل) فتهلكَكُم».

رواه أحمد (٤/ ٣٢٧)، والبخاريُّ (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١)، والترمذيُّ (٢٤٦٢)، وابن ماجه (٣٩٩٧).

[٢٦٩٣] وعن عبد اللَّهِ بنِ عمرِو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم أيُّ قومٍ أنتم؟!»، قال عبد الرحمن

بـ (أخشى)، ولا يجوزُ رفعه إلا على وجهٍ بعيد، وهو أن يُحذف ضمير المفعول، ونعامله معاملة الملفوظ، كما قال امرؤ القيس:

.... فَثَـوْبـاً نَسِيـتُ، وثَـوْبـاً أَجُـرّ[1]

فكأنه قال: فثوب نسيته، وثوب أجرُّه، وهي قليلةٌ بعيدة. وفيه ما يدلُّ على أن الفقرَ أقربُ للسلامة، والاتساعَ في الدنيا أقربُ للفتنة، فنسأل اللَّهَ الكفافَ والعفاف.

الاتساع في الدنيا أقرب للفتنة

و (قوله: «فتنافسوها كما تنافسوها») أي: تتحاسدون فيها، فتختلفون وتتقاتلون فيهلك بعضُكم بعضاً، كما قد ظهر ووُجِد، وقد سمَّى في هذا الحديث التحاسُدَ تنافساً توسُّعاً لقرب ما بينهما، وقد بيَّنَّا حقيقةَ كلٍّ واحدٍ منهما فيما تقدَّم، ومعنى تلهيكم: تشغلكم عن أمور دينكم، وعن الاستعداد لآخرتكم.

و (قوله: «إذا فتحت عليكم فارس والروم، أيُّ قوم أنتم؟») هذا استفهامٌ يشوبه إخبارٌ منه ﷺ عن أمر قبل وقوعه، وقع على نحو ما أخبر عنه، فكان ذلك من أدلة صحة نبوَّته ورسالته ﷺ وكم له ﷺ منها وكم! ومعنى: «أيُّ قوم أنتم؟»

(١) هذا عجز بيت، وصدره:

فلمَّا دنوت تَسَدَّيْتُها

ابن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؛ تتنافسون، ثُمَّ تتحاسدون، ثُمَّ تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقابِ بعضٍ».

رواه مسلم (٢٩٦٢)، وابن ماجه (٣٩٩٦).

* * *

أي: على أيِّ حالٍ تكونون؟ فكأنه قال: أتبقون على ما أنتم عليه؟ أو تتغيَّر بكم الحال؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله تعالى. أي: نقول قولاً مثل الذي أمرنا الله، وكان هذا منه إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك أنه فهم أن رسولَ الله ﷺ خافَ عليهم الفتنةَ من بَسْط الدنيا عليهم، فأجابه بذلك، فكأنه قال: نستكفي الفتنَ والمحن بالله، ونقول كما أمرنا، وهذا إخبارٌ منهم عمَّا يقتضيه حالُهم في ذلك الوقت، فأخبرهم النبيُّ ﷺ بأنَّهم لا يبقون على تلك الحال، وأنها تتغيَّر بهم. وقال بعضُ الشارحين: لعلَّه يكون كما أمرنا الله، وهذا تقديرٌ غلطٌ للرواة، لا يُحْتَاجُ إليه مع صحة المعنى الذي أبديناه، والله تعالى أعلم.

تغيُّر الأحوال في آخر الزمان

و (قوله: «أَوْ غيرَ ذلك») هو بسكون الواو، وهي القاطعةُ، وغيرَ بالنصب على إضمار فعل، تقديره: أو تفعلون غير ذلك، ويجوز رفعه على تقدير: أو يكون غير ذلك.

و (قوله: «تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون») أي: تتسابقون إلى أخذ الدنيا، ثم تتحاسدون بعد الأخذ، ثم تتقاطعون، فيولي كلُّ واحد منكم دبرَه عن الآخر مُعْرِضاً عنه، ثم تثبتُ البغضاءُ في القلوب، وتتراكمُ حتى يكون عنها الخلافُ، والقتال، والهلاك، كما قد وُجِد.

و (قوله: «ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضَهم على رقاب بعض»)، وفي رواية السمرقندي: «فتحملون»، قال بعضُهم: لعل أصولَ هذا

(٤) بـــاب
لا تنظرْ إلى من فضّل الله عليك
في الدنيا وانظرْ إلى من فُضِّلْتَ عليه

[٢٦٩٤] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا نظر أحدُكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلْقِ فلينظر إلى مَنْ هو أسفلَ منه مِمَّن فُضِّل عليه».

رواه أحمد (٢/ ٣١٤)، ومسلم (٢٩٦٣) (٨).

الكلام: «ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين». قال القاضي: لا أدري ما الذي حمل هذا على تفسير الرواية مع عدم توجيه الكلام على ما قبله، واستقلاله بالمراد، لا سيما مع قوله بعد هذا: «فتحملون بعضهم على رقاب بعض». والأشبه: أن يكون الكلام على وجهه، وأراد أنَّ مساكين المهاجرين، وضعفتهم ستُفتح عليهم إذ ذاك الدنيا، حتى يكونوا أمراء بعضهم على رقاب بعضٍ.

قلـــتُ: والعجبُ من إنكار القاضي على هذا المتأوِّل، واختيارُه هذا المعنى الذي لا يقبله مساقُ الحديث، ولا يشهدُ له معناه، وذلك أنَّ معنى الحديث: أنه أخبرهم أنهم تتغيَّر بهم الحال، وأنهم يصدرُ عنهم أو عن بعضهم أحوالٌ غير مرضية، تخالفُ حالهم التي كانوا عليها معه من التَّنافس والتَّباغض، وانطلاقهم في مساكين المهاجرين، فلا بدَّ أن يكون هذا الوصفُ غير مرضيٍّ كالأوصاف التي قبله، وأن تكون تلك الأوصافُ المتقدِّمة تُوجِبُه، وحينئذٍ يلتئم الكلامُ أوله وآخره، ولا يصحُّ ذلك إلا بذلك التقدير الذي أنكر القاضي، فيكون معنى الحديث أنه إذا وقع التنافسُ، والتحاسد، والتباغض حملهم ذلك على أن يأخذَ القويُّ ما أفاءه اللّهُ تعالى على المسكين؛ الذي لا يقدر على مدافعته، فيمنعه عنه ظلماً وهذا بمقتضى التنافس، والتَّحاسد، والتباغض، ويعضده رواية السمرقندي: «فيحملون بعضهم

[٢٦٩٥] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسْفَلَ مِنْكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أَلَّا تَزْدَرُوا نعمة الله عليكم».

رواه أحمد (٢/ ٢٥٤)، ومسلم (٢٩٦٣) (٩)، والترمذيُّ (٢٥١٣)، وابن ماجه (٤١٤٢).

* * *

(٥) بـــاب
في الابتلاء بالدنيا وكيف يعمل فيها

[٢٦٩٦] عن أبي هريرة، أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثةً في بني إسرائيل أبرصَ، وأقرعَ، وأعمى، فأراد الله أن يبتليَهُم، فبعث إليهم مَلَكاً، فأتى الأبرص فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حسنٌ، وجلدٌ

على رقاب بعضهم». أي: بالقهر والغلبة، وأما ما اختاره القاضي فغيرُ ملائمٍ للحديث، فتدبَّره تجده كما أخبرتك، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «انظروا إلى مَن هو أسفلَ منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم») أي: اعتبروا بمن فُضِّلتم عليه في المال، والخَلْقِ، والعافية، فيظهر عليكم ما أنعم اللَّهُ به عليكم فتشكرونه على ذلك، فتقومون بحقِّ النعمة، وذلك بخلاف ما إذا نظر إلى ما فضل عليه غَيْره من ذلك؛ فإنه يضمحل عنده ما أنعم اللَّهُ عليه به من النِّعم، ويحتقرها، فلا يحسبها نِعَماً، فينسى حقَّ الله فيها، وربما حَمَله ذلك النظرُ إلى أن تمتدَّ عينُه إلى الدنيا فينافس أهلَها، ويتقطَّع لحسرة فَوْتِها، ويحسد أهلها، وذلك هو الهلاكُ في الدنيا والآخرة.

و (قوله: «فهو أجدرُ أَلَّا تزدروا نعمةَ الله عليكم») هو عائدٌ على مصدر: انظروا، وأجدر بمعنى أحقّ وأَوْجب، والازدراء: الاحتقار.

حسنٌ، ويذْهَبُ عنِّي الذي قد قَذِرَني النَّاسُ! قال: فمسحه، فذهب عنه قَذَرُه، وأعطيَ لوناً حسناً، وجلداً حسناً. قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل ـ أو قال: البقر (شك إسحق) ـ إلا أنَّ الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر ـ قال: فأعطي ناقةً عُشَرَاءَ، فقال: بارك اللَّهُ لك فيها! قال: فأتى الأقرعَ فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: شعرٌ حسنٌ، ويذهب عنِّي هذا الذي قَذِرني النَّاسُ! قال: فمسحه، فذهب عنه. قال: وأعطي شعراً حسناً. قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر. فأعطي بقرةً حاملاً، فقال: بارك الله لك فيها! قال: فأتى الأعمى، فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: أن يردَّ الله إليَّ بصري، فأبصرَ به النَّاسَ! قال: فمسحه، فردَّ اللَّهُ إليه بصرَه! قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم. فأعطيَ شاةً والداً، فأُنْتِجَ هذان وَوَلَّد هذا. قال: فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

و (قوله: «ناقة عشراء») هي التي مضى لها مِن حَمْلها عشرةُ أشهر، وجمعها: عشار، وكانت أنفسَ أموال العرب لقرب ولادتها، ورجاء لبنها. وقال ابنُ جنِّي: هي التي أتى عليها بعد وضعها عشرةُ أشهر. في الصحاح: العِشار ـ بالكسر ـ جمع عشراء: وهي الناقةُ التي أتى عليها من يوم أُرسل عليها الفحل عشرة أشهر وزال عنها اسم المخاض، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضاً. يقال: ناقتان عشراوان، ونوق عِشار، وعشراوات، يبدلون من همزة التأنيث واواً، وقد عشرت الناقةُ تعشيراً إذا صارت عشراء.

و (قوله: «فأُنتِج هذان، وولَّد هذا») أي: تولى نتاج ناقته وولادة شاته، ووقع هنا أُنتج رباعياً، والمعروف الثلاثي، وحكى الأخفش: نَتَجها، وأنتجها بمعنًى، وقد أشبعنا القولَ فيه فيما تقدَّم.

قال: ثم إنَّه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللونَ الحسن؛ والجلد الحسن؛ والمال؛ بعيراً أتبلغ عليه في سفري! فقال: الحقوقُ كثيرةٌ! فقال له: كأنِّي أعرفك؛ ألم تكن أبرص يَقْذَرُكَ الناس، فقيراً فأعطاك الله! فقال: إنَّما ورثتُ هذا المال كابراً عن كابر! فقال: إنْ كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنْتَ!.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا، فقال: إنْ كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ، وابنُ سبيلٍ؛ انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ ليَ اليومَ إلا بالله، ثمَّ بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري! فقال: قد كنْتُ أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذْ ما شئتَ، ودعْ ما شئت فوالله لا أَجْهَدُكَ اليوم شيئاً أخذته لله! فقال: أمسكْ مالَكَ؛ فإنَّما ابتليتُم، فقد رُضِيَ عنك وسُخِطَ على صاحِبَيْك!».

رواه البخاريُّ (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

* * *

و (قوله: «انقطعت بيَ الحبالُ في سفري») الروايةُ المشهورة بالحاء المهملة والموحدة، والباء المعجمة ـ بواحدة تحتها ـ وبالألف، وهي: جمع حبل، وهو المستطيلُ من الرمل، وقيل: هي الأسبابُ التي يتوصَّل بها إلى البلاغ، وهذا أوقعُ التفسيرَيْن، ورواه ابنُ الحذَّاء: الحيل: جمع حيلة، ورواه بعضُهم كذلك غير أنه زاد الفاء، ووقع لبعض رواةِ البخاري: الجبال بالجيم، وفيه بُعْدٌ.

و (قوله: «والله لا أَجْهدكَ اليوم شيئاً أخذته للّه») كذا لأكثر الرواة، ومعناه:

(٦) بـــاب
الخمول في الدنيا والتقلل منها

[٢٦٩٧] عن عامرِ بن سعدٍ قال: كان سعدُ بنُ أبي وقاصٍ في إبله، فجاءه ابنُه عمر، فلما رآه سعدٌ قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب! فنزل، فقال له: أنزلتَ في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟!

لا أبلغ منك جهداً، ومشقة في صنعك شيئاً أخذته للَّه. قال صاحب «الأفعال»: جهدته وأجهدته: بلغت مشقته، وقيل: معنى لا أَجْهدك: لا أقلِّل لك فيما تأخذ، والجهدُ: ما يعيش به المقلُّ، ومنه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]. وعند ابن ماهان: لا أحمدك، بالحاء المهملة والميم، من الحمد، وكذا رواه البخاريُّ، ومعناه: لا أحمدك في أخذ شيءٍ، أو إبقائه لطيب نفسي بما تأخذ، كما قال المرقِّش:

ليس على طول الحياة ندم[١] ....

أي: ليس على فوت الحياة ندم.

و (قوله: «إنما ورثتُ هذا كابراً عن كابر») أي: كبيراً عن كبير، يعني: أنه ورث ذلك المالَ عن أجداده الكبراء، فحمله بخلُه على نسيان منَّة الله تعالى، وعلى جَحْد نعمه، وعلى الكذب، ثم أورثه ذلك سخطَ الله الدائم، وكلُّ ذلك بشؤم البخل. واعتبر بحال الأعمى؛ لمَّا اعترف بنعمة الله تعالى عليه، وشكره عليها، وسمحت نفسُه بها ثبتها اللَّهُ عليه، وشكر فِعْله، ورضي عنه، فحصل على الرُّتب الفاخرة، وجمعتْ له نِعَم الدنيا والآخرة.

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه:

ومن وراءِ المرءِ ما يَعْلَمْ

والمعنى: إن أمام الإنسان عاقبة عمله، أو أمامه الشيب والهرم والأمراض والعلل. انظر: الشعر والشعراء (١/ ٧٣).

فضرب سعدٌ في صدره، فقال: اسكت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يحبُّ العبد التَّقيَّ، الغنيَّ، الخفيَّ».

رواه أحمد (١/ ١٦٨)، ومسلم (٢٩٦٥).

[٢٦٩٨] وعن سعدِ بن أبي وقاصٍ يقول: والله! إنِّي لأولُ رجلٍ من العرب رمى بسهمٍ في سبيل الله، ولقد كنَّا نَغْزُو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعامٌ نأكلُه إلا وَرَقُ الحُبْلَةِ؛ هذا السَّمُرُ؛ حتى إنَّ أحدَنا ليضعُ كما تضع

و (قوله ﷺ: «إن الله يحبُّ العبدَ التقي الغني الخفي») جمهورُ الرواة قيَّدوه الخفي ـ بالخاء المعجمة ـ من الخفاء، والتقيّ: المتقي لله تعالى، وقد بيَّنا التقوى فيما تقدم. والغني: يعني به: من استغنى بالله، ورضي بما قَسَم اللَّهُ له، وقيل: يعني به غِنى النفس. والخفي: يعني به الخامل الذي لا يريدُ العلوَّ فيها ولا الظهورَ في مناصبها، وهذا نحو ما قال في حديث آخر في صفة وليِّ الله: «وكان غامضاً في الناس»[1] أي: لا يُعرف موضعه ولا يُؤْبَه له، وقد رواه الدولابي[2]: الحفي بالحاء المهملة، فقيل: معناه العالم، من قوله: ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقيل: المتحفِّي بأهله، الوَصُول لهم بماله، السَّاعي في حوائجهم.

و (قوله: ما لنا طعام نأكلُه إلَّا وَرَقُ الحُبْلَةِ، هذا السمر) كذا وقع عند عامة الرواة. وعند الطبري، والتميمي: وهذا السمر بواو، ووقع في البخاري: إلا الحبلة، وورق السمر، وكذلك ذكره أبو عبيد.

الحُبْلة بضم الحاء وسكون الباء: ثمر العضاه. وقال ابنُ الأعرابي: ثمر

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥٢)، والترمذي (٢٣٤٧).

(٢) هو الإمام الحافظ أبو بشر، محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الدولابي. والحديثُ في كتابه: الكنى والأسماء (٢/ ٦٢)، توفي سنة (٣٢٠ هـ).

الشاةُ، ثم أصبحتْ بنو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي على الدِّين، لقد خِبْتُ إذاً وضلَّ عملـي!.

رواه أحمـد (١/ ١٧٤)، والبخـاريُّ (٥٤١٢)، ومسلـم (٢٩٦٦)، والترمذيُّ (٢٣٦٦)، وابن ماجه (١٣١).

* * *

السمر شبه اللُّوبياء، ورواية البخاري: أحسنها؛ لأنه بيَّن فيها أنهم يأكلون ثمر العضاه، وورق الشجر السَّمُر.

و (قوله: ثم أصبحت بنو أسد تعزرني على الدين) هو بالزاي أولى وبالراء ثانية من التعزير، واختلف في معناه هنا، فقال الهروي: معناه: توقِّفني عليه، والتعزير: التوقيف على الأحكام، والفرائض. وقال الطبريُّ: أي: تقومني وتعلمني، ومنه تعزير السلطان؛ أي: تقويمه بالتأديب، وقال الحربي: التعزير بمعنى اللوم والعَتْب.

قلـتُ: هذه أقوالُ الشارحين لهذه الكلمة، وفيها كلِّها بُعْدٌ عن معنى الحديث، والذي يظهر لي: أن الأليقَ بمعناه: أن التعزيرَ معناه الإعظام والإكبار، كما قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، أي: تعظِّموه وتبرّوه، فيكون معناه على هذا: أنه وصَفَ ما كانت حالتهم عليه في أول أمرهم من شدة الحال، وصُعُوبة العيش، والجهد مع النبيِّ ﷺ، ثم إنهم اتسعت عليهم الدنيا، وفتحت عليهم الفتوحات، وولُّوا الولايات، فعظَّمهم الناسُ لشهرة فَضْلهم، ودينهم، وكأنه كره تعظيم الناس له، وخصَّ بني أسد بالذكر لأنهم أفرطوا في تعظيمه، والله تعالى أعلم. وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرَّح به عتبةُ بن غزوان في الحديث الآتي بعد هذا، حيث قال: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ سابعَ سبعة، وما لنا طعامٌ إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقُنا، فالتقطت بُردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتَّزرتُ بنصفها، واتَّزر سعدٌ بنصفها، فما أصبح منا اليوم أحدٌ إلا أصبح أميراً على

(٧) بـــاب
التزهيد في الدنيا والاجتزاء في
الملبس والمطعم باليسير الخشن

[٢٦٩٩] عن خالدِ بن عُمير العدويِّ؛ قال: خطبنا عتبة بن غَزوان ـ وكان أميراً على البصرة ـ فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أمَّا بعدُ!

مصر من الأمصار، وإنِّي أعوذُ بالله أن أكونَ في نفسي عظيماً، وعند الله صغيراً[١].
فيحتمل أن يكون هذا هو الذي عنى به سعد بن أبي وقاص، والله تعالى أعلم. وأما ما فسَّرتْ به المشايخُ ذلك الكلامَ فيقتضي تفسيرُهم: أن بني أسد كانوا عتبوا عليه أموراً من الدين، وعابوها عليه، فردّ عليهم قولهم. ويعضد هذا ما ذكره البخاري[٢] من حديث جابر بن سمرة، قال: شكا أهلُ الكوفة سعداً حتى ذكروا: أنه لا يحسنُ أن يصلي، فاستحضره عمرُ ـ رضي الله عنه ـ فقال: إنَّ هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي، فقال: أما أنا فإني كنت أصلِّي بهم صلاةَ رسول الله ﷺ، وفيه: ولم يدعْ مسجداً إلا سأل عنه، ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجلٌ منهم، يقال له: أسامة بن قتادة، فقال: أمَا إذ نشدتنا، فإن سعداً كان لا يسيرُ بالسرية، ولا يعدلُ في القضية... وذكر الحديث.

(٧) ومن بـــاب: الزهد في الدنيا[٣]

(قوله: خطبنا عتبة بن غزوان ـ وكان أميراً على البصرة ـ) عتبة هذا ـ رضي الله عنه ـ مازنيٌّ، وحليف لبني نوفل، قديم الإسلام. أسلم سابع سبعة كما

---

(١) انظره في التلخيص (٢٨٠٥).
(٢) رواه البخاري (٧٥٥).
(٣) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب والذي يليه، وهو بعنوان: باب: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل الأصبع في اليم.

فإنَّ الدنيا قد آذَنَتْ بصَرْم، ووَلَّتْ حَذَّاءَ، ولم يبق منها إلا صُبَابَةٌ كصُبَابَةِ الإناءِ يَتَصابُّها صَاحِبُها، وإنَّكم مُنْتَقِلون مِنْها إلى دارٍ لا زوالَ لها، فانتقلوا بخيرِ ما بحضرتِكُم، فإنَّه قد ذُكِر لنا: أنَّ الحجر يُلْقي من شفير جهنم، فيهوي فيها

قال. وهاجر وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ بدراً والمشاهد كلها، أمَّره عمر ـ رضي الله عنه ـ على جيش، فتوجَّه إلى العراق، ففتح الأُبلَّة والبصرة ووليها، وبنى مسجدَها الأعظم بالقصب، ثم إنه حجَّ فاستعفى عمرَ عن ولاية البصرة، فلم يعفه فقال: اللهم لا تردّني إليها، فسقط عن راحلته فمات سنة سبع عشرة، وهو منصرفٌ من مكة إلى البصرة، بموضع يقال له: معذر ببني سليم، قاله ابنُ سعد. ويقال: مات بالربذة، قاله المدائني.

و (قوله: إن الدنيا قد آذنت بِصَرْمٍ) أي: أشعرتْ وأعلمتْ بزوالٍ وانقطاع.

و (قوله: وولَّت حذَّاءَ) أي: سريعة خفيفة، ومنه قيل للقطاة: حذاء، أي: منقطعة الذنب قصيرته، ويقال: حمار أحذُّ؛ إذا كان قصير الذنب، حكاه أبو عبيد، وهذا مثلٌ كأنه قال: إن الدنيا قد انقطعتْ مسرعة.

و (قوله: ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبُها) الصُّبابة: بضم الصاد: البقية اليسيرة، والصَّبابة ـ بالفتح ـ: رقة الشوق، ولطيف المحبة، ويتصابُّها: يروم صبَّها على قلَّة الماء وضَعْفه.

و (قوله: فانتقلوا بخير ما بحضرتكم) أي: ارتحلوا إلى الآخرة بخير ما يحضركم من أعمال البِرّ. جعل الخيرَ المتمكّن منه كالحاضر.

و (قوله: فإنه قد ذُكِر لنا أن الحجر لَيُلْقى[1] من شفير جهنم... الحديث إلى آخره) يعني: أنه ذُكِر له عن رسول الله ﷺ ذلك؛ لأنَّ مثلَ هذا لا يُعْرَفُ إلا من جهة النبيِّ ﷺ فكأنه لم يسمعْه هو من النبيِّ ﷺ، سمعه مِن غيره، فسكت عنه إما

---

(١) في صحيح مسلم والتلخيص: يُلْقى.

سبعين عاماً لا يُدْرِكُ لها قعراً، وواللهِ لتُملأنَّ! أفعجبتم؟ ولقد ذُكر لنا: أنَّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنَّة مسيرةُ أربعين سنةً، وليأتِيَنَّ عليها يومٌ وهو كَظِيْظٌ من الزِّحام، ولقد رأَيْتُني سابعَ سبعةٍ مع رسول الله ﷺ ما لنا طعامٌ إلا وَرَقُ الشَّجر؛ حتى قَرِحَتْ أشْدَاقُنا، فالتقطتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُها بيني وبين سعدِ بن مالك، فاتزرْتُ بنصفها، واتَّزر سعدٌ بنصفها، فما أصبح اليومَ مِنَّا أحدٌ إلا أصبح أميراً على مِصْرٍ من الأمصار، وإنِّي أعوذ بالله أنْ أكون في نفسي عظيماً، وعند الله صغيراً، وإنَّها لم تكن نبوةٌ قطُّ إلا تناسَخَتْ حتى يكون آخرُ عاقبتها مُلْكاً، فَسَتخْبُرون، وتُجَرِّبُون الأمراء بَعْدَنا!.

رواه أحمد (٤/ ١٧٤)، ومسلم (٢٩٦٧) (١٤).

* * *

نسياناً، وإما لأمرٍ يُسوِّغ له ذلك. ويحتملُ أن يكون سمعه هو من النبيِّ ﷺ وسكت عن رفعه للعلم بذلك. وشفير جهنم: حَرْفُها الأعلى. وحرفُ كلِّ شيءٍ أعلاه وشفيره. ومنه: شفير العين. ومصراع الباب: ما بين عضادتيه، وجمعه مصاريع، وهو ما يسدُّه الغلق.

و(قوله: وهو كظيظٌ من الزِّحام) أي: ممتلىءٌ منه. يقال: كظَّه الشرابُ كظيظاً. وقَرِحَتْ أشداقُنا: أي: تقرَّحت؛ أي: انجرحت من خشونة الورق. والبردة: الشَّملة، والعرب تُسمِّي الكساءَ الذي يُلتحف به بردة، والبُرد ـ بغير تاء ـ: نوعٌ من نوع ثياب اليمن الموشية.

معنى التناسخ

و(قوله: وإنها لم تكن نبوة قطُّ إلا تناسخت، حتى يكون آخرُها[1] ملكاً) يعني: أن زمانَ النبوّة يكون الناسُ فيه يعملون بالشرع، ويقومون بالحق، ويزهدون في الدنيا، ويرغبون في الآخرة، ثم إنه بعد انقراضهم، وانقراض خلفائهم يتغيَّر الحالُ، وينعكسُ الأمر، ثم لا يزال الأمرُ في تناقص، وإدبارٍ إلى ألا يبقى على

---

(١) في التلخيص ومسلم: عاقبتُها.

(٨) بـــاب
ما الدُّنيا في الآخرة إلا كما يُجعل الإصبعُ في اليمِّ
وما جاء: أنَّ المؤمن فيه كخامةِ الزَّرع

[٢٧٠٠] وعن المستَوْرِدِ ـ أخي بني فهرٍ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدُّنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه ـ وأشار يحيـى بن يحيـى بالسَّبابة ـ في اليمِّ فلينظرْ بم ترجع!».

الأرض مَن يقول: الله! الله! فيرتفع ما كان الصدرُ الأوّل عليه، وهذا هو المعبَّرُ عنه هنا: بالتَّناسخ؛ فإن النسخ: هو الرفعُ والإزالة، وهذا الحديثُ نحو قوله ﷺ: «ما من نبيٍّ بعثه اللَّهُ تعالى في أمَّةٍ قبلي إلا كان له من أمَّته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلفُ من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون... الحديث»[١].

و (قوله: حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً) يعني أنهم يعدلون عن سنن النبيين[٢] وخلفائهم إلى الإقبال على الدنيا واتباع الهوى. وهذه أحوالُ أكثر الملوك، فأما من سَلَك سبيل الصدر الأول الذي هو زمانُ النبوة والخلافة من العدل، واتباع الحق، والإعراض عن الدنيا، فهو من خلفاء الأنبياء، وإن تأخَّر زمانه كعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ إذ لم يكن بعد الخلفاء مَن سَلَك سبيلَهم، واقتدى بهم في غالب أحوالهم غيره ـ رضي الله عنه ـ، لا جرم هو معدودٌ منهم، وداخلٌ في زمرتهم إن شاء الله تعالى.

[(٨) بـــاب: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل الأصبع في اليم][٣]

و (قوله: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدُكم إصبعه في اليم فلينظرْ بماذا ترجع»). اليمّ: البحر. وهذا مثلٌ لحقارة الدُّنيا وقلَّتها، وهو نحو قوله

---

(١) رواه مسلم (٥٠). (٢) في (ز): النبوة.

(٣) هذا العنوان لم يذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

رواه أحمد (٤/٢٢٨)، ومسلم في الجنة (٢٨٥٨)، والترمذيُّ (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١٠٨).

[٢٧٠١] وعن كعبِ بن مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ كَمَثَلِ الخامة من الزَّرع تُفِيئُها الرِّيحُ، تَصْرعُها مرةً، وتَعْدِلُها أخرى حتى تَهِيج ـ في روايةٍ: حتى يأتيه أجله ـ. وَمَثَلُ الكافر كَمَثَلِ الأرزةِ المُجْذِيَةِ على أصلها، لا يُصيبُها شيءٌ حتى يكونَ انجعافُها مرةً واحدةً».

وفي روايةٍ: (المنافق) بدل (الكافر).

رواه أحمد (٣/ ٤٥٤)، والبخاريُّ (٥٦٤٣)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٠) (٥٩ و ٦٠).

تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] أي: كلُّ شيء يُتَمتَّعُ به في الدنيا من أولها إلى آخرها قليل، إذ لا بقاءَ له ولا صفوَ فيه، وهذا بالنسبة إلى نفسها، وأما بالنسبة إلى الآخرة، فلا خَطَر، ولا قدر للدنيا، وهذا هو المقصودُ بتمثيل هذا الحديث حيث قال: «فلينظر بماذا يرجع». ووجه هذا التمثيل أن القدرَ الذي يتعلَّق بالإصبع من ماء البحر لا قَدْرَ له ولا خطر، وكذلك الدُّنيا بالنسبة إلى الآخرة.

و (قوله: «مثل المؤمن كخامة الزرع») الخامة هي: الغضَّة الرطبة من النبات. وأنشدوا:

إنَّمــا نَحْــنُ مِثْــلُ خَــامَــةِ زَرْعٍ   فَمَتَــى يَــأْنِ يَــأْتِ مُخْتَصِــدُهْ

وتُفِيِّئُها الرياح: أي: تردُّها من جانبٍ إلى جانب، وقد بيَّن ذلك بقوله: تصرعها مرَّة وتعدلها أخرى، وصوابه: تفيئها؛ بضم التاء وكسر الفاء، وتخفيف الياء والهمز؛ فإنه يقال: أفأت الشيء: رجعته. أو فاء هو في نفسه: رجع، ومَن فتح الفاء وشدَّد الياء فقد أخطأ؛ لأنه إنما يقال: فيأت الشجرة، يعني إذا ظهر فيئها لا غير. والأَرْزة: شجرةُ الصنوبر، وسُمِّيت بذلك لثبوتها، يقال: شجرة أرزة؛

[٢٧٠٢] ونحوه؛ عن أبي هريرة. وهذا أتمُّ غير أنَّه قال: «ولا يزالُ المؤمنُ يُصيبه البلاءُ».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٤)، والبخاريُّ (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩)، والترمذيُّ (٢٨٦٦).

* * *

(٩) بـــاب
شدَّة عيش النَّبيِّ ﷺ
وقوله: «اللهمَّ اجعل رزق آلِ محمدٍ كفافاً»

[٢٧٠٣] عن عائشة، قالتْ: ما شَبِعَ آلُ محمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِم المدينة مِنْ طَعامِ بُرٍّ ثلاثَ ليالٍ تباعاً حتى قُبِض.

أي: ثابتةٌ في الأرض، وقد أرزت تأرز، ويقال للناقة القوية: أرزة. والمُجْذِية على أصلها: القائمة الراسخة، وهذا مثلٌ للغالب من المؤمنين والغالب من الكافرين، وحكمةُ الله في ابتلاء المؤمنين في الدنيا أن يهديَهم فيها، ويُخلِّصهم من تبعاتها، وأن تُوَفَّر أجورُهم في الآخرة، وعكس ذلك في الكفار والمنافقين.

حكمة الله في ابتلاء المؤمنين في الدنيا

وفائدةُ هذا الحديث احتسابُ المصائب، والصبر عليها، وانتظار الثواب عليها، والخوف من عدم المصائب وبسط الدُّنيا.

(٩ و ١٠) ومن بـــاب: شدَّة عيش النبيِّ ﷺ[1]

الرَّف: خشبة تُرفع عن الأرض يُلقى عليها ما يُرفع، قاله الحربي، وقال غيره: هي الغرفة. والشطر: النصف، وهو هنا نصف وَسْق شعير. والدَّقل: أردأ

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب، والباب الذي يليه، وهو باب: سبق فقراء المهاجرين إلى الجنة، ومن الفقير السَّابق.

وفي روايةٍ: ما شبع آلُ محمدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ الشَّعير يومين متتابعين حتى قُبِض.

وفي روايةٍ: من خبر بُرٍّ إلَّا وأحدُهما تمرٌ.

رواه أحمد (٦/ ٩٨)، والبخاريُّ (٥٤٢٣)، ومسلم (٢٩٧٠) (٢٠ و ٢٢) و (٢٩٧١) (٢٥)، والترمذيُّ (٢٣٥٧)، وابن ماجه (٣٣٤٤).

[٢٧٠٤] وعنها؛ قالت: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع مِنْ خبزٍ وزيتٍ في يومٍ واحدٍ مرتين.

وفي روايةٍ: توفِّي رسولُ الله ﷺ حين شبع النَّاس من الأسودين: التَّمر والماء.

وفي أخرى: (وقد شبعنا) بدل (حين شبع).

رواه أحمد (٦/ ١٥٦ و ٢٥٥)، والبخاريُّ (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٤) (٢٩)، و (٢٩٧٥) (٣٠ و ٣١)، والترمذيُّ (٢٣٥٦).

[٢٧٠٥] وعنها؛ قالت: توفي رسول الله ﷺ وما في رَفِّي من شيءٍ يأكُلُه ذو كبدٍ إلا شطرُ شعيرٍ في رفٍّ لي، فأكلتُ منه حتى طالَ عليَّ، فكِلْتُه، ففَنِيَ.

رواه أحمد (٦/ ١٠٨)، والبخاريُّ (٣٠٩٧)، ومسلم (٢٩٧٣)، والترمذيّ (٢٥٦٩).

التمر، وقد أدقل النخل: إذا ردىء. وقيل: هو جنس من النخل له تمر، وهو حبٌّ كبير له نواة مُدوَّرة مقدار الجوزة يُشبه نوى التمر، فإذا يبسَ صار عليه مثل الليفة.

لم يكن ﷺ يديم الترفُّه في العيش

وأحاديثُ هذا الباب كلُّها، وإن اختلفت ألفاظها تدل على: أن النبيَّ ﷺ لم يكن

[٢٧٠٦] وعن عروة، عن عائشة، أنَّها كانت تقول: والله يا بن أختي! إنْ كنَّا لننظُرُ إلى الهلال، ثم الهلالِ، ثم الهلالِ، ثلاثةَ أهلة في شهرين، وما أُوقِدتْ في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ! قال: قلت: يا خالة! فما كان يُعيِّشُكُم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء؛ إلا أنَّه قد كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار، وكانت لهم منائحُ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيَسْقِيْنَاه.

رواه أحمد (٦/٤٨)، والبخاريُّ (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٩٧٢) (٢٨)، والترمذيُّ (٢٤٦٩)، وابن ماجه (٤١٤٤).

[٢٧٠٧] وعن أبي هريرة، قال: والذي نفس أبي هريرة بيده! ما أشبع رسولُ الله ﷺ أهلَه ثلاثة أيام تباعاً! أو ثلاث ليالٍ، من خبزِ حِنْطَةٍ حتى فارق الدُّنيا، وفي روايةٍ: ما شبع. وقال: ثلاثة أيام (من غير شك).

رواه أحمد (٢/ ٤٣٤)، والبخاريُّ (٥٤١٤)، ومسلم (٢٩٧٦) (٣٢ و ٣٣)، والترمذيُّ (٢٣٥٨).

[٢٧٠٨] وعن النعمانِ بن بشيرٍ، قال: ألستم في طعامٍ وشرابٍ ما شئتم! لقد رأيتُ نبيَّكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بَطْنَهُ.

رواه أحمد (٤/ ٢٦٨)، ومسلم (٢٩٧٧) (٣٤)، والترمذيُّ (٢٣٧٢).

يُديمُ الشِّبَع، ولا الترفُّه في العيش، لا هو ولا من حوته بيوتُه، ولا آله. بل: كانوا يأكلون ما خَشُنَ من المأكل العَلَق، ويقتصرون منه على ما يسدُّ الرَّمَق، مُعرضين عن متاع الدنيا، مؤثرين ما يبقى على ما يفنى، ثم لم يزل كذلك حالُهم مع إقبال الدنيا عليهم، واجتماعها بحذافيرها لديهم إلى أن وصلوا إلى ما طلبوا، وظفروا بما فيه رغبوا.

[٢٧٠٩] وعنه؛ قال: ذكر عُمَرُ ما أصاب النَّاس من الدُّنيا فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يَظَلُّ اليوم يلتوي، ما يجد دَقَلاً يملأ به بطْنَه.

رواه أحمد (١/ ٢٤)، ومسلم (٢٩٧٨)، وابن ماجه (٤١٤٦).

[٢٧١٠] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اجعل رزق آلِ محمّدٍ قوتاً».

وفي روايةٍ: «كِفافاً».

رواه أحمد (٢/ ٤٤٦)، والبخاريُّ (٦٤٦٠)، ومسلم في الزهد (١٠٥٥) (١٨ و ١٩)، والترمذيُّ (٢٣٦١)، وابن ماجه (٤١٣٩).

* * *

جُمِع له ﷺ حال الفقر والغِنى والكفاف

و (قوله ﷺ: «اللهم اجعلْ رزقَ آل محمَّدٍ قوتاً») أي: كفافاً، كما جاء في الرواية الأخرى، ويعني به: ما يقوتُ الأبدان ويكفُّ عن الحاجة والفاقة، وهذا الحديث حجة لمن قال: إنَّ الكفافَ أفضلُ من الغنى والفقر، وقد تقدَّمت هذه المسألة في الزكاة. ووجه التمسُّك بهذا الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ إنما يدعو لنفسه بأفضلِ الأحوال، وأيضاً: فإنَّ الكفافَ حالة متوسطة بين الغنى والفقر، وقد قال ﷺ: «خيرُ الأمور أوساطها»[1]. وأيضاً: فإن هذه الحال سليمة من آفات الغنى، وآفات الفقر المُدقع، فكانت أفضل منها ثم إن حالة صاحب الكفاف حالة الفقير إذ لا يترفَّه في طَيِّبات الدنيا، ولا في زهرتها، فكانت حاله إلى الفقر أقرب، فقد حصلَ له ما حصلَ للفقير من الثواب على الصبر، وكُفِي مرارتَه وآفاتِه. لا يُقال: فقد كانت حالة رسول الله ﷺ الفقر الشديد المدقع، كما دلَّت عليه أحاديث

(١) ذكره ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٣١٨ ـ ٣١٩)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٩١) وقال ابن الفرس: ضعيف.

(١٠) بـــاب
سبق فقراء المهاجرين إلى الجنة، ومن الفقير السَّابـق

[٢٧١١] عن أبي عبد الرَّحمٰن الحُبُلِيِّ؛ قال: سمعتُ عبدَ الله بنَ

هذا الباب وغيرُها، ألا ترى أنه يطوي الأيّام، ولا يشبعُ يومين متواليين، ويشدُّ على بطنه الحجرَ من الجوع والحجرين، ولم يكن له سوى ثوب واحد، فإذا غسلَه انتظره إلى أن يجفَّ، وربما خرجَ، وفيه بقع الماء، وماتَ ودرعُه مرهونةٌ في شعير لأهله، ولم يخلِّفْ ديناراً ولا درهماً، ولا شاةً، ولا بعيراً، ولا حالة في الفقر أشدُّ من هذه، وعلى هذا فلم يكن حالُه الكفاف، بل: الفقر. فلم يجبْه الله تعالى في الكفاف لعلمه: بأن الفقر أفضل له؛ لأنا نقول: إن النبيَّ ﷺ قد جُمعَ له حال الفقر والغنى والكفاف، فكانت أوّلَ أحواله الفقـر مبالغة في مجاهدة النفس. وخطامها عن مألوفات عاداتها، فلما حصلت له مَلَكة ملكها، وتخلَّص له خلاصة سبكها، خيَّره الله تعالى في أن يجعلَ له جبالَ تهامة ذهباً تسيرُ معه حيث سار، فلم يلتفت إليها، وجاءته فتوحات الدنيا فلم يعرِّج عليها، بل: صرفها وانصرفَ عنها، حتى قال: «ما لِيَ مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخُمُس مردود فيكم»[1]. وهذه حالة الغني الشاكر، ثم اقتصرَ من ذلك كلِّه على قدر ما يردّ ضروراتِه، وضروراتِ عياله، ويردُّ حاجتَهم، فاقتنى أرضَه بخيبَر، وكان يأخذُ منها قوتَ عياله، ويدَّخِره لهم سنة، فاندفعَ عنه الفقر المدقعُ، وحصلَ الكفافُ الذي دعا به، ثم إنه لما احتُضِرَ، وقف تلك الأرض على أهله ليدومَ لهم ذلك الكفاف الذي ارتضاه لنفسه، ولتظهرَ إجابة دعوته حتى في أهله من بعده، وعلى ذلك المنهج نهجَ الخلفاء الراشدون على ما تدلُّ عليه سيرهم وأخبارهم. وعلى هذا فأهلُ الكفاف هم صَدْر

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

عمرِو بنِ العاص ـ وسأله رجل ـ فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ـ فقال له عبدُ الله: ألكَ امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم! قال: ألك مسكنٌ تسكنُه؟

كتيبة الفقراء الداخلينَ الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمئة عام؛ لأنهم وسطهم، والوسطُ: العدل. وليسوا من الأغنياء كما قرَّرناه فاقتضى ذلك ما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

و (قول الرجل لعبد الله بن عمرو: ألسنا من الفقراء؟) سؤال تقرير، وكأنه سأل شيئاً من الفيء الذي قال اللَّهُ تعالى فيه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨]؛ وكأنَّ ذلك الرجلَ قال: ألسنا من الفقراء الذين يستحقُّون من الفيء سهماً بنصِّ القرآن؟ وكأنه أنجز له مع ذلك الالتفات إلى الفقراء المهاجرين، وتبجح به، فأجابه عبد الله بما يكسر ذلك منه، ويزيلُ آفةَ الالتفات إلى الأعمال بما يقتضي: أن الأحق باسم الفقر المهاجرين مَن كان متجرِّداً عن الأهل والمسكن، كما كان حالُ أهل الصُّفَّة في أول الأمر. وصار معنى هذا الحديث إلى نحو قوله ﷺ: «ليس الشديدُ بالصُّرَعة»[1] و «ليس المسكين بالطَّواف»[2] فكأن عبد الله قال له: ليس الفقير المهاجرين الذي تكون له زوجة ومسكن، وإنما الفقيرُ المتجرِّدُ عن ذلك، ولم يردْ أن مَن كان فقيراً مهاجرياً، له زوجة ومسكن أنه لا يستحقُّ من الفيء شيئاً؛ لأن صاحبَ العيال الفقير أشدُّ فاقةً وبلاءً؛ ولأنه خلافُ ما وقع لهم، فإن النبيَّ ﷺ كان يُعْطيهم بحسب فاقتهم وحاجتهم، ويفضِّل في العطاء مَن له عيالٌ على مَن ليس كذلك، وكذلك فعل الخليفتان بَعْدَه، على ما هو المعلوم مِن حالهما، وإن حمل قول عبد الله على ظاهره لزمَ عليه: أنَّ مَن كان له زوجةٌ ومسكنٌ لا غير ذلك لم يُعَدَّ من الفقراء المهاجرين الذين وصفهم الله تعالى، والذين يسبقون إلى الجنة، فيلزم ألَّا يكون أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا عليٌّ من الفقراء من السَّابقين إلى الجنة، وذلك باطلٌ قطعاً.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٦٠)، والبخاري (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩) (١٠٢).

قال: نعم! قال: فأنت من الأغنياء! قال: فإنَّ لي خادماً! قال: فأنت من الملوك!.

قال أبو عبد الرحمن: وجاء ثلاثة نفرٍ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وأنا عنده فقالوا: يا أبا محمد! إنَّا والله ما نقدر على شيء! لا نفقةٍ، ولا دابة، ولا متاعٍ! فقال لهم: ما شئتُم! إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يَسَّرَ الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم

و (قوله: أنت من الملوك) لماأخبره أنَّ له خادماً على جهة الإغياء والمبالغة؛ لا أنه ألحقه بالملوك حقيقةً، ولا بالأغنياء، ولا سَلَبه ذلك اسم الفقراء؛ إذ لم يكن له غير ما ذكر، والله تعالى أعلم.

و (قوله: جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو) هذه قضيةٌ أخرى غير القضية المتقدمة، وإنْ اتَّفق راوياهما، فإنهما من رواية أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن عبدالله بن عمرو بن العاص؛ لأن هؤلاء ثلاثةٌ وذلك واحدٌ، ولأن مقصودَه مِن هذا الحديث غيرُ مقصوده من الأول، وذلك أنَّ هؤلاء الثلاثة شكوا إليه شدَّةَ فاقتهم، وأنهم لا شيء لهم، فخيَّرهم بين الصَّبر على ما هُمْ فيه حتى يلقوا الله، فيحصلون على ما وَعَدهم اللَّهُ به على لسان نبيِّه ﷺ من السبق إلى الجنة قبل الناس كلِّهم، وبين أن يرفع أمرَهم إلى السلطان، فيدفع إليهم ما يُغْنِيهم، وبين أن يواسيَهم من ماله، فاختار القومُ البقاءَ على الحالة الأولى، والصبر على مَضَض الفقر وشدَّته. ويُفهم من هذا الحديث: أنَّ مذهبَ عبد الله، وهؤلاء الثلاثة: أن الفقرَ المدقع، والتجرُّدَ عن المكتسبات كلِّها أفضل، وقد بيَّنا آنفاً: أنَّ المسألةَ مسألةُ خلافٍ، وأن الكفافَ أفضلُ على ما ذكرناه آنفاً.

سبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة

و (قوله ﷺ: «إنَّ فقراءَ المهاجرين يسبقون الأغنياءَ يوم القيامة إلى الجنة

القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»، قالوا: فإنَّا نصبر، لا نسأل شيئاً!.

رواه أحمد (٢/ ١٦٩)، ومسلم (٢٩٧٩).

* * *

بأربعين خريفاً») هذا الحديثُ اختلفت ألفاظُ الرواة فيه عن النبيِّ ﷺ فروى عبدُ الله ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ الحديث المتقدِّم، وروى الترمذي من حديث أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «فقراءُ المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمئة عام»[1]. قال: هذا حديثٌ حسن غريب من هذا الوجه. ويروى أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يدخلُ الفقراءُ الجنةَ قبل أغنيائهم بخمسمئة عام، نصف يوم»[2]، قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي طريق أخرى: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمئة عام»[3]. وقال: حديث حسن صحيح، وروي أيضاً عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً»[4]. قال: هذا حديث حسن صحيح، فاختلفت هذه الأحاديثُ في أيِّ الفقراء هم السَّابقون، وفي مقدار المدَّة التي بها يسبقون، فهذان موضعان، ويرتفع الخلافُ عن الموضع الأول بأن يُرَدَّ مطلق حديث أبي هريرة إلى مقيَّد روايته الأخرى، ورواية جابر ـ رضي الله عنه ـ، فيعني بالفقراء: فقراء المسلمين، وحينئذٍ يكونُ حديثُ عبد الله بن عمرو، وحديث أبي سعيد مخصوصاً بفقراء المهاجرين، وحديث أبي هريرة، وجابرٍ يعمُّ جميع فقراء قرون المسلمين، فيدخل الجنة فقراء كل قرنٍ قبل أغنيائهم بالمقدار المذكور، وهذه طريقة حسنة، ونزيدُها وضوحاً بما

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٤).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٥٥).

. . . .

قد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «أصحابُ الجنة محبوسون على قنطرةٍ بين الجنة والنار، يُسألون عن فضول أموالٍ كانت بأيديهم»[١]، وهذا واضح. وأما الموضع الثاني فقد تقدَّم: أنَّ الخريفَ هو العام هنا، وأصلُ الخريف: فصلٌ من فصول السنة، وهو الفصلُ الذي تُخترفُ فيه الثمار، أي: تُجتنى، فسُمِّي العامُ بذلك، ويمكن الجمعُ بين الأربعين، حديث الخمسمئة عام؛ بأنَّ سُبَّاق الفقراء يدخلُون[٢] قبل سُبَّاق الأغنياء بأربعين عاماً، وغير سُبَّاق الأغنياء بخمسمئة عام؛ إذ في كلِّ صنف من الفريقين سُبَّاق، واللَّهُ أعلم.

وهذه الأحاديث: حُجَّةٌ واضحةٌ على تفضيل الفقر على الغِنى، ويتقرَّر ذلك من وجهين:

جَبْر كَسْر قلوب الفقراء

أحدهما: أن النبيَّ ﷺ قال هذا لجبر كَسْر قلوب الفقراء، ويهوِّن عليهم ما يجدونه من مرارة الفقر، وشدائده؛ بمزيَّةٍ تحصلُ لهم في الدار الآخرة على الأغنياء عِوَضاً لهم عما حُرِموه من الدُّنيا، وصَبْرهم، ورضاهم بذلك.

وثانيهما: أنَّ السبقَ إلى الجنة ونعيمها أولى من التأخر عنها بالضَّرورة، فهو أفضل.

وثالثها: أنَّ السبق إلى الفوز مِن أهوال يوم القيامة، والصِّراط أولى من المقام في تلك الأهوال بالضرورة، فالسَّابقُ إلى ذلك أفضلُ بالضـرورة، وحينئذٍ لا يلتفت لقول مَن قال: إنَّ السبق إلى الجنة لا يدلُّ على أفضلية السابق. وزخرف ذلك: بأنَّ النبيَّ ﷺ أفضلُ الخليقة، ومع ذلك فدخوله الجنة متأخِّر عن دخول هؤلاء الفقراء؛ لأنهم يدخلون قبله، وهو في أرض القيامة؛ تارةً عند الميزان،

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٥).

(٢) في (ز): يسبقون.

. . . .

وتارةً عند الصِّراط، وتارةً عند الحوض، كما قد أخبر عن ذلك فيما صحَّ عنه، وهذا قولٌ باطلٌ صَدَر عمن هو بما ذكرناه وبالنقل جاهل، فكأنه لم يسمعْ ما تقدَّم في كتاب الإيمان من قوله ﷺ: «أنا أوَّلُ من يقرعُ بابَ الجنة، فيقول الخازنُ: من أنت؟ فأقول: أنا محمد. فيقول الخازن: بك أُمِرْتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلك»[١]. وفي حديث أنه ﷺ قال: «أنا أول من يدخلُ الجنة، ومعي فقراءُ المهاجرين»[٢]. وعلى هذا فيدخل الجنة، ويتسلَّم ما أُعِدَّ له فيها، ويُبوِّىء الفقراءَ منازلهم، ثم يرجع إلى أرض القيامة ليخلِّص أمته بمقتضى ما جعل اللَّهُ في قلبه من الحنوِّ على أمته، والشفقة عليهم، والرَّأفة بهم، فيلازمُهم في أوقاتِ شدائدهم، ويسعى بمكنه في نجاتهم، فيحضرهم عند وزن أعمالهم، ويسقيهم عند ظمئهم، ويدعو لهم بالسلامة عند جَوَازهم، ويشفعُ لمن دخل النارَ منهم، وهو مع ذلك كلِّه في أعلى نعيم الجنة الذي هو غايةُ القُرْب من الحقِّ، والجاه الذي لم ينله أحدٌ غيره من الخلق، ولذَّة النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه الحكيم بألطفِ خطاب، وأكرمِ تكليم، كيف لا؟ وهو يسمعُ: «يا محمد! قُل يُسْمَعْ لك، سَلْ تُعْطَ، اشفعْ تشفعْ، فيقول: أمتي! أمتي! أمتي! فيقال: انطلق فأدخلِ الجنةَ من أمَّتك من لا حسابَ عليه من الباب الأيمن»[٣]. وهذه خُطْوةٌ لا تتَّسعُ لها العبارات، ولا تحيطُ بها الإشارات حشرنا الله في زمرته، ولا خيَّبنا مِن شفاعته.

قال القاضي أبو الفضل: ويحتملُ أنَّ هؤلاء السابقين إلى الجنة يتنغمون في أفنيتها وظِلالها، ويتلذَّذون بما هم فيه إلى أن يدخل محمد ﷺ بعد تمام شفاعته، ثم يدخلونها معه على قدر منازلهم وسبقهم، والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه مسلم (١٩٦) (٣٣١).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٢٠).

(٣) رواه أحمد (١/ ٥ و ٢/ ٤٣٦)، والبخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣).

(١١) بـــاب
كرامة من قنع بالكفاف وتصدَّق بالفضل

[٢٧١٢] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتاً في سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السَّحابُ، فأفرغ ماءَهُ في حرَّةٍ، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبت

قلـــتُ: وهذا لا يحتاجُ إلى تقديره؛ لأن الذي هو فيه من النعيم بما ذكرناه أعلى وأشرف مما هم فيه، فلا يكون سبقهم لِأدون النعيمين أشرف ممن سبق إلى أعظمها، وهذا واضح.

(١١ و ١٢ و ١٣) ومن بـــاب: كرامة من قنع بالكفاف، والاجتهاد في العبادة وفي التواضع(١)

الفلاةُ من الأرض: هي القفر. والحديقة: البستان، وسُمِّيتْ بذلك؛ لأنها أُحْدَقَ بها حاجزٌ. قالوا: وأصلُه كلُّ ما أحاط به البناء. والحديقة أيضاً: القطعةُ من النخل. والحرَّة: أرضٌ ذات حجارةٍ سود؛ كأنها أُحرقت بالنار. والشَّرْجة: مسيلُ الماء، وهي بفتح الشين، وسكون الراء، وتجمع: شِرَاج وشُرُوج. ومَن قال: شَرَجة ـ بفتح الراء ـ فقد أخطأ المعروفَ من اللغة. واستوعبت: جمعتْ. فتتبع الماء؛ أي: تبعه.

و (قوله: تنحَّى ذلك السحاب)؛ أي: اعتمد وقصد. والنحو في أصله: هو القصد. وفي هذا الحديث دليلٌ على صحة القول بكرامات الأولياء، وأنَّ الوليَّ قد

صحة كرامات الأولياء

(١) شرح المصنف تحت هذا العنوان ما أشكل في حديث هذا الباب، وأحاديث الباب الذي يليه بعنوان: باب: الاجتهاد في العبادة، والذي يليه، وهو بعنوان: باب: في التواضع.

ذلك الماءَ كلَّه، فتتبَّع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحَوِّلُ الماء بمسْحَاتِهِ؛ فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلانٌ ـ للاسم الذي سمعَ في السَّحاب ـ فقال له: يا عبد الله! لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إنِّي سمعتُ صوتاً في السَّحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلانٍ؛ لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمَّا إذْ قُلْتَ هذا؛ فإنِّي أنظر إلى ما يخرجُ منها فأتصدَّقُ بثلثه، وآكلُ أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثُلُثَهُ».

وفي روايةٍ: «وأجعل ثلثه في المساكينِ، والسائلينَ، وابنِ السبيل».

رواه مسلم (٢٩٨٤).

* * *

(١٢) بـــاب

الاجتهاد في العبادة والدوام على ذلك، ولن ينجيَ أحداً منكم عملُه

[٢٧١٣] عن المغيرة بن شعبة: أنَّ النَّبي ﷺ صلى حتى انتفخت

يكون له مال، وضَيْعة، ولا يناقضُه قولُه ﷺ: «لا تتخذوا الضيعةَ فتركنوا إلى الدنيا»[1] لما قدمنا من أن المقصودَ بالنهي إنما هو: مَن اتَّخذها مستكثراً، ومتنعماً، ومتمتعاً بزهرة الدُّنيا، لما يخاف عليه من الميل إلى الدنيا، والرُّكون إليها، وأما من اتخذها معاشاً يصونُ بها دينَه وعياله، فاتِّخاذُها بهذه النية مِن أفضل الأعمال. وهي من أفضل الأموال.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٧)، والترمذي (٢٣٢٨).

قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟!».

رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، والترمذيُّ (٤١٢)، والنسائي (٣/ ٢١٩)، وابن ماجه (١٤١٩).

[٢٧١٤] وعن عائشة زوجِ النبي ﷺ أنَّها كانت تقول: قال رسول الله ﷺ: «سَدِّدُوا، وقاربوا، وأَبْشِرُوا؛ فإنَّه لن يُدْخِل الجنَّة أحداً عملُه». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ اللَّهُ

و (قولهم للنبي ﷺ: أتكلَّف هذا؟) أي: أتتكلف فِعْله، وتتحمَّل مشقَّته؟ وهذا أخرجه منهم ظنٌّ أنه إنما يعبدُ اللَّهَ تعالى خوفاً من الذنوب، وطلباً للمغفرة، وهو الشكر على مغفرته للذنوب، وإيصاله نِعَمه لمن لا يستحقُّ عليه منها شيئاً، فيتعيَّن الشكر على ذلك، ثم الشكر قد قلنا إنه اعتراف بالنعمة وقيام بالخدمة، فمن كثر عنه ذلك وتكرَّر سُمِّي الشكور؛ ولذلك قال الحليمُ الغفور: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الحض على تسديد الأعمال

و (قوله: «سدِّدوا وقاربوا وأَبْشِرُوا») أي: سدِّدوا في الأعمال؛ أي: اعملوها مُسَدَّدة لا غُلُوَّ فيها ولا تقصير، وقارِبُوا في أزمانها بحيث لا يكون فيها قصر، ولا تطويل، وأبشروا على ذلك بالثواب الكثير والخير الجزيل.

الأعمال الصالحة لا تُدخل الجنة بذاتها

و (قوله: «فإنه لن يُدْخِلَ الجنةَ أحداً عَمَلُه») أي: إنَّ أعمالَ العباد الصَّالحة ليست ممَّا تقتضي دخولَ الجنة؛ إذ ليستْ في أنفسها على صفاتٍ تقتضي ذلك، ولا يستحق المكلَّف على الله تعالى بسببها شيئاً؛ إذ لا منفعةَ له فيها، ولا غرض؛ فإنه الغنيُّ بذاته؛ الذي لا يُسْتَغْنى عنه. وكأن هذا نصٌّ في الردِّ على أهلِ البدع، والمعتزلة في قولهم في قاعدتي التحسين والتقبيح، والاستحقاق العقليين.

و (قولهم: ولا أنتَ؟) كأنَّهم وقع لهم: أنَّ النبيَّ ﷺ لعظيم معرفته بالله،

برحمته، واعلموا: أنَّ أحبَّ العمل إلى الله أدومُه وإنْ قلَّ».

رواه أحمد (٦/ ٢٧٣)، والبخاريُّ (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨)، وأبو داود (١٣٦٨)، والنسائيُّ (٣/ ٢١٨).

[٢٧١٥] ونحوه؛ عن أبي هريرة وقال: «برحمةٍ وفضلٍ».

رواه أحمد (٢/ ٣١٢)، والبخاريُّ (٦٦٣٧)، ومسلم (٢٨١٦)(٧٦).

[٢٧١٦] وعن جابرٍ، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا يُدْخِلُ أحداً مِنْكم عملُهُ الجنَّة، ولا يُجيرُه من النَّار، ولا أنا إلا برحمةٍ من الله».

رواه أحمد (٣/ ٣٩٤)، ومسلم (٢٨١٧) (٧٧).

* * *

(١٣) باب
في التواضع

[٢٧١٧] عن عياضِ بنِ حمارٍ المجاشعيِّ ـ من حديثه الطويل ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا حتى لا يَفْخَر أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبْغِي أحدٌ على أحدٍ». وسيأتي.

وكثرة عباداته؛ أنه يُنجيه عمله، فردَّ النبيُّ ﷺ ذلك بأن قال: «ولا أنا إلّا أن يتغمَّدني اللَّهُ برحمةٍ وفضل». فسوّى بينَه وبينهم في ذلك المعنى، وأخبر أنه عن فضله ورحمته لا يُسْتَغْنى.

حكم الاتصاف بالكبر

و (قوله: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضَعُوا حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحد») التواضعُ نقيض التكبر، والتكبُّر: هو الترفُّعُ على الغير، فالتواضع: هو الانخفاض

رواه أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٢٨٦٥) (٦٤).

* * *

للغير، وحاصِلُه أن المتكبر يرى لنفسه مزيَّةً على الغير تحملُه على احتقاره، والمتواضع لا يرى لنفسه مزيَّةً، بل: يراها لغيره بيث يحمله ذلك على الانخفاض له مراعاة لحقه. ولا شك في أن الكبرَ مذمومٌ، فمنه كفرٌ، وهو الكبر على الله، وعلى أنبيائه، وما عداه من الكبائر. والتواضعُ أيضاً؛ منه: أعلى وأدنى، والأعلى: هو التواضعُ لله تعالى، ولكتابه، ولرسوله. والأدنى: هو ما عداه، والله تعالى أعلم، وقد تكلَّمنا على ذلك فيما تقدَّم.

* * *

(٤٠)
كتاب ذكر الموت وما بعده

(١) باب
الأمر بحسن الظن بالله عند الموت
وما جاء: أن كل عبد يبعث على ما مات عليه

[٢٧١٨] عن جابرِ بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل وفاته بثلاثٍ يقول: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنَّ بالله».

رواه أحمد (٣/ ٢٩٣)، ومسلم (٢٨٧٧) (٨١)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧).

---

(٤٠)
كتاب: ذكر الموت

[(١) من باب: الأمر بحسنَ الظن بالله عن الموت
وما جاء أن كل عبد يُبعث على ما مات عليه][١]

الحثّ على حُسْن الظن بالله

(قوله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بالله») أي: استصحبوا الأعمالَ الصالحة، والآدابَ الحسنة التي يَرْتجي العاملُ لها قبولها، ويحقِّقُ ظنَّه

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

[٢٧١٩] وعنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يبعث كلُّ عبد على ما مات عليه».

رواه أحمد (٣/ ٣٣١)، ومسلم (٢٨٧٨).

[٢٧٢٠] وعن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقومٍ عذاباً؛ أصابَ العذابُ من كان فيهم، ثم بُعِثُوا على نِيَّاتهم».

رواه أحمد (٢/ ٤٠)، ومسلم (٢٨٧٩).

* * *

برحمة ربِّه عند فِعْلها، فإن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين، وعقابه مخوف على العصاة والمذنبين، وقد قلنا: إنَّ حُسْن الظنِّ بغير عملٍ غِرَّةٌ، كما قال ﷺ: «الكيِّس مَن دان نفسَه، وعَمِل لما بعد الموت، والعاجزُ مَن أتبع نفسَه هواها وتمنَّى على الله»[(١)] وهذا إنما يكونُ في حالة الصِّحة والقوَّة على العمل، وأما في حال حضور الموت فليس ذلك الوقتُ وقتاً يقدر فيه على استئناف غير الفِكْر في سَعَة رحمةِ الله تعالى، وعظيم فضله، وأنه: لا يتعاظمه ذنبٌ يغفره، وأنه الكريمُ الحليم، الغفورُ الشكور، المنعمُ الرَّحيم. ويُذكِّر بآيات الرُّخَص وأحاديثها لعلَّ ذلك يقعُ بقلبه، فيحب الله تعالى، فيختم عليه بذلك، فيلقى اللَّهَ تعالى، وهو محبٌّ لله تعالى، فيحشر في زُمْرة المحبِّين بعد أن كان في زمرة الخطَّائين، ويشهدُ له قولُه: «يُبْعَثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه».

و (قوله: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم، ثم بُعِثوا على نيَّاتهم») يعني: إذا أراد اللَّهُ أَخْذَ قومٍ بما ظهر فيهم من المنكر، أهلك

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠).

(٢) بـــاب
إذا مات المرء عُرِض عليه مقعدُه
وما جاء في عذاب القبر

[٢٧٢١] عن ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشيِّ، إنْ كان من أهل الجنة، فمن أهل

جميعهم بعذابٍ يُرْسِله على جميعهم؛ صالحهم وطالحهم، فأما تعذيبُ الصَّالح فترفيعٌ له في درجاته، وتكثيرٌ لثوابه، ثم يُحْشَرُ على نيَّته الصَّالحة، فتتمّ له الصفقةُ الرابحة. وأما تعذيبُ الطالح، فانتقامٌ منه، والمؤخَّر له أعظمُ مِنَ الواقع به، وهذا نحو مما قالته عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: أنهلكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم! إذا كثر الخبث»[1].

(٢ و ٣ و ٤ و ٥) ومن بـــاب: مَن عُرِض مقعدُه عليه بعد الموت[2]

(قوله: «إذا مات أحدُكم عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشيِّ») هذا منه ﷺ إخبارٌ عن غير الشهداء؛ فإنه قد تقدَّم أنَّ رواحَهم في حواصل طيرٍ تسرحُ في الجنة، وتأكل من ثمارها. وغير الشهداء: إما مؤمن، وإما غير مؤمن. فغير المؤمن: هو الكافر. فهذا يرى مقعدَه من النار غُدوّاً وعشياً، وهذا هو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وأما المؤمن: فإما ألا يدخل النار، أو يدخلها بذنوبه. فالأول يرى

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٥)، وهو في مسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش.

(٢) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب والأبواب الثلاثة التالية له في التلخيص، وهي: باب: سؤال الملكين، وباب: في أرواح المؤمنين والكافرين، وباب: ما جاء أن الميت ليسمع ما يقال.

الجنة، وإنْ كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

وفي روايةٍ: «هذا مقعدُك الذي تُبعَث إليه يوم القيامة».

رواه أحمد (٢/ ١١٣)، والبخاريُّ (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) (٦٥ و ٦٦)، والترمذيُّ (١٠٧٢)، والنسائيُّ (٤/ ١٠٧)، وابن ماجه (٤٢٧٠).

[٢٧٢٢] وعن زيد بن ثابت؛ قال: بينما النَّبيُّ ﷺ في حائطٍ لبني النَّجار على بغلةٍ له؛ ونحن معه؛ إذ حَادَتْ به، فكَادَتْ تُلْقيه، وإذا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ، أو خمسَةٌ، أو أَرْبَعَةٌ (كذا كان يقول الجُرَيْرِي) فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟»، فقال رجلٌ: أنا. قال: «فمتى مات هؤلاء؟» قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «إنَّ هذه الأمَّةَ تُبْتَلى في قبورها، فلولا أَلَّا تدافنوا لدعوت الله أنْ يُسْمِعَكُم من عذاب القبر الذي أسمع منه!» ثُمَّ أقبل علينا

مقعدَه من الجنة لا يرى غيره رؤيةَ خوف، وأما المؤمنُ المؤاخَذُ بذنوبه فله مقعدان: مقعد في النار زمن تعذيبه، ومقعد في الجنة بعد إخراجه، فهذا يقتضي أن يُعْرَضا عليه بالغداة والعشيِّ، إلا إن قُلْنا: إنه أراد بأهل الجنة كلَّ من يدخلُها كيف كان، فلا يحتاج إلى ذلك التفسير، والله أعلم. وهذا الحديثُ وما في معناه يدلُّ على: أن الموتَ ليس بِعَدمٍ، وإنما هو انتقالٌ من حالٍ إلى حالٍ، ومفارقة الرُّوح للبدن، ويجوز أن يكون هذا العرضُ على الروح وَحْدَه، ويجوزُ أن يكونَ عليه مع جزء من البدن، والله أعلمُ بحقيقة ذلك. والغداةُ والعشيّ: إنَّما هما بالنسبة إلى الحيِّ، لا بالنسبة إلى الميِّت؛ إذ لا يتصوَّر في حقِّه شيءٌ من ذلك.

الموت: انتقال من حال إلى حال

و (قوله: «لولا أَلَّا تدافنوا لدعوتُ اللَّهَ أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه») قد تقدَّم القولُ على عذاب القبر، وأنه مما يجبُ الإيمانُ به، وقد صحَّ

شدة عذاب القبر

بوجهه فقال: «تعوَّذوا بالله من عذاب النَّار!» قالوا: نعوذ بالله من عذاب النَّار! فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر!»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر! قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن!». قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن! قال: «تعوَّذوا بالله من فتنة الدَّجال!». قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدَّجال.

رواه أحمد (٥/ ١٩٠)، ومسلم (٢٨٦٧) (٦٧).

[٢٧٢٣] وعن أبي أيوبَ قال: خرج رسولُ الله ﷺ بعدما غربت الشَّمس فسَمِعَ صَوْتاً. فقال: «يَهودُ تُعذَّبُ في قُبُورِها».

رواه أحمد (٥/ ٣٤٥)، والبخاريُّ (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩)، والنسائي (٤/ ١٠٢).

* * *

الإخبارُ عنه في الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة. ولا يُلتفت لاستبعاد المبتدعة، فإن الإمكاناتِ متسعةٌ، والقدرة صالحة، وامتناعُ التدافن لو سمع عذاب القبر يحتملُ أن يكون سَبَبُه: غلبةُ الخوف عند سماعه؛ فيغلب الخوفُ على الحيِّ، فلا يقدرُ على قُرْب القبر للدفن، أو يهلك الحيُّ عند سماعه؛ إذ لا يُطاقُ سماعُ شيءٍ من عذاب الله في هذه الدار، بل: بنفس سماعه يهلك السامعُ؛ لضعف هذه القوى في هذه الدار. ألا تَرى أنه إذا سمع الناسُ صعقةَ الرَّعد القاصف، أو الزَّلازل الهائلة هلك كثيرٌ من الناس؟ أو أين صعقةُ الرعد من صيحة الذي تضربه الملائكةُ بمطارق الحديد؛ التي يسمعُها كلُّ مَن يليه إلا الثقلين؟ وقد قال ﷺ: «ولو سمعها إنسانٌ لصعق»[1].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤١ و ٥٨)، والبخاري (١٣١٤).

(٣) بـــاب
سؤال الملكين للعبد حين يوضع في القبر
وقوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾

[٢٧٢٤] عن أنسِ بن مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنَّه ليسمع قرع نعالهم. قال: يأتيه ملكان، فيُقْعِدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأمَّا المؤمن فيقول: أشهد أنّه عبدُ الله ورسولُه. قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النَّار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنَّة». قال نبي الله ﷺ: «فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذُكِر لنا: أنَّه يفسح له في قبره سبعون

و (قوله: «إنَّ العبدَ إذا وُضِع في قبره، وتولَّى عنه أصحابُه إنه ليسمعُ قَرْعَ نعالهم») هذا نصٌّ في أنَّ الميتَ يسمعُ، وقد تقدَّم الكلامُ في هذا، وفي إنكار عائشة ـ رضي الله عنها ـ إيَّاه على ابن عمر في كتاب الجنائز.

و (قوله: «فيقال له: انظرْ إلى مقعدك من النار») أي: لو لم تؤمن، ولم تَقُمْ بحجَّتك، قد أبدلك اللَّهُ تعالى به مقعداً من الجنة لما قمتَ بحجَّتك.

و (قوله: «فيراهما جميعاً») يدلُّ على أنَّ رؤيته لهما حقيقة بالعين، وعلى هذا فيحيا الميت في قبره حياةً محقَّقةً بحيث يرى، ويسمع، ويسأل، ويتكلم، وعلى هذا تدلُّ أدلةُ الكتاب والسُّنَّة في غير ما موضع. والحكمةُ في أن اللَّهَ تعالى يُريه إيَّاهما ليعلم قَدْرَ نعمةِ الله، فيما صَرَف عنه من عذاب جهنم، وفيما أوصل إليه من كرامةِ الجنَّة.

حياة الميت في قبره حقيقة عند السؤال

و (قوله: «فيفسح له في قبره») أي: يُوسَّع له فيه سبعون ذِراعاً، فيحتمل البقاء على ظاهره، ويكون معناه: أنه تُرْفَعُ الموانعُ عن بصره، فيبصر مما يجاوره مقدار سبعين ذراعاً، حتى لا تناله ظلمةُ القبر، ولا ضيقه، متى ردَّ روحه فيه إليه.

ذراعاً، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم يبعثون.

رواه أحمد (٣/ ١٢٦)، والبخاريُّ (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) (٧٠)، والنسائيُّ (٤/ ٩٧).

[٢٧٢٥] وعن البراءِ بن عازبٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال: نزلت في عذاب القبر، فيقال: من ربك؟ فيقول: ربيَ الله ونبيي محمدٌ ﷺ فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾».

وفي روايةٍ: أنَّه قول البراء، ولم يذكر: عن النبيِّ ﷺ.

رواه البخاريُّ (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) (٧٣ و ٧٤)، وأبو داود (٤٧٥٠)، والترمذيُّ (٣١١٩)، والنسائيُّ (٦/ ١٠١)، وابن ماجه (٤٢٦٩).

* * *

ويحتملُ أن يكونَ ذلك كلُّه استعارةً عن سعة رحمة الله تعالى له، وإكرامه إيَّاه. والأول أولى، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «ويملأ عليه خَضِراً») أي: نِعماً غضَّة ناعمة، وأصلُه من خُضْرة الشجر، والخضر ـ بكسر الضاد ـ: اسمُ جنسٍ للنبات الرطب الأخضر.

و (قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]) أي: يُثبِّتهم في هذه الدَّار على التَّوحيد والإيمان بالنبيِّ ﷺ حتى يُميتَهم عليه، وفي الآخرة عند المساءلة في القبر، كما فسَّرها النبيُّ ﷺ فإن كان النبيُّ ﷺ قاله فهو المقصود، وإن كان مِن قول البراء، فهذا

(٤) بـــاب
في أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين

[٢٧٢٦] عن أبي هريرة، قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقَّاها ملكان يُصْعِدانها». قال حماد: فَذَكَر من طيب ريحها، وذَكَر المِسْكَ. قال: «ويقول أهل السماء: روحٌ طيبةٌ جاءت من قِبَلِ الأرض، صَلَّى اللَّهُ عَليكِ وعلى جسدٍ كُنْتِ تَعْمُرينه! فيُنْطَلق به إلى ربِّه عزَّ وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل». قال: «وإنَّ الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد: وذكر من نَتْنِها وذكر لعْناً ـ ويقول أهل السماء: روحٌ خبيثةٌ جاءت من قِبَل الأرض»، قال: «فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل». قال

لا يقولُه أحدٌ من قبل نفسه ورأيه، فهو محمولٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ قاله، وسكت البراءُ عن رفعه لعلم المخاطب بذلك، واللَّهُ تعالى أعلم. وقد قيل عن البراء أنه قال: هما سؤالُ القبر وسؤالُ القيامة، يعني: يُرْشَدُ المؤمنُ فيهما إلى الصَّواب، ويُصْرَفُ الكافرُ عن الجواب.

و (قوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]) أي: يخذلهم عند السُّؤال، قاله قتادة.

و (قوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]) أي: لا حجر عليه فيما يفعل. فهدى من شاء، ومن شاء خذل.

و (قوله: «صلى الله عليكِ وعلى جسدٍ كنتِ تعمرينه») الصلاة هنا: بمعنى الرحمة، وهذا يدلُّ على: أنَّ الروحَ كالسَّاكن في المنزل، فهو عامره ومدبِّره. ويفيد أن الروح من قبيل الجواهر، وأنها داخلةٌ في الجسد، وقد تكلَّمنا على الأرواح.

و (قوله: «فينطلق به إلى ربِّه») أي: إلى كرامةِ ربِّه، أو إلى محلِّ إكرامِ ربِّه

أبو هريرة: فردَّ رسولُ الله ﷺ رَيْطةً كانت عليه على أنفه هكذا!.

رواه مسلم (٢٨٧٢).

* * *

(٥) بــاب

ما جاء أن الميت ليسمع ما يقال

[٢٧٢٧] عن أنسِ بن مالكٍ، قال: كنَّا مع عمر بين مكةَ والمدينة فرأينا الهلال، وكنتُ رجلاً حديدَ البصر، فرأيتُه وليس أحدٌ يزعم أنه رآه غيري، قال: فجعلتُ أقول لعمر: أما تراه؟! فجعل لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلقٍ على فراشي، ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرعُ فلانٍ غداً إن شاء الله». قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدَّ رسولُ الله ﷺ! قال: فجُعِلوا في بئرٍ بعضُهم على بعضٍ، فانطلق رسولُ الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال: «يا فلانَ ابنَ فلانٍ! ويا فلانَ ابنَ فلانٍ! هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً؟ فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقاً!». قال عمر: يا رسول الله! كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقولُ منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً!».

رواه مسلم (٢٨٧٣).

له. وآخرُ الأجل: هو يومُ القيامة. والرَّيطةُ: المُلاءةُ التي ليست لِفْقَيْن[1].

(١) «اللِّفْقُ»: شِقَّةٌ من شِقَّتَي المُلاءَة.

[٢٧٢٨] وعنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ ترك قتلى بدرٍ ثلاثاً، فقام عليهم، فناداهم، فقال: «يا أبا جهلِ بنَ هشام! يا أميةَ بنَ خلف! يا عتبةَ بنَ ربيعة! يا شيبةَ بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربُّكم حقاً؟ فإنِّي قد وجدت ما وعدني ربِّي حقاً!». فسَمِع عمرُ قول النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يسمعون؟ وأنَّى يجيبون وقد جيَّفوا؟! قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع مما أقول منهم! ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا». ثم أَمَرَ بهم فسُحِبُوا، فأُلْقُوا في قَلِيْبِ بدرٍ.

رواه أحمد (٣/ ٢٩٩)، ومسلم (٢٨٧٤)، وأبو داود (٢٦٨١).

[٢٧٢٩] وعن أبي طلحة، قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ، وظهر عليهم نبيُّ الله ﷺ أمر ببضعة وعشرين. ـ وفي رواية: بأربعةٍ وعشرين رجلاً ـ من صناديدِ قريشٍ؛ فأُلْقُوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر.

رواه أحمد ((٣/ ١٤٥)، ومسلم (٢٨٧٥).

* * *

و (قوله: كيف يسمعون، وأنَّى يُجيبون وقد جيَّفوا) هذا من عمر ـ رضي الله عنه ـ استبعادٌ على حُكْم ما جرتْ به العادة، فأجابه النبيُّ ﷺ بأنهم يسمعون كسمع الأحياء، فيجوزُ أن يكونَ ذلك منهم دائماً، غير أنه منع الأحياء من إدراك ذلك من الميت، ويجوز أن يكون في بعض الأوقات. وقد تقدَّم استيفاءُ هذا المعنى في الجنائز. والرواية في جيَّفوا ـ بفتح الجيم والياء ـ مبنيٌّ للفاعل، ومعناه: أنتنوا، فصاروا جيفاً. وصناديدُ قريش: ساداتها؛ واحدهم صنديد. والطَّوِيُّ: البئر المطويّ، وقد سمَّاها في الرواية الأخرى قليباً، وهي البئرُ غير المطويَّة، وهي: الركيُّ أيضاً، وقد تسامَحَ من أطلقَ على القليب طوياً.

* * *

(٦) باب
في الحشر وكيفيته

[٢٧٣٠] عن عائشة، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَر النَّاس يوم القيامة حُفَاةً، عُراةً، غُرْلاً». قلت: يا رسول الله! الرِّجال والنساء جميعاً؛ ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال ﷺ: «يا عائشة! إنَّ الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضُهم إلى بعضٍ».

رواه البخاريُّ (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، والنسائي (٤/ ١١٤).

[٢٧٣١] وعن ابن عباسٍ، قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «يا أيها النَّاس! إنَّكم تحشرون إلى الله حُفَاةً، غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ألا وإنَّ أول النَّاس يُكْسَى يوم القيامة إبراهيمُ، ألا إنَّه سيُجَاء برجالٍ من أمَّتي، فيؤخذُ بهم ذاتَ الشِّمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي! فيقال: إنَّك لا تدري ما

---

(٦) ومن بـاب: الحشـر وكيفيـته

الحشر: الجمع. ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. والغُرْل: جمع أغرل، وهو الأقلف، والغُرلة والقلفة: ما يقطعه الخاتن.

و (قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]) أي: يعيدُه على خلقته الأولى لا ينقص منها شيءٌ.

و (قوله: «ألا إن أول الناس يُكْسى يومَ القيامة إبراهيم عليه السلام») هذا يدلُّ على: أنَّ الناسَ كلَّهم ـ الأنبياء وغيرهم ـ يُحشرون عراةً، كما قال في الحديث

حَشْـر النـاس عراة

أحدثوا ـ وفي روايةٍ بعدك ـ: فأقول: كما قال العبد الصحاح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨]، قال: فيقال: إنَّهم لم يزالوا مُدْبِرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

رواه أحمد(١/ ٢٣٥)، والبخاريُّ (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) (٥٨)، والترمذيّ (٢٤٢٣)، والنسائي (٤/ ١١٦).

[٢٧٣٢] وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يحشر النَّاس علَى ثلاثِ طَرَائِقَ راغِبين، وراهبين، واثنان على بَعيرٍ، وثلاثةٌ على بعير، وأربعة

المتقدِّم؛ وأن أهلَ السَّعادة يكسون من ثياب الجنة، ولا شكَّ في أن من كُسِي من ثياب الجنة فقد لبس جبَّة تقيه مكارهَ الحشر وعرقَه، وحرَّ الشمس والنار، وغير ذلك، فظاهِرُ عمومِه يقتضي: أن إبراهيم يُكسى قبل نبيِّنا محمد ﷺ فيجوز أن يكونَ هذا من خصائص إبراهيم، كما قد خُصَّ موسى ـ عليه السلام ـ بأن النبيَّ ﷺ يجدُه متعلِّقاً بساق العرش، مع أن النبيَّ ﷺ أول من تنشق عنه الأرضُ، ولا يلزم من هذا أن يكونا أفضلَ منه مطلقاً، بل: هو أفضلُ مَن وافى القيامة، وسيد ولد آدم، كما دَلَلْنا عليه فيما تقدَّم، ويجوز أن يُراد بالناس مَن عداه من الناس، فلم يدخلْ تحت خطابِ نفسه، واللَّهُ تعالى أعلم. وقد تقدَّم القولُ على قوله: «إنَّهم لم يزالوا مرتدين منذ فارقْتَهم».

حَشر الناس في الدنيا قبل قيام الساعة

و (قوله: «يُحشر الناسُ على ثلاثِ طرائقَ راغبين وراهبين») الطَّرائق: الأحوال المختلفة، والفِرَق المتفرِّقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن: ١١] أي: فِرَقاً مختلفة. قال القاضي: هذا الحشرُ هو في الدُّنيا قبل قيام السَّاعة، وهو آخرُ أشراطها، كما ذكره مسلمٌ بعد هذا في آيات السَّاعة، قال فيه: «وآخر ذلك نارٌ تخرجُ من قعر عدن ترحِّلُ الناس»، وفي رواية: «تطردُ الناسَ إلى

على بعير، وعشرةٌ على بعير، وتَحشُرُ بقيتَهم النارُ، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أَمْسَوا».

رواه البخاريُّ (٦٥٢٢)، ومسلم (٢٨٦١)، والنسائيُّ (١/ ١١٤).

* * *

محشرهم»[١]. وفي حديث آخر: «لا تقومُ الساعةُ حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز»[٢]. ويدل على: أنها قبل يوم القيامة قوله: «فتقيلُ معهم حيث قالوا، وتمسي معهم حيث أَمْسَوْا، وتصبحُ معهم حيث أصبحوا». قال: وفي بعض الروايات في غير مسلم: «فإذا سمعتم بها فاخرجوا إلى الشام» كأنه أمر بسبقها إليه قبل إزعاجها لهم. وقد قال الأزهريُّ في قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، إن الحشرَ الأول إلى الشام، إجلاء بني النضير من بلادهم إلى الشام.

قلــتُ: وعلى هذا فيكون معنى راغبين في لقاء الله وفي ثوابه، وهؤلاء هم المؤمنون الذين وُسِمُوا باسم الإيمان. وراهبين: أي: خائفين، يعني بهم الكفار الذي وُسِمُوا باسم الكفر؛ وذلك إذا طُبِع على كل قلبٍ بما فيه عند طلوع الشمس من مغربها، وإذا خرجت دابةُ الأرض فنفخت في وجوه الناس ما تسمُ في وجه المؤمن: مؤمن، وفي وجه الكافر: كافرٌ، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١) (٣٩ و ٤٠).

(٢) رواه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢) (٤٢).

(٧) بـــاب
دنو الشمس من الخلائق في المحشر
وكونهم في العَرَقِ على قدر أعمالهم

[٢٧٣٣] عن سُلَيم بن عامرٍ، عن المقداد بن الأسودِ؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنى الشَّمسُ يومَ القيامةِ من الخلْق حتى تكونَ مِنْهم كمقدار مِيْلٍ» قال سليم بن عامر: فوالله! ما أدري ما يعني بالميل؛ أمسافةَ الأرض، أمِ الميلَ الذي تُكتَحل به العين؟ قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العَرق، فمنهم من يكون إلى كَعْبَيْهِ، ومنهم من يكون إلى رُكْبَتَيْه، ومنهم من يكون حَقْوَيْهِ، ومنهم من يُلْجِمُه العرقُ إلجاماً!» قال: وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فيه.

رواه مسلم (٢٨٦٤)، والترمذيُّ (٢٤٢٣).

(٧ و ٨) ومن بـــاب: دنو الشمس من الخلائق يوم القيامة والمحاسبة[١]

(قوله: «تُدنى الشمسُ يوم القيامة») أي: تقرب. والميل: اسمٌ مشتركٌ بين مسافة الأرض، والمِرْوَدِ الذي تكحل به العين. ولذلك أشكل المرادُ على سليم بن عامر، والأولى به هنا: مسافة الأرض؛ لأنَّها إذا كان بينها وبين الرؤوس مقدارُ المرود فهي متصلةٌ بالرؤوس لقلَّة مقدار المرود.

تعرُّق الناس في الآخرة على قدر أعمالهم

و (قوله: «ويكون الناسُ في العَرَق على قدر أعمالهم، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً») وقد تقدَّم أنَّ الحقوين: الخصران. وقيل: هما طرفا

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان ما أشكل في أحاديث باب: دنو الشمس من الخلائق.. وباب: في المحاسبة، ومن نُوقش هلك.

[٢٧٣٤] وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ العَرَقَ يوم القيامة ليذهبُ في الأرض سبعين باعاً، وإنَّه ليبلغُ إلى أفواه النَّاس ـ أو إلى آذانهم ـ يشك ثورٌ أيهما قال».

رواه البخاريُّ (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٣).

[٢٧٣٥] وعن ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] قال: «يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه».

رواه البخاريُّ (٦٥٣١)، ومسلم (٢٨٦٢)، والترمذيُّ (٢٤٢٤ و ٣٣٣٣).

* * *

الوركين، والأول المعروفُ. وهذا العرق إنما هو لشدَّة الضَّغط، وحرِّ الشمس التي على الرؤوس بحيث تغلي منها الهام[1]، وحرارة الأنفاس، وحرارة النار المحدقة بأرض المحشر؛ ولأنها تخرجُ منها أعناق تلتقطُ الناسَ من الموقف، فترشح رطوبةُ الأبدان من كل إنسان بحسب عمله، ثم يجمعُ عليه ما يرشحُ منه بعد أن يغوصَ عرقهُم في الأرض مقدار سبعين باعاً، أو ذراعاً، أو عاماً على اختلاف الروايات، فإن قيل: فعلى هذا يكون الناسُ في مثل البحر من العَرَق؛ فيلزمُ أن يسبحَ الكلُّ فيها سبحاً واحداً، فكيف يكونون متفاضلين بعضهم إلى عقبيه، وبعضهم إلى فمه، وما بينهما. قلنا: يزولُ هذا الاستبعاد بأوجه؛ أقربها وجهان:

أحدهما: أن يَخْلُقَ اللَّهُ تعالى ارتفاعاً في الأرض التي تحت قدم كلِّ إنسان، بحسب عمله، فيرتفعُ عن الأرض بحسب ارتفاع ما تحته.

وثانيهما: أن يُحْشَرُ الناسُ جماعات في تفرقة، فيحشر كلُّ من يبلغ عرقُه إلى

(١) جمع الهامة، وهي: الرأس.

(٨) بـــاب
في المحاسبة ومن نوقش هلك

[٢٧٣٦] عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حُوسب يوم القيامة عذب». فقلت: أليس قال الله: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟»

كعبيه في جهة، وكلُّ من يَبْلُغ حَقْويه في جهة، وهكذا. والقدرةُ صالحة لأن تُمْسِكَ عرقَ كلِّ إنسان عليه بحسب عمله، فلا يتصل بغيره، وإن كان بإزائه، كما قد أمسك جرية البحر لموسى ـ عليه السلام ـ حيث طلب لقاء الخضر؛ ولبني إسرائيل حين اتبعهم فرعون، والله تعالى أعلمُ بالواقع من هذه الأوجه. والحاصل: أن هذا المقامَ مقامٌ هائل لا تفي بهوله العبارات، ولا تحيطُ به الأوهام، ولا الإشارات، وأبلغُ ما نطق به في ذلك الناطقون: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [صَ: ٦٧ ـ ٦٨].

و (قوله: «من حُوسِب يوم القيامة عُذِّب») يعني حسابَ مناقشةٍ ومطالبة، كما قال في اللفظ الآخر: «من نُوقِش المحاسبة». والمناقشة: الاستقصاءُ في المطالبة بالجليل والحقير، والصغير والكبير، وترك المسامحة في شيءٍ من ذلك. قال الهروي: يقال: انتقشت منه حقي؛ أي: استقصيته منه.

و (قوله: «عُذِّب») ظاهره: عذاب النار جزاءً عن سيئات ما أظهره حسابه. ويدلُّ على ذلك قوله «هلك» أي: بالعذاب في النار. ويجوز أن يكون عذاب بعض من يُناقش نفس المناقشة، وما يُلازمها من التَّوبيخ واللَّوم، ثم يغفر اللَّهُ تعالى، كما حكي أنَّ بعضَ الصَّالحين رُؤي في النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل اللَّهُ بك؟ فقال: حاسَبُونا فدقَّقوا، ثم منُّوا فأعتقوا. واعتراض عائشة ـ رضي الله عنها ـ بقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] إنما حملها عليه أنها تمسَّكت بظاهر لفظ الحساب؛ لأنه يتناول القليل والكثير، ولو سمعتْ لفظ المناقشة لما وقع لها ذلك، والله تعالى أعلم.

فقال: «ليس ذاك الحساب؛ إنما ذاك العرض! من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّبَ!».

وفي روايةٍ: «من نوقش المحاسبة هلك».

رواه أحمد (٦/ ٤٧)، والبخاريُّ (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦) (٧٩ و ٨٠)، وأبو داود (٣٠٩٣)، والترمذيّ (٢٤٢٦ و ٣٣٣٧).

[٢٧٣٧] وعن أبي برزة الأسلمي؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسْأل عن أربعٍ: ....

و (قوله: «إنما ذلك العرض») يعني: أن الحسابَ المذكورَ في الآية إنما هو أن تُعرض أعمالُ المؤمن عليه، ويُوقف عليها تفصيلاً حتى يعرفَ مِنَّةَ اللَّهِ تعالى عليه في سترها عليه في الدُّنيا، وفي عَفْوه عنها في الآخرة، كما جاء[1] في حديثِ ابن عمر الآتي بعد هذا.

و (قوله: «لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع») عبد هنا: يُراد به العموم؛ لأنه نكرةٌ في سياق النفي، لكنه مخصّص بمن لا حسابَ عليه، وهم الزمرةُ السَّابقة إلى الجنة أولاً؛ الذين يقال للنبيِّ ﷺ فيهم: «أدخلِ الجنةَ مِن أمتك مَن لا حسابَ عليه من الباب الأيمن»[2]. وبقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] ويُؤيِّد هذا ما قد صحَّ في الحديث: أنه «يخرجُ من النار عُنُقٌ فيقول: وُكِّلت بكلِّ جبَّار»[3] وكأنَّ المرادَ بهذا الحديث الأكثر من الناس، والله تعالى أعلم.

(١) ليست في (ز).
(٢) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).
(٣) رواه أحمد (٦/ ١١٠).

عن عُمُرِهِ فيما أفناه؟ وعن جَسَده فيم أبلاه ؟ وعن عِلْمِه ما عملَ به؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟».

رواه الترمذيُّ (٢٤١٧)، ومن العجيب أن يدخل المؤلف ـ رحمه الله ـ هذا الحديث في التلخيص ويشرح مشكله في المفهم ولم يخرجه مسلم.

[٢٧٣٨] وعن صفوانَ بن مُحْرِزٍ، قال: قال رجلٌ لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنى المؤمنُ من ربه يوم القيامة ....

و (قوله: «عن عمره فيم أفناه؟ وعن جَسَده فيم أبلاه؟ وعن عِلْمه ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟») ظاهره: أنه يُسأل عن هذه الأربع مجملةً كما نطق بها، وليس كذلك؛ بل: يسأل عن آحاد كلِّ نوعٍ منها، فيسأل عن أزمانه من وقت تكليفه زماناً زماناً، وعمَّا عمل عملاً عملاً، وعن معلوماته، وما عمل بها واحداً واحداً، وهكذا في سائرها تعييناً، وتعديداً، وتفصيلاً. والدليلُ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، وقالوا: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ومثل هذا كثيرٌ في الشريعة، ومن تصفَّح ذلك حصلَ على العلم القطعي، واليقين الضروري من ذلك.

و(قوله: «يدنى المؤمن من ربِّه يوم القيامة») هذا إدناءُ تقريبٍ وإكرامٍ، لا إدناءَ مسافة ومكان، ويحتمل أن يكونَ من باب حَذْفِ المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كما قال: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلها.

حتى يضعَ عليه كَنَفَهُ، فيقرِّره بذنوبه؛ فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب! أعرف! قال: فإنِّي سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم! فيُعْطى صحيفةَ حسناتِه. وأما الكفارُ والمنافقون؛ فينادى بهم على رؤوس الخلائق: الذين كَذبُوا على الله!».

رواه أحمد (٢/ ٧٤)، والبخاريُّ (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، وابن ماجه (١٨٣).

* * *

فَضْل الله في ستر الذنوب

و (قوله: «حتى يضع عليه كَنَفه») أي: ستره، وجناحَ إكرامه ولُطْفه، فيُخاطبه خطابَ الملاطفة، ويناجيه مناجاةَ المصافاة والمحادثة، فيقول: هل تعرف؟ فيقول بلسان الفرح والاستبشار: ربِّ أعرف، فيقول اللَّهُ له مُمْتَنّاً عليه، ومُظْهِراً فَضْلَه لديه: «فإني سترتُها عليك في الدنيا» أي: لم أفضحك بها بين الخلائق، ولم أطْلعهم على شيءٍ منها. ويحتملُ أن يكونَ معنى ستره إياها: ترك المؤاخذة عليها؛ إذ لو واخذه بها لفضحت العقوبةُ الذنبَ، كما افتضحت ذنوبُ الأمم السَّالفة بسبب العقوبات التي وقعت بهم، فسارتْ بذنوبهم وعقوبتهم الرُّكبان، وعَلِمها كلُّ إنسان. وهل هذه الذنوبُ كبائر وصغائر، أو صغائر فقط؟ وهل كان تاب منها، أو لم يكن؟ هذه مباحثُ تطول، وقد أشرنا إلى نُكَتٍ منها فيما تقدَّم.

* * *

(٩) بـــاب

حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات

وصفة أهل الجنة وصفة أهل النار

[٢٧٣٩] وعن أنسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَّت الجنَّةُ بالمكاره، وحفَّتِ النَّار بالشَّهوات».

رواه أحمد (٣/ ١٥٣)، ومسلم (٢٨٢٢)، والترمذيُّ (٢٥٥٩).

[٢٧٤٠] وعن عياض بن حمار المجاشعي ـ وقد تقدّم أولُ حديثه

---

(٩) ومن بـــاب: قوله: حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّتْ النار بالشهوات

هذا من التمثيل الواقع موقعه، ومن الكلام البليغ الذي انتهى نهايته، وذلك أنه مثَّل المكارهَ بالحفاف، وهو الدَّاءُ بالشيء المحيط به؛ الذي لا يتوصَّل إلى ذلك الشيء إلا بعد أن يتخطَّى، وفائدةُ هذا التمثيل: أن الجنةَ لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره، وبالصَّبر عليها، وأن النارَ لا يُنجى منها إلا بترك الشهوات، وفطام النفس عنها. وقد رُوي عنه ﷺ أنه مثَّل طريقَ الجنة، وطريق النار بتمثيل آخر، فقال: «طريقُ الجنة حَزَن بربوة، وطريق النار: سهل بسهوة»[1]. والحزن: هو الطريقُ الوعر المسلك، والرَّبوة: المكانُ المرتفع، وأراد به أعلى ما يكون من الرَّوابي. والسَّهوة: بالسين المهملة، وهي الموضعُ السَّهل الذي لا غلظ فيه، ولا وعورة، وهذا أيضاً تمثيلٌ حَسَن واقعٌ موقعه، وقد تقدَّم القولُ على أول حديثِ عياض في كتاب العلم.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٢٧).

في العلم ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ، عربَهُم وعجمَهُم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتُك لأبتليَك وأبْتَلِيَ بك، ....

و (قوله: «إن اللَّهَ نظر إلى أهلِ الأرض فمقتهم، عربَهم وعجمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب») نظر: بمعنى أبصر، والمقت: أشد البغض، وأراد بالعجم هنا: كل من لا يتكلم بكلام العرب، ويعني بذلك قبل بعث النبي ﷺ وذلك: أن كلا الفريقين كان يعبدُ غير الله، أو يشرك معه غيره، فكان الكلُّ ضُلَّالاً عن الحق، خارجين عن مقتضى العقول والشرائع، فأبغضهم الله لذلك أشدَّ البغض، لكن لم يعاجلْهم بالانتقام منهم حتى أعـذر إليهم بأن أرسل إليهم رسولاً، وأنزل عليهم كتاباً قطْعاً لمعاذيرهم، وإظهاراً للحجة عليهم. وإنما استثنى البقايا من أهل الكتاب؛ لأنهم كانوا متمسِّكين بالحق؛ الذي جاءهم به نبيُّهم، ويعني بذلك ـ والله أعلم ـ: مَن كان في ذلك الزمان مُتمسِّكاً بدين المسيح؛ لأن مَن كفر من اليهود بالمسيح لم يبقَ على دين موسى، ولا مُتمسِّكاً بما في التوراة، ولا دَخَل في دين عيسى، فلم يبق أحدٌ من اليهود متمسِّكاً بدينِ حقٍّ إلا من آمن بالمسيح، واتبع الحق الذي كان عليه، وأما من لم يؤمنْ به، فلا تنفعه يهوديته، ولا تمسُّكه بها؛ لأنه قد ترك أصلاً عظيماً ممَّا فيها، وهو العهدُ الذي أُخِذ عليهم في الإيمان بعيسى ـ عليه السلام ـ؛ وكذلك نقول: كلُّ نصراني بلغه أمرُ نبيِّنا وشرعِنا، فلم يؤمنْ به لم تنفعْه نصرانيتُه؛ لأنه قد ترك ما أُخِذ عليه من العهد في شرعه. ولذلك قال ﷺ: «والذي نفسي بيده! لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة: يهوديٌّ، ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أُرسِلتُ إلا كان مِن أصحاب النار»[١].

و (قوله: «إنما بعثتُك لأبتليَك، وأبتليَ بك») أي: لأمتحنك بتبليغ الرسالة، والصَّبر على معاناة أهل الجاهلية، وأمتحن بك؛ أي: مَن آمن بك واتَّبعك أثبتُه،

---

(١) رواه مسلم (١٥٣).

وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء ؛ تقرؤه نائماً ويقظان؛ وإنَّ الله أمرني أن أُحَرِّقَ قريشاً ....

ومَن كذَّبك وخالفك انتقمتُ منه وعاقبتُه.

القرآن محفوظ في الصدور لا يغسله الماء

و (قوله: «وأنزلت عليك كتاباً لا يغسلُه الماء») أي: يسَّرت تلاوتَه وحِفْظَه، فخفَّ على الألسنة، ووَعَتْهُ القلوب، فلو غُسِلت المصاحفُ لما انغسل من الصدور، ولما ذَهَب من الوجود، ويشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وفي الإسرائيليات: أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ قال: يا رب! إنِّي أجدُ أمةً تكون أناجيلُها في صدورها فاجْعَلْهُم أمتي، قال: تلك أمة محمد.

و (قوله: «تقرؤه نائماً ويقظان») يحتملُ أن يريدَ بذلك: أنه يُوحى إليه القرآنُ في اليقظة والمنام، وقد تقدَّم أنَّ رؤيا الأنبياء وحي. ويحتمل أن يكون معنى نائم هنا: مضطجعاً، يعني في صلاة المريض، قالهما القاضي، وفيهما بُعْدٌ، وأشبه منهما إن شاء الله أن اللَّهَ يسَّره على لسان نبيِّه، وذكره، بحيث كان يقرؤه نائماً كما كان يقرؤه منتبهاً. لا يخلُّ منه بحرفٍ، لا سيما وقد كان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه[1]. وقد شاهَدْنا المديمين على تكرار القرآن يقرؤون منه الكثيرَ وهم نيامٌ، وذلك قبل استحكام غلبةِ النَّوم عليهم.

و (قوله: «إن الله أمرني أن أُحَرِّق قريشاً») أي: أغيظهم بما أُسْمِعُهم من الحق الذي يخالفُ أهواءهم، وأُؤْلِمُ قلوبَهم بعيب آلهتهم، وتسفيه أحلام آبائهم، وقتالهم، ومغالبتهم حتى كأنِّي أُحرِّق قلوبهم بالنار. ولا يصحُّ أن يحملَ ذلك على حقيقته؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يصحَّ عنه أنه حرَّق أحداً من قريش بالنار، بل قد نهى عن التعذيب بالنار، وقال: «لا يُعَذِّب بالنار إلا الله»[2].

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٣١).

(٢) رواه البخاري (٣٠١٦)، وأبو داود (٢٦٧٤)، والترمذي (١٥٧١).

فقلت: ربِّ! إذن يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبُزَةً، ....

و (قوله: «فقلت إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة») الرؤية الصحيحة المشهورة بالثاء المثلثة والعين المعجمة، ومعناه: يشدخوا. قاله الهروي، وقال شمر: الثلغ: فَضْخك الشيء الرطب باليابس، وقد رواه العذري: فقلعوا ـ بالقاف والعين المهملة ـ، ولا يصحُّ مع قوله: «فيدعوه خبزة» ومعنى هذا أنه شبَّه الرأسَ إذا شُدِخ بالخبزة إذا شُدِخَتْ لِتُثْرَدَ.

قلــتُ: وهذا الذي قاله النبيُّ ﷺ من نحو ما قاله موسى ـ عليه السلام ـ حين أُمر بتبليغ الرسالة إلى فرعون فـ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٢ ـ ١٤] فهذا صريحٌ في أنهما خافا غير الله، وحينئذٍ يُعارضه قولُه تعالى في صفة الرسل الذين يبلِّغون رسالاتِ الله، ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله. وهذا نصٌّ في أنَّ الرسل لا تخشى إلا الله، وهذا هو المناسبُ لمعرفتهم بالله، وأنه ليس في الوجود فاعل، ولاخالق إلاَّ هو، وخصوصاً لأولي العزم مِنَ الرُّسل، وخصوصاً لمحمد وموسى ـ صلى الله عليهما ـ. ويرتفعُ التعارض من وجهين:

أحدهما: أن ذلك الخوفَ كان منهما في بدايتهم قبل تمكُّنهم وإعلامهم بحميد عواقب أحوالهم، وقَبْل تأمينهم، فلما مُكِّنوا وأمنوا لم يخشوا إلا الله، ولذلك كان النبيُّ ﷺ في أول أمره يُحْرَس، وهو في منزله، فلما أنزل اللَّهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] أخرج رأسَه إليهم فقال: «اذهبوا فقد عصمني ربي»[(١)].

وثانيهما: على تسليم أن يكون ذلك منهم في غير بدايتهم، لكن ذلك الخوفَ هو الذي لا ينفك البشرُ عن فجأته، ووقوع بادرته، حتى إذا راجع الإنسانُ عقلَه، وتدبَّر أمرَه اضمحلَّ ذلك الخوفُ أيَّ اضمحلال، وحصل له مِن

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٤٦).

قال: اسْتَخْرِجْهُمْ كما اسْتَخْرَجوك، واغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وأنفقْ فسَنُنْفِقْ عليك، وابعثْ جيشاً نبعثْ خمسةً مثله، وقاتلْ بمَنْ أطَاعَكَ مَنْ عصاك، وقال أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِطٌ، مُتَصَدِّقٌ، مُوفَّقٌ، ورجُلٌ رَحِيمٌ رقيق القلب لكلِّ ذي قُرْبَى، ومسلمٍ، وعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذو عيال. قال: وأهل النار

معرفةِ الله وخشيته ما يستحقرُ معه رسوخ الجبال، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «استخرجهم كما استخرجوك») أي: أَخْرجهم كما أخرجوك. والسين والتاء زائدتان كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. وقد رواه العذري: كما أخرجوك. وهذا يدلُّ على أنَّ هذا القولَ صَدَر عن النَّبيِّ ﷺ بالمدينة بعد الهجرة؛ فإن أهلَ مكة هم الذين أخرجوه من مكة حتى هاجر إلى المدينة.

و (قوله: «واغْزُهم نُغْزِكَ») أي: اعزمْ على غزوهم، واشرعْ فيه نُعِنْك على غزوهم، وننصرك عليهم.

و (قوله: «وابعثْ جيشاً نبعثْ خمسة مثله») هذا يدلُّ على أنَّ هذا كان قبل غزوة بدر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يومَ بدرٍ في ثلاثمئة من أصحابه ونيِّف، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة عشر، فأمدَّه اللَّهُ تعالى بخمسة آلاف من الملائكة كما نطق القرآنُ به.

و (قوله: «أهل الجنة ثلاثة») أي: المتأهِّلون لدخولها، الصَّالحون له.

و (قوله: «ذو سلطان مُقْسطٌ، متصدِّقٌ، موفَّق») مقسط وما بعده مرفوعٌ على أنها صفاتٌ لذو، وهي بمعنى صاحب. والمقسط: العادل. والمتصدِّق: المعطي للصَّدقات. والموفَّق: المسدَّد لفعل الخيرات.

و (قوله: «رحيمٌ، رقيقُ القلب لكل ذي قربى ومسكين»[1]) رحيم: كثير

---

(١) في التلخيص ومسلم: مسلم.

خمسةٌ: الضعيفُ الذي لا زَبْر له، والذين هم فيكم تبعاً لا يَبْتَغون أهلاً ولا مالاً» ....

الرحمة. والقربى: القرابة. ورقيق القلب: ليِّنه عند التذكُّر والموعظة، ويصحُّ أن يكون بمعنى الشَّفيق.

و (قوله: «وضعيف مُتضعَّف») يعني: ضعيفاً في أمور الدنيا، قوياً في أمر دينه، كما قال: «المؤمنُ القويُّ أحبُّ إلى الله مِن المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»[١]. وكما قد ذمَّ الضعف في أمور الدِّين، جعله من صفات أهل النار كما قال: «وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْر له». والزَّبْر هنا: العقل. قاله الهرويُّ. وفي الصِّحاح: يقال: ما له زَبْر، أي: عقل وتماسُك.

معنى العقل: المنع والزجر

قلـتُ: وسُمِّي العقلُ زَبْراً؛ لأن الزَّبْرَ في أصله هو المنع والزجر. يقال: زبره يزبُره بالضم زَبْراً؛ إذا انتهره ومنعه. ولما كان العقلُ هو المانع لمن اتَّصف به من المفاسد والزَّاجر عنها؛ سُمِّي بذلك. وقد قيل في الزَّبْر في هذا الحديث: أنه المالُ، وليس بشيء.

و (قوله: «الذين هم فيكم تبعاً لا يَبْتَغُون أهلاً ولا مالاً») هذا تفسيرٌ من النبيِّ ﷺ لقوله أولاً: «الضعيف الذي لا زَبْرَ له» فيعني بذلك: أن هؤلاء القوم ضعفاءُ العقول، فلا يسعون في تحصيل مصلحةٍ دنيوية، ولا فضيلةٍ نفسية، ولا دينيَّة، بل: يُهْمِلون أنفسَهم إهمالَ الأنعام، ولا يُبالون بما يثبون عليه من الحلال والحرام، وهذه الأوصافُ الخبيثةُ الدنيئة هي أوصافُ هذه الطَّائفة المسمَّاة بالقلندرية[٢].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٤١٦٨).

(٢) طريقة صوفية، أسَّسها قلندر يوسف العربي الإسباني.

ـ وزاد هنا في روايةٍ: «ويكون ذلك يا أبا عبدِالله؟! قال: نعم؛ والله! لقد أدركتُهم في الجاهلية، وإنَّ الرجل ليرعى على الحيِّ ما به إلا وليدةٌ يطؤها ـ والخائن الذي لا يخفى له طمعٌ، وإن دقَّ إلا خانه، ورجلٌ لا يصبحُ ولا يُمسي إلا وهو يخادِعُك عن أهلك ومالك ـ وذكر البخل والكذب ـ والشِّنْظِيرُ الفَحَّاشُ».

رواه مسلم (٢٨٦٥) (٦٣ و ٦٤).

و (قوله: قلت: ويكون ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: نعم! والله لقد أدركتهُم في الجاهلية، وإن الرجلَ ليرعى على الحيِّ ما به إلا وليدتهم يطؤها) هذا القائلُ هو قتادة. وأبو عبد الله هو مُطرِّف بن الشخِّير الذي روى عن عِياض بن حمار. ويدلُّ هذا على أنَّ مُطرِّفاً أدركَ الجاهلية، وأنَّه صحابيٌّ، وإن لم يذكره أبو عمر في «الصَّحابة»، وكان حقُّه أن يذكره؛ لأن مِن شرطه أن يذكرَ من وُلِد في زمن النبيِّ ﷺ ومطرِّف وُلد في زمانه ﷺ على ما قاله ابنُ قتيبة وغيرُه. والحيُّ: القبيل. والوليدةُ: الأمة، ووجدتُ مقيداً في أصل أبي الصبر، معتنى به، مصحَّحاً عليه: «إلا وليدتَهم» بفتح التاء، ووجهُه أنه استثناء من مستثنى محذوف، تقديره: ما به شيء أو حاجة إلا وليدتهم. ووقع في بعض النسخ: إلَّا وليـدة، غير مضاف.

و (قوله: «والخائن الذي لا يخفى له طمعٌ ـ وإن دقَّ ـ إلا خانه») الخائن: هو الذي يأخذُ مما اؤتمن عليه بغير إذنِ مالكه، ويخفى له ـ هنا ـ بمعنى يظهر كما قال[1]:

خَفـاهُـنَّ مِـنْ أَنْفـاقِهِـنَّ كَـأَنَّمـا   خَفـاهُـنَّ وَدْقٌ مِـنْ عَشِـيٍّ مُجَلِّـبِ

أي: أظهرهن. وخفي من الأضداد. يقال: خفيت الشيء أي: أظهرته وسترته. قاله أبو عبيد.

و (قوله: «وذكر البخل والكذب») هكذا الروايةُ المشهورةُ فيه بالواو

(١) هو الشاعر: امرؤ القيس.

[٢٧٤١] وعن حارثةَ بن وهبٍ الخزاعيِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنَّة؟ كلُّ ضعيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ جوَّاظٍ، زنيمٍ، متكبرٍ».

الجامعة، وقد رواه ابن أبي جعفر عن الطبري بأو التي للشك. قال القاضي: ولعله الصواب. وبه وتصحُّ القسمةُ؛ لأنه ذَكَر أنَّ أصحابَ النار خمسةٌ: الضعيف الذي وصف، والخائن الذي وصف، والرجل المخادع الذي وصف. قال: وذكر البخل والكذب، ثم ذكر الشِّنظير الفحّاش، فرأى هذا القائلُ أن الرابعَ هو صاحبُ أحدِ الوصفَيْن، وقد يحتملُ أن يكونَ الرابعُ مَن جَمَعهما على رواية واو العطف، كما جمعهما في الشّنظير الفحّاش. وكذلك قوله: «أهلُ الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدِّق موفَّق، ورجلٌ رحيم رقيقُ القلب لكل ذي قربى ومسكين، وعفيف متعفّف ذو عيال». قال: كذا قيَّدناه بخفض مسلم عطفاً على ما قبله، وفي رواية أخرى: «ومسلم عفيف» بالرفع وحذف الواو.

قلتُ: العفيفُ: الكثير العفَّة، وهي الانكفافُ عن الفواحش، وعمَّا لا يليق. والمتعفف: المتكلِّف للعفَّة. والشَّنظير: السَّيِّىء الخُلُق، في الصحاح: رجل شنظير وشنظيرة، أي: سيِّىء الخلق. قالت امرأة من العرب:

شِنْظِيرَةٌ زَوَّ جَنِيهِ أَهْلِي
مِنْ حُمْقِهِ يَحْسَبُ رأْسِي رِجْلِي
كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ أُنْثَى قَبْلِي!!

وربما قالوا: شنذيرة ـ بالذال المعجمة ـ لقربها من الظاء لغة، أو لُثْغَة. والفحَّاش: الكثير الفحش. وقيل: الشِّنظير: هو الفحاش. قال صاحبُ «العين»: يقال: شَنْظَرَ بالقوم: شتم أعراضَهم. والشنظير: الفحاش من الرجال الغَلْق، وكذلك من الإبل.

و (قوله: «ألا أخبركم بأهلِ الجنَّة: كلُّ ضعيف مُتضعَّف») الصحيحُ في

وفي رواية: «عتل» ولم يذكر «زنيم».

رواه البخاريُّ (٦٠٧١)، ومسلم (٢٨٥٣) (٤٦ و ٤٧)، والترمذيُّ (٢٦٠٨).

مُتَضَعَّف ـ فتح العين ـ على أنه اسم مفعول، وكذا وجدتُه في كتاب الشيخ أبي الصبر، ويعني بذلك: أنَّ الغالبَ على صفة أهل الجنة الضعيف عن نيل الدنيا، ومالها، وجاهها، ومناصبها، وإيثار الخمول والتواضع فيها، يلبسون زَرِيَّ الملابس، ولا يلتفتون إلى فاخر المراكب، ولا إلى صدور المجالس، عِلْماً منهم بأنهم على جادّة سفر، وأن الدُّنيا ليست بمقرٍّ، فأحوالُهم أحوالُ المسافرين المرملين. فَهُمْ كما وصفهم النبيُّ ﷺ بقوله: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه»[1]. والأشعث: المتلبِّد الشَّعر، والأغبر: الذي عَلَتْهُ غبرة الغبار. والأطمار: الثياب الرثة. ولا يُؤبه له: لا يُلتفت إليه. يُقال: فلان لا يُؤبه، ولا يؤبه له؛ أي: لا يُبالى به. ابن السِّكيت: ما وَبِهت به، وما وبهت له؛ أي: ما فطنت له. وأنت تِيْبَه بكسر التاء مثل تِيجَلُ؛ أي: تُبالي. فإن قيل كيف تكون هذه أوصاف أهل الجنة، وكيف تُحمد هذه الأوصاف، وقد أمر الشرع بالنظافة والزينة في الجُمَع والأعياد والتطيُّب، وكان النبيُّ ﷺ يتطيَّبُ ويتنظَّف، ويتزيَّن للوفود وللجُمَع والأعياد. قلنا: لا تناقضَ بين هذا، وبين ما وصفَ به النبيُّ ﷺ أهلَ الجنة، فإنَّه ﷺ إنما وصفَ هؤلاء القوم بأغلبِ أحوالهم. وغالبُ أحوالهم: ملازمة الأسفار الشرعية من الحجِّ والجهاد، والسِّياحة في الأرض، والفِرار بأديانهم من الفتن. ومع ذلك كلّه فيتنظفون النظافة الشرعية، ويتزيَّنون التزيُّن الشرعيَّ إذا حضرَ وقتُه، وأمكنَهم ذلك، ويحضرون جماعات المسلمين وجُمُعاتِهم. فهم مع الناس كائنون، وعنهم بائنون، داخلون في غمارهم، ومستترون بخمولهم وأطمارهم، وقد توجَّهوا إلى الحقِّ، وأعرضوا عن الخلق. وعلى الجملة فمقصودُ هذا الحديث أنَّ أحوالَ أهلِ الجنة على النقيض من أحوال أهل النَّار، آلا ترى أنه

الغالبُ على صفة أهل الجنة: الزهد

أحوال أهل الجنة على النقيض من أحوال أهل النار

(١) رواه أحمد (٣/ ١٤٥)، والترمذي (٣٨٥٤) عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.

[٢٧٤٢] وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «رُبَّ أشْعَثَ مَدْفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّهُ».

رواه مسلم (٢٨٥٤).

قابلَ صفاتِ أهل الجنة وذكر نقائضها في أهل النّار؛ فقال: وأهلُ النّار كلُّ جوّاظ، زنيم، متكبِّر، عُتُلٍّ. فالجوّاظ: الجَمُوع المَنُوع. حكاه الهروي. وقال غيره: الكثير اللحم المختال، يُقال: جاظ يجوظ جَوْظاً: إذا كان كذلك. وقال ابن دُريد: هو الجافي القلب. والعُتُلّ: قيل: الجافي الشديد الخصُومة. وقيل: هو الأكول الشَّروبُ الظلوم. والعَتْلُ: هو العُنف. ومنهُ سُمِّيت القِسيُّ الفارسية: عُتْلاً لشدَّتها. والزنيم هنا: هو الذي يُعرف بالشر. كما تُعرف الشاة بزنمتها. وقيل: هو اللئيم، وأما الزنيم المذكورُ في الآية؛ فقيل: إنه رجل بعينه له زَنَمةٌ كزَنمة التَّيس، وهي الغديرة المتعلِّقة بعنقه. وقيل: هو الوليد وكان له زنمة تحت أذنه، وقيل: هو المُلْصَقُ بالقوم وليس منهم، وقيل: هو الأخنسُ بن شَرِيق. وكان حليفاً مُلْحَقاً. والمُتكَبِّر: الموصوف بالكبر المستعمل له، وقد بيَّنا الكِبر فيما تقدَّم.

و (قوله: «ربَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب») أصلُ ربَّ للتقليل وقد تأتي للتكثير. وقد جاءت كذلك في شعر امرىء القيس كثيراً. قال:

فَيـا رُبَّ مَكْـرُوبٍ كَـرَرْتُ وَراءَهُ وَعَـانٍ فَكَكْـتُ الغُـلَّ عَنْـهُ فَفَـدَّانِـي

وقـال:

وَيـا رُبَّ يَـوْمٍ قَـدْ لَهَـوْتُ وَلَيْلَـةٍ بِـآنِسَـةٍ كَـأنَّهـا خَـطُّ تِمْثَـالِ

ومثله كثير قصدَ به مدحَ نفسه، ولا يُتمدَّح بالقليل النادر، بل: بالكثير المتكرر، وتصلح ربَّ في هذا الحديث أن تُحمل على الكثير، فكأنه قال: كثير ممن يكون هذا حالُه لو أقسمَ على الله لأبرَّه.

و (قوله: «مدفوعٍ بالأبواب») أي: عن أبواب الملوك والكبراء، فلا يُسمع له

[٢٧٤٣] وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يدخلُ الجنَّة أقوامٌ أفئدتُهم مثلُ أفئدة الطَّير».

رواه أحمد (٢/ ٣٣١)، ومسلم (٢٨٤٠).

* * *

قول، ولا تُقضى له حاجة؛ لكونه لا يُعرف، ورَثُّ الهيئة؛ أي: زَرِيُّها بحيث تحتقره العينُ.

و (قوله: «لو أقسمَ على اللَّهِ لأبرَّه») قيل فيه: لو دعا لأجابَه.

قلـــتُ: وهذا عدولٌ عن أصل وضع الكلام من غير ضرورة. بل: هو على أصله، وقد دلَّ على هذا ما تقدَّم من حديث أم الرُّبَيِّع حيث قال أنس بن النضر: والله لا تُكسرُ ثنيَّة الرُّبيِّع، ثم لما رضي الطالب بالدِّية. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عبادِ الله من لو أقسمَ على الله لأبرَّه»[١].

و (قوله: «يدخلُ الجنَّة أقوامٌ أفئدتُهم مثلُ أفئدة الطير») يُحتمل أن يقال: إنما شبهها بها لضعفها ورقَّتِها، كما قال في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً، وأضعفُ أفئدةً»[٢]، ويحتمل أنه أرادَ بها أنها مثلها في الخوف والهيبة، والطير على الجملة أكثر الحيوانات خوفاً وحذراً، حتى قيل: أحذرُ من غراب. وقد غلبَ الخوفُ على كثير من السَّلفِ حتى انصدعتْ قلوبُهم فماتوا.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٨٤)، ومسلم (١٦٧٥)، والنسائي (٨/ ٢٦).

(٢) روا أحمد (٣/ ٢٣٥)، والبخاري (٤٣٩٠)، ومسلم (٥٢)، والترمذي (٢٢٤٤).

(١٠) بـــاب

في صفة الجنة وما أعد الله فيها

[٢٧٤٤] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أعددت لعبادي الصَّالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشرٍ ذُخْراً، بَلْهَ ما أطْلَعكم الله عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

رواه أحمد (٢/ ٤٦٦)، والبخاريُّ (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) (٤)، والترمذيّ (٣١٩٧)، وابن ماجه (٤٣٢٨).

---

(١٠) ومــن بــاب: صفة الجنة وما أعدَّ الله فيها

(قوله: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» «ذُخراً» الرواية المشهورة بالدال المعجمة المضمومة، أي: مدخراً، وهو مصدر، يقال: ذخرت الشيء أذخره ذخراً، وادَّخرته أدَّخرَه ادِّخاراً بالإدغام هو افتعلت، ووقع في طريق الفارسي ذكراً بالكاف، ولبعضهم «دخر» بغير تنوين. وليسا بشيءٍ، ومعنى هذا الكلام: أن الله تعالى ادَّخر في الجنة من النعيم، والخيرات، واللذات ما لم يطلع عليه أحدٌ منَ الخلق، لا بالإخبار عنه، ولا بالفكرة فيه، وقد تعرَّض بعضُ الناس لتعيينه، وهو تكلُّف ينفيه الخبرُ نفسه، إذ قد نفى علمه والشعور به عن كل أحدٍ، ويشهد له، ويحقِّقه قولُه: «بله ما أطلعكم الله عليه» أي: دَعْ ما أطلعكم عليه. يعني: أنَّ المعدَّ المذكور غير الذي أطلع عليه أحداً من الخَلْق. وبَلْه: اسمٌ من أسماء الأفعال بمعنى: دع. هذا هو المشهور فيها، وقيل: هي بمعنى غير، وهذا تفسير معنًى.

[٢٧٤٥] وعنه؛ عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة لشجرةً يسير الراكب في ظلِّها مئة عام لا يقطعها».

رواه أحمد (٢/ ٤١٨)، والبخاريُّ (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦) (٦ و ٧)، والترمذيُّ (٢٥٢٣)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٤)، وابن ماجه (٤٣٣٥).

[٢٧٤٦] ومن حديث أبي سعيد: «يسير الراكبُ الجوادَ المضمَّرَ السَّريعَ مئةَ عام...».

رواه البخاريُّ (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨)، والترمذي (٢٥٢٦).

[٢٧٤٧] وعن سهل بن سعدٍ السَّاعدي، قال: شهدتُ مِنْ رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنَّة حتى انتهى، ثُمَّ قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشرٍ». ثم اقترأ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦ و ١٧].

رواه أحمد (٥/ ٣٣٤)، ومسلم (٢٨٢٥).

و (قوله: «إنَّ في الجنة لشجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادَ المضمَّر السَّريعَ مئةَ عام لا يقطعُها») الرواية التي لا يعرف غيرها الراكبُ مرفوع، فاعل يسير، والجواد منصوب مفعول بيسير، والمضمَّر: نعته، وكذلك السَّريع، ومعناه: يُجْري الراكبُ فرسَه السريعَ الذي قد ضُمِّرَ هذه المدَّة فلا يقطعُها، وقيل: هي شجرةُ طوبى، والله تعالى أعلم. وقد تقدَّم القولُ في تضمير الخيل في كتاب الجهاد. ومعنى ظلِّها: نعيمها وراحتها، من قولهم: عيش ظليل، وقيل: معنى ظلها: ذراها، وناحيتها، وكَنَفها، كما يقال: أنا في ظلِّك، أي: في كنفك، وحوطتك.

[٢٧٤٨] وعن أبي سعيدٍ الخدري، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

رواه البخاريُّ (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩)، والترمذيُّ (٢٥٥٨).

* * *

قلتُ: والذي أحوجَ إلى هذين التأويلين أن الظِّلَّ المتعارفَ عندنا إنما هو وقايةٌ عن حرِّ الشمس وأذاها، وليس في الجنة شمس، وإنما هي أنوارٌ متوالية لا حرَّ فيها، ولا قرَّ، بل: لذَّات متوالية، ونِعَم متتابعة.

و (قوله: «أُحِلُّ عليكم رضواني») أي: أُوجِبُ لكم رضائي، فلا يزولُ عنكم أبداً دائماً لا انقطاعَ له بوجهٍ من الوجوه، وقد أكّد ذلك بقوله: «فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً».

* * *

(١١) بــاب
في غرفِ الجنَّة وتربتها وأسواقِها

[٢٧٤٩] عن سهلِ بن سعدٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ أهل الجنَّة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكبَ الدريَّ الغابرَ من الأفق؛ من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله!

(١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤) ومن بــاب: غــرف الجنــة[١]

(قوله: «إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكبَ الدُّرِّيَّ») يعني: أنَّ أهلَ السّفل من الجنة ينظرون إلى مَن فوقهم على تفاوتِ منازلهم، كما ينظر مَنْ على الأرض دراريَّ السماء على تفاوتِ منازلها. فيُقال: هذا منزلُ فلان، كما يُقال: هذا المشتري مثلاً، أو الزهرة، أو المريخ، وقد بيَّن ذلك بقوله: لتفاوت ما بينهما. وسُمِّي الكوكبُ دُرِّياً لبياضه وصفائه، وقيل: لأنه شُبِّه بالدرِّ في صفائه.

و (قوله: «الغابر من الأفق، من المشرق أو المغرب») الرواية المشهورة: الغابـر بواحدة، ومعناه الذاهب والباقي على اختلاف المفسرين، وغبر من الأضداد. يقال: غبر إذا ذهب، وغبر إذا بـقي، ويعني به: أن الكوكبَ حالةَ طلوعه وغُروبه بعيدٌ عن الأبصار فيظهر صغيراً لبعده، وقد بيَّنه بقوله: في الأفق من المشرق أو المغرب، والأفق: ناحية السماء، وهو بضم الهمزة والفاء وبسكونها،

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب والأبواب الثلاثة التالية، وهي: باب في الجنة أكل وشرب، وباب: في حُسْن صورة أهل الجنة، وباب: في خيام الجنة.

تلك منازل الأنبياء؛ لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى! والذي نفسي بيـده! رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين».

رواه أحمد (٥/ ٣٤٠)، والبخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠). وهو عند ابن حبان (٢٠٩) كما في التلخيص. ورواه مسلم بطوله من حديث أبي سعيد الخدري (٢٨٣١) (١١).

كما يقال: عُشْرٌ وعُشُر، وجمعه: آفاق، وقد قيَّدنا تلك اللفظةَ على مَن يُوثق به: الغائر ـ بالهمز ـ: اسم فاعل من غار. وقد رُوي في غير مسلم الغارب بتقديم الراء، ويُروى: العازب بالعين المهملة والزاي؛ أي: البعيد، ومعانيها كلها متقاربة. ومن الأفق: رويناه بـ (من) التي لابتداء الغاية، وهي الظرفيّة، وأما من المشرق، فلم يُرْوَ في كتاب مسلم إلا بـ (من). وقد رواه البخاري في المشرق بـ (في) وهي أوضح، فأما مَن رواهما بـ (من) في الموضعين فأوْجَهُ ما فيهما أن تكون الأولى لابتداء الغاية، والثانية بدل منها مُبيِّنة لها. وقيل: إنها في قوله من المشرق لانتهاء الغاية، وهو خروجٌ عن أصلها، وليس معروفاً عند أكثر النَّحْويين.

و (قولهم: تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغُها غيرهم؟ قال: «بلى! والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين») كذا وقع هنا هذا الحرف. بلى؛ التي أصلهاحرفُ جواب وتصديق، وليس هذا موضِعُها؛ لأنهم لم يستفهموا، وإنما أخبروا أن تلك المنازل للأنبياء لا لغيرهم. فجوابُ هذا يقتضي: أن تكون (بلى) التي للإضراب عن الأول وإيجاب المعنى للثاني، فكأنه تُسومح فيها، فوضعتْ بلى موضع بل. ورجالٌ مرفوع بالابتداء المحذوف، تقديره: هم رجال. وفيه أيضاً توسُّعٌ؛ أي: تلك المنازل منازل رجالٍ آمنوا بالله؛ أي: حقّ إيمانه، وصدَّقوا المرسلين؛ أي: حقّ تصديقهم، وإلا فكلُّ مَنْ يدخل الجنة آمَنَ بالله، وصدَّق رُسُله، ومع ذلك فَهُمْ متفاوتون في الدرجات، والمنازل، وهذا واضح.

[٢٧٥٠] وعن أبي سعيدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ لابن صائدٍ: «ما ترابُ الجنة؟»، قال: دَرْمكةٌ بيضاءُ مِسْكٌ يا أبا القاسم! قال: «صدقت!».

رواه مسلم (٢٩٢٨) (٩٢).

[٢٧٥١] وعنه؛ أنَّ ابن صيَّادٍ سأل النَّبيَّ ﷺ عن تُرْبَة الجنّة؟ قال: «دَرْمكَةٌ بَيْضاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ».

رواه مسلم (٢٩٢٨) (٩٣).

[٢٧٥٢] وعن أنسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ في الجنةِ لسُوقاً يأتونها كلَّ جُمُعَةٍ..................................

و (قوله ﷺ لابن صياد: «ما تُربة[1] الجنة») هذا نصٌّ في أنَّ النبيَّ ﷺ هو السَّائل لابن صياد عن تُرْبة الجنة، وفي الرواية الأخرى: أن ابنَ صياد هو الذي سـألَ النَّبيَّ ﷺ عن تُرْبة الجنة[2]، فهاتان روايتان، والواقع منهما إحداهما، والله أعلم، وكيفما كان فالخبرُ عن تُرْبة الجنة صِدْق وصحيح؛ لأنه إن كان الجوابُ من النبيِّ ﷺ فهو حقٌّ، إذِ الكذبُ عليه مُحال، وإن كان ابنُ صياد هو الذي قاله فقد علمنا صحةَ ذلك من جهة أنَّ النبيَّ ﷺ صَدَّقه في ذلك، ويكون ابنُ صيادٍ علم ذلك من جهة ما ألقاه إليه شيطانُه من الكلمات التي استرقَ سَمْعها؛ لأنَّ ابنَ صياد كان من الكهَّان على ما يأتي في حديثه. والدرمكة: دقيق الحوَّارى. شبَّه تربةَ الجنة به في حُسْن لونها، ونعيمها، وشبَّه رائحتَها بالمسك، وهذا تشبيهُ تقريبٍ، وأين الثريا من الثرى؟!.

تربة الجنة

و (قوله: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كلَّ جمعة») السوق: يُذكَّر ويُؤَنَّث،

سوق الجنة

---

(١) في مسلم والتلخيص: ما تراب.
(٢) في (ز): ذلك.

فَتَهُبُّ ريحُ الشَّمال، فتحثو في وجوهِهم وثيابِهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرْجِعُون إلى أهْليهم، وقد ازدادوا حسناً، فيقول لهم أهْلوهم: والله لقد ازْدَدْتم بعدنا حسناً وجمالاً! فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً!».

رواه أحمد (٣/ ٢٨٤)، ومسلم (٢٨٣٣).

* * *

وسُمِّي سوقاً لقيام الناسِ فيها على ساق، وقيل: لِسَوْق الناس بضائعهم إليها، فيحتمل أن يكون سوقُ الجنة عبارةً عن مجتمع أهل الجنة، ومحلّ تزاورهم، وسُمِّي سوقاً بالمعنى الأول، ويؤيِّد هذا أنَّ أهلَ الجنة لا يفقدون شيئاً حتى يحتاجوا إلى شرائه من السوق، ويحتمل أن يكون سُوقاً مشتملاً على محاسن مشتهيات مستلذَّات تجمعُ هنالك مرتَّبة مُحسَّنة، كما تُجمع في الأسواق، حتى إذا جاء أهلُ الجنة فرأوها، فمن اشتهى شيئاً وصل إليه من غير مبايعة ولا مُعاوضة، ونعيم الجنة وخيرها أعظم وأوسع من ذلك كلِّه، وخُصَّ يومُ الجمعة بذلك لفضيلته، ولِما خصَّه اللَّهُ تعالى به من الأمور التي تقدَّم ذِكْرُها؛ ولأنه يومُ المزيد. أي: اليوم الذي يُوفَّى لهم ما وُعِدوا به من الزيادة. وأيامُ الجنة تقديرية؛ إذ لا ليل هناك ولا نهار، وإنما هناك أنوار متوالية لا ظلمةَ معها، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

و (قوله: «فتهبّ ريح الشَّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم») ريحُ الشَّمال في الدنيا: هي التي تأتي من دُبُر القبلة من ناحية الشام، وهي التي تأتي بلاد العرب بالأمطار، فهي عندهم أحسنُ الأرياح، فلذلك سمِّي ريح الجنة بالشمال، وفي الشمال لغات. يقال: شمال، وشمأل، وشأمل، وشمل، وشمول. حكاها صاحب «العين». ويقابلها: الجنوب، وقد سُمِّيت هذه الريحُ في حديثٍ آخر بالمثيرة؛ لأنها تثيرُ النعيم والطِّيب على أهل الجنة.

(١٢) بـــاب

في الجنة أكلٌ وشربٌ ونكاحٌ
حقيقةً ولا قذر فيها ولا نقص

[٢٧٥٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أول زمرةٍ يدخلون الجنَّة ـ في رواية: من أمتي ـ على صورة القَمَرِ ليلة البدر، ثم الذين يلونَهُم على أشدِّ كوكبٍ دريٍّ في السماء إضاءةً». ـ في روايةٍ: ثم هم بعد ذلك منازل ـ لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يَتْفِلُون، ولا يمتخطون،

و (قوله: «أول زمرة يدخلون الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر») الصورة، بمعنى الصفة، يعني: أنهم في إشراقِ وجوههم على صفة القمر ليلةَ تمامه، وكماله، وهي ليلةُ أربعة عشر، وبذلك سُمِّي القمر بَدْراً في تلك الليلة، ومُقْتضى هذا أنَّ أبوابَ الجنة متفاوتةٌ بحسب درجاتهم.

و (قوله: «لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يتفِلون، ولا يمتخطون») إنما لم تصدرْ هذه الفضلاتُ عن أهل الجنة؛ لأنها أقذارٌ مستخبثة، والجنة مُنزَّهةٌ عن مثل ذلك، ولمَّا كانت أغذيةُ أهل الجنة في غاية[1] اللطافة، والاعتدال، لم يكن لها فضلةٌ تُستقذر، بل تُستطاب وتُستلذ، وهي التي عبَّر عنها بالمسك كما قال: «ورشحهم المسك». وقد جاء في لفظٍ آخر: «لا يبولون، ولا يتغوَّطون، وإنما هو عَرَقٌ يجري من أعراضهم مثل المسك»[2] يعني: من أبدانهم.

---

(١) في (ز): نهاية.

(٢) رواه أحمد (٤/٣٦٧)، والبيهقي في البعث والنشور ص (٢٠٥) حاشية (٥)، وذكره ابن القيم في: حادي الأرواح ص (٢٦٨).

أمشاطُهم الذهبُ ـ. في رواية: والفضة ـ ورشحهم المسكُ، ومجامرهم الأَلُوَّةُ، وأزواجُهم الحورُ العين.

وفي روايةٍ: «لكلِّ واحدٍ منهم زوجتان ....

و (قوله: «أمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأَلُوَّة») يقال هنا: أيُّ حاجة في الجنة للأمشاط، ولا تتلبد شعورهم ولا تتَّسخ، وأي حاجة للبخور وريحهم أطيبُ من المسك؟! ويُجاب عن ذلك: بأن نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دَفْع ألم اعتراهم، فليس أكلُهم عن جوع، ولا شرابُهم عن ظمأ، ولا تطيُّبهم عن نتنٍ، وإنما هي لذَّاتٌ متوالية، ونِعَمٌ متتابعة؛ ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩]، وحكمةُ ذلك أن الله تعالى نعَّمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعَّمون به في الدُّنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله كما قدمناه. وقد تقدَّم الكلامُ في الأَلُوَّة وفي لغاتها، وأنها: العود الهنديُّ في كتاب الطب.

و (قوله: «وأزواجهم الحور العين») الحور: جمع حوراء. والحَوَر في العين: شدَّة بياضها في شدَّة سوادها. هذا المعروفُ. قال أبو عمرو: الحَوَر أن تسودَّ العين كلُّها مثل أعين الظِّباء والبقر. [وليس في بني آدم حَوَرٌ، وإنما قيل للنساء: حورُ العين لأنّهن تشبَّهن بالظباء والبقر][1]. قال الأصمعي: ما أدري ما الحَوَر في العين. والعِيْن: جمع عيناءُ، وهي: الواسعة العين. وفي الصحاح: رجل أعين: واسع العين، والجمع: عِين، وأصله فُعل بالضم، ومنه قيل لبقر الوحش: عِين، والثور أَعْيَن، والبقرة عيناء.

و (قوله: «لكلِّ واحدٍ منهم زوجتان») يعني: أن أدنى من في الجنة درجة له زوجتان، إذ ليس في الجنة أعزب، كما قال. وأما غَيْرُ هؤلاء فمن ارتفعت منزلته

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من (ز).

يُرى مخُّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسْنِ ، لا اختلاف، ولا تباغض، قلوبهم قلبُ واحدٍ، يسبحون الله بكرة وعشياً».

فزوجاتُهم على قدر درجاتهم كما يأتي في قوله: «في الجنة دُرَّة طولها ستون ميلاً، في كلِّ زاوية منها أهلٌ للمؤمن ما يَرَوْن الآخرين». وبهذا يُعْلَم: أنَّ نوعَ النساء المشتمل على الحُور والآدميات في الجنة أكثر من نوع رجال بني آدم، ورجال بني آدم أكثر من نسائهم، وعن هذا قال ﷺ: «أقلُّ ساكني الجنة نساء، وأكثر ساكني جهنم النساء»[1] يعني: نساء بني آدم هُنَّ أقلّ في الجنة وأكثر في النار.

و (قوله: «يُرى مخّ ساقها من وراء اللحم») يعني: من شدَّة صفاء لحم الساقين، فكأنه يرى مخّ الساقين من وراء اللحم، كما يرى السِّلك في جوف الدُّرَّة الصافية.

و (قوله: «قلوبُهم قلبُ واحد») أي: كقلبِ واحدٍ، يعني: أنها مطهَّرة عن مذموم الأخلاق، مكمَّلة بمحاسنها، فلا اختلافَ بينهم، ولا تباغض.

التسبيح في الجنة ليس عن تكليف وإلزام

و (قوله: «يسبِّحون اللَّهَ بُكرة وعشياً») هذا التسبيحُ ليس عن تكليفٍ وإلزام؛ لأنَّ الجنة ليست محلَّ تكليف، وإنما هي محلُّ جزاء، وإنما هو عن تيسيرٍ وإلهام، كما قال في الرواية الأخرى: «يُلْهَمُون التسبيح، والتحميد، والتكبير، كما تلهمون النَّفَس». ووَجْهُ التَّشبيه: أنَّ تنفس الإنسان لا بُدَّ له منه، ولا كُلفة، ولا مشقة عليه في فِعْله. وآحادُ التنفيسات مكتسبةٌ للإنسان، وجُمْلتها ضرورية في حقه، إذ يتمكَّن من ضَبْط قليل الأنفاس، ولا يتمكَّن من جميعها، فكذلك يكون ذِكْرُ الله تعالى على ألسنة أهل الجنة، وسِرُّ ذلك: أنَّ قلوبَهم قد تنوَّرت بمعرفته، وأبصارهم قد تمتّعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغُ نعمته، وامتلأتْ أفئدتُهم بمحبته ومُخاللته. فألسنتهُم ملازمةٌ ذكره، ورهينة بشكره؛ فإن مَن أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذِكره، وقد تقدم: أنَّ أوقات الجنةِ من الأيام والساعات تقديريات.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٢٧)، ومسلم (٢٧٣٨).

وفي روايةٍ: «أخلاقُهم على خُلُقِ رجلٍ واحدٍ، على طول أبيهم».

وفي روايةٍ: «على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السَّماء».

وقال أبو كُرَيْبٍ: «على خَلْقِ رَجُلٍ».

وقال أبو هريرة ـ حين تذاكروا: ألرِّجال أكثر في الجنة أم النساء؟ ـ فقال: «لكلِّ امرىء منهم زوجتان: اثنتان، يُرى مُخُّ سوقِهِمَا من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب».

رواه البخاريُّ (٣٢٥٤)، ومسلم (٢٨٣٤) (١٤ ـ ١٧).

و (قوله: «أخلاقهم على خُلُق رجل واحد») قد ذكر مسلمٌ اختلافَ الرواة في تقييد خُلُق؛ هل هو بفتح الخاء وسكون اللام، أو بضمها، وكذلك اختلفَ فيه رواةُ البخاري، والذي يناسبُ ما قبله الضم، فيكون معناه: أنَّ أخلاقَهم متساويةٌ في الحسن والكمال. كلُّهم كريمُ الخُلُق؛ إذ لا تباغضَ، ولا تحاسَد، ولا نقص، ويشهدُ له قولُه فيما تقدَّم: «قلوبُهم قلب واحد».

و (قوله: «على طول أبيهم آدم، أو على صورة أبيهم») استئنافُ خبر آخر عنهم، ويحتملُ أن يريدَ به الخَلْق، بالفتح والسكون، ويكون قوله «على طول أبيهم» وما بعده مفسِّراً لذلك الخَلْق، والأولُ أولى لما ذكرناه، ولأنَّا إذا حملناه عليه استفدنا منه فائدتين، ومن الوجه الثاني فائدةً واحدةً، وحَمْل كلام الشَّارع والفصحاء على تكثير الفوائد أولى، كما قرَّرناه في الأصول.

و (قوله: «ستون ذراعاً في السماء») أي: في الارتفاع، وكلُّ ما علاك فهو سماء، ويعني بذلك: أنَّ الله تعالى أعاد أهلَ الجنة إلى خِلْقة أصلهم الذي هو آدم، وعلى صفته وطوله الذي خَلَقَه اللَّهُ عليه في الجنة، وكان طولُه فيها ستين ذراعاً في الارتفاع من ذراع نفسه، والله أعلم. ويحتمل أن يكون ذلك الذراعُ مقدراً بأذرعتنا

[٢٧٥٤] وعن جابرٍ، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها، ويشربون، ولا يَتْفِلون، ولا يبولون، ولا يتغوَّطون ولا يَمْتَخِطون». قالوا: فما بَالُ الطَّعام؟ قال: «جُشَاءٌ، ورَشْحٌ كرشْحِ المِسْكِ. يلهمون التسبيح، والتحميد». ـ وفي روايةٍ: والتكبير ـ كما يلهمون النَّفس».

رواه مسلم (٢٨٣٥) (١٨ و ٢٠)، وأبو داود (٤٧٤١).

* * *

(١٣) بـاب:
في حُسْن صورة أهل الجنَّة وطولهم وشبابهم وثيابهم وأن كلَّ ما في الجنة دائم لا يفنى

[٢٧٥٥] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ الله آدم عَلَى صُورَتِه، طوله سِتُّون ذِراعاً، ....

المتعارفة عندنا. ثم لم يزلْ خَلْق ولده وطولهم ينقصُ، كما جاء في الرواية الأخرى.

و (قوله: «خلق اللَّهُ آدمَ على صورته») هذا الضميرُ عائدٌ على أقرب مذكورٍ، وهو آدم، وهو أعمُّ، وهذا الأصلُ في عود الضمائر، ومعنى ذلك: أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقلْ في النشأة أحوالاً، ولا تردَّد في الأرحام أطواراً؛ إذ لم يخلقْه صغيراً فكبر، ولا ضعيفاً فقوي، بل خَلَقه رجلاً كاملاً سوياً قوياً، بخلاف سُنَّة الله في وَلَده، ويصحُّ أن يكون معناه للإخبار عن أنّ اللَّهَ تعالى خَلَقه يومَ خَلَقه على الصُّورة التي كان عليها بالأرض، وأنه لم يكنْ في الجنة على صورةٍ أُخرَى، ولا اختلفتْ صفاته، ولا صُورته، كما تختلفُ صورُ الملائكة

فلما خلقه قال: اذْهَبْ فسَلِّمْ على أولئك النَّفرِ ـ وهم نَفَرٌ من الملائكة جلوس ـ فاستمع بما يُحيُّونَكَ. فإنَّها تحيَّتُكَ، وتحية ذُرِّيَّتِكَ». قال: «فذهب، فقال: «فزادوه: ورحمةُ الله». قال: «وكلُّ من يدخل الجنة على صورة آدم، وطوله سِتُّون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن».

رواه أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاريُّ (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

[٢٧٥٦] وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ، وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يُنَادي منادٍ: إنّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تَمُوتُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبْأسُوا أبداً، فذلك قوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]».

رواه مسلم (٢٨٣٧)، والترمذيُّ (٣٢٤١).

والجِنِّ، والله تعالى أعلم. ولو سَلَّمنا: أن الضميرَ عائدٌ على الله تعالى لصحَّ أن يقالَ هنا: إن الصورةَ بمعنى الصفة، وقد بيَّنَّاه فيما تقدَّم. وقد ذكرنا في قوله: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر» فإن معناه على صفته من الإضاءة، لا على صُورته من الاستدارة.

و (قوله: «فلما خلقه اللَّهُ قال: اذهبْ فسلِّم على أولئك النَّفر، وهم نفرٌ من الملائكة جلوس»). الكلامُ إلى آخره دليلٌ على تأكُّد حُكْم السلام، فإنه مما شُرِع وكُلِّف به آدم، ثم لم يُنْسَخْ في شريعةٍ من الشرائع، فإنه تعالى أخبره أنها تحيَّته، وتحيَّة ذريته مِن بعده، ثم لم يزلْ ذلك معمولاً به في الأمم على اختلافِ شرائعها، إلى أن انتهى ذلك إلى نبيِّنا محمد ﷺ فَأُمِر به وبإفشائه، وجَعَله سبباً للمحبة

تأكُّد حُكم السلام ومشروعيته

[٢٧٥٧] وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَـن يدخل الجنَّةَ يَنْعَمُ ولا يبأسُ، لا تَبْلَى ثيابُه، ولا يَفْنى شبابُه».

رواه مسلم (٢٨٣٦).

* * *

(١٤) بـــاب
في خيام الجنة وما في الدنيا من أنهار الجنة

[٢٧٥٨] عن أبي موسى الأشعري، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «في الجنَّةِ خَيْمةٌ من لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفةٍ؛ عرضها سِتُّونَ مِيْلاً في كُلّ زاويةٍ منها أهْلٌ ما يَرونَ الآخرين، يطوف عليهم المؤمن».

وفي روايةٍ: قال: «الخيمة دُرّةٌ طولُها في السَّماء ستون ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهل للمؤمن ما يرون الآخرين».

رواه البخاريُّ (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨) (٢٤ و ٢٥).

[٢٧٥٩] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحانُ، وجَيْحَانُ، والفُراتُ، والنِّيلُ كلّ من أنهار الجنة».

رواه مسلم (٢٨٣٩).

* * *

الدينية، ولدخول الجنة العليّة، وهذا كلُّه يشهدُ لمن قال بوجوبه، وهو أحدُ القولين للعلماء، وقد تقدَّم القولُ في ذلك.

و (قوله: «سَيْحان وجيحان والنيل والفرات: كلٌّ من أنهار الجنة») **هذه من أنهار الجنة** الأنهارُ الأربعةُ: أكبرُ أنهار الإسلام. فالنيل ببلاد مصر، والفرات بالعراق،

(١٥) بـــاب
في صفة جهنَّم وحرِّها وأهوالها
وبعد قعرها أعاذنا الله منها

[٢٧٦٠] عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعون ألف زِمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعون ألف مَلكٍ يَجرُّونَها».

رواه مسلم (٢٨٤٢).

وسيحان وجيحان ببلاد خراسان، ويقال: سيحون وجيحون، وظاهر هذا الحديث: أن أصلَ هذه الأنهار ومادَّتها من الجنة، كما قدَّمناه في أحاديث الإسراء. وقد تقدَّم: أنَّ النيلَ والفراتَ يخرجان من أصل سدْرة المنتهى، وقد نصَّ عليه البخاريُّ، ويحتملُ أن يكونَ المراد: أنها تشبه أنهار الجنة في عذوبتها وبركاتها، وأبْعَدُ من هذا احتمالُ أن يكون المراد بذلك: أن الإيمانَ غمر بلاد هذه الأنهار، وفاض عليها، وأن غالبَ الأجسام المتغذية بهذه المياه مصيرُها إلى الجنة.

(١٥ و ١٦) ومن بـــاب: صفة جهنم أعاذنا الله منها[١]

أسماء جهنم

(قوله: «يُؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملكٍ يجرُّونها») قد تقدَّم: أنَّ جهنَّم اسمُ علمٍ لنار الآخرة، وكذلك: سقر، ولها أسماء كثيرةٌ ـ أعاذنا الله منها ـ، ويعني: أنها يُجاء بها من المحلِّ الذي خَلَقها اللَّهُ فيه، فتُدار بأرض المحشر حتى لا يَبْقى للجنَّة طريقٌ إلا الصراط، كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة. والزمام: ما يُزَمُّ به الشيء؛ أي: يُشَدُّ ويُرْبَط، وهذه الأزمَّةُ

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب، والباب الذي يليه بعنوان: تعظيم جسد الكافر، وتعظيم العذاب بحسب أعمال الأعضاء.

[٢٧٦١] وعن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ناركُم هذه؛ التي يوقد ابن آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من حَرِّها».

رواه أحمد (٢/ ٣١٣)، ومسلم (٢٨٤٣)، والترمذيّ (٢٥٥٩).

[٢٧٦٢] وعنه؛ قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ إذْ سَمع وجْبَةً، فقال

التي تُسَاق جهنَّمُ بها أيضاً تمنعُ من خروجها على أهلِ المحشر، فلا يخرجُ منها إلا الأعناق التي أُمِرَتْ بأخذ مَن شاء اللَّهُ أَخْذه. وملائكتها ـ كما وصفهم الله تعالى ـ: ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وأما هذا العددُ المحصورُ للملائكة فكأنَّه عَدَدُ رؤسائهم، وأما جُملتهم فالعبارةُ عنها ما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

و (قوله: «ناركم هذه التي يُوقِد ابنُ آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم») يعني: أنه لو جُمع كلُّ ما في الوجود من النار التي يُوقِدها بنو آدم لكانت جزءاً من أجزاء جهنم المذكورة، وبيانُه: أنه لو جُمع حطبُ الدنيا فوقد كلّه حتى صار ناراً؛ لكان الجزءُ الواحدُ من أجزاء نار جهنم؛ الذي هو من سبعين جزءاً أشد من حر نار الدنيا كما بينه في آخر الحديث.

و (قولهم: والله إن كانت لكافية)[1]، إن: في مثل هذا الموضع مخففة من الثقيلة عند البصريين، وهذه اللام هي المفرقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة، وهي عند الكوفيين بمعنى ما، واللام بمعنى إلا، تقديره عندهم ما كانت إلا كافية. وعند البصريين: إنها كانت كافية. فأجابهم النبيُّ ﷺ بأنها كما فضلت عليها في المقدار والعدد بتسعة وستين جزءاً فُضِّلت عليها في شدة الحرِّ بتسعةٍ وتسعين ضعفاً.

و (قوله: إذ سمعَ وجبةً) أي: هدَّة، وهي صوت وقع الشيء الثقيل.

---

(١) هذه الفقرة لم ترد في التلخيص، وهي من الحديث (٢٨٤٣)(٣٠) في صحيح مسلم.

النَّبيُّ ﷺ: «تَدْرُون ما هذا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم! قال: «هذا حجرٌ رُمِيَ به في النار منذ سَبْعينَ خَرِيفاً فهو يهوي في النار الآن حين انتهى إلى قعرها».

رواه أحمد (١/ ١٨٨)، ومسلم (٢٨٤٤).

* * *

(١٦) بـــاب
تعظيم جسد الكافر وتوزيع
العذاب بحسب أعمال الأعضاء

[٢٧٦٣] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافِر ـ أو نَابُ الكَافِر ـ مثل أحد. وغِلَظُ جِلْدِه مَسِيرةُ ثَلاثٍ».

وفي روايةٍ: قال: «ما بين منكبي الكافر في النَّار مسيرةُ ثلاثة أيامٍ للراكب المسرع».

رواه مسلم (٢٨٥١ و ٢٨٥٢)، والترمذيّ (٢٥٧٩).

و (قوله: «أتدرون ما هذا؟») دليل على أنهم حين سمعوا الوجبة خرقَ الله لهم العادة، فسمعوا ما مُنِعَه غيرهم، وإلا فالعادة تقتضي مشاركة غيرهم في سماع هذا الأمر العظيم، ففيه دليل على: أن النار قد خُلقت وأُعِدَّ فيها ما شاء الله مما يُعذب به من يشاء، وهو مذهبُ أهل السنة خلافاً للمبتدعة.

خَلْق النار

و (قوله: «ضرس الكافر، أو نابُ الكافر مثل أحد. . . الحديث») إنما عَظُم خلقُه ليعظمَ عذابُه، ويتضاعفَ، وهذا إنما هو في بعض الكفَّار بدليل: أنه قد جاءت أحاديثُ أُخر تدلُّ على: أن المتكبرين يُحشرون يوم القيامة أمثالَ الذرِّ في

[٢٧٦٤] وعن سَمُرَةَ بنِ جندبٍ: أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مِنْهم من تأخذه النَّار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى رُكْبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ، ومنهم من تأخذه إلى تَرْقُوتِه».

وفي روايةٍ: «حِقْوَيْه» مكان «حُجزَته».

رواه مسلم (٢٨٤٥) (٣٢ و ٣٣).

* * *

صور الرجال، يُساقون إلى سجن في جهنم يُسمَّى: «بُولَس»[1] وقد تقدَّم قوله: «إنَّ أهونَ أهل النار عذاباً مَنْ في رجليه نعلان من نار تغلي منها دماغه، وهو أبو طالب»[2]. ولا شك في أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد عُلم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلمُ على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين، وفتكَ فيهم، وأفسدَ في الأرض وكفرَ؛ مساوياً لعذاب من كفر فقط، وأحسنَ للأنبياء والمسلمين، وهذا البحث ينبني على أنَّ الكفَّار مخاطبون بفروع الشريعة، وقد ذكرنا ذلك في الأصول.

تفاوت عذاب الكفار في جهنم

و (قوله: «فمنهم من تأخذُه النَّارُ إلى كعبيْه... الحديث») والحجزة: معقدُ السراويل، والإزار. والتَّرْقُوَة: بفتح التاء وضم القاف، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق. وهذا الحديث أيضاً يدلُّ على: أنَّ أهلَ النار يتفاوتون فيها، ويصحُّ مثل هذا في الكفار، كما قلناه في حديث أبي طالب، ويصحُّ أنْ يكونَ ذلك فيمن يُعذَّبُ من الموحِّدين إلا أن الله تعالى يميتهم إماتة، كما صحَّ في الحديث.

* * *

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين (٨/ ٣٤٣).

(٢) سبق تخريجه.

(١٧) بـــاب
ذبح الموت وخلود أهل الجنة وأهل النار

[٢٧٦٥] عن أبي سعيدٍ الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاءُ بالموت». ـ وفي رواية: «إذا دخل أهل الجنة الجنَّة، وأهلُ النار النار ـ يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون من هذا؟ فيشرئبون، فينظرون، فيقولون: نعم، هذا الموت! قال: ويقال: يا أهل النار! هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون،

---

(١٧) ومن بـــاب: ذبــح المـــوت

(قوله: «يُجاء بالموت يومَ القيامة كأنَّه كبشٌ أملح») قد تقدَّم الكلام على الأملح في الضحايا، وأنه الذي فيه بياض وسواد، والبياض أكثر، كما قاله الكسائي. وقيل: يحتمل أن تكون الحكمة في كون هذا الكبش أملح لأن البياض من جهة الجنة، والسواد من جهة النار.

قلـــتُ: ظاهر هذا الحديث مستحيل، وذلك أن العقلاء اتَّفقوا على: أن الموت: إما عَرَض مخصوص، وإما نفي الحياة، ولم يذهب أحد إلى أنه من قبيل الجواهر، وأيضاً: فإن المُدْرَك من الموت والحياة إنما هما أمران متضادان متعاقبان على الجواهر، كالحركة وكالسكون، وقد دلَّ على ذلك من جهة السمع قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢]، فهذا يُبطل قول من قـال من المعتزلة: إن الموت عدم الحياة؛ لأن العدم لا يُخلق، ولا يُوجب اختصاصاً للجواهر. واستيفاء المباحث العقلية في علم الكلام، وإذا تقرَّر ذلك استحالَ أن ينقلبَ الموتُ كبشاً؛ لأن ذلك انقلابُ الحقائق وهو محال. وقد تأوَّل الناس ذلك الخبر على وجهين:

أحدُهما: أن الله تعالى خلقَ صورة كبش خلق فيها الموت، فلما رآه أهلُ

وينظرون، فيقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة! خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار! خلودٌ فلا موت». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»، وأشار بيده إلى الدنيا.

رواه مسلم (٢٨٤٩) (٤٠ و ٤١).

* * *

الجنة وأهلُ النار، وعرفوه، فعلَ الله فيه فعلاً يُشبه الذبح، أعدَمه عند ذلك الفعل حتى يأمنَه أهلُ الجنة، فيزدادوا سروراً إلى سرورهم، وييأس منه أهلُ النار فيزدادوا حزناً إلى حزنهم، وعلى هذا يدلُّ باقي الحديث، ولا إحالة في شيء من ذلك، ولا بُعدَ.

والوجه الثاني: أنَّ المراد بالحديث تمثيلُ عدم الموت على جهة التشبيه والاستعارة، ووجهه: أنَّ الموتَ لما عُدِمَ في حقِّ هؤلاء صار بمثابة الكبش الذي يُذبح فينعدم، فعبَّرَ عنه بذلك، وهذا فيه بُعْدٌ وتحميلٌ للكلام على ما لا يصلح له، والوجه المعني: الأول. والله أعلم. ويَشرئبُّون: يرفعون رؤوسهم ويتشوَّفون ليبصروا ما عُرِض عليهم.

و (قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ...﴾ الآية [مريم: ٣٩])، ومعنى أنذرهم: أعلمهم وحذِّرْهم، والنذارة: إعلام بالشر، والبشارة: إعلام بالخير، ويوم الحسرة: يعني به زمنَ ذبح الموت إذا سمعوا: خلودٌ فلا موت. وقُضِيَ: بمعنى أُحكِم وتُمِّم. والأمرُ: يعني به خلود أهل النار فيها.

و (قوله: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]) استئناف خبر عما كانوا عليه في الدنيا، لا تعلُّق له بما قبله، يدلُّ عليه قوله في الحديث، وأشار بيده إلى الدنيا، يعني أنهم كانوا كذلك في الدنيا، والله تعالى أعلم.

(١٨) بـــاب
محاجَّة الجنَّة والنَّار

[٢٧٦٦] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تحاجَّت النَّار والجنَّة، فقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين! وقالت الجنَّةُ: فما لي لا يدخلني إلا ضُعَفاءُ الناس وسَقَطُهُمْ وعَجَزُهم». ـ في روايةٍ: وغِرّتُهُمْ» بدل «وعَجَزُهم» ـ فقال الله للجنة: «أنت رحمتي أرحمُ بك من

---

(١٨) ومن بـــاب: مُحاجَّة الجنة والنَّار

(قوله: «تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثرت بالمتكبِّرين... الحديث») ظاهر هذه المحاجَّة: أنها لسانُ مقال، فيكون خَزَنَةُ كل واحد منهما هم القائلون بذلك، ويجوز أن يخلقَ الله ذلك القول فيما شاء من أجزاء الجنة، وقد قلنا فيما تقدَّم: إنه لا يُشترط عقلاً في الأصوات المقطَّعة أن يكونَ محلُّها حياً، خلافاً لمن اشترط ذلك من المتكلِّمين. ولو سلَّمنا ذلك لكان من الممكن أن يخلقَ الله في بعض أجزاء الجنة والنار الجماديَّة حياةٍ، بحيث يصدر ذلك القول عنه، والله تعالى أعلم. لا سيما وقد قال بعضُ المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]: إن كل ما في الجنة حيّ، ويُحتمل أن يكونَ ذلك لسان حال فيكون ذلك عبارة عن حالتيهما، والأول أولى، والله تعالى أعلم.

و (قول الجنة: «ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعَجَزُهم»، وفي رواية: وغِرَّتُهم») الضعفاء: جمع ضعيف: يعني به الضعفاء في أمر الدنيا، ويحتمل أن يُريد به هنا الفقراء. وحملُه على الفقراء أولى من حمله على الأول؛ لأنه يكون معنى الضعفاء: معنى العجزة المذكورين بعد. وسقطهم ـ بفتح السين والقاف ـ: جمع ساقط وهو النازل القدر، وهو الذي عبَّر عنه بأنه لا يُؤبه له، وأصلُه من سقط المتاع: وهو رديئه. وعَجَزُهم؛ قال القاضي: هو بفتح العين والجيم جمع عاجز.

أشاء من عبادي! وقال للنار: أنت عذابي أعذِّب بك من أشاء من عبادي، ولكلٍّ واحدةٍ منكما ملؤها! فأمَّا النار فلا تمتلىء، فيضع قدَمَهُ عليها، فتقول: قطِ، قطِ، فهنالك تمتلىء، ويُزْوَى بعضُها إلى بعضٍ».

وفي روايةٍ: «فأما النَّار فلا تمتلىء حتى يضعَ الله تبارك وتعالى رجله، تقول: قطِ، قطِ، قطِ، فهنالك تمتلىء، ويزوى بعضُها إلى بعضٍ فلا يظلم الله من خلقه أحداً. وأما الجنَّة فإن الله ينشىء لها خلقاً».

رواه أحمد (٢/ ٢٧٦)، والبخاريُّ (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦) (٣٥ و ٣٦)، والترمذيُّ (٢٥٦١).

[٢٧٦٧] وعن أنسٍ، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «لا تزال جهنَّم يُلقى

قلــتُ: ويلزمه على ذلك أن يكون بالتاء ككاتب وكتبة، وحاسب وحَسَبة، وسقوط التاء في مثل هذا الجمع نادرٌ، وإنما يُسقطونها إذا سلكوا بالجمع مسلكَ اسم الجنس، كما فعلوا ذلك في سقطهم، وصواب هذا اللفظ: أن يكون عُجَّزُهُم بضم العين وتشديد الجيم، كنحو: شاهد وشُهَّد، وكذلك أذكر أني قرأته: وغَرْثهم: بفتح الغين المعجمة والثاء المثلثة جمع غِرْثان، وهو الجيعان، والغرث: الجوع. وقد رواه الطبري: غِرَّتهم: بكسر الغين وبالتاء باثنتين فوقها، وتشديد الراء: أي غفلتهم، وأهل البَلَه منهم، كما قال في الحديث الآخر: «أكثر أهل الجنة البُلْه»[1] يعني به: عامة أهل الإيمان الذين لم يتفطنوا للشُّبَه، ولم توسوس لهم الشياطين بشيء من ذلك، فهم صِحاحُ العقائد، ثابتو الإيمان، وهم أكثر المؤمنين، وأما العارفون والعلماء والحكماء، فهم الأقلُّ، وهم أصحابُ الدرجات العُلى والمنازل الرفيعة.

و (قوله: «وأما النار فلا تمتلىء فيضعُ قدمَه عليها»، وفي اللفظ الآخر:

---

(١) رواه البزار في مسنده عن أنس، وهو حديث ضعيف. انظر جامع الأصول (١٠/ ٥٣٦).

فيها، وتقول: هل من مزيد؟! حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي

«حتى يضعَ ربُّ العزة فيها قدمَه»، وفي اللفظ الآخر: «حتى يضعَ اللّهُ رِجلَه») ولم يذكر لا فيها ولا عليها، وقد ضلَّ بظاهر هذا اللفظ من أذهبَ الله عقلَه، وأعدم فهمَه، وهم المجسِّمة المشبهة، فاعتقدوا: أن لله تعالى رجلاً من لحم وعصب تُشبه رجلنا، كما اعتقدوا في الله تعالى أنه جسمٌ يُشبه أجسامنا ذو وجهٍ وعينين، وجنب ويدٍ ورجل وهكذا. . . وهذا ارتكاب جهالة خالفوا بها العقول وأدلة الشرع المنقول، وما كان سلفُ هذه الأمة عليه من التنزيه عن المماثلة والتشبيه، وكيف يستقرُّ هذا المذهبُ الفاسد في قلب من له أدنى فكرة، ومن العقل أقلُّ مَسَكة، فإن الأجسامَ من حيث هي كذلك متساوية في الأحكام العقلية، وما ثبتَ للشيء ثبت لمثله، وقد ثبت لهذه الأجسام الحدوثُ، فيلزم عليه أن يكونَ الله تعالى حادثاً، وهو محالٌ باتفاق العقلاء والشرائع. ثم انظر غفلتهم وجهلَهم بكلام الله تعالى وبمعانيه، فكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ويلزم على قولهم: أن يكونَ كلُّ واحد منا مِثْلاً له تعالى من جهة الجسمية والحيوانية، والجوارح، وغير ذلك من الأعضاء والأعصاب واللحم والجلود والشُّعور، وغير هذا، وكلُّ ذلك جهالات وضلالات، ولله سرٌّ في إبعاد بعض العباد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقد تأوَّل علماؤنا ذلك الحديث تأويلاتٍ[(١)]. وأشبهُ ما فيها تأويلان:

أحدهما: أن النار تتغيَّظ، وتتهيجُ حَنَقاً على الكفَّار والمتكبِّرين والعصاة، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [تبارك: ٨]، وكما قال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]، وكما قال في هذا الحديث: «لا تزالُ جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟»، وكما قال: «تخرجُ عنقٌ من النار فتقول:

---

(١) الأولى بنا أن نقولَ في هذا المقام ما يقولُه علماء السلف: نثبتُ لله تعالى ما أثبتَ لنفسه، من غير تعطيل ولا تأويل ولا تجسيم.

بعضُها إلى بعض، وتقول: قطٍ قطٍ بعزتك وكرمك! ولا يزال في الجنة فضل حتى يُنشِىءَ اللَّهُ لها خَلقاً، فيُسْكِنَهم فضلَ الجنة».

رواه أحمد (٣/ ١٣٤)، والبخاريّ (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨) (٣٨).

* * *

وُكِلت بالجبارين والمتكبِّرين»[١]. فكأنها تعلو وتطغى حتى كأنها تجاوز الحد، وفي بعض الحديث: «أنها تكاد أن تلتقمَ أهلَ المحشر فيكسر الله سورتها، وحدّتها، وبردها، ويذلِّلها ذلَّ متكبرٍ وُطِىء بالقدم والرِّجْل»، فعبَّر عن تذليلها بذلك، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «فيضع قدمه عليها»، وعلى هذا فيكون «فيها» في الرِّواية الأخرى بمعنى عليها. كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل.

وثانيهما: أن القدمَ والرِّجْلَ عبارةٌ عمن تأخَّر دخوله في النار من أهلها، وهم جماعات كثيرة؛ لأن أهلَ النار يلقون فيها فوْجاً بعد فوج، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [تبارك: ٨]، ويؤيده قولُه في هذا الحديث: «لا يزال يُلقى فيها» فالخزنةُ تنتظرُ أولئك المتأخِّرين، إذ قد علموهم بأسمائهم وأوصافهم، كما روي عن ابن مسعود أنه قال: ما في النار بيت، ولا سلسلة، ولا مقمع، ولا تابوت إلا وعليه اسمُ صاحبه، فكلٌّ واحدٍ من الخزنـة ينتظر صاحبَه الذي قد عرف اسمه وصفتَه، فإذا استوفى كلُّ واحدٍ منهم ما أُمِر به، وما ينتظره، ولم يبقَ منهم أحدٌ، قالت الخزنة: قطٍ قطٍ، أي: حسبنا، حسبنا. اكتفينا، اكتفينا. فحينئذ تنزوي جهنمُ على مَن فيها. أي: تجتمع، وتنطبق إذ لم يبق أحدٌ ينتظر، فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم، كما عبرت العربُ عن جماعة الجراد بالرّجل، فتقول:

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٧٤).

(١٩) بـــاب
شهادة أركان الكافر عليه
يوم القيامة وكيف يحشر

[٢٧٦٨] عن أبي هريرة، قال: قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: «هل تُضارُّون فِي رُؤيَة الشَّمْس في الظهيرة ليست في سحابةٍ؟»، قالوا: لا. قال: «فهل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس

جاء رجلٌ من جراد؛ أي: جماعة منها، ويشهدُ بصحَّة هذا التأويل قولُه في آخر الحديث: «ولا يزالُ في الجنة فضلٌ حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة». والله بمراد رسوله أعلم، والتسليم في المشكلات أسلم. وقد تقدَّم القولُ في قطّ الزمانية، وأنها مبنيةٌ على الضم مشدّدة ومخفَّفة، وأنها تُقال بفتح القاف وهو الأصلُ فيها، ويقال بالضم إتباعاً. وأما قطْ بمعنى حسب فهي مبنيةٌ على السكون، وقد تُكسر، وتلحقها نونُ الوقاية إذا أُضيفت[١]، وتقال: بالدال، ويصحُّ فيها ما يصحُّ في الطاء.

(١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢) ومن بـــاب: شهادة أركان الكافر عليه يوم القيامة[٢]

قد تقدَّم القولُ على رؤية الله تعالى في كتاب الإيمان، وعلى قوله: تضارُّون.

---

(١) : أي: إلى ياء المتكلم. قال الراجز:

امتــلأ الحــوضُ وقـــال قطِنــي　　　　سـلاً رويـداً قـد مـلأتَ بطنـي

انظر: اللسان مادة (قطط).

(٢) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان جميع الأبواب المتبقية من كتاب: ذكر الموت وما بعده.

في سحابة؟» قالوا: لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارُّون في رؤية ربِّكُم إلا كما تُضارُّون في رؤية أحدهما. قال: فيَلْقَى العَبْدَ فيقول: أي فُلْ! ألم أُكْرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأزوجك، وأسخِّر لك الخيل والإبل، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وتَرْبَعُ! فيقول: بلى! فيقول: أفظَنَنْتَ أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا!

(قوله: «أي فلْ») هو منادى مُرخَّم، فكأنه قال: يا فلان، ولا يرخَّم في غير النداء إلا في ضرورة الشعر.

و (قوله: «ألم أكرمْك؟») أي: بما فضّلتك به على سائر الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

و (قوله: «وأسوِّدْك») أي: جعلتُك سيداً على قومك. والسؤدد: التقدُّم بالأوصاف الجميلة، والأفعال الحميدة.

و (قوله: «وأَذَرْك ترأس وتَرْبَع؟») أي: ألم أتركك تترأس على قومك؟ أي: تكون رئيساً عليهم. وتربع ـ بالموحدة ـ أي: تأخذ المرباع، أي: الربع فيما يحصلُ لقومك من الغنائم والكسب. وكانت عادتُهم: أن أمراءهم يأخذون من الغنائم الربع، ويسمُّونه المرباع. قال قطرب: المرباع: الربع. والمعشار: العشر، ولم يُسْمَعْ في غيرهما. ورواية الجمهور: تربع بالباء، وعند ابن ماهان: ترتع بتاء باثنتين من فوقها، ومعناه: تتنعَّم.

و (قوله: «أفظننتَ أنك مُلاقِيَّ؟») أي: أعلمتَ؛ كقوله تعالى: ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] أي: علموا.

و (قوله: «فإني أنساك كما نسيتني») أي: أتركك في العذاب كما تركتَ معرفتي وعبادتي.

فيقول: فإنِّي أنساك كما نسيتني! ثم يلقى الثاني، فيقول له مثل ذلك. ويقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث، فيقول مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنتُ بك، وبكتابك، وبرسولك، وصلَّيتُ، وصمتُ، وتصدقتُ، ويثني بخيرٍ ما استطاع، قال: فيقول: ها هنا إذاً؟! ثم يقال له: الآن نبعث شاهداً عليك، فيفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيُخْتَم على فيه، ويقال لِفَخِذِه: انطقي! فتنطق فخذُه، ولحمُه، وعظامُه بعمله، فذلك لِيُعْذِرَ من نفسه. وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه».

رواه مسلم (٢٩٦٨).

و (قوله للثالث: «ها هنا إذاً؟») يعني: أها هنا تكذب وتقول غير الحق؟! وذلك أن هذا المنافقَ أنجاه كذبُه ونفاقُه في الدنيا من سفك دمه، واستباحة ماله، فاستصحب الكذبَ إلى الآخرة، حتى كذَبَ بين يدي الله تعالى.

و (قوله: «فيختم على فيه») أي: يُمْنَعُ من الكلام المكتسب له، وينطقُ لسانه، وسائر أركانه بكلام ضروريٍّ لا كَسْبَ له فيه، ولا قدرة على منعه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، فإذا شهدتْ عليه أركانُه بعلمه خُلِّي بينه وبين الكلام المقدور له، فيلوم جوارحَه الشاهدةَ عليه بقوله: «ويلكن فعنكنَّ كنت أناضل» أي: أدافعُ وأحتجُّ، والروايةُ المشهورة: «إذاً» التي للتعليل. وقد رواها ابنُ الحذاء: «إذن» والأول أصحُّ وأشهر، وقد سقطت هذه اللفظةُ جملةً عند الصّدفي. واقتصر على: ها هنا. وقيل: معناها: هنا اثبتْ مكانك، كما تقولُ لمن تهدِّده: اثبتْ مكانك حتى أُريك، وما ذكرناه أولى وأشبه، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «ليُعْذِرَ من نفسه») بضم الياء وكسر الذال المعجمة: مِن أعذر، أي: بالغ في حُجَّة نفسه. يعني أنَّ المنافقَ قال ما قال من ادِّعاء فِعْل الخيرات المتقدِّمة.

[٢٧٦٩] وعن أنس بن مالكٍ، قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مِمَّا أضحك؟»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم!. قال: «من مخاطبة العبد ربَّه يقول: يا رب! ألم تُجِرْني من الظُّلْم؟»، قال: «فيقول: بلى!»، قال: «فيقول: فإنِّي لا أجيز على نفسي إلا شاهداً منِّي!»، قال: «فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً». قال: «فيُخْتَم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي!»، قال: «فتنطق بأعماله». قال: «ثم يُخلّى بَيْنه وبين الكلام». قال: «فيقول: بُعْداً لكُنَّ، وسُحْقاً! فعنْكُنَّ كُنْتُ أناضِلُ».

رواه مسلم (٢٩٦٩) (١٧).

[٢٧٧٠] وعن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! كيف يُحْشَر الكافرُ على وجهه يوم القيامة؟، قال: «أليس الذي أمشاه على رِجْلَيه في الدُّنيا قادراً على أنْ يمشيه على وجهه يوم القيامة؟!». قال قتادة: بلى وعزة ربِّنا!.

رواه البخاريُّ (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦).

* * *

و(قوله في الرواية الأخرى: «ألم تُجِرْني من الظلم؟»... إلى آخر الكلام..) ليبالغَ في عُذر نفسه الذي يظنُّ أنه ينجيه، يقال: أعذر الرجلُ في الأمر، أي: بالغ فيه، وقد تقدم القولُ في أنَّ أقلَّ ساكني الجنة النساء الآدميات، وأنهن أكثرُ ساكني النار.

(٢٠) بـــاب
أكثر أهل الجنة وأكثر أهل النار

[٢٧٧١] عن أسامةَ بنِ زيدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «قمت على باب الجنَّة فإذا عامَّةُ من دخلها المساكينُ، وإذا أصحاب الْجَدِّ محبوسون؛ إلا أصحاب النَّار فقد أمر بهم إلى النَّار. وقمت على باب النَّار فإذا عامَّةُ من دخلها النِّساء».

رواه أحمد (٥/ ٢٠٥)، والبخاريُّ (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦).

[٢٧٧٢] وعن أبي التَّيَّاح، قال: كان لمُطرِّف بنِ عبد الله امرأتان، فجَاء من عند إحداهُما، فقالت الأخرى: جئت من عند فلانة؟ فقال: جئت من عند عمران بن حصين، فحدثنا: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ أقلَّ ساكني الجنَّةِ النساءُ».

رواه أحمد (٤/ ٤٢٧)، ومسلم (٢٧٣٨).

* * *

(٢١) بـــاب
لكل مسلم فداء من النار من الكفار

[٢٧٧٣] عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة دفع الله إلى كلِّ مسلمٍ يهودياً، أو نصرانياً، فيقول: هذا فكاكك من النَّار».

و (قوله: «إذا كان يوم القيامة دفع اللَّهُ إلى كلِّ مسلمٍ يهودياً، أو نصرانياً، فيقول: هذا فِكاكُك من النار») يعني: مسلماً مذنباً، بدليل الرواية الأخيرة التي قال

وفي أخرى: «لا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إلا أَدْخَلَ الله مكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيّاً ـ أو نَصْرانِيّاً ـ».

قال: فاستحلفه عمرُ بن عبد العزيز: بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ: أنَّ أباه حدَّثه عن رسول الله ﷺ. قال: فحلف له.

رواه مسلم (٢٧٦٧) (٤٩ و ٥٠).

* * *

فيها: «يجيءُ يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبال»(١). ومعنى كونه فِكاكاً للمسلم من النار، وأن اللَّهَ يغفرُ للمسلم ذنوبَه، ويضاعف للكافر العذاب مغفـرة ذنـوب بحسب جرائمه؛ لأنَّه تعالى لا يُؤاخِذُ أحداً بذنبِ أحد، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ المسلم وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

و (قوله في الرواية الأخرى: «فيغفرها لهم») أي: يُسْقِطُ المؤاخذةَ عنهم بها حتى كأنهم لم يُذْنِبُوا، ومعنى قوله: «ويضعها على اليهود والنَّصارى» أي: أنه يُضاعِفُ عليهم عذابَ ذنوبهم حتى يكون عذابُهم بقدر جرمهم، وجُرْم مذنبي المسلمين لو أُخِذُوا بذلك، وله تعالى أن يضاعِفَ لمن يشاءُ العذاب، ويُخفِّفه عمَّن يشاء، بحكم إرادته ومشيئته؛ إذ لا يُسْأَلُ عما يفعلُ وهم يُسْأَلُون. ولما كان خلاصُ المؤمنِ من ذنوبه عندما يُدْفَعُ له الكافرُ سُمِّي بذلك فِكاكاً كما سُمِّي تخليصُ الرهن من يد المرتهن: فكاكاً.

وأما قوله في الرواية الأخرى: «لا يموت مسلمٌ(٢) إلا أدخلَ اللَّهُ مكانَه النارَ يهودياً أو نصرانياً»، فيعني بذلك ـ واللَّهُ أعلم ـ أن المسلمَ المذنبَ لما كان يستحقُّ

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٤) وعزاه للطبراني في الأوسط، وفيه: جابر ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف.

(٢) في مسلم والتلخيص: رجل مسلم.

(٢٢) بــاب

آخر من يخرج من النار وآخر من يدخل الجنة وما لأدنى أهل الجنة منزلة وما لأعلاهم

[٢٧٧٤] عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأَعْلَمُ آخر أهل النَّار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنَّة: رجل يخرج من النَّار حَبْواً، فيقول له الله: اذهب فادخل الجنَّة! فيأتيها، فيخيَّل إليه أنَّها ملأى، فيرجع، فيقول: يا رب! وجدتُها ملأى! فيقول الله تعالى: اذهب فادخل الجنة! فإنَّ لك مثل الدنيا وعشرةَ أمثالها ـ أو: إنَّ لك عَشَرةَ

مكاناً من النار بسبب ذنوبه، وعفا اللَّهُ تعالى عنه، وبقي مكانُه خالياً منه أضاف اللَّهُ ذلك المكانَ إلى يهوديّ، أو نصراني ليعذَّب فيه، زيادةً على تعذيب مكانه الذي يستحقُّه بسبب كفره، ويشهدُ لذلك قولُه ﷺ في حديث أنس للمؤمن الذي ثبت عند السؤال في القبر: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك اللَّهُ به مقعداً من الجنة»[١]، وقد تقدَّم الكلامُ عليه، وإنما احتاج علماؤنا لتأويل ألفاظِ حديث أبي موسى المذكور في هذا الحديث لِما عارضها من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، ولقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، ولقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، ولقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ولقوله ﷺ: «ألَا لا يجني جانٍ إلا على نفسه»[٢]، ومثله كثير. وعلى الجملة فهي قاعدةٌ معلومةٌ من الشرع لا يُختلفُ فيها.

كل إنسان مسؤول عن عمله ويُحاسب عليه

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٦)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) (٧٢).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٩٩).

أمثال الدنيا ـ قال: «فيقول: أتسخر بي ـ أو: أتضحك بي ـ وأنت الملك؟!»، قال: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضَحِك حتى بدتْ نواجذُه. قال: فكان يقال: ذاك أدنى أهل الجنة منزلاً.

رواه مسلم (١٨٦) (٣٠٨)، والترمذيُّ (٢٥٩٩)، وابن ماجه (٤٣٣٩).

[٢٧٧٥] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «آخرُ مَنْ يدخل الجنَّة رجلٌ هو يمشي مرةً، ويكبو مرةً، وتَسْفعُه النَّار مرةً، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجَّاني منك! لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين! فترفع له شجرةٌ، فيقول: أي رب! أَدْنِني من هذه الشجرة، فَلأستظِلَّ بظلِّها، وأَشْرَبَ من مائها، فيقول الله تعالى: ياابن آدم! لعلِّي إن أعطيتكها سألتني غيرها! فيقول: لا يا رب! ويعاهده ألا يسأله غيرها، وربُّه يعذِرُه؛ لأنه يرى ما لا صَبْرَ له عليه، فيُدْنيه منها، فيستظلُّ بظلِّها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرةٌ هي أحسنُ من الأولى،

و (قوله: «أتسخر مني وأنت المَلِك؟»، وفي اللفظ الآخر: «أتستهزىء منِّي وأنت ربُّ العالمين؟») يُحتمل أن يكون هذا القولُ صَدَر من هذا الرجل عند غَلَبة الفَرَح عليه، واستحقاقه إيَّاه، فغلط كما غلط الذي قال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك». ويحتمل أن يكون معناه: أتجازيني على ما كان منِّي في الدنيا من الاستهزاء والسخرية بأعمالي وقلَّة احتفالي بها، فيكون هذا على جهة المقابلة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، و ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وقد تقدَّم القولُ في ضحك الله تعالى، وأنه راجعٌ إلى الرضا.

و (قوله: «يكبو مرة وتسفعه النارُ مرة») أي: يسقط، ويعثر بخطاطيف الصراط وعقباته، وتسفعه: أي: تحرقه، وتغيِّر لونه.

فيقول: أي رب! أَدْنِني من هذه لأشرب من مائها، وأستظلَّ بظلِّها، لا أسألك غيرها! فيقول: يا بن آدم! ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟! فيقول: لعلي إن أدنيتُك منها تسألني غيرها؟! فيعاهده ألا يسأله غيرها، وربُّه يعذِرُه؛ لأنه يرى ما لا صَبْرَ له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم تُرفعَ له شجرةٌ عند باب الجنَّة أحسنُ من الأُولَيَيْنِ فيقول. . .» إلى: «فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصواتَ أهل الجنَّة، فيقول: أي رب! أدخلنيها، فيقول: ياابن آدم! ما يصريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: أي رب! أتستهزىء مني وأنت رب العالمين». فضحك ابنُ مسعودٍ، فقال: ألا تسألوني ممَّ أضحكُ؟ فقالوا: ممَّ تضحك؟ فقال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ! فقالوا: ممَّ تضحك يا رسول الله! قال: «مِنْ ضِحْكِ ربِّ العالمين. فيقول: إنِّي لا أستهزىء منك، ولكنِّي على ما أشاء قادر».

رواه أحمد (١/ ٣٩١)، ومسلم (١٨٧).

[٢٧٧٦] وعن المغيرة بن شعبة ـ رفعه ـ قال: «سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربَّهُ، فقال: «يا رب! ما أدنى أهلِ الجنَّة منزلةً؟ قال: هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنَّة الجنَّةَ، فيقال له: ادخل الجنة! فيقول: أي رب! كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟! فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلكِ مَلِكٍ مِنْ ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربي! فيقول: لك ذلك ومثلُه معه، ومِثْله، ومِثْلُهُ، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيتُ ربي! فيقول: هذا لك وعَشَرةُ أمثاله، ولك ما اشتهت

و (قول الله تعالى: «ما يصريني منك؟») أي: ما يقطع طلبتك، وما يفصلها؟

نفسك، ولذَّت عَيْنُكَ! فيقول: رضيت ربي! قال: رب! فأعْلاهُم منزلاً؟ قال: أولئك الذين أردت؛ غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشرٍ». قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ . . . ﴾ الآية [السجدة: ١٧]، وقد روي موقوفاً عن المغيرة قوله.

رواه مسلم (١٨٩) (٣١٢ و ٣١٣)، والترمذيُّ (٣١٩٦).

* * *

يُقال: صريت ما بينهم صرياً؛ أي: فصلت، ويُقال: اختصمنا إلى الحاكم فصرَّى بيننا؛ أي: قطع وفصل.

* * *

(٤١)
كتاب الفتن وأشراط السَّاعة

(١) باب
إقبال الفتن ونزولها
كمواقع القطر، ومن أين تجيء

[٢٧٧٧] عن زينبَ بنتِ جحشٍ ـ زوجِ النَّبيِّ ﷺ ـ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فَزِعاً مُحْمَرّاً وجْهُهُ يقول: «لا إله إلا الله، وَيْلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب! ....

---

(٤١)
كتاب الفتن والأشراط

[(١) باب: إقبال الفتن ونزولها
كمواقع القطر، ومن أين تجيء][1]

الاختلاف والفتن الواقعة في العرب

(قوله ﷺ: «ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب») هذا تنبيه على الاختلاف والفتن والهرْج الواقع في العرب، وأوّل ذلك قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولذلك أخبر عنه بالقرب، ثم لم يزل كذلك إلى أن صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأَكَلة،

---

(١) هذا العنوان لم يرد في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

فُتِح اليومَ من ردم يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه»....................

كما قال في الحديث الآخر: «أوشكَ أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأَكَلَةُ على قصعتها»[١]. قال ذلك مخاطباً للعرب، ولهم خاطبَ أيضاً بقوله: «إني لأرى مواقعَ الفتن خلالَ بيوتكم كمواقعِ القطر».

و (قوله: «فُتح اليومَ من رَدْم يأجوجَ ومأجوجَ مثل هذه») الردم: هو السَّدُّ الذي بناه ذو القرنين على يأجوجَ ومأجوجَ، ويُهمزان ولا يُهمزان لغتان. وقرىء بهما، فمن همزَهما جعلَهما من أجيج النار، وهو ضوءها، وحرارتها، وسمُّوا بذلك لكثرتهم وشدّتهم، وقيل: من الأُجاج، وهو الماء الشديد الملوحة، وقيل: هما اسمان أعجميان غير مشتقين. قال مقاتل: هم من ولد يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ. الضحَّاك: من الترك. كعب: احتلمَ آدمُ ـ عليه السلام ـ فاختلط ماؤه بالتراب فَأَسِفَ، فَخُلقوا من ذلك، وفيه نظر؛ لأن الأنبياء لا يحتلمون. وذكرَ الغزنويُّ في كتابه المسمَّى: بعيون المعاني: أن النبيَّ ﷺ قال: «يأجوج أمَّة لها أربعمئة أمير، وكذلك مأجوج لا يموت أحدُهم حتى ينظرَ إلى ألف فارس من ولده. صنف منهم كالأرز طولهم مئة وعشرون ذراعاً، وصنفٌ يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرُّون بفيل، ولا خنزير إلا أكلُوه، ويأكلون من مات منهم. مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية، فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس». وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: وصنف منهم في طول شبر، لهم مخالبُ وأنيابُ السِّباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئب، وشعورٌ تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام، إحداها وبرة يُشتُّون فيها، والأخرى جلدة يصيِّفون فيها، يحفرون السَّدَّ حتى كادوا ينقبونه، فيعيده الله كما كان، حتى يقولوا: ننقبه غداً ـ إن شاء الله ـ فينقبون ويخرجون،

أصناف يأجوج ومأجوج

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٩٧) عن ثوبان، ولفظه: «يُوشك الأممُ أن تداعى عليكم...».

وحلَّق بإِصْبَعَيْهِ: الإبهامِ والتي تليها.

قالت: فقلت: يا رسول الله! أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟! قال: «نعم! إذا كثر الخَبَثُ».

رواه أحمد (٧/ ٤٢٨)، والبخاريُّ (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) (٢)، والترمذيُّ (٢١٨٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣).

ويتحصَّن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء، فيُردُّ إليهم السهم ملطَّخاً بالدم، ثم يُهلكهم الله بالنغف في رقابهم، يعني: الدود.

قلـتُ: وسيأتي من أخبارهم الصحيحة ما يشهدُ بالصحة لأكثر هذين الحديثين.

و (قوله: «مثل هذه ـ وحلق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها ـ») هذا إخبارٌ وتفسيرٌ من الصَّحابة التي شاهدتْ إشارةَ النَّبيِّ ﷺ. ثم إن الرواة بعدهم عبروا عن ذلك باصطلاح الحساب، فقال بعضُهم: وعقد سفيان بيده عشرة، وقال بعضُهم: وعقد وهيب بيده تسعين، وهذا تقريبٌ في العبارة. والحاصل: أن الذي فتحوا من السدِّ قليل، وهُم مع ذلك لم يلهمهم اللّهُ أن يقولوا: غداً نفتحه ـ إن شاء الله تعالى ـ فإذا قالوها خرجوا، والله أعلم.

هلاك الصالحين والطالحين في حال انتشار الزنى

و (قوله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم! إذا كثر الخبث») رويناه بفتح الباء وهو اسمٌ للزنى. قال القاضي: العرب تسمي الزنى خَبَثاً وخبيثة، ومنه في المُخْدَج: أنَّه وُجِدَ مع أَمَةٍ يخبث بها[1]؛ أي: يزني بها، وهو أحدُ التأويلين في قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور: ٢٦]. وقيل: هو الفُسُوق والفجور، ويروى: الخَبْث، بسكون الباء، وهو مصدرٌ، يقال: خبث الرجل خبثاً، فهو

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٧٤).

[٢٧٧٨] وعن أسامة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَشرَفَ على أُطُمٍ من آطَامِ المدينةِ ثم قال: «هَل تَرَوْنَ ما أَرى؟ إنِّي لأرى مواقع الفِتَن خلال بُيُوتِكم كمواقع القَطْر».

رواه أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاريُّ (١٨٧٨)، ومسلم (٢٨٨٥).

[٢٧٧٩] وعن ابن عمر، أنَّه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إنَّ الفِتْنَة ها هنا، من حيث يطلُع قرنُ الشَّيطان».

رواه أحمد (٢/ ٧٢)، والبخاريُّ (٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٠٥) (٤٥)، والترمذيُّ (٢٢٦٩).

[٢٧٨٠] وعن سالم بنِ عبد الله، أنَّه قال: يا أهل العراق! ما أَسْأَلَكُم عن الصغيرة! وأَركَبَكُم للكبيرة! سمعتُ أبي عبدَ الله بنَ عمرَ يقول:

خبيث، وأخبثه غيره: علَّمه الخبث. وقد تقدَّم: أن الله تعالى إذا أهلك قوماً مهلكاً واحداً بعثهم على نياتهم.

و (قوله: أشرف على أُطُم من آطام المدينة) أي: على حصنٍ من حصونها، وتُسمَّى أيضاً: الآجام، وقد تقدَّم ذلك. وأشرف: ارتفع.

و (قوله: «إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم») مواقع: جمع موقع، وهو: موضعُ سقوط الشيء، ووقوعه. وخلال: بمعنى بين، وهو خبرٌ عن أنه رأى مواضع الفتن، وعاينها، وقد نصَّ في الخبر الآتي بعد هذا على أنها تأتي من قبل المشرق، وقد وُجِد كلُّ ذلك كما أخبر عنه ﷺ، فكان ذلك من أدلة صحة نبوته ورسالته، ظهرت بعد وفاته. وقد تقدَّم القولُ في قرني الشيطان في كتاب الصلاة.

و (قول سالم لأهل العراق: إنما قَتَل موسى الذي قَتَل من آل فرعون تحريم القتل خطأً... الكلام إلى آخره) تعظيمٌ لما أقدموا عليه من قَتْل أخيار المسلمين ولو كان خطأ

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الفتنة تجِيء مِنْ ها هنا ـ وأوْمَأ بيده نحو المشرق ـ من حيث يطلُع قرنا الشيطان، وأنتم يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، وإنما قَتَل موسى الذي قَتَل من آل فرعون خطأً فقال الله له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

رواه مسلم (٢٩٠٥) (٥٠).

* * *

وصدورهم، وتقبيحٌ عليهم، وتهديدٌ لهم، ووَجْهُ ذلك: أن الله تعالى عظَّم على موسى ـ عليه السلام ـ ـ وهو صفيُّه وكليمه، عليه السلام ـ قَتْل كافرٍ لم يُنْهَ عن قتله، مع أنَّ قَتْلَه كان خطأً، وكرَّر عليه، وامتنَّ عليه بمغفرته له ذلك مراراً، فكيف يكون حالُ مَن سفك دماء خيار المسلمين من صُدور هذه الأمَّة من الصحابة والتابعين؟! كلُّ ذلك بمحض الهوى، والتجرؤ على استباحة الدماء، فهم الذين قتلوا الحسين، وسَبوا نساءه وأولاده من غير توقُّف، ولا سؤال، وسألوا عن دم البراغيث ليرتفعَ عنهم الإشكال، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

و (قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠]) أي: من غمّ البحر، وقيل: غمّ الخوف والقود. و ﴿فتناك فتوناً﴾ فتنة بعد فتنة؛ أي: محنة بعد محنة، وفتوناً: مصدر فتن، كخرج خروجاً، وقَعَد قعوداً. وقال قتادة: بلوناك بلاءً بعد بلاء، يعني: أنعمنا عليك بنعمٍ كثيرة. وقد تقدَّم: أنَّ البلاءَ يكون بمعنى الابتلاء بالخير والشر. وكلُّ ذلك بمعنى الفتنة والمحنة؛ لأنها كلُّها بمعنى واحدٍ.

* * *

(٢) بــاب

الفرار من الفتن وكسر السِّلاح فيها وما جاء:
أنَّ القاتل والمقتول في النَّار

[٢٧٨١] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتنٌ: القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي، من تشرَّفَ لها تستشرفْه، ومن وجد فيها ملجأً فَلْيَعُذْ به».

رواه أحمـد (٢/ ٢٨٢)، والبخـاريُّ (٣٦٠١)، ومسلـم (٢٨٨٦) (١٠).

[٢٧٨٢] وعن أبي بكرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّها ستكون فِتَنٌ، ألا ثُمَّ تكون فتنٌ، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي إليها، ألا فإذا نزلت ـ أو وَقَعت ـ، فمن كان له إبلٌ فليلحقْ بإبله، ومن كانت له غنمٌ فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرضٌ فليلحق بأرضه». قال: فقال رجلٌ: يا رسول الله! أرأيت من لم يكن إبلٌ، ولا

---

(٢) ومن بــاب: الفرار من الفتن وكسر السلاح فيها

(قوله: «من تشرَّفَ إليها تستشرفْه») أي: من تعاطاها، أو تشوَّف إليها صرعته وأهلكته، وهو مأخوذ من أشرف المريض على الهلاك إذا أشفى عليه، وقد روي: «من يتشرَّفْ إليها» على أنه فعل مضارع مجزوم بالشرط. والأول على أنه فعل مـاضٍ بموضع جزم بالشرط.

الإخبـار عـن وقوع الفتن في آخر الزمن

و (قوله: «إنها ستكون فتن، ألا! ثم تكون فتن... الحديث إلى آخره») كلُّه تضمَّن الإخبارَ عن وقوع فتن هائلة عظيمة بعدَه، والأمرُ بالكفِّ عنها والفِرار منها.

غنمٌ، ولا أرضٌ؟! قال: «فَلْيَعْمِدْ إلى سيفه، فيدقَّ على حدِّه بحجرٍ، ثمَّ لْيَنْجُ إن استطاع النَّجاء. اللهم هل بلغت! اللهم هل بلغت! اللهم هل

و (قوله: «يَعْمِدُ إلى سيفه فيدقُّ عليه بحجر») هذا محمول على ظاهره، وذلك أنه إذا فعلَ ذلك لم يكن له شيءٌ يستعينُ به على الدخول فيها فيفرُّ منها، أو يسلمُ.

و (قوله: «ثم لينجُ إن استطاعَ النَّجَاءَ») أي: ليسرعْ وليفرَّ إن وجدَ إلى ذلك سبيلاً. وقد قال بظاهر هذه الأحاديث جماعة من السلف، فاجتنبوا جميعَ ما وقع بين الصحابة من الخلاف والقتال، منهم: أبو بَكْرة، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، فأما عبد الله بن عمر فندم على تخلُّفه عن نصر عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقال عند موته: ما آسى على شيء ما آسى على تركي قتالَ الفئة الباغية. يعني فئة معاوية. وأما محمد بن مَسْلَمَة فاتَّخذَ سيفاً من خشب، وقال: إن رسول الله ﷺ أمرَه بذلك وأقام بالرَّبَذَة. فمن هؤلاء من تمسَّك بمثل هذه الأحاديث، فانكفَّ. ومنهم من أشكلَ عليه الأمرُ فانكفَّ لذلك، كعبد الله بن عمر إلى أن اتَّضحَ له الحقُّ فندم. قال القاضي: ويتوجَّه في هذا الحديث الكلام في دماء الصحابة، وقتالهم. وللنَّاسِ في ذلك غلوٌّ وإسرافٌ واضطراب من المقالات، واختلاف، والذي عليه جماعةُ أهل السُّنَّة والحقِّ: حسنُ الظنِّ بهم، والإمساك عما شجرَ بينهم، وطلبُ أحسن التأويل لفعلهم، وأنهم مجتهدون غير قاصدين للمعصية، والمجاهرة بذلك، وطلب حبِّ الدنيا؛ بل: كلٌّ عملَ على شاكلته، وبحسب ما أدَّاه إليه اجتهادُه، لكن منهم المخطىء في اجتهاده، ومنهم المُصيب، وقد رفعَ الله تعالى الحرجَ عن المجتهد المخطىء في فروع الدِّين، وضعَّف الأجرَ للمصيب. وقد توقَّف الطبريُّ وغيره عن تعيين المحقِّ منهم، وعند الجمهور: أن علياً وأشياعَه مُصيبون في ذبِّهم عن الإمامة، وقتالِهم من نازعَهم فيها؛ إذ كان أحقَّ الناس بها وأفضلَ من على الأرض حينئذ. وغيرُه تأوَّل وجوبَ القيام بتغيير المنكر

حُسْن الظن بالصحابة والإمساك عما شجر بينهم

بلغت!». قال: فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت إن أُكْرِهْتُ حتى يُنْطَلَقَ بي إلى أحد الصَّفين ـ أو إحدى الفئتين ـ فضربني رجلٌ بسيفه، أو يجيء سهمٌ فَيَقْتُلُني؟! قال: «يبوء بإثمه وإثمك ويكونُ من أصحابِ النَّار».

رواه أحمد (٥/ ٤٨)، ومسلم (٢٨٨٧)، وأبو داود (٤٢٥٦).

[٢٧٨٣] وعن الأحنف بن قيسٍ، قال: خَرَجْتُ وأنا أريدُ هذا

في طلب قَتَلَةِ عثمان الذين في عسكر عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وأنهم لا يُعطونَ بيعةً، ولا يعقدونَ إمامةً حتى يقضوا ذلك، ولم يطلبُوا سوى ذلك، ولم يَرَ هو دفعَهم إذ الحكمُ فيهم إلى الإمام، وكانت الأمورُ لم يستقرَّ استقرارُها، ولا اجتمعتِ الكلمةُ بعدُ، وفيهم عدد ولهم شوكة ومَنَعَة. ولو أظهرَ تسليمَهم أولاً، أو القصاص لاضطربَ الأمرُ، وابنتَّ الحَبْلُ. ومنهم جماعة لم يروا الدخولَ في شيءٍ من ذلك مُحتجِّين بنهي النبيِّ ﷺ عن التلبُّس بالفتن، والنهي عن قتال أهل الدعوة، كما احتجَّ به أبو بكرة ـ رضي الله عنه ـ في هذا الحديث على الأحنف، وعذروا الطائفتين بتأويلهم، ولم يروا إحداهما باغيةً فيقاتلوها.

و (قوله: أرأيتَ إن أُكرهتُ»... إلى قوله: «يَبوءُ بإثمه وإثمك») أي: يرجع، والمباءَة: المرجع، وقد تقدَّم ذلك، ويعني: أنه يبوءُ بإثمه فيما دخلَ فيه، وبإثمكَ بقتله إيّاكَ، أو لإكراهه إياكَ على ما أكرهَك، وفيه: رفعُ الحرج عن المكره على مثل هذا. والمُكره هنا: هو الذي لا يملكُ من نفسه شيئاً، لقوله: أرأيتَ إن أُكرهتُ حتى يُنطلقَ بي، ولم يقلْ: أنه انطلق من قبلِ نفسه. ولم يختلفوا: أنَّ الإكراهَ على القتل لا يُعذر به أحد، وإنما يُعذر فيما تعلَّق بالقلب، أو ما لم يملك الإنسانُ نفسُه. واختلف في الإكراه على المعاصي التي بين الله تعالى وبينَ عبده. هل يُعذرُ المكره فيها في أحكام الدنيا والآخرة، أم لا؟ وفي المسألة أبحاث تُعرف في كتب الأصول.

حُكْم الإكراه على المعاصي

الرَّجل، فلقيني أبو بكرةَ، فقال: أين تريد يا أحْنَفُ؟! قال: قلت: أريد نَصْر ابن عمِّ رسول الله ﷺ ـ يعني: علياً ـ قال: فقال لي: يا أحنفُ! ارجعْ، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النَّار!». قال: فقلت ـ أو قيل ـ: يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟! قال: «إنَّه قد أراد قتل صاحبه».

رواه أحمد (٥/ ٤٣ و ٥١)، والبخاريُّ (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) (١٤)، وأبو داود (٤٢٦٨ و ٤٢٦٩)، والنسائي (٧/ ١٢٥)، وابن ماجه (٣٩٦٥).

[٢٧٨٤] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي

القاتل والمقتول بغير حق في النار

و (قوله: «إذا تواجه المسلمان بسيفيْهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار») معناه: أنهما مُستحقَّان لذلك، أما القاتلُ فبالقتل الحرام، وأما المقتولُ فبالقصد الحرام، والمستحقُّ للشيء قد يُعفى عنه، وإن الله لا يغفرُ أن يُشركَ به، ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء، فأما من اعتقدَ استحلالَ دم المسلم بغير سبب ولا تأويلٍ، فهو كافرٌ، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في الأم: «إذا المسلمان حملَ أحدُهما على أخيه السِّلاحَ فهما على جُرُفِ جهنَّم، فإذا قتلَ أحدُهما صاحبَه دخلاها جميعاً»[1]. رواه الطبري والعذري: «وهما على جُرُفِ جهنَّم» كما ذكرناه بالجيم، وعند بعضهم: «حَرْفِ» بالحاء. وكلاهما متقارب في المعنى، والصورة. ورواه ابن ماهان: «في حَرّ» بالحاء المهملة والراء وغير فاء، مصدر حَرَّت النَّارُ تَحِرُّ حرّاً وحرارةً.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٨٨٨)(١٦).

بيده! لا تذهب الدُّنيا حتى يأتي على النَّاس يومٌ لا يَـدْرِي القاتـل فيما قَتَل، ولا المَقْتُولُ فيما قُتِلَ». فقلت: فكيف ذلك؟ قال: «الهرْجُ! القاتل والمقتول في النَّار».

رواه مسلم (٢٩٠٨) (٥٦).

* * *

(٣) بـــاب
لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، وحتى يكثر الهرج وجعل بأس هذه الأمة بينها

[٢٧٨٥] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم السَّاعةُ حتَّى تَقْتَتِل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مَقْتَلَةٌ عظيمةٌ ودعواهُما واحدةٌ».

و (قوله: «لا تذهبُ الدُّنيا حتى يأتيَ على الناس يومٌ لا يدري القاتلُ فيما قَتَل، ولا المقتولُ فيما قتل») يعني: بذلك أن الأهواء تغلبُ، والهَرْجُ والقتل يكثرُ ويُستسهل، حتى لا يُبالى به، فيكون قتلُ المسلم عند قاتله كقتل نملة، كما هو الحال الآن في أقصى المغرب، والهَرْجُ: هو كثرة الاختلاف والقتل، وهو ساكن الراء.

و (قوله هنا: «القاتلُ والمقتولُ في النار») يُوضحُ أنَّ ذلك محمولٌ في هذا الحديث، وفي حديث أبي بكرة على ما إذا كان القتال في طلب الدنيا، أو على مقتضى الأهواء، وليس في المتأوِّلين المسلمين، ولا فيمن قاتلَ الباغين.

(٣) ومن بـــاب: لا تقوم الساعة حتى تقتتلَ فئتان عظيمتان

يعني بهما فئة علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ والله تعالى أعلم.

و (قوله: «دعواهما واحدة») أي: دينُهما واحد، إذ الكلُّ مسلمون، يدعون

رواه أحمد (٢/٣١٣)، والبخاريُّ (٣٦٠٩)، ومسلم (١٥٧) الفتن (١٧).

[٢٧٨٦] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرْج» قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟! قال: «القتل! القتل!».

رواه مسلم (٢٨٨٨) (١٨).

[٢٧٨٧] وعن ثوبانَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله زوى لِي الأرضَ، فرأيتُ مشارقها ومغاربَها، وإنَّ أمَّتي سيبلغُ مُلْكُها ما زُوِي لي منها، ....

بدعوة الإسلام عند الحرب، وهي: شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

و (قوله في تفسير الهرج: «القتل القتل») وجدتُه في كتاب الشيخ برفع اللام من القتل في اللفظين، مُعتنىً به، مُصحَّحاً عليه، وهو مرفوعٌ على خبر مبتدأ محذوف، أي: هو القتل، هو القتل. وأصلُ الهَرْج: الاختلاط. يقال: هَرَج القومُ؛ إذا اختلطوا، وسُمِّي القتلُ بالهرج؛ لأنه لا يكونُ غالباً إلا عن الاختلاط.

من معجزاته: جَمْـع الأرض له ﷺ

و(قوله: «وإن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها») أي: جَمَعها لي حتى أبصرتُ ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها. وظاهر هذا اللفظ يقتضي: أنَّ الله تعالى قوَّى إدراك بصره، ورَفَع عنه الموانع المعتادة، فـأدرك البعيد من موضعه، كما أدرك بيت المقدس من مكة، وأخذ يخبرُهم عن آياته، وهو ينظرُ إليه، وكما قال: «إني لأبصرُ قصرَ المدائن الأبيض»[1]. ويحتملَ أن يكونَ مثَّلها اللَّهُ له فرآها، والأول أولى.

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «الدرر» ص (١٧٠).

وأُعْطِيْتُ الكنزين: الأحمر والأبيض، وإنِّي سألتُ ربِّي لأمَّتي ألا يُهلكها بِسَنَةٍ بعامةٍ، وألا يُسَلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسِهم، فيستبيحَ

من دلائل نبوته ﷺ اتساع مُلْك أمته شرقاً وغرباً

و (قوله: «إن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها») هذا الخبر قد وجد مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن مُلْكَ أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى بحر طنجة الذي هو منتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق، مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند والصغد. ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يذكر ﷺ أنه أُريه، ولا أخبر أن مُلْك أمته يبلغه.

إعطاؤه ﷺ كنزي فارس والروم

و (قوله: «أُعطيت الكنزين») يعني به: كنز كسرى، وهو مَلِك الفرس، ومُلْك قيصر، وهو مَلِك الروم، وقصورهما، وبلادهما، وقد دلَّ على ذلك قولُه ﷺ في الحديث الآخر حين أَخْبَر عن هلاكهما: «لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله»[1]، وعبَّر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالبَ عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأنَّ الغالبَ كان عندهم الفضَّة والجوهر. وقد ظهر ذلك، ووُجِد كذلك في زمان الفتوح في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ فإنه سيق إليه تاجُ كسرى وحليتُه، وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فَعَل الله بقيصر، لما فتحت بلاده.

دعوته ﷺ ألاَّ تصيب أمته سنة قحط

و (قوله: وإني دعوتُ[2] ربي لأمتي ألَّا يهلكها بسنة بعامة») كذا صحت الروايةُ بالباء في (بعامة) وكأنها زائدة؛ لأن عامة صفة لسنة، فكأنه قال: بسنة عامة، ويعني بالسَّنَة: الجدب العام الذي يكونُ به الهلاكُ العام. ويُسمَّى الجدب والقحط: سَنة، ويجمع سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي: بالجدب المتوالي. وبيضة المسلمين:

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤٠)، ومسلم (٢٩١٨) (٧٥)، والترمذي (٢٢١٦).

(٢) في مسلم والتلخيص: سألتُ.

بَيْضَتهُم، وإنَّ ربي قال: يا محمد! إنِّي إذا قَضَيْتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنّي أعطيتُك لأمَّتِك، ألا أهلكَهُم بِسَنَةٍ بعَامَّةٍ، وألا أسَلِّطَ عليهم عدواً من سِوَى أنفسِهم يَسْتَبِيحُ بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بِأقطارها ـ أو قال: مَنْ بَيْنَ أقطارها ـ حتى يكون بعضُهم يُهْلكُ بَعضاً، ويَسْبِي بَعضُهم بعضاً».

رواه مسلم (٢٨٨٩) (١٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

[٢٧٨٨] وعن سعد بن أبي وقاص، أنَّ رسول الله ﷺ أقبل ذات يومٍ من العالية. ـ في رواية: في طائفةٍ من أصحابه ـ حتى إذا مر بمسجد بني معاوية؛ دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربَّهُ طويلاً، ثم انصرف

معظمهم وجماعتهم، وفي الصحاح: بيضة كلِّ شيء: حوزته، وبيضة القوم: ساحتهم، وعلى هذا فيكون معنى الحديث: أن الله تعالى: لا يُسلِّط العدوَّ على كافة المسلمين حتى يستبيحَ جميعَ ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم كلُّ مَن بَيْن أقطـار الأرض، وهي: جوانبها.

و (قوله: «حتى يكون بعضُهم يُهْلِك بعضاً، ويسبي بعضُهم بعضاً») ظاهِرُ (حتى): الغـايـة، فيقتضي ظـاهـر هـذا الكـلام: أنـه لا يُسـلّـط عليهـم عـدوّهـم فيستبيحهم، إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض. وحاصلُ هذا أنه إذا كان من المسلمين ذلك تفرَّقت جماعتُهم، واشتغل بعضُهم ببعض عن جهاد العدو، فقويت شوكةُ العدو، واستولى، كما شاهدناه في أزماننا هذه في المشرق والمغرب، وذلك أنَّه لما اختلف ملوكُ الشرق، وتجادلوا استولوا كافر الترك على جميع عراق العجم، ولما اختلف ملوكُ المغرب وتجادلوا استولت الإفرنجُ على جميع بلاد الأندلس، والجزر القريبة منها، وها هم قد طمعوا في جميع بلاد الإسلام، فنسألُ اللّهَ أن يتدارك المسلمين بالعفو، والنصر، واللطف. ولا يصحُّ أن يكون (حتى) هنا بمعنى كي لفساد المعنى، فتدبَّره.

إلينا، فقال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدةً، سألت ربي ألا يُهلك أمَّتي بالسَّنَةِ، فأعطانيها، وسَألتُهُ ألا يُهْلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته: ألا يجعل بأسهم بينهم، فَمَنَعنيها».

رواه أحمد (١/ ١٧٥)، ومسلم (٢٨٩٠) (٢٠).

* * *

و (قوله: «وسألتُه ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها») يعني: ألا يهلك جميعهم بطوفان كطوفان نوح ـ عليه السلام ـ حتى يغرقَ جميعهم، وهذا فيه بُعْدٌ، ولعلَّ هذا اللفظ كان بالعدو، فتصحَّف على بعض الرواة لقرب ما بينهما في اللفظ، ويدلُّ على صحة ذلك: أن هذا الحديثَ قد رواه عن النبيِّ ﷺ خبَّاب بن الأرتّ، وثوبان وغيرهما، وكلهم قال: بدل «الغرق» المذكور في هذا الحديث: «عدواً من غير أنفسهم». والله تعالى أعلم.

و (قوله: «وسألته ألا يجعل بأسَهم بينهم فمنعنيها») البأس: الحروب والفتن، وأصلُه من بئس يبأس: إذا أصابه البؤس، وهو الضرُّ، ويقال: بأساً وضرّاً.

يُستجاب من الدعاء ما وافقه القضاء

و(قوله: «يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاءً لا يُرَدّ») يُستفاد منه: أنه لا يُستجاب من الدعاء إلا ما وافقه القضاء، وحينئذٍ يشكل بما قد روي عنه ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاءَ إلا الدعاء»[1]. ويرتفعُ الإشكالُ بأن يقال: إن القضاء الذي لا يردُّه دُعاء، ولا غيره، هو الذي سَبَق علمُ الله بأنه لا بُدَّ من وقوعه. والقضاء الذي يرده الدعاء، أو صلة الرحم، هو الذي أظهره الله بالكتابة في اللوح المحفوظ؛ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقد تقدَّم ذلك في كتاب القدر.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٣٩) من حديث سلمان ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) بـــاب
إخبار النبي ﷺ بما يكون إلى قيام الساعة

[٢٧٨٩] عن حذيفة قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ مَقاماً ما ترك فيه شيئاً يكون في مَقامِه ذلِكَ إلى قيام الساعةِ إلا حدَّث به، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَه، ونَسِيَهُ مَنْ نَسيَهُ، قَدْ علمه أصحابي هؤلاء، وإنَّه ليكون منه الشيءُ قد نَسِيتُه، فأرَاهُ، فأذكُرَه كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عَرَفَه.

(٤ و ٥) ومن بـــاب: إخبار النبيِّ ﷺ
بما يكون إلى قيام الساعة[1]

إخباره ﷺ عن الفتن القادمة

(قول حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: قام فينا رسولُ الله ﷺ مَقاماً ما ترك فيه شيئاً يكونُ في مَقامه ذلك إلى قيام الساعة إلاَّ حدَّث به) هذا المجرورُ الذي هو (في مَقَامه) يجوزُ أن يتعلَّق بترك، والأليقُ أن يكونَ مُتعلِّقاً بحدَّث؛ لأنَّ الظاهرَ من الكلام: أنه أراد أنه ما ترك شيئاً يكون إلى قيام السَّاعة إلاَّ حدَّث به في ذلك المَقام، وهذا المقامُ المذكورُ في هذا الحديث هو اليومُ الذي أخبر عنه أبو زيد عمرو بن أَخْطب المذكور بَعْدُ، وبالحريِّ يتَّسع يوم للإخبار عمَّا ذكره. على أنه قد روى الترمذيُّ من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ العصر بنهار ثم قام خطيباً، فلم يَدَعْ شيئاً يكونُ إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حَفِظه من حَفظه، ونسيه من نَسِيه[2]. فظاهرُ هذا أنَّ هذا المَقام كان من بَعْد العصر لا قَبْل ذلك. ويجوزُ أن يكون: كانت الخُطبةُ من بعد صلاة الصُّبح إلى غروب

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب والباب الذي في التلخيص، وهو: باب: في الفتنة التي تموج موج البحر.

(٢) رواه الترمذي (٢١٩١).

وفي رواية: قال: أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائنٌ إلى أن تقوم السَّاعة، فما منه شيءٌ إلا قد سألتهُ إلا أنّي لم أسْألهُ ما يُخْرِجُ أهْلَ المدينةِ من المدينة.

رواه أحمد (٥/ ٣٨٥)، والبخاريّ (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١) (٢٣ و ٢٤).

الشمس، كما في حديث أبي زيد. واقتصر أبو سعيد في الذِّكر على ما بعد العصر، وفيه بُعْدٌ، وعلى كلِّ تقديرٍ فعموماتُ هذه الأحاديث يُراد بها الخصوص ؛ إذ لا يمكنُ أن يحدِّثَ في يوم واحد، بل: ولا في أيام، ولا في أعوام بجميع ما يَحدُث بعد النبيِّ ﷺ تفصيلاً؛ وإنما مقصودُ هذه العمومات الإخبارُ عن رؤوس الفتن والمحن ورؤسائها، كما قال حذيفةُ بعد هذا حين قال: لكنَّ رسولَ الله ﷺ قال وهو يُحدِّث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يعدّ الفتن: «منهن ثلاثٌ لا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شيئاً، ومنهن كرياح الصَّيف، منها صغار ومنها كبار».

قلتُ: على أني أقولُ: إنَّ النبيَّ ﷺ كأن الله تعالى قد أعلمه بتفاصيل ما يجري بعده لأهل بيته وأصحابه، وبأعيان المنافقين، وبتفاصيل ما يقع في أمته من كبار الفتن، وصِغارها، وأعيان أصحابها، وأسمائهم، وأنه بثَّ الكثيرَ من ذلك عند من يَصلحُ لذلك من أصحابه كحذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: ما ترك رسولُ الله ﷺ من قائد فتنةٍ إلى أن تنقضيَ الدُّنيا يبلغ من معه ثلاثمئة فصاعداً، إلا قد سمَّاه لنا باسمه، واسم أبيه، وقبيلته[١]. خرَّجه أبو داود، وبهذا يُعلم: أنَّ أصحابه كان عندهم مِن عِلْم الكوائن الحادثة إلى يوم القيامة العلم الكثير والحظُّ الوافر، لكن لم يشيعوها إذ ليستْ من أحاديث الأحكام، وما كان فيها شيءٌ من ذلك حدَّثوا به، ونقضوا عن عهدته. ولحذيفة في هذا الباب زيادةُ مزيّة، وخصوصيّة لم تكنْ لغيره منهم؛ لأنه كان كثيرَ السؤال عن هذا الباب، كما دلَّتْ عليه أحاديثُه، وكما دلَّ عليه

(١) رواه أبو داود (٤٢٤٣).

[٢٧٩٠] وعن أبي زيد ـ يعني: عمرو بنَ أخطبَ ـ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وَصعِد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثم صَعِدَ المنبر، فخطبنا حتى حضر العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غَرَبت الشَّمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلَمُنا أحفَظُنا.

رواه أحمد (٥/ ٣٤١)، ومسلم (٢٨٩٢).

* * *

(٥) بــاب
في الفتنة التي تموج موج البحر
وفي ثلاث فتن لا يَكَدْن يَذَرْن شيئاً

وقد تقدَّم في كتاب الإيمان حديثُ حذيفة في التي تموج موج البحر.

[٢٧٩١] وعنه؛ أنَّه قال: والله إني لأعلم النَّاسِ بكلِّ فتنةٍ هي كائنةٌ فيما بيني وبين السَّاعة! وما بي إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يحدِّثْهُ غيري، ولكنَّ رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً ـ أنا

اختصاصُ عمر له بالسُّؤال عن ذلك دُون غيره. وأبو زيد المذكور في هذا الباب: هو عمرو بن أَخْطَب ـ بالخاء المعجمـة ـ الأنصاري، من بني الحارث بن الخزرج. صَحِب النبيَّ ﷺ وقال: غزوتُ معه ستَّ غزوات، أو سبعاً. وقد تقدم القولُ في حديث حذيفة في كتاب الإيمان.

و (قوله: ما بي إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يُحدِّثْ به غيري) كذا وقع هذا اللفظ، وكذا صحَّ في الرواية، وما بي إلا أن يكونَ بـ (إلا)

فيه ـ عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يَعُدُّ الفتن: «مِنْهنَّ ثلاثٌ لا يكدن يَذَرن شيئاً، ومنهنَّ فتنٌ كرياح الصَّيف منها صغارٌ ومنها كبارٌ». قال حذيفة: فذهب أولئك الرَّهط كُلُّهم غيري.

رواه أحمد (٥/ ٣٨٨)، ومسلم (٢٨٩١) (٢٢).

[٢٧٩٢] وعن جندبٍ، قال: جئت يوم الجَرَعةِ فإذا رجلٌ جالسٌ.

الإيجابية، و (أن) المصدرية. فقيل: الوجهُ إسقاطُ إلا؛ لأنَّ مقصودَ الكلام: أنَّ حذيفةَ أخبر عن نفسه بأنه يعلم كلَّ فتنةٍ تكونُ بين يدي الساعة. فيظنُّ سامعُ هذا القول: أنَّ رسولَ الله ﷺ أسرَّ إليه مِن ذلك بشيء لم يسرَّه إلى غيره، فنفى هذا الظن بذلك القول. ثم نبَّه على سَبب عِلْمه بذلك فقال: ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يُحدِّثُ مجلساً أنا فيه عن الفتن، فيعني بذلك أنه سمع من النبيِّ ﷺ في ذلك المجلس مع الناس؛ لكنه حفظ ما لم يحفظْ غيره، وضبط ما لم يضبط غيره. كما قال في الحديث المتقدِّم. وقيل: (إلا) ثابتةٌ في الرواية، فلا سبيلَ إلى تقدير إسقاطها، ومعنى الكلام مع ثبوتها: وما بي عذرٌ في الإعلام بجميعها، والحديث عنها، إلا ما أسرَّ إليّ النبيُّ ﷺ ممَّا لم يُحدِّث به غيري، فيكون في كلامِه إشارةٌ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ عهد إليه، وأسرَّ له ألَّا يحدِّث بكلِّ ما يعلمه من الفتن، أو لا يذيعه إن رأى في ذلك مصلحة. وهذا أولى لما ذكرناه من ثبوتِ الرِّواية، ولأنَّ المعلومَ من حال حذيفة: أنَّ النبيَّ ﷺ خَصَّه مِن العلم بالفتن، وأسرَّ إليه منها بما لم يخصَّ به غيره، وأما ما لم يسرّه إليه، ولا خصَّه به، فهو الذي يحدِّث به، كما جاء متَّصلاً بقوله: لكنَّ النبيَّ ﷺ قال وهو يُحدِّث مجلساً أنا فيهم عن الفتن. والله تعالى أعلم.

و (قول جندب: جئتُ يوم الجَرَعَةِ) كذا هو بفتح الجيم والراء والعين المهملة، وهو موضعٌ بجهة الكوفة. ورُوي عن بعضهم بسكون الراء. وأصلُ

فقلت: لَيُهْرَاقَنَّ اليوم ها هنا دماءٌ! فقال ذلك الرجل: كلا والله! قلت: بلى والله! قال: كلا والله! قلت: بلى والله! قال: كلا والله! إنَّه لحديث رسول الله ﷺ حدثنيه. قلت: بئس الجليس لي أنت منذ اليوم! تسمعني أخَالِفُكَ وقد سمعتَهُ من رسول الله ﷺ فلا تنهاني! ثم قلت: ما هذا الغَضَب؟ فأقبلت عليه أسأله، فإذا الرجل حذيفة.

رواه مسلم (٢٨٩٣) (٢٨).

* * *

الجَرَعَة: الرملُ الذي فيه سهولة. يقال: جَرَع وأجرع وجرعاء. وذلك اليوم: هو يومٌ خرج أهلُ الكوفة إلى سعيد بن العاص، وكان عثمان ولاَّه عليهم فردُّوه، وولَّى أبا موسى الأشعري، وسألوا عثمان توليته فأقرّه.

و (قوله: تسمعني أخالفك) لأكثر الشيوخ بالحاء المهملة، من الحَلْف الذي هو اليمين، وقد رواه بعضُهم بالخاء المعجمة، وهي التي أذكرها، وكلاهما يصحُّ، فتأمَّل مَساقَهُ.

* * *

(٦) بـــاب
ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج،
ويغزو البيت جيشٌ فيُخْسَفُ به

[٢٧٩٣] عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مثلُ هذه». وعقد وُهَيْبٌ بيده تسعين.

رواه أحمد (٢/ ٣٤١)، والبخاريُّ (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١).

[٢٧٩٤] وعن أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين، وسئلت عن الجيش الذي يخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، ....

---

(٦) ومن بـــاب: ما فُتِح من ردم يأجوج ومأجوج
ويغزو البيت جيش فيخسف بهم

(قوله: وكان ذلك في أيام ابن الزُّبير) ذلك إشارةٌ إلى سؤال أم سلمة عن الجيش الذي يُخْسَفُ به، وسألها عن ذلك الحارثُ بن أبي ربيعة، وعبد الله بن صفوان. هذا ظاهِرُهُ، لكن قال أبو الوليد الكناني: هذا لا يصحُّ؛ لأنَّ أمَّ سلمة ماتت في أيام معاوية قبل موته بسنة، ولم تدركْ أيام ابن الزبير. قال القاضي: وقد قيل: إنها ماتت أيامَ يزيد بن معاوية في أوَّلها، فعلى هذا يستقيمُ الخبرُ، فإنَّ عبدَ الله نازعَ يزيدَ لأول ما بلغته البيعة له عند موت معاوية، وداجاه[1] شيئاً، فوجه إليه يزيد أخاه عمرو بن الزبير ليجيئه به، أو يقاتله، فظفر به عبد الله بن الزبير، ومات في سجنه، وصلبه. ذكر ذلك الطبريُّ وغيرُه، وذكر وفاة أم سلمة أيام يزيد: أبو عمر بن عبد البَـرِّ.

قلـــتُ: هذا الحديث رواه عن أمِّ سلمة عبدُ الله بن صفوان من طريق صحيحٍ

(١) «داجاه»: ساتره بالعداوة، ولم يُبْدِها له.

فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يَعُوذ بالبيت عَائذٌ، فَيُبْعَثُ إليه بعثٌ فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بهم»، فقلت: يا رسول الله! فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيَّته». وقال أبو جعفر: هي بيداء المدينة. فقال له عبد العَزيز بن رُفَيْعٍ: إنما قالت: ببيداء من الأرض قال: كلا والله! إنَّها لبيداء المدينة.

رواه أحمد (٢٩٠)، ومسلم (٢٨٨٢)(٤ و٥)، وأبو داود (٤٢٨٩).

في الأصل، وفيه أيضاً عنه أنه رواه عن حفصةَ زوج النَّبيِّ ﷺ قال الدَّارقطني: والحديثُ عن أمِّ سلمة ومحفوظٌ عن حفصة، وعلى هذا فتكون كلُّ واحدةٍ منهما حدَّثَتْ به عن النبيِّ ﷺ فلا اضطراب.

و (قوله: «يعوذُ بالبيت عائذ فَيُبْعَثُ إليه بعث، فإذا كانوا ببيداءَ من الأرض خُسِف بهم») الذي أثار هذا الحديثَ في وقت عبد الله بن الزبير: أنَّ عبدَ الله بن الزبير لجأ إلى البيت عندما طالبه يزيدُ بن معاوية بأن يُبايعه، ففرَّ من المدينة إلى مكة، واستجار بالبيت، ووافقه على رأيه ذلك جماعةٌ على خلاف يزيد، فجهَّز يزيدُ جيشاً من أهل الشام إلى مكة، فحدَّث الناس أنَّ ذلك الجيش يُخْسَفُ به، وذكروا الحديث عن رسول الله ﷺ وحينئذٍ قال لهم عبد الله بن صفوان: أما والله! ما هو بهذا الجيش، كما قد ظهر أن ذلك الجيش لم يُخْسَفْ به. والبيداءُ: أرضٌ ملساء لا شيءَ فيها، وفي الصحاح: البيداء: المفازة. والجمع: بيد. وهل هي بيداءُ المدينة أم لا؟ اختلف في ذلك أبو جعفر وعبد العزيز بن رُفَيْع كما ذكر في الأصل. وليؤمَّنَّ: ليقصدنَّ. والشريد: الطَّريد عن أهله، ويعني به هنا المنفرد عن ذلك الجيش الذي يُخْسَفُ به. ومَنَعة: بتحريك النون، جمع مانع، ككاتب وكَتَبَة. وبالسكون: مصدر منع. والمُستبصر: البصيرُ بالأمور. والمجبور: المكـرَه الذي لا حيلةَ له في دفع ما يُحْمَلُ عليه، وهو من جبرت الرجل على الشيء يفعله، فهو مجبورٌ، ثلاثياً، ويُقال: أجبرته، وهو الأصحُّ والأكثر، فهو مُجْبَر.

[٢٧٩٥] وعن حفصة، أنّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَؤُمَّنَّ هذا البيتَ جيشٌ يغزونه حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يَخْسَفُ بأوسطهم، وينادي أَوَّلُهم آخرَهم، ثُمَّ يُخْسَفُ بهم، فلا يبقى إلا الشريدُ الذي يخبر عنهم».

رواه مسلم (٢٨٨٣) (٦)، والنسائي (٥/٢٠٧)، وابن ماجه (٤٠٦٣).

[٢٧٩٦] وعن عبد الله بن صفوان، عن أمِّ المؤمنين: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «سيعوذ بهذا البيت ـ يعني الكعبة ـ قومٌ ليس لهم مَنَعَةٌ، ولا عَدَدٌ، ولا عُدَّة، يُبْعَثُ إليهم جيشٌ حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بهم». قال يوسف بن مَاهَك، وأهل الشام يومئذ يسيرون إلى مكة. فقال عبد الله بن صفوان: أما والله ما هو بهذا الجيش!.

رواه مسلم (٢٨٨٣) (٧).

[٢٧٩٧] وعن عبد الله بن الزبير: أنَّ عائشة قالت: عَبِثَ رسولُ الله ﷺ في منامه فقلنا: يا رسول الله! صنعتَ شيئاً في منامك لم تكن تفعلُه! فقال: «العجبُ أنَّ ناساً من أمتي يَؤُمُّون بالبَيْت برجلٍ من قريش قد

و (قوله: عَبَثَ رسولُ الله ﷺ في منامه) وجدته مقيداً بفتح الباء أي: أتى بكلمات كأنها مختلطة. يقال: عَبَث الشيء، يعبِثه: إذا خلطه، بفتح الباء في الماضي، وكسرها في المضارع، فأما عبِث بكسر الماضي وفتح المضارع فمعناه: لعب.

و (قوله: «إنَّ ناساً من أمتي يؤمُّون البيت برجل») أَشْرَب يؤمّون معنى ينزلون، فعدَّاه بالباء، وهو ممَّا يتعدَّى بنفسه كما تقدَّم غير مرَّة.

لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِفَ بهم»، فقلنا: يا رسول الله! إنَّ الطريق قد يجمع الناس. قال: «نَعَمْ، فيهم المستبصرُ، والمجبور، وابنُ السبيل، يهلكون مهلكاً واحداً، ويَصْدُرون مصادر شتَّى، يبعثُهم الله على نيَّاتهم».

رواه البخاريُّ (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

* * *

(٧) بـــاب
لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ الفراتُ عن جبلٍ من ذهب، وحتى يَمْنَع أهلُ العراق ومصرَ والشامِ ما عليهم

[٢٧٩٨] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ الفراتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عليه، فيُقْتَلُ من كُل

و (قوله: «يهلكون مهلكاً واحداً، ويصدُرون مصادر شتىٰ») المهلك: الهلاك. ويصدُرون: يرجعون، وأصل الصَّدر: الرجوع عن موضع الماء، وشتَّى: مختلفين بحسب نياتهم.

(٧ و ٨ و ٩) ومن بـــاب: الأمور التي لا تقوم الساعة حتى تكون[1]

(قوله: «يَحْسِرُ الفراتُ عن جبلٍ من ذهبٍ») أي: يكشفُ. ومنه حسرتِ المرأةُ عن وجهها؛ أي: كشفت. والحاسرُ: الذي لا سلاحَ عليه، وكأن هذا إنما

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان ثلاثة أبواب من التلخيص، وهي: باب: لا تقوم الساعة حتى يَحْسِر الفرات، وباب: لا تقوم الساعة حتى تفتح قسطنطينية، وباب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس.

مئة تسعةٌ وتسعون، ويقول كل رجلٌ منهم لعلّي أكون أنا الذي أنجو.

في روايةٍ: «فمن حضره فلا يأخُذْ منه شيئاً».

رواه أحمد (٢/ ٢٦١)، والبخاريُّ (٧١١٩)، ومسلم (٢٨٩٤) (٢٩ و ٣٠ و ٣١)، وأبو داود (٤٣١٣)، والترمذي (٢٥٦٩)، وابن ماجه (٤٠٤٦).

[٢٧٩٩] ونحوه؛ عن أبيٍّ، ولم يقل: «فمن حضره» إلى آخره.

رواه أحمد (٥١٣٩)، ومسلم (٢٨٩٥).

[٢٨٠٠] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنَعتِ العِراقُ دِرْهَمَها وقَفيزها، ومَنَعتِ الشأم مُدْيَها ودِينَارها، ومَنَعتْ مِصْرُ إرْدَبَّها

يكون إذا أخذتِ الأرضُ تقيء ما في جوفها، كما تقدَّم في كتاب الزكاة.

و (قوله: «فمن حضرَه فلا يأخذ منه شيئاً») نهي على أصله من التحريم؛ لأنه ليس مُلكاً لأحد، وليس بمعدِنٍ ولا ركازٍ، فحقُّه أن يكون في بيت المال؛ ولأنه لا يُوصَل إليه إلا بقتل النفوس، فيحرم الإقدامُ على أخذه.

و (قوله: «منعتِ العراقُ درهمَها وقفيزها، ومنعت الشامُ مُدْيَها وديناره‍ا ومنعت مصر إرْدَبَّها») كذا الروايةُ المشهورة بغير إذا، فيكونُ ماضياً بمعنى الاستقبال، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] أي: يأتي. وكقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] يعني: إذ يقول. ومثله كثير، وقد رواه ابن ماهان: «إذا منعت» وهو أصلُ الكلام. غير أنه يحتاجُ إلى جواب إذا، ويحتمل ذلك وجهين:

أحدُهما: أن يكون الجواب: عدتُم من حيث بدأتم، وتكون الواو زائدة. كما قال امرؤ القيس:

ودِينارها، وعُدْتُم من حيث بَدَأْتُمْ». شَهدَ على ذلك لحْمُ أبي هريرة ودَمُهُ.

رواه أحمد (٢/ ٢٦٢)، ومسلم (٢٨٩٦)، وأبو داود (٣٠٣٥).

* * *

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحَيِّ وَانْتَحَى[١] ....

أي: لما أجزنا انتحى، فزادَ الواو. ويحتمل أن يكون جواب إذا محذوفاً، تقديره: إذا كانت هذه الأمور جاءتِ الساعةُ، أو ذهبَ الدِّين. ونحو ذلك، والله أعلم. وتسمية النبيِّ ﷺ مكيالَ كلِّ قوم باسمه المعروف عندهم دليل على أنه كانَ يعرفُ كلامَ النَّاس؛ وإن بعدت أقطارُهم، واختلفت عباراتهم. وقد ثبت أنه كان يُخاطب كلَّ قومٍ بلغتهم في غير موضعٍ، وهذا منه إخبارٌ بأنَّ أمورَ الدين وقواعدَه يُترك العمل بها لضعف القائم بها، أو لكثرة الفتن واشتغال الناس بها، وتفاقم أمر المسلمين، فلا يكون مَنْ يأخذ الزكاة ولا الجزية ممن وجبت عليه، فيمتنع من وجبَ عليه حقٌّ من أدائه. والله تعالى أعلم.

و(قوله: «وعُدتم من حيثُ بدأتم») أي: رجعتم على الحالة الأولى التي كنتم عليها من فساد الأمر، وافتراق الكلمة، وغلبة الأهواء، وذهاب الدِّين.

و(قوله: شهدَ على ذلك لحمُ أبي هريرة ودمُه) أي: صَدَق بهذا الحديث وشهدَ بصدقه كلُّ جزءٍ في أبي هريرة. ومعناه: بأن هذا الحديثَ حقٌّ في نفسه، ولا بدَّ من وقوعه.

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه:

بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

(٨) بـــاب

لا تقوم السَّاعة حتى تُفْتَح قُسْطَنْطِينيَّةُ، وتكون ملحمةٌ عظيمةٌ ويخرجُ الدجَّال ويقتلُه عيسى ابن مريم

[٢٨٠١] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعة حتى ينزل الرُّوم بالأعماق، أو بدابق، فيخرج إليهم جيشٌ من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصافُّوا قالت الرُّوم: خلوا بيننا وبين الذين سَبَوا مِنَّا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا!

و (قوله: «تنزل الرومُ بالأعماق، أو بدابقَ») الأعمال: جمع عُمق ـ بضم العين وفتحها ـ: وهي ما بعدَ من أطراف المفاوز. قال رؤبة:

وَقَاتِمِ الأَعْماقِ خَاوِي المُخْتَرَقْ

ودابق: اسم بلد، والأغلب عليه التذكير والصرف؛ لأنه في الأصل: نهر. قال الراجز:

بِدَابِقٍ وَأَيْنَ مِنِّي دَابِقُ

وقد يُؤَنَّثُ ولا يُصرف، وهو بفتح الباء. وكذا وجدته مقيَّداً مصححاً في كتاب الشيخ، ويقال بالكسر فيما أحسب.

و (قول الروم: «خلُّوا بيننا وبينَ الذين سَبَوا مِنَّا») الرواية الصحيحة بفتح السين والباء؛ أي: الذين أصابوا منا سبياً، وقد قيَّده بعضهم بضم السين والباء، وليس بشيء؛ لأنَّ قولَ المسلمين في جوابهم: لا والله ما نُخلِّي بينكم وبين إخواننا. يعنون: أنهم منهم في الأنساب والدِّين، فلو أنَّ الرومَ طلبوا مَن سُبيِ منهم لما قالوا لهم ذلك مطلقاً. والله تعالى أعلم.

فيُقاتِلونهم، فينْهزم ثلثٌ لا يتوبُ الله عليهم أبداً، ويُقْتَلُ ثُلثُهم أفْضَلُ الشُّهداء عند الله، ويَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لا يُفْتَنُون أبداً، فيَفْتتِحون قُسْطَنْطِينيَّةَ، فبَيْنا هم يَقسمون الغَنَائِم قد عَلَّقوا سيوفهم بالزَّيتون إذ صـاحَ فيهم الشَّيطان: أن المسيح قد خَلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك بَاطِلٌ. فإذا جاؤوا الشَّأمَ خَرَجَ، فبَينما هُم يُعدُّون للقِتَالِ، يُسَوُّون الصُّفُوف إذا أُقيمت الصَّلاةُ، فيَنْزلُ عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فأمَّهُمْ فإذا رآه عَدُوُّ الله ذَابَ كما يَذوبُ المِلحُ في الماء، فلو تركَهُ لانْذَابَ حتى يَهْلِكْ. ولكنْ يَقْتلُهُ اللَّهُ بيده، فيُرِيهِم دَمهُ في حَرْبتِه».

رواه مسلم (٢٨٩٧).

و (قوله: «فينهزمُ ثلثٌ لا يتوبُ الله عليهم أبداً)؛ لأنهم فرُّوا من الزحف حيث لا يجوز لهم الفِرار، فلا يتوبُ الله عليهم؛ أي: لا يُلهمهم إيّاها، ولا يُعينهم عليها؛ بل: يُصـرُّون على ذنبهم ذلك، ولا يندمون عليه. ويجوز أن يكونَ معنى ذلك: أنه تعالى لا يقبلُ توبتهم وإن تابوا، ويكونون: هؤلاء ممَّن شـاء الله ألّاَ تُقبلَ توبتُهم لعظيم جُرمهم.

و (قوله: «إنَّ المسيح قد خلفكم في أهليكم») كذا الرواية الجيدة مخفَّفة اللام بغير ألفٍ. أي: بشرٍّ. يُقال: خلفكَ الرجلُ في أهلِكَ بخير أو بشرٍّ، وقد تقدَّم قوله ﷺ: «من خلف غازياً في أهلِه بخير فقد غزا»[1] وقد رواه بعضُهم: خالفكم، والأول أجود، لأن خالفَ يتعدَّى بـ (إلى)، وخلفَ يتعدَّى بـ (في) وردُّ خَالَفَ إلى خَلَفَ يجوز. وقد تقدَّم القول في اسم المسيح في كتاب الإيمان، وسيأتي الكلام في الدَّجّال.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥)، وأبو داود (٢٥٠٩)، والترمذي (١٦٢٧).

[٢٨٠٢] وعن يُسَيْرِ بنِ جابرٍ، قال: هاجت ريحٌ حمراءُ بالكوفة، فجاء رجلٌ ليس له هِجِّيرَى إلا: يا عبد الله بن مسعود! جاءت الساعة! قال: فقعد، وَكان مُتَّكئاً فقال: إنَّ السَّاعَة لا تَقُوم حتى لا يقسم مِيراثٌ، ولا يُفْرَحَ بِغَنيمة، ثم قال بيده: هكذا، ونحَّاها نحو الشام. فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الرُّومَ تعني؟ قال: نعم، ويكون عند ذَاكُمُ القِتَالِ رِدّةٌ شَدِيدةٌ، فيشْتَرِطُ المسلمون شُرْطَةً للموت؛ لا تَرْجِع إلا غالبةً، فيَقْتَتِلون حتى يَحْجُز بينهم الليل، فيَفِيءُ هؤلاء وهؤلاء، كُلّ غَيرُ غالبٍ، وتَفْنَى الشُّرْطَةُ، ثُمّ يَشْتَرطُ المسلمون

و(قوله: هاجتْ ريحٌ حمراء) أي: شديدة، احمرَّت بها السحاب، ويبست لها الشجر، وانكشفت الأرضُ، فظهرت حمرتُها.

و (قوله: فجاء رجلٌ ليس له هجِّيرى إلا يا عبدَ الله جاءتِ السَّاعةُ) كذا رويته هجيراً على وزن فعِّيلاً، وهو تقييدُ أبي الفتح الشَّاشي والتميمي، وقيَّدها العذريُّ هجِّير على وزن خِمِّير.

قلــتُ: وكلاهما لغة صحيحة. قال الجوهري: الهِجِّير مثل الفِسِّيق: الدأب والعادة، وكذلك الهجيرى والإهجيرى. يُقال: ما زال ذلك هجيراه، وإهجيراه، وإجرِيَّاه؛ أي: دأبُه وعادتُه. قال غيره: وهجِّيرى أفصحُها.

والشُّرْطة: بضم الشين، وهي هنا: أوَّل طائفة من الجيش تُقاتل. ومنه الشَّرَطَانِ[1] لتقدُّمهما أوَّلَ الربيع، وقيل: إنهم سُمُّوا بذلك لعلامات تميَّزوا بها، والأشراط: العلامات. وهذا هو الأعرفُ. ويحجزُ بينَهم اللَّيلُ؛ أي: يحولُ بينهم وبين القتال بسبب ظلمته، والحاجزُ: هو الفاصل بين شيئين. ويفيء هؤلاء؛ أي: يرجعُ. ونَهَدَ إليهم؛ أي: تقدَّم. ومنه سمِّي النَّهْدُ؛ لأنه متقدِّم في الصدر.

---

(١) الشَّرَطان: نجمان.

شُرْطةً للموْتِ، لا ترجع إلا غَالِبةً، يحجز بينهم اللَّيلُ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالبٍ وتفنى الشُّرْطةُ. ثمَّ يشترط المسلمون شُرْطةً للموت لا ترجع إلا غالبةً فيقتتلون حتَّى يُمْسُوا فَيَفيءُ هؤلاء، وهؤلاء كُلٌّ غيرُ غَالبٍ، وتفنى الشُّرْطَةُ، فإذا كان اليومُ الرَّابع نَهَد إليْهِمْ بَقيّةُ أهلِ الإسلام، فَيَجْعلُ اللَّهُ الدَّبْرةَ عليهم، فَيَقتُلُون مَقْتَلةً ـ إمَّا قال: لم يُر مِثْلُها وإمَّا قال: لا يرى مثْلُها ـ حتى إنَّ الطائر ليمُرُّ بجَنَباتِهم فما يَخْلُفُهُمْ حتى يَخِرّ مَيْتاً، فيَتَعادُّ بَنُو الأبِ، كانوا مئة فلا يَجدُونَهُ بَقي مِنهمُ إلا الرَّجلُ الواحد فَبِأَيِّ غنيمةٍ يُفْرَح؟ أوْ أيُّ ميراثٍ يُقاسَمُ؟ فبينما هم كذلك إذ سَمعُوا بِناسٍ هم أكثرُ من ذلك، فَجَاءهُم الصَّرِيخُ: أنّ الدَّجَّال قد خَلَفهُم في ذراريِّهم،

و (قوله: «فيجعلُ الله الدَّبْرَة عليهم») كذا لكافَّتهم بالباء بواحدة وسكونها، ورواه العذريُّ: الدائرة ومعناهما متقارب. قال الأزهريُّ: الدائرة: الدَّوْلة تدور على الأعداء. والدَّبْرَةُ: النصر والظفر، يقال: لمن الدَّبْرة؛ أي: الدولة. وعلى من الدَّبْرة؛ أي: الهزيمة. قاله الهروي.

و (قوله: «حتى إن الطائر ليمرُّ بجَنَباتهم فما يَخْلُفهم») كذا رواية الجماعة، وهي جمع جَنَبَة، وهي الجانب، ووقعَ لبعضهم: بجُثمانهم؛ أي: بأشخاصهم. والجثمان، والآل، والطَّلَل، والشخص، كلّها بمعنى، فأما الجثة، فتُقال على الجالس والنائم.

و (قوله: «إذا سمعوا بناسٍ هم أكثرُ») بنون وسين مهملة. كذا للعذريّ، وكذا قرأتُه، وعند غيره: «ببأس» بباء بواحدة، و «أكبر» بباء بواحدة أيضاً، وهو الحرب الشديد، والأمر الهائل. قال بعض المشايخ: وهو الصواب. وتُصحِّحه رواية أبي داود: «إذ سمعوا بأمرٍ أكبر من ذلك»[1]... ويُسير بن جابر: يُروى

---

(١) لم نجده في سنن أبي داود، وفي تحفة الأشراف (٧/ ٣١٨) لم يعزه إلا لمسلم.

فَيَرْفُضون ما في أَيْدِيهم، ويُقْبِلون، فيَبْعَثُونَ عَشَرةَ فَوارسَ طَلِيعةً. قال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعرفُ أسماءَهم، وأسماءَ آبائهم، وأَلْوَانَ خُيولهم، هُم خَيْرُ فوارسَ على ظهر الأرض يَوْمَئذٍ ـ أو من خيرِ فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ ـ».

رواه أحمد (١/ ٤٣٥)، ومسلم (٢٨٩٩).

* * *

(٩) بـاب
تقوم السَّاعةُ والرُّوم أكثر النَّاس
وما يُفْتَحُ للمسلمين مع ذلك

[٢٨٠٣] عن موسى بن عليٍّ، عن أبيه، قال: قـال المستورِدُ القُرَشِيُّ عند عمرِو بنِ العاص، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقومُ السَّاعة والرُّوم أكثرُ النَّاس». فقال له عمرٌو: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعتُ

بالياء باثنتين من تحتها وبالهمزة. والصريخ: الصارخ، أي: الصوت عند الأمر الهائل أو الصُّراخ، ويرفضون: يرمون ويتركون، والطليعة: هو الذي يتطلَّع الأمر ويستكشفُه.

و (قوله: «إني لأعرفُ أسماءَهم وأسماءَ آبائهم وألوانَ خيولهم») دليل على صحة ما قلناه من أنَّ النبيَّ ﷺ كان قد أُعلم بتفاصيل ما يجري بعدَه، وأشخاص من يجري منه شيء له تعلُّقٌ بالأمة.

(إعلامه ﷺ بتفاصيل ما يجري بعده)

و (قوله: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس») هذا الحديث رواه مسلم من طريقين: أحدُهما: لا تَعقُّبَ فيه عليه، والآخر: فيه تَعقُّبٌ. وهو الذي قال فيه: حدثني حرملةُ بن يحيـى التُّجيبي، حدثنا عبد الله بن وَهب، حدثني أبو شُرَيح؛ أنَّ

(الإخبار عن كثرة الروم قبل قيام الساعة)

من رسول الله ﷺ. قال: «لئن قُلْتَ ذلكَ، إنَّ فيهم لخصالاً أربعاً: إنَّهم لأَحْلَمُ الناس عند فتنةٍ، وأَسْرَعُهُمْ إفَاقةً بَعدَ مُصِيبةٍ، وأَوْشَكُهم كَرَّةً بعد فَرَّةٍ، وخَيْرُهُم لِمِسْكينٍ ويتيمٍ وضعيفٍ، وخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَميلةٌ: وأمنعُهُم من ظُلمِ المُلُوكِ».

في روايةٍ: «وأَجْبَرُ النَّاس عند مصيبةٍ».

رواه مسلم (٢٨٩٨) (٣٥ و ٣٦).

عبدَ الكريم بن الحارث حدَّثه، أنَّ المستوردَ القرشيّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ذلك. قال الدارقطنيُّ: عبدُ الكريم لم يُدركْ المستوردَ، والحديثُ مرسل.

قلـتُ: هذا الإسناد ذكرَه مسلمٌ مُرْدَفاً على الإسناد السليم الذي لا تعقُّبَ فيه، وكأنَّ مسلماً تحقَّق ما قاله الدارقطنيُّ، ولذلك أردَفه على الإسناد الأوَّل الذي هو عمدتُه، وعلى شرطه. وهذا وغيره مما تقدَّم مثله يدلُّ على أنَّ القسمَ الثالثَ الذي ذكرَه مسلمٌ في أول كتابه أدخلَه في مسنده، والله أعلم.

وهذا الحديث قد صدَّقه الوجودُ، فإنهم اليومَ أكثرُ من في العالم غيرَ يأجوج ومأجوج؛ إذ قد عمروا من الشام إلى أقصى منقطع أرض الأندلس، وقد اتَّسع دينُ النصارى اتساعاً عظيماً لم تتسعه أمةٌ من الأمم، وكلُّ ذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ووصفُ عبدِ الله بن عمرو لهم بما وصفَهم به من تلك الأوصاف الجميلة إنما كانت غالبةً على الرُّوم الذين أدركَ هو زمانَهم، وأما ما في الوجود منهم اليوم فهم أنجسُ الخليقة، وأركسُهم، وهم موصوفون بنقيض تلك الأوصاف.

و(قوله: «وأجبرُ النَّاس عند مُصيبةٍ») كذا رواية الجمهور، وهو من جبرتُ العظمَ والرِّجلَ؛ إذا شددتُ مفاقِرَه، وقد فُسِّر معنى هذه الرواية في الرواية الأخرى التي قال فيها: «وأسرعُهم إفامةً بعد مُصيبةٍ» ووقع لبعضهم: «أصبرُ النَّاس» بدل: «أجبرُ الناس». والأول أصحُّ وأحسن.

[٢٨٠٤] وعن جابر بن سَمُرَة، عن نافعِ بن عُتْبَةَ ـ هو ابن أبي وقاص ـ قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في غزوةٍ قالَ: فأتى النَّبيَّ ﷺ قومٌ من قِبَلِ المغرب، عليهم ثِيابُ الصوف، فوافقوه عند أَكَمَةٍ، فإنَّهم لقيامٌ ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ. قال: فقالت لي نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يَغْتَالونَه. قال: ثم قلت لعلَّه نجيٌّ مَعَهُمُ، فَأَتَيْتُهُم، فَقُمْتُ بَيْنَهم وبينه. قال: فَحفِظْتُ منه أربعَ كلماتٍ أَعُدُّهُنَّ في يَدي. قال: «تغزون جَزيرة العَرَبِ فَيَفْتَحُها الله، ثُمَّ فَارسَ فَيفْتَحُها الله، ثم تَغزون الرُّوم فيفتحُها الله،

و (قوله: أتى النبيَّ ﷺ قومٌ من قبل المغرب ـ يعني: من قبل مغرب المدينة ـ عليهم ثيابُ الصوف) هذا لباسُ أهل البادية، والأَكَمَة: القطعة الغليظة من الرمل. ووافقوه[1]؛ وقفوا أمامَه، فوقَفَ لهم، أو استدعوا منه ذلك.

و (قوله: قالت لي نفسي: ائتهم فقمْ بينهم) كذا الرواية المعروفة، وفي بعض الروايات: إذ قالت لي نفسي ائتهم ـ بزيادة إذ ـ ومعنى ائتهم: جئهم. ويغتالونه: يقتلونه غيلة؛ أي: خديعة. والنجيُّ: المناجي، وهو المتحدِّث في خلوة.

أهل الحق باقون إلى قيام الساعة

و (قوله: «تغزون فارسَ فيفتحها الله... الحديث إلى آخره») هذا الخطاب وإن كان لأولئك القوم الحاضرين فالمرادُ هم ومن كان على مثل حالهم من الصحابة والتابعين الذين فُتحت بهم تلك الأقاليم المذكورة، ومن يكونِ بعدَهم من أهل هذا الدِّين الذين يُقاتلون في سبيل الله إلى قيام الساعة. ويرجعُ معنى هذا الحديث إلى الحديث الآخر الذي قال فيه: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي يُقاتلون على الحقِّ ظاهرينَ لا يضرُّهم مَنْ خذلهم إلى قيام الساعة»[2].

---

(١) في (ز): واقفوه.
(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٤)، والترمذي (٢١٩٢).

ثُمَّ تغزون الدَّجَّال فَيَفْتَحُها الله». قال: وقال نافع: يا جابر! لا نرى الدَّجَّال يخرج حتى تُفْتَح الروم.

رواه أحمد (٤/ ٣٣٧ و ٣٣٨)، ومسلم (٢٩٠٠)، وابن ماجه (٤٠٩١).

* * *

(١٠) باب
الآيات العشر التي تكون قبل الساعة وبيان أولها

[٢٨٠٥] عن حُذَيفةَ بنِ أَسِيْدٍ الغِفَارِيِّ، قال: اطَّلَع النَّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكرُ. قال: «ما تذاكرون؟»، قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنَّها لن

و(قوله: «ثم تغزون الدَّجَّال فيفتحها اللَّهُ») وقد وقع في بعض النسخ: فيفتحه بضمير المذكر، فيحتمل أنه يعني بذلك قتلَ الدَّجَّال نفسه الذي يكون على يدي عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ، كما تقدَّم وكما يأتي. ويحتمل أن يعودَ على ملكه. ووجدتُه في أصل الشيخ: فيفتحها اللَّهُ، بضمير المؤنث، فيعني بذلك مملكته أو أرضه التي يُغلب عليها.

وجزيرة العرب: أرضُهم التي نشؤوا فيها، وسُمِّيت جزيرة؛ لأنها مجزورة بالبحار والأنهار؛ أي: مقطوعة بها. والجَزْر: هو القطع. وقيل: لأنها جُزرت بالبحار التي أحدقت بها، وقد تقدَّم القول فيها في الجهاد.

(١٠) ومن بـاب: الآيات العشر التي تكونُ قبل قيام الساعة[١]

حُذيفة بن أَسِيد: هو بفتح الهمزة وكسر السين يُكنَّى أبا سريحة، بفتح السين، وكسر الراء، وهو غِفَاري كان ممن بايعَ رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة، يُعدُّ

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان هذا الباب، والبابين التاليين في

تقوم حتى تروا قبلها عَشْرَ آياتٍ». فذكر الدُّخان، والدَّجَّالَ، والدَّابةَ،

في الكوفيين وبالكوفة مات، وحديث حذيفة في العشر الآيات رواه سفيان بن عُيَيْنَة عن فرات القزَّاز عن أبي الطُّفَيْل، عن حذيفةَ على نصِّ ما ذكرناه في المختصر، والعشر الآيات فيه مجموعة غير مرتبة، وقد رواه شعبة عن فرات، فجاء بها مرتبةً مجموعةً، فكانت هذه الرواية بالذكر في المختصر أولى، لكن لم يُقدَّر ذلك، فلنذكرْ هذه الرواية هنا. قال حذيفةُ: كان رسول الله ﷺ في غُرْفةٍ ونحن أسفلَ منه، فاطَّلَع إلينا، فقال: «ما تذكرون؟» قلنا: الساعةَ، قال: «إنَّ الساعةَ لا تكونُ حتى تكونَ عشرُ آياتٍ: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخسفٌ في جزيرة العرب، والدُّخَانُ، والدَّجَّالُ، ودابةُ الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطُلُوعُ الشمس من مغربها، ونارٌ تخرج من قعر عدن تَرْحَلُ النَّاسَ»[1]. قال شعبة: وحدثني عبدُ العزيز بن رُفيع عن أبي الطُّفَيْل عن أبي سَرِيحة مثلَ ذلك، لا يذكرُ النبيَّ ﷺ وقال أحدُهما في العاشرة: ونزول عيسى ابن مريم. وقال الآخر: وريحٌ تُلقي النَّاسَ في البحر. وهذه الرواية مرتبة مُحسَّنة، فلنردَّ إليها الرواية التي لا ترتيبَ فيها، فأوَّل هذه الآيات: الخسوفات الثلاثة، وقد وقع بعضها. ذكر أبو الفرج الجوزي: أنها وقعت بعراق العجم زلازلُ وخسوفاتٌ هائلة، هلكَ بسببها خلقٌ كثير، وقد سمعنا ونحن بالأندلس: أن بلداً بشرقها خُسف به، وهلكَ كثير من أهله. وأما الدُّخَان فهو الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] على ما ذهبَ إليه غير ابن مسعود، وهم جماعة من السلف، وهو مرويٌّ عن عليٍّ وابن عمر وأبي هريرة، وابن عباس، والحسن، وابن أبي مُليكة. وروى حذيفة عن النبيِّ ﷺ أنَّ من أشراط الساعة دخاناً يمكثُ في الأرض أربعين يوماً.

الخسوفات الثلاثة بين يدي الساعة

الدخان من أشراط الساعة

= التلخيص، وهما: باب: أمور تكون بين يديْ السَّاعة. وباب: الخليفة الكائن آخر الزمان.

(١) رواه مسلم (٢٩٠١/ ٤٠).

وطلوعَ الشَّمس من مغربها، ونزولَ عيسى ابن مريم، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة

قلـتُ: ويُؤيِّد هذا قوله تعالى في الآية: ﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] وهذا يُبعد قولَ من قال: إنه الدخان الذي يُعذَّب به الكُفَّار يوم القيامة، وهو مرويٌّ عن زيد بن علي، وسيأتي القول في حديث ابن مسعود في التفسير. وأما الدَّابَّة فهي التي قال الله فيها: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ [النمل: ٨٢] ذكرَ أهل التفسير: أنها خلق عظيم تخرج من صَدْعٍ من الصَّفا لا يفوتها أحد، تَسِمُ المؤمنَ فيُنير وجهُه، ويُكتب بين عينيه مؤمن، وتسمُ الكافرَ فيسودُّ وجهُه ويُكتب بين عينيه كافر. وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: أن هذه الدابّة هي الجسَّاسة المذكورة في الحديث بعد هذا، وعن ابن عباس: أنها الثُّعبان الذي كان ببئر الكعبة، فاختطفتْه العُقابُ[1]، وقد اختلف في صورتها، وفي أي موضع تخرجُ منه على أقوال كثيرة، وليس في شيءٍ من ذلك خبرٌ صحيح مرفوع. قال بعض المتأخرين من المفسرين: الأقربُ أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلِّماً يُناظر أهلَ البدع والكفر، ويُجادلهم لينقطعوا، فيهلكُ من هلكَ عن بيِّنة ويحيى من حَيَّ عن بيِّنة.

خروج الدابة قبل يوم القيامة

قلـتُ: وإنما كان هذا عندَ هذا القائل الأقرب لقوله تعالى: ﴿تكلِّمهم﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدَّابَّة آية خاصة خارقة للعادة، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث؛ لأن وجودَ المناظِرين والمحتجِّين على أهل البدع كثير. فلا آية خاصة، فلا ينبغي أن تُذكر مع العشر. وترتفع خصوصية وجودها، فإذا وقع القول ثمَّ: فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي يحتجُّ على أهل الأرض باسم الإنسان، أو بالعالم، أو بالإمام إلى أن يُسمَّى بدابة، وهذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلماء، وليس ذلك

---

(١) انظر قول ابن عباس هذا في سيرة ابن هشام في حديث بنيان الكعبة.

العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطرد النَّاس إلى محشرهم».

وفي روايةٍ: تقديم الخسوفات على الدخان وما بعده.

رواه أحمد (٤/ ٦ ـ ٧)، ومسلم (٢٩٠١) (٣٩ و ٤٠).

[٢٨٠٦] وعن عبد الله، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أولَ الآياتِ خُروجاً: طلوعُ الشَّمسِ من مَغْرِبِها، وخُرُوجُ الدَّابة على الناس ضُحىً؛ وأيُّهما ما كانتْ قبل صاحِبَتِها، فالأخرى على إثرها قريباً».

رواه أحمد (٢/ ٢٠١)، ومسلم (٢٩٤١)، وأبو داود (٤٣١٠).

* * *

(١١) بـــاب:
أمور تكون بين يدي الساعة

[٢٨٠٧] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى».

رواه البخاريُّ (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢).

دأب العقلاء، فالأولى ما قاله أهلُ التفسير. وأما كيفية صفتها وخلقتها، وبماذا تُكلِّمهم، فاللَّه أعلم بذلك.

خـروج النـار التـي تحشـر الناس

و (قوله: «آخرُ ذلك نارٌ تخرجُ من اليمن») وقال فيما تقدَّم: «من قعرِ عدن». وقال في رواية: من أرض الحجاز. قال القاضي: فلعلهما ناران تجتمعان لحشر الناس، أو يكون ابتداء خروجها من اليمن، وظهورها من الحجاز.

[(١١): بـــاب: أمور تكون بين يدي الساعة][1]

و (قوله: «تضيءُ أعناقَ الإبل ببصرى») أي: تكشف بضوئها أعناقَ الإبل

---

(١) هذا العنوان لم يذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ في المفهم، واستدركناه من التلخيص.

. . . .

ببصرى، وهي بالشام، فيعني ـ والله تعالى أعلم ـ أن هذه النَّار الخارجة من قعر عدن تمرُّ بأرض الحجاز مقبلةً إلى الشام، فإذا قاربت الشام أضاءت ما بينها وبين بصرى حتى تُرى بسبب ضوئها أعناقُ الإبل، ويُقال: ضاوت النَّار وأضاءت لغتان. وبُصرى ـ بضم الباء ـ هي مدينة من مدن الشام. قيل: هي حَوْران. وقيل: قيساريّة[1].

أول الآيـات خـروجاً يـوم القيامة

و (قوله: «إنَّ أوَّل الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدَّابَّة على الناس ضحًى») يعني ـ والله أعلم ـ أوَّل الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كلِّ قلبٍ بما فيه؛ لأن ما قبلَ طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمانُ الكافر يصحُّ فيه، بدليل ما رواه أبو داود من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً»[2]. ومعنى قوله: «إذا طلعت ورآها الناس أمنَ مَنْ عليها» أي: حصلَ لجميع من على الأرض التصديق الضروري بأمور القيامة الذي لا يُكلَّف به ولا ينفع صاحبُه، لكون أمور الآخرة معاينةً، وإنما كانَ طلوعُ الشمس مَخْصوصاً بذلك؛ لأنه أوَّلُ تغيير هذا العالم العلويّ الذي لم يُشاهد فيه تغيير منذ خلقَه الله تعالى، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبلَه من الآيات فقد شُوهد ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك وطُبعَ على كلِّ قلبٍ بما فيه من كفرٍ أو إيمانٍ أخرجَ الله الدَّابَّة مُعَرِّفةً لما في بواطن الناس من إيمان أو كفرٍ فتكلِّمَهم بذلك. أي: تُعرِّف المؤمنَ من الكافر بالكلام، وتسمُ وجوه الفريقين بالنفح، فينتقش وصفه في جبهته مؤمنٌ أو كافر، حتى يتعارفَ الناس بذلك، فيقولُ المؤمنُ للكافر: بكم سلعتُك

---

(١) بصرى: مدينة أثرية في سهل حوران جنوب دمشق. أما قيساريّة: فهي مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، إلى الجنوب من مدينة حيفا بفلسطين.

(٢) رواه أبو داود (٤٣١٢).

[٢٨٠٨] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تبلغ المساكن إهاب ـ أو: يهاب ـ»، قال زهير: قلت لسهيل: وكم ذلك من المدينة؟ قال: كذا وكذا ميلاً.

رواه مسلم (٢٩٠٣).

يا كافر؟ ويقول الكافر: بكذا يا مؤمن، ثم يبقى النَّاسُ على ذلك ما شاءَ الله، ثم يُرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرَّةٍ من إيمان إلا قبضته على ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو الآتي بعد هذا وغيره. وقد تقدَّم في كتاب الإيمان حديث أبي هريرة الذي قال فيه: ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض، وذكر من جملة الثلاث: الدجَّال[1]. ويلزم عليه أن يرتفعَ التكليف بالإيمان وبالتوبة عند خروجه. والأحاديث الآتية في صفة الدَّجَّال تدلُّ على خلاف ذلك على ما سنبينه، فدلَّ على أن ذكرَ الدَّجَّال مع الطلوع والدابة، وَهْمٌ من بعض الرواة، والله تعالى أعلم.

وقد اختلفت الآثار والأقوال في أوَّل الآيات المذكورة، وما ذكرتُه أشبهها وأولاها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

و (قوله: «تبلغ المساكنُ إهاب أو يِهاب») فالأول بكسر الهمزة، والثاني بالياء المكسورة عند أكثرهم، وعند ابن عيسى: أو نِهاب، بالنون المكسورة، وهو موضع بينه وبين المدينة القدر الذي كَنَّى عنه سُهيلٍ وبكذا كذا ميلاً. وقد تقدَّم: أنَّ من أهل اللِّسان من حملَ هذا على الأعداد المعطوفة التي أوَّلها أحدٌ وعشرون، وآخرُها تسعة وتسعون، وهذا إخبار منه ﷺ بأنَّ النَّاسَ يكثرون بالمدينة، ويتسعون في مساكنها وبنيانها، حتى يصلَ بنيانُهم ومساكنُهم إلى هذا الموضع، وقد كان ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ في مدة بني أميّة، ثم بعد ذلك تناقصَ أمرُها إلى أن أقفرت جهاتها كما تقدَّم.

---

(١) رواه مسلم (١٥٨) (٢٤٩).

[٢٨٠٩] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَاتُ نساءِ دَوْسٍ حول ذي الخَلَصَة»، وكانت صنماً تعبدها دوسُ في الجاهلية بتَبَالةَ.

رواه أحمد (٢/ ٢٧١)، والبخاريُّ (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

[٢٨١٠] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعةُ حتى يَمُرَّ الرَّجل بقبر الرَّجلِ فيقولُ يا ليتني مكانه!».

و (قوله: «حتى تضطربَ أَلَيَات نساء دَوْسٍ حولَ ذي الخَلَصَة») المعروف في ذي الخَلَصَة: الفتح في الخاء واللام، وهكذا قرأته ورويته في كتاب مسلم، وفي السيرة لابن إسحاق. قال القاضي: يُقال: بفتح الخاء واللام وضمهما، وبسكون اللام وجدتُه بخطِّي عن أبي بحرٍ في الأُمِّ. وتَبَالة، بفتح التاء والباء: موضع باليمن، وليس بتبالة التي يُضرب بها المثل الذي يُقال فيه: هو أهون على الحجَّاج من تبالة. تلك بالطائف. قال ابنُ إسحاق: وذو الخَلَصَة: بيت فيه صنمٌ يُسمَّى: ذا الخَلَصة لدوس، وخَثْعَم، وبجيلةَ، وكان يُسمَّى: الكعبة اليمانيَّة، بعث إليه رسولُ الله ﷺ جريرَ بن عبد الله فحرَّقه بالنار.

قلــتُ: ومعنى هذا الحديث أن دَوْساً يظهرُ فيها الارتدادُ عن دين الإسلام، ويرجعون إلى ما كانوا عليه من عبادة الأوثان، كما قال في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «لا يذهبُ اللَّيلُ والنهار حتى تُعْبَدَ اللاَّتُ والعُزَّى»[1]، وسيأتي في التفسير. وتضطربُ: تتحرَّك عند الطواف بذلك الصنم. والأَلَيَات: جمع أَلْيَة.

و (قوله: «لا تقومُ الساعة حتى يمرَّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانَه»، وفي الأخرى: «فيتمرَّغ عليه ويقول: يا ليتني كنتُ مكانَ صاحب هذا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

وفي روايةٍ، قال: «والذي نفسي بيده! لا تذهب الدُّنيا حتى يمرَّ الرَّجل على القبر فيتمرغُ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر! وليس به الدِّين إلا البلاءُ».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاريُّ (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧) الفتن (٥٣ و ٥٤)، وابن ماجه (٤٠٣٧).

[٢٨١١] وعنه؛ عن النبي ﷺ قال: «يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَين من الحبشة».

رواه أحمد (٢/ ٣١٠)، والبخاريُّ (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) (٥٧ و ٥٨)، والنسائي (٥/ ٢١٦).

القبر») يعني: من شدة المحن وكثرة الفتن، والأنكاد اللَّاحقة للإنسان في نفسه وماله وولده، ولذلك قال: «ليس به الدِّين إلا البلاءُ»، وكأنَّ هذا إشارةٌ إلى أن كثرة الفتن والمشقات والأنكاد قد أذهبتِ الدِّين من أكثر النَّاس، أو قلَّلت الاعتناء به ممن الذي يتمسَّك بالدِّين عند هجوم الفتن، ولذلك عظمَ قدر العبادة في حالة الفتن حتى قد قال ﷺ: «العبادةُ في الهَرْج كهجرةٍ إليّ»[1].

ذو السويقتين يخرِّب الكعبة

و (قوله: «يُخرِّبُ الكعبةَ ذو السُّويقتيْن من الحبشة»، وزادَ أبو داود في هذا الحديث: «ويُخرجُ كنزَها»[2]) السُّويقتان: تصغير الساقين، وإحداهما سويقة، وصغَّرهما لدقَّتهما ورقَّتهما، وهي صفة سوق الحبشة غالباً، وقد وصفَه النبيُّ ﷺ في حديث آخر بقوله: «كأنّي به أسودَ أَفْحَجَ، يقلعُها حجراً حجراً»[3]. والفحج:

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧)، ومسلم (٢٩٤٨)، والترمذي (٢٢٠١)، وابن ماجه (٣٩٨٥).
(٢) رواه أبو داود (٤٣٠٩).
(٣) رواه البخاري (١٥٩٥).

[٢٨١٢] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعة حتى يخرج رجلٌ من قحطانَ يسوق الناس بعصاه».

رواه أحمد (٢/ ٤١٧)، والبخاريُّ (٧١١٧)، ومسلم (٢٩١٠).

[٢٨١٣] وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يَمْلِك رَجُلٌ يقال له: الجَهْجاهُ».

رواه مسلم (٢٩١١).

تباعد ما بين الساقين، ولا يُعارض هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ لأن تخريب الكعبة على يدي هذا الحبشيِّ إنما يكون عند خراب الدنيا، ولعلَّ ذلك في الوقت الذي لا يبقى إلا شرار الخلق، فيكون حَرَماً آمناً مع بقاء الدِّين وأهله، فإذا ذهبوا ارتفعَ ذلك المعنى.

قلــتُ: وتحقيق الجواب عن ذلك أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أن يكونَ ذلك دائماً في كلِّ الأوقات؛ بل: إذا حصلت له حرمةٌ وأمنٌ في وقت ما، فقد صدقَ اللفظ وصحَّ المعنى، ولا يُعارضه ارتفاع ذلك المعنى في وقت آخر، فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «إن الله أحلَّ لي مكَّة ساعةً من نهارٍ، ثم عادتْ حُرْمَتُها إلى يوم القيامة»[1]. قلنا: أما الحكم بالحرمة والأمن فلم يرتفع، ولا يرتفع إلى يوم القيامة إذ لم يُنْسَـخ ذلك بالإجماع، وأما وقوعُ الخوف فيها وتركُ حرمتها فقد وُجد ذلك كثيراً، ويكفيك بعوثُ يزيد بن معاوية، وجيوشُ عبدالملك، وقتال الحجَّاج لعبدالله بن الزبير وغير ذلك مما جرى لها، وما فُعل فيها من إحراق الكعبة ورميها بحجارة المِنجنيق.

خـروج رجـلٍ من قحطان

و (قوله: «يخرجُ رجلٌ من قحطانَ يسوقُ النَّاس بعصاه») أي: يملكهم

---

(١) رواه مسلم (١٣٥٥).

[٢٨١٤] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقاتلون بين يدي السَّاعة قوماً نعالُهم الشَّعْرُ، كأنَّ وجوهَهُم المجَانُّ المُطْرقة، حُمْرُ الوُجُوه، صِغَارُ الأعين».

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالُهم الشَّعَرُ، ولا تقوم السَّاعة حتى تقاتلوا قوماً صِغَارَ الأَعْيُنِ ذُلْفَ الآنف».

ويتصرَّف فيهم كما يتصرَّف الراعي في الماشية، ولعلَّ هذا الرجلَ القحطانيَّ، هو الذي يُقال له الجهجاه، وأصلُ الجهجهة: الصِّياح بالسَّبُع ليكفَّ، يُقال: جَهْجَهْتُ بالسَّبُع؛ أي: زجرتُه بالصِّياح، ويُقال: تَجَهْجَهْ عني، أي: انتهِ.

و (قوله: «يُقاتلون بين يديْ الساعة قوماً نعالُهم الشعرُ كأنَّ وجوهَهم المَجَانُّ المُطْرقة») المَجان بفتح الميم: جمع مِجنّ ـ بكسر الميم ـ وهو الترس. والمُطْرقة: التي أُلبست العقبَ طاقةً فوقَ أخرى، ومنه طارقتُ النَّعْلَ إذا أطبقتُ طاقة فوق أخرى، ووجهُ التشبيه: أن وجوهَهم غالباً عراض الأعالي محدَّدة الأذقان صُلْبَة.

و (قوله: «نعالُهم الشَّعَر»، وفي رواية: «ينتعلون الشَّعَر») أي: يصنعون من الشعر حبالاً، ويصنعون منه نعالاً، كما يصنعون منه ثياباً. ويشهدُ لهذا قوله في رواية أخرى: «يلبسون الشَّعَر، ويمشون في الشعر». هذا ظاهرُه، ويحتمل أن يُريد بذلك أن شعورَهم كثيفةٌ طويلةٌ، فهي إذا سدلوها كاللِّباس، وذوائبها لوصولها إلى أرجلهم كالنِّعال.

و (قوله: «ذُلْفُ الأنُوف») ويروى: الآنف، فالأول جمع الكثرة كَفَلْس وفلوس، والثاني جمع قِلَّة كأفلُس، ويجمع أيضاً آنافاً، وأنفُ كلِّ شيءٍ أوَّلُه، والذَّلَفُ في الإنسان بالذال المعجمة: صغر الأنف واستواء الأرنبة وقصرُها. وقيل: تطامن الأرنبة، والأول أعرف وأشهر، تقول: رجل أَذلفُ بيِّنُ الذَّلَفِ، وقد ذَلَفَ. والمرأة ذَلْفاء من نساء ذُلْف، ولا شكَّ في أن هذه الأوصاف هي أوصاف التُّرك

وفي أخرى: «حتى يُقَاتِلَ المسلمون التُّركَ قَوْماً وُجُوهُهُم كالمَجَانِّ المُطْرَقَةِ، يلْبَسُونَ الشَّعَر ويَمْشُونَ في الشَّعَرِ».

رواه أحمد (٢/ ٢٧١)، ومسلم (٢٩١٢) (٦٤ و ٦٦)، وأبو داود (٤٣٠٣)، والنسائي (٦/ ٤٤).

[٢٨١٥] وعنه؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سَمِعْتُمْ بمدينة جَانبٌ منها في البَرِّ وجانبٌ منها في البحر». قالوا: نعم يا رسول الله! قال: «لا تقوم السَّاعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاقَ فإذا جاؤوها نزلوا فلم

غالباً، وقد سمَّاهم النبيُّ ﷺ في الرواية الأخرى، فقال: «يُقاتِلُ المسلمون التُّرْكَ»، وهذا الخبر قد وقع على نحو ما أخبرَ، فقد قاتلَهم المسلمون في عراق العجم مع سلطان خوارزم ـ رحمه الله ـ، وكانَ الله قد نصرَه عليهم، ثم رجعتْ لهم الكرَّةُ فغلَبوا على عِراق العجم وغيره، وخرجَ منهم في هذا الوقت أمم لا يُحصيهم إلا الله، ولا يردُّهم عن المسلمين إلا الله، حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج، أو مقدِّمتهم، فنسأل الله تعالى أن يُهلكَهم ويُبَدِّدَ جمعَهم. ولما علم النبيُّ ﷺ عددَهم وكثرتَهم وحِدَّة شوكتِهم قال ﷺ: «اتركوا التُّرْكَ ما تركوكم»[١]. لكنا نرجو من فضل الله تعالى النَّصْرَ عليهم والظفرَ بهم، وذلك لما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ قال: «تُقاتلكم التُّرْكُ، قومٌ صِغارُ الأعين»، قال: يعني: الترك. قال: «تسوقونهم ثلاث مرار حتى تُلْحقونهم بجزيرة العرب»[٢] فأما في السياقة الأولى فينجو من هربَ منهم، وأما في الثانية فينجو بعضٌ ويهلكُ بعض، وأما في الثالثة فيُصطلمون[٣].

و (قوله: «لا تقومُ الساعة حتى يغزوَها سبعون ألفاً من بني إسحاق») هكذا

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي (٦/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٠٥).

(٣) فيُصطلمون: من الاصطلام وهو الاستئصال والإبادة.

يقاتلوا بسلاحٍ ولم يَرْمُوا بسهمٍ، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيسقط أحدُ جانبيها» ـ قال ثور: لا أعلمه إلا قال الذي في البحر ـ «ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيُفَرَّجُ لهم، فَيَدْخُلُوهَا، فَيَغْنَمُوا، فبينما هم يقتسمون المغانم إذْ جاءَهُمْ الصَّريخ فقال: إن الدَّجَّال قد خَرَجَ فيتركون كلَّ شيء، ويَرْجِعُون».

رواه مسلم (٢٩٢٠).

صحَّت الرواية عند الجميع، وفي الأمهات. قال القاضي أبو الفضل: قال بعضُهم: المعروف المحفوظ من بني إسماعيل، وهو الذي يدلُّ عليه الحديث وسياقه؛ لأنه إنما يعني به: العرب والمسلمين، بدليل الحديث الذي سمَّاها فيه في الأم[١]، وأنها: القسطنطينية، وإن لم يصفْها بما وصفها به هنا.

قلـتُ: وهذا فيه بُعْدٌ من جهة اتفاق الرواة والأمهات على بني إسحاق، فإذاً المعروف خلاف ما قال هذا القائل، ويُمكن أن يقال: إن الذي وقع في الرواية صحيح غير أنه أراد به العرب ونسبهم إلى عمِّهم، وأطلق عليهم ما يُطلق على ولد الأب، كما يُقال ذلك في الخال، حتى قد قيل: الخالُ أحدُ الأبوين ـ والله تعالى أعلم ـ. وأما قوله: إن هذه القرية هي القسطنطينية، فينبغي أن يُبحث عن صفتها؛ هل تُوافق ما وصفَه النبيُّ ﷺ في هذه المدينة أم لا؟ وأما ما ذكره مسلم في الأم من حديث القسطنطينية فهو ما تقدَّم في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الذي قال في أوله: «لا تقومُ الساعة حتى يَنزلَ الرومُ بالأعماق، أو بدابقَ» قال فيه: «فيُقاتلُهم المسلمون فينهزمُ ثلثٌ، ويُقتل ثلث، ويفتح الثلث القسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم، قد علَّقوا سيوفَهم بالزيتون إذ صاحَ فيهم الشيطان: إن المسيحَ قد خلفَكم في أهليكم»[١]. وظاهر هذا يدلُّ على: أن القسطنطينية، إنما تُفتح بالقتال، وهذا

تُفتح القسطنطينية بالقتال

(١) رواه مسلم (٢٨٩٧).

[٢٨١٦] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تقوم السَّاعة حتى يقاتل المسلمون اليهودَ، فيقتلُهم المسلمون حتى يختبىء اليهوديُّ من وراء الحجر والشَّجر، فيقولُ الحجر أو الشجر، يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهوديٌّ خلفي، فتعال فاقْتُله! إلا الغَرْقَد فإنَّه من شجر اليهود».

رواه أحمد (٢/ ٤١٧)، ومسلم (٢٩٢٢).

الحديث يدلُّ على أنها تُفتح بالتهليل والتكبير، فقولُ بعضهم فيه بعد، والحاصل: أن القسطنطينية لا بُدَّ من فتحها، وأن فتحها من أشراطِ الساعة على ما شهدت به أخبار كثيرة، منها: ما ذكرناه آنفاً، ومنها: ما خرَّجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل عن النبيِّ ﷺ قال: «الملحمةُ العظمى، وفتحُ القسطنطينية، وخروج الدَّجَّال في سبعة أشهر»[١]. قال: هذا حديث حسن صحيح، وفيه عن أنس بن مالك: أنَّ فتحَ القسطنطينية مع قيام الساعة[٢]. هكذا رواه موقوفاً. قال محمد[٣]: هذا حديث غريب، والقسطنطينية: هي مدينة الروم تُفتح عند خروج الدَّجَّال، والقسطنطينية قد فُتحت[٤] في زمان بعض أصحاب النبي ﷺ.

قلتُ: وعلى هذا فالفتحُ الذي يكون مقارناً لخروج الدَّجَّال هو الفتح المراد بهذه الأحاديث؛ لأنها اليوم بأيدي الروم ـ دمَّرهم الله تعالى ـ والله بتفاصيل هذه الوقائع أعلم.

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٣٨).
(٢) رواه الترمذي (٢٢٣٩).
(٣) المراد: محمد بن إسماعيل البخاري ـ رحمه الله ـ.
(٤) ما كان في زمن بعض الصحابة محاولةٌ لفتحها، أما الفتح الفعلي فكان في زمن السلطان محمد الفاتح العثماني سنة ١٤٥٣ م.

[٢٨١٧] وعنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تقوم السَّاعة حتى يُبْعَثَ دَجَّالُون كذَّابون. قريبٌ من ثلاثين كلُّهم يزعم: أنَّه رسولُ الله». وفي روايةٍ: «حتى يَنْبَعِثَ».

رواه أحمد (٢/ ٢٣٧)، ومسلم (١٥٧) الفتن (٨٤)، وأبو داود (٤٣٣٣ ـ ٤٣٣٥)، والترمذي (٢٢١٩).

* * *

و (قوله: «لا تقوم الساعة حتى يقاتلَ المسلمون اليهودَ، فيقتلَهم المسلمون»). الحديث هذا إنما يكون ـ والله أعلم ـ بعد قتل الدَّجَّال؛ فإن اليهود هم أكثرُ أتباعه، وسيأتي منصوصاً عليه بعد هذا إن شاء الله تعالى.

و (قوله: «لا تقوم الساعة حتى يُبعثَ دجَّالون كذَّابون قريباً من ثلاثين») وقد تقدَّم القول في اشتقاق اسم الدَّجَّال؛ وأنه المموّه بالكذب. قال القاضي أبو الفضل: هذا الحديث قد ظهر، فلو عُدَّ من تنبَّأ من زمن النبيِّ ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعُرف واتَّبعه جماعة على ضلاله لوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع في كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا، ولولا التطويل لسردنا منهم هذا العدد.

ظهور دجالين كثيرين

* * *

(١٢) بـــاب
الخليفة الكائن في آخر الزمان وفيمن يهلك أُمَّة النبي ﷺ وتقتل عماراً الفئة الباغية وإخماد الفتنة الباغية ولتفنى كنوز كسرى في سبيل الله

[٢٨١٨] عن أبي نضرةَ، قال: كُنَّا عند جابرِ بنِ عبد الله، فقال: يوشك أهل العراق ألا يُجْبىٰ إليهم قفيزٌ ولا دِرهَمٌ. قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَلِ العجم يَمْنَعُون ذاك. ثم قال: يوشك أهل الشَّأمِ ألا يُجْبَىٰ إليهم دينارٌ ولا مُدْيٌ. قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبلِ الروم. ثم أَسْكَتَ هُنَيَّةً، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أُمَّتي خَلِيفةٌ يَحثي المالَ حَثْياً ولا يَعُدُّهُ عَدداً». قيل لأبي نضرة وأبي العلاء: أَتَريَان أنه عمر بن عبد العزيز، فقالا: لا.

رواه أحمد (٣/ ٣١٧)، ومسلم (٢٩١٣).

---

(١٢) ومن باب: الخليفة الكائن في آخر الزمان

خروج الخليفة الصالح في آخر الزمان

(قوله: «يكون في آخر أُمَّتي خليفةٌ يحثي المال حَثْياً، ولا يعدُّه عداً») أي: يصبُّه صباً. يُقال: حثى يحثي حثياً، وحثا يحثو حثواً، وقد وقع الفعلان في الأم، والمصدر حثياً بفتح الحاء، وإسكان الثاء، وضُبط عن أبي بحر حِثِياً: بكسر الثاء، وتشديد الياء، وليس بمعروف، وإنما نفى أبو نضرة أن يكون هذا الخليفة هو عمر بن عبد العزيز لقوله ﷺ: «في آخر أُمَّتي»، وذلك لا يصدق على زمن عمر بن عبد العزيز إلا بالتوسُّع البعيد؛ ولأنه لم يَصُبَّ المال كما جاء في هذا الحديث، وقد روى الترمذي وأبو داود أحاديث صحيحة في هذا الخليفة، وسمَّياه بالمهدي، فروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهبُ الدنيا حتى يملكَ العربَ رجلٌ من أهل بيتي يُواطىء اسمُه اسمي»، قال:

. . . .

حديث حسن صحيح. وخرَّجه أبو داود، وزاد فيه: «يملأُ الأرضَ قِسْطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجَوْراً»[١]. ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «لو لم يبقَ من الدنيا إلا يومٌ لطوَّل الله ذلك اليومَ حتى يليَ رجلٌ من أهل بيتي يُواطىء اسمه اسمي»[٢]. قال: حديث حسن صحيح. ومن حديث أبي سعيد قال: خشينا أن يكون بعد نبيِّنا حدث، فسألناه، فقال: «إن في أمتي المهدي، يخرجُ، يعيشُ خمساً، أو سبعاً، أو تسعاً ـ زيدٌ الشَّاكُّ ـ» قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «سنين. قال: فيجيء إليه الرجلُ فيقول: يا مَهدي أعطني؛ يا مَهدي أعطني، قال: فيحثي له في ثوبه ما استطاعَ أن يحملَه»[٣]. قال: هذا حديث حسن. وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «المهديُّ في أمتي: أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأُ الأرضَ قِسطاً وعدلاً، كما مُلئت جَوْراً وظُلماً، يملكُ سبع سنين»[٤]. وروى أيضاً أبو داود عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ عن رسول الله ﷺ قال: «يكونُ اختلافٌ عند موت خليفة، فيخرج رجلٌ من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناسٌ من أهل مكة فيخرجونه وهو كارهٌ، فيُبايعونه بين الرُّكْن والمقام، ويُبعث إليه بعثٌ من أهل الشام فيُخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى النَّاسُ ذلك أتاه أبدالُ أهل الشام، وعصائب أهل العراق فيُبايعونه، ثم ينشأ رجلٌ من قريش أخوالُه كَلْبٌ، فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، وذلك بَعْثُ كَلْبٍ، والخيبةُ لمن لم يشهدْ غنيمة كَلْبٍ، فيقسمُ المالَ، ويعملُ في الناس بسُنّة نبيِّهم، ويُلقي الإسلامُ بجرانه إلى الأرض فيلبثُ سبع سنين ثم يُتوفَّى، ويُصلِّي عليه

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٨٢)، والترمذي (٢٢٣٠).
(٢) رواه الترمذي (٢٢٣١).
(٣) رواه الترمذي (٢٢٣٢).
(٤) رواه أبو داود (٤٢٨٥).

[٢٨١٩] وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يُهْلِكُ أُمَّتي هذا الحيُّ من قريشٍ». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «لو أنَّ النَّاس اعْتَزلوهم».

رواه أحمد (٢/ ٣٠١)، والبخاريُّ (٣٦٠٤)، ومسلم (٢٩١٧).

المسلمون»(١). وفي رواية: «تسع سنين». فهذه أخبار صحيحة ومشهورة عن النبيِّ ﷺ تدلُّ على خروج هذا الخليفة الصالح في آخر الزمان، وهو يُنتظر إذ لم يُسمع بمن كملت له جميع تلك الأوصاف التي تضمنتها تلك الأخبار، والله تعالى أعلم.

على أيدي مَن تهلك الأمة؟

و (قوله: «يُهلك أمتي هذا الحيُّ من قريش»، وفي البخاري: «هلاك أمتي على يديْ أُغيلمةٍ من قريش») الحي: القبيل، وأشار النبيُّ ﷺ إلى قبيل قريش، وهو يُريد بعضَهم، وهم الأغيلمة المذكورون في حديث البخاري، كما أنه لم يردْ بالأمة جميعَ أُمَّته من أولها إلى آخرها؛ بل: ممن كان موجوداً من أُمَّته في ولاية أولئك الأغيلمة، وكان الهلاك الحاصل من هؤلاء لأمته في ذلك العصر إنما سببه: أن هؤلاء الأغيلمة لصغر أسنانهم لم يتحنَّكوا، ولا جرَّبوا الأمورَ، ولا لهم محافظةٌ على أمور الدِّين، وإنما تصرُّفُهم على مقتضى غلبة الأهواء، وحِدَّة الشباب.

متى يجوز الخروج على الحاكم؟

و (قوله: «لو أنَّ النَّاسَ اعتزلوهم») لو: معناها التمني؛ أي: ليت الناس اعتزلوهم، فيه دليل على إقرار أئمة الجَوْر، وترك الخروج عليهم، والإعراض عن هَنَات ومفاسدَ تصدرُ عنهم، وهذا ما أقاموا الصلاة، ولم يصدرْ منهم كفرٌ بُواح عندنا من الله فيه برهان، كما قدَّمناه في كتاب الإمامة.

وهؤلاء الأغيلمة كان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يعرف أسماءهم، وأعيانَهم، ولذلك كان يقول: لو شئت قلت لكم: هم بنو فلان، وبنو فلان، لكنَّه سكتَ عن يقينهم مخافةَ ما يطرأُ من ذلك من المفاسد، وكأنَّهم ـ والله تعالى أعلم ـ

(١) رواه أبو داود (٤٢٨٦).

[٢٨٢٠] وعن أبي سعيدٍ، قال: أخبرني من هو خيرٌ منِّي ـ أبو قتادة ـ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لعمار حين جَعَلَ يَحْفِرُ الخندق وجعل يَمْسَح رَأْسَهُ ويقول: «بُؤسَ ابنِ سُمَيَّةَ! تَقْتُلُكَ فِئَةٌ باغِيةٌ».

يزيد بن معاوية، وعبيد الله بن زياد، ومن تنزَّل منزلتَهم من أحداث ملوك بني أمية، فقد صدرَ عنهم من قَتْلِ أهل بيت رسول الله ﷺ وسبيهم، وقتل خيار المهاجرين والأنصار بالمدينة، وبمكة وغيرها، وغيرُ خافٍ ما صدرَ عن الحجَّاج وسليمان بن عبد الملك، وولده من سفك الدماء، وإتلاف الأموال، وإهلاك خيار الناس بالحجاز، والعراق، وغير ذلك.

وأغيلمة: تصغير غِلْمَةٍ، على غير مُكَبَّرِهِ؛ فكأنهم قالوا: أغلمة ولم يقولوه، كما قالوا: أُصَيْبِيَة بتصغير صبية. وبعضهم يقول: غليمة على القياس، وقد تقدَّم القول في الغلام، وأنَّ أصلَه فيمن لم يحتلم، ثم قد يتوسع فيه، ويقال على الحديث السن ـ وإن كان قد احتلم ـ وعلى هذا جاء في هذا الحديث.

عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية

و (قوله ﷺ لعمَّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ: «تقتلُكَ فئةٌ باغيةٌ»، وفي لفظ آخر: «الفئة الباغية») هذه شهادة من النبي ﷺ على فئة معاوية بالبغي، فإنَّهم هم الذين قتلوه؛ فإنه كان بعسكر عليٍّ بصِفِّين، وأبلى في القتال بلاءً عظيماً، وحرَّض أصحابَ رسول الله ﷺ على قتال معاويةَ وأصحابه. قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: شهدنا مع عليٍّ صِفِّينَ، فرأيتُ عمَّارَ بن ياسر لا يأخذُ في ناحية من أودية صِفِّين إلا رأيتُ أصحاب محمّد يتبعونه كأنه عَلَمٌ لهم، قال: وسمعتُه يقول يومئذٍ لهاشم بن عتبة: يا هاشم! تقدم، الجَنَّةُ تحت الأبارقة[1]، اليوم ألقى الأحبَّة، محمَّداً وحزبه، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا شعفات هَجَر لعلمنا أنا على الحقِّ، وأنهم على الباطل، ثم قال:

---

(١) الأبارقة: السيوف.

. . . .

نحــن ضــربنــاكُــم علــى تنـزيلِـه
فـاليـومَ نضـربُكـم علـى تـأويلِـه
ضـربـاً يُـزيـلُ الـهـام عـن مقيلِـه
ويُــذهــل الخليــلَ عــن خليلِــه
أو يُــرجــعُ الحــقُّ إلــى سبيلِــه

قال: فلم أر أصحاب محمد قُتلوا في موطن ما قُتلوا يومئذ، وقال عبد الرحمن بن أبزى: شهدنا صفين مع عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في ثمانمئة ممن بايع بيعةَ الرضوان، قُتل منهم ثلاثة وستون، منهم عمّار بن ياسر. وروى الشعبيُّ عن الأحنف بن قيس في خبر صِفِّين قال: ثم حملَ عمَّار بن ياسر فحملَ عليه ابن جزء السكسكي، وأبو الغادية الفَزاري، فأما أبو الغادية فطعنه، وأما ابن جزء فاحتزَّ رأسَه، وكان سنُّه وقت قُتل نيّفاً على تسعين سنة، وكانت صِفِّين في ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين، ودفنه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ في ثيابه، ولم يُغَسِّلْه كما فُعل بشهداء أُحد، ولما ثبت أنَّ أصحابَ معاوية قتلوا عمّاراً صدق عليهم خبرُ رسول الله ﷺ عنهم أنهم البغاة. وأنَّ علياً ـ رضي الله عنه ـ هو الحقُّ، ووجه ذلك واضح، وهو أن علياً ـ رضي الله عنه ـ أحقُّ بالإمامة من كلِّ من كان على وجه الأرض في ذلك الوقت من غير نزاع من معاوية، ولا من غيره. وقد انعقدت بيعته بأهل الحَلِّ والعقد من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل دار الهجرة، فوجبَ على أهل الشام والحجاز والعراق وغيرهم مبايعته، وحرمت عليهم مخالفته فامتنعوا عن بيعته، وعملوا على مخالفته، وكانوا له ظالمين، وعن سبيل الحق ناكبين، فاستحقُّوا اسمَ البغي الذي شهدَ به عليهم النبيُّ ﷺ ولا يُنجيهم من هذا تأويلاتُهم الفاسدة؛ فإنَّها تحريفات عن سُنن الحق حائدة. نقل الأخباريون: أن معاوية تأوَّل الخبر تأويلين:

أحدُهما: أنه قال بموجب الخبر فقال: نحن الباغية لدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ أي: الطالبة له.

. . . .

وثانيهما: أنه قال: إنما قتلَه من أخرجَه للقتل، وعرَّضه له، وهذان التأويلان فاسدان.

أما بيان فساد الأول: فالبغي ـ وإن كان أصلُه الطلب ـ فقد غلبَ عرف استعماله في اللُّغة والشرع على التعدِّي والفساد، ولذلك قال اللغويون؛ أبو عبيد وغيره، البغي: التَّعَدي. وبغى الرجلُ على الرجل: استطالَ عليه. وبغت السماء: اشتدَّ مطرُها. وبغى الجرُح: ورم وترامى إلى فساد، وبغى الوالي: ظلم. وكلُّ مجاوزة، وإفراط على المقدار الذي هو حدُّ الشيء: بغيٌ. وبرىء جرحه على بغيٍ: وهو أن يبرأ وفيه شيءٌ من نَغَلٍ، وعلى هذا فقد صار الحال في البغي كالحال في الصلاة، والدَّابة، وغير ذلك من الأسماء العرفية التي إذا سمعها السامعُ سبق لفهمه المعنى العرفي المستعمل، لا الأصلي الذي قد صار كالمطَّرح، كما بيَّناه في الأصول، وإلى حمل اللفظ على ما قلناه صار عبد الله بن عمرو بن العاص، وغيره يوم قُتل عمَّار، وأكثرُ أهل العصر، ورأوا: أن ذلك التأويل تحريف. سلَّمنا نفي العرف، وأن لفظ الباغية صالح للطلب وللتعدّي، لكن النبيَّ ﷺ ذكرَ الفئة الباغية في هذا الحديث في مَعرض إظهار فضيلة عمَّار وذمِّ قاتليه، ولو كان المقصود البغي الذي هو مجرد الطلب لما أفاد شيئاً من ذلك، وقد أفادَهما بدليل مساق الحديث فتأمَّله بجميع طرقه تجدْه كذلك، وأيضاً فلو كان ذلك هو المقصود لكان تخصيص قتلة عمّار بالبغي الذي هو الطلب ضائعاً، لا فائدة له؛ إذ عليٌّ وأصحابه طالبون للحقِّ ولقتلة عثمان، لو تفرغوا لذلك، وتمكَّنـوا منه، وإنما منعَهم من ذلك معاوية وأصحابُه بما أبدوا من الخلاف، ومن الاستعجال مع قول عليٍّ لهم: ادخلوا فيما دخلَ فيه الناس، ونطلبُ قتلةَ عثمان، ونقِيمُ عليهم كتابَ الله. فلم يلتفتوا لهذا، ولا عرَّجوا عليه، ولكن سبقت الأقدار، وعظمت المصيبة بقتيل الدار.

وأما فساد التأويل الثاني فواضح؛ لأنه عدل عمن وُجد القتل منـه إلى من

وفي روايةٍ: «وَيْسَ ابنِ سمية! أو: يا وَيْسَ».

رواه مسلم (٢٩١٥) (٧٠ و ٧١).

[٢٨٢١] ونحوه؛ عن أم سلمة.

رواه أحمد (٦/ ٢٨٩)، ومسلم (٢٩١٦) (٧٢ و ٧٣).

لا تصح نسبته إليه، إذ لم يُجبرْ عمَّار على الخروج؛ بل: هو خرجَ بنفسه وماله مجاهداً في سبيل الله، قاصداً لقتال من بغى على الإمام الحقِّ، وقد نقلنا ما صدرَ عنه في ذلك، وحاش معاوية عن مثل هذا التأويل، والعهدة على الناقل، بل قد حكي عن معاوية أنه قال عندما جاءه قاتل عمَّار برأسه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بَشِّروا قاتلَ ابن سُميَّة بالنَّار»[(١)]. فلما سمعَ القائلُ ذلك قال: بئست البشارة، وبئست التحفة، وأنشد في ذلك شعراً، والله أعلم بحقيقة ما جرى من ذلك، وقد تقدَّم قول النبي ﷺ في الخوارج: «تقتلُهم أَوْلَى الطائفتين بالحقِّ»[(٢)]، والقاتل لهم هو عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ وأصحابه.

و (قوله: «بُؤْسَ ابنِ سُميَّة») هو منادى مضاف محذوف حرف النداء تقديره: يا بؤسَ ابن سميّة، وهي أمُّ عمَّار، والبأس والبؤس والبأساء: المكروه والضرر، وفي الرواية الأخرى: «يا ويسَ ابن سميّة»، وفي البخاري: «يا ويح ابن سُميَّة»[(٣)]، وكلاهما بمعنى التفجُّع والترحُّم. والويل: بمعنى الهلكة، هذا هو الصحيح، وقد تقدَّم الخلاف فيهما.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٩٨) بلفظ: «إن قاتلَه وسالبَه في النَّار».
(٢) رواه مسلم (١٠٦٤) (١٥٠).
(٣) رواه البخاري (٢٨١٢).

[٢٨٢٢] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد مات كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هَلَكَ قَيْصَرُ فلا قَيْصَرَ بعده، والذي نَفْسي بيده لتُنْفَقَن كُنُوزُهُما في سبيل الله!».

رواه أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاريُّ (٣٠٢٧)، ومسلم (٢٩١٨) (٧٥).

إخباره ﷺ عن هلاك كسرى وقيصر وملكهما

و (قوله: «لقد مات كسرى فلا كسرى بعدَه، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده») كذا جاء هذا الحديث في الأم، قد مات كسرى بلفظ الماضي المحقق بقد، وقد وقع هذا اللفظ في كتاب الترمذي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وعنه سعيد بن المسيب، وعنه الزهري، وعنه سفيان، وبهذا السند رواه مسلم، غير أن الترمذي قال: «إذا هلكَ كسرى»[1]، ولم يقل: «قد مات» وبين اللفظين بون عظيم، فلفظ مسلم يقتضي أن كسرى قد كان وقع موته، فأخبرَ عنه النبيُّ ﷺ، وعلى هذا يدلُّ حديث أبي بكرة الذي خرَّجه البخاري قال: لما بلغَ رسولُ الله ﷺ أنَّ أهلَ فارسَ قد ملَّكوا عليهم بنت كسرى، قال: «لن يُفلحَ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأة»[2] يعني: أنه لما مات كسرى ولَّوا عليهم ابنته، وعلى هذا فلا يصح أن يُقال: مكان: «قد مات»: «إذا مات»، ولا «إذا هلك»؛ لأن إذا للمستقبل، ومات للماضي، وهما متناقضان، فلا يصح الجمع بينهما لاتحاد الراوي، واختلاف المعنى، إلا على تأويل بعيد، وهو أن يقدَّر أن أبا هريرة سمعَ الحديث من النبيِّ ﷺ مرتين، فسمع أولاً إذا هلك كسرى، وبعدَه: قد هلك كسرى. فيكون النبيُّ ﷺ قال الحديث الأول قبل موت كسرى؛ لأنه علم أنه يموتُ ويهلك، ويكون النبيُّ ﷺ أيضاً قال الحديث الثاني بعد موته، ويحتمل أن يُفرِّق بين الموت

---

(١) رواه الترمذي (٢٢١٦) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) رواه البخاري (٧٠٩٩).

[٢٨٢٣] وعن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَةٌ من المُسلِمِينَ ـ أو من المؤمنين ـ كَنْزَ آلِ كِسرى الّذي في

والهلاك، فيقال: إن موت كسرى كان قد وقع في حياة النبيِّ ﷺ فأُخبر عنه بذلك، وأما هلاك ملكه، فلم يقع ذلك إلا بعد موت النبيِّ ﷺ وموت أبي بكر، وإنما هلك ملكه في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ على يديْ سعد بن أبي وقَّاص وغيره من الأمراء الذين ولَّاهم عمرُ حربَ فارسَ، فهزموا جموعَه، وفتحوا بلاده، وانتقلوا كنوزَه إلى المدينة، وذخائرَه، وحِلْيَته، حتى تاجَه كما هو المعروف في كتب التواريخ، وكان موت كسرى وتمزيق ملكه بسبب دعوة النبيِّ ﷺ كما خرَّجه البخاريُّ[1] من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهميِّ، فأمرَه أن يدفعَه إلى عظيم البحرين، فدفعَه عظيمُ البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزَّقه، فحسبتُ أن ابن المسيب قال: فدعا رسول الله ﷺ أن يُمزَّقُوا كلَّ مُمَزَّق، فعجَّل الله تعالى موته، ومَزَّق بعد ذلك ملكَه. وقد تقدَّم أن كلَّ ملك للفرس يُقال له كسرى، وكلَّ ملك للروم: يُقال له قيصر. وكلَّ ملك للحبشة يُقال له: النجاشي. ويُقال كَسرى بفتح الكاف، وهو قول الأصمعي، والكسر لغيره.

و (قوله: «فلا كسرى بعده، ولا قيصرَ بعده»). قال القاضي: معناه عند أهل العلم: لا يكون كسرى بالعراق، ولا قيصر بالشام، فأعلم بانقضاء ملكهما، وزواله من هذين القطرين، فكان كما قال، وانقطع أمر كسرى بالكليّة، وتمزَّق ملكُه واضمحلَّ، وتخلَّى قيصرُ عن الشام، ورجعَ القهقرى إلى داخل بلاده، واحتوى المسلمون على ملكهما، وكنوزهما، وأُنفقا في سبيل الله، كما أخبر عنه نبيُّنا محمد ﷺ.

استيلاء المسلمين على كنز آل كسرى

و (قوله: «لَتَفْتَحَنَّ عِصابةٌ من المسلمين كنز آلِ كسرى») العصابة: الجماعة

---

(١) رواه البخاري (٦٤).

الأبْيَض»، وقد روي: (من المسلمين) ولم يشك.

رواه أحمد (٥/ ١٠٠)، ومسلم (٢٩١٩) (٧٨).

* * *

من الناس والطير والوحش، سمُّوا بذلك؛ لأنهم يشدُّ بعضهم بعضاً، والعَصْب: هو الشدُّ. والعُصْبة: ما بين العشرين إلى الأربعين، وإنما أطلقَ النبيُّ ﷺ على المفتحتين كنز كسرى: عصابة، وإن كانوا عساكر بالنسبة إلى عدد عدوهم وجيوشه، فإنهم كانوا بالنسبة إليهم قليلاً. ويحتمل أن يُريد بالعصابة الجماعة السابقة لفتح القصر الأبيض دون الجيش كله؛ فإن الله لما هزمَ الفرسَ وجيوشَهم العظيمة على يدي سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ وعسكره، وكان عدد من معه يوم فتح القادسيَّة ستة آلاف، أو سبعة آلاف على ما ذكره محمد بن جرير الطبري. فرَّ المنهزمة من الفرس إلى المدائن منزل كسرى، فتبعهم المسلمون إلى أن وصلوا إلى دجلة، وهي تقذف بالزَّبَد، فاقتحمها المسلمون فرساناً ورجَّالة، خائضين يتحدَّث بعضهم مع بعض، فلما رأى ذلك الفرسُ هالَهم ذلك، فتخففوا بما أمكنهم من المال والذخائر النفيسة، وفرُّوا، ولم يبقَ فيها إلا من ثَقُل عن الفرار، ودخل المسلمون المدائنَ، وفيها القصرُ الأبيض الذي فيه إيوان كسرى، وأموالُه، وذخائره النفيسة التي لم يُسمع بمثلها. قال أهل التاريخ: كان في البيت الأبيض ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ـ ثلاث مرات ـ غير أن رستماً لما فرَّ منهزماً حملَ معه نصفَ ما كان في بيوت الأموال، وتركَ النصف الآخر، فملَّكه[1] الله المسلمين، فأصابَ الفارس من فيء المدائن اثنا عشر ألفاً، ولما دُخِل القصر الأبيض وجدوا فيه ملابس كسرى، وحِلْيته، وبساطه الذي ما سُمع في العالمين بمثله، فجاؤوا بكلِّ ذلك إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فكان ذلك كلُّه مظهراً لصدق رسول الله ﷺ للعيان بحيث يضطر إليه كل إنسان.

---

(١) في (ع) و (م ٤): فنفَّله.

(١٣) بـــاب
ما ذكر من أنَّ ابن صياد: الدَّجالُ

[٢٨٢٤] عن أبي سعيدٍ الخدري، قال: خرجنا حُجَّاجاً ـ أو عُمَّاراً ـ ومَعَنا ابنُ صَائد. قال: فَنَزلنا مَنْزِلاً، فتفرَّق الناسُ وبَقِيتُ أنا وهو، فاستوحشت منه وحشةً شديدةً مما يقال عليه. قال: وجاء بمتاعه، فوضعه مع متاعي، فقلتُ: إنَّ الحرَّ شديدٌ فلو وضعته تحت تلك الشجرة! قال: ففعل. قال: فرُفِعَتْ لنا غَنَمٌ، فانطلق، فجاء بِعُسٍّ، فقال: اشرب أبا سعيد! فقلت: إنَّ الحر شديدٌ، واللبنُ حارّ ما بي إلا أنِّي أكره أنْ أشرَبَ عن يده ـ أو قال: آخذه عن يده ـ فقال: أبا سعيد! لقد هممتُ أن آخذ حبلاً، فأعلِّقَهُ بِشَجَرةٍ، ثم أَخْتَنِقُ مما يقول لي الناس! يا أبا سعيد! من خفي عليه حديثُ رسولِ الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألستَ من أعلم النَّاسِ بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو كافرٌ» وأنا مسلم؟ أو لَيس قد قال رسول الله ﷺ: «هو عقيم لا يولد له» وقد تركت ولدي بالمدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المدينة

---

(١٣) ومن بــاب: ما ذكر في ابن صيَّاد

ويُقال: ابن صائد، واسمه صاف، وكل ذلك في الحديث. قال الواقدي: نسبه في بني النجار، وقيل: هو من اليهود، وكانوا حلفاء بني النجار، وكانت حاله في صغره حالة الكُهَّان يصدق مرَّة، ويكذب مراراً، ثم إنه أسلمَ لما كبر، وظهرت منه علامة الخير من الحجِّ والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال، وسُمعت منه أقوالٌ، تُشعر بأنه الدَّجَّال، وبأنه كافر، كما يأتي في تفاصيل أحاديثه، فقيل: إنه تابَ ومات بالمدينة، ووُقف على عينه هناك، وقيل: بل فُقد في يوم الحَرَّة، ولم يُوقف عليه، وكان جابر وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ يحلفان أنه الدَّجَّـال،

ولا مكة» وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة. ـ وفي روايةٍ: قد حججت ـ. قال أبو سعيد: حتى كِدْتُ أن أعذره! ثم قال: أما والله إني لأعرفه، وأعرف مولده، وأين هو الآن! قال: قلت له: تبّاً لك سائر اليوم.

وفي روايةٍ: قال: وقيل له: أَيَسُرّك أنّك ذاك الرَّجل؟ قال: فقال: لو عُرِضَ عَليَّ ما كَرِهْتُ.

رواه مسلم (٢٩٢٦) (٩٠ و ٩١)، والترمذيُّ (٢٢٤٦).

لا يَشكَّان فيه، وعلى الجملة فأمره كلُّه مشكل على الأمة، وهو فتنةٌ ومحنة. وقد تقدَّم أن الأُطُمَ: هو الحصن، ويُجمع: آطام. ويروى أطم ابن مَغَالة، وبني مغالة، وكلاهما صحيح، وبنو مَغَالة بغين معجمة. وفي حديث ابن حُميد، وفي حديث الحلواني: بني معاوية، والأول المعروف، وبنو مغالة: كل ما كان عن يمينك إذا وقفت آخرَ البلاط مستقبلَ مسجد النبيِّ ﷺ، وبنو جديلة ما كان عن يسارك، ومسجد النبيِّ ﷺ في بني مَغَالة، قاله الزبير. وقال بعضهم: بنو مَغَالة حيٌّ من قُضَاعة، وبنو معاوية: هم بنو جديلة.

و(قوله: «فرفصه») رسول الله ﷺ ـ بالفاء والصاد المهملة ـ رواية الجماعة. قال بعض الشارحين: الرَّفْص: الضرب بالرجل، مثل الرفس.

قلـــتُ: وهذا ليس بمعروف عند أهل اللغة، وإنما رفس بالسين المهملة. يُقال: رفَسَه يرفِسُه ويرفُسُه؛ إذا ضربه برجله. فأما رفص بالصاد: فهو من الرفصة، وهي النوبة من الماء تكون بين القوم، وهم يترافصون الماءَ، أي: يتناوبونه، وقد وقع عند الصدفي: فرفضه بضاد معجمة. قال القاضي: وهو وَهْمٌ.

قلـــتُ: ويحتمل أن يقال: ليس بوهم، ويكون معناه من الرفض، وهو الرمي، وكأنه أعرض عنه، ولم يلتفت إليه لما سمع منه ما سمع، فعل المغضب. وأبعد من هذه ما وقع في البخاري من رواية المروزي: فرقصه بالقاف والصاد

[٢٨٢٥] وعن عبد الله بن عمر، أنَّ عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبل ابن صَيَّاد حتى وَجَده يلعب مع الصِّبيان عند أُطُمِ بني مَغَالَةَ؛ وقد قارب ابنُ صيَّادٍ يومئذٍ الحُلُمَ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: «أتشهد أنّي رسول الله؟»، فنظر إليه ابنُ صيَّادٍ، فقال: أشهد أنَّك رسولُ الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسولُ الله؟ فرفَضَهُ رسولُ الله ﷺ، وقال: «آمنتُ بالله وبرسله». ثم قال له رسول الله ﷺ: «ماذا ترى؟!» قال ابن صياد: يأتيني صَادقٌ وكاذِبٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «خُلِّطَ عَلَيْكَ الأمر!»، ثم قال له رسول الله ﷺ: «إني قَدْ خَبَّأْتُ لك خبيئاً». فقال ابن

المهملة، وفي حديث كتاب الأدب من البخاري، فَرَضَّه: بالضاد المعجمة من الرَّضِّ، وقال بعضهم فيه: فرصَّه بالصاد المهملة؛ أي: ضغطه.

و (قوله: يأتيني صادقٌ وكاذب) يعني به: تابعه من الشيطان، كان تارة يصدقُ له، وتارة يكذبُ، وهذه حالة الكُهَّان.

و (قوله: «خُلِّطَ عليكَ الأمرُ») أي: لبّس عليك تابعُك الجنيُّ حالَك.

و(قوله ﷺ: «خبئت لك خبيئاً») رواية الجماعة خَبِيئاً بكسر الباء، وعند التميمي: خَبْأً بسكونها، وكلاهما بمعنى. في الصحاح: الخبءُ: ما خُبِىءَ، وكذلك: الخَبِيءُ، وكلاهما مهموز، واختلف في هذا المُخبأ ما هو؟ فالأكثر على أنه: أضمر له في نفسه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] وقال الداودي: وكانت في يده سورة الدخان مكتوبة، وعلى هذا فيكون قوله) الدُّخ يعني به الدُّخان. قالوا: هي لغة معروفة في الدُّخان، وأنشدوا:

عِنْدَ رِوَاقِ البَيْتِ يَغْشَى الدُّخَّا

وحكى هذه اللغة في الصحاح، ووجدته في كتاب الشيخ: الدخ: ساكن

صَيَّاد: هو الدُّخُّ! فقال له رسول الله ﷺ: «اخْسَأْ! فلن تعدو قَدْرَكَ». فقال عمر بن الخطاب: ذَرْني يا رسول الله أضربْ عُنُقه! فقال له رسول الله ﷺ: «إن يَكُنْه فلن تُسَلَّط عليه! وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله!».

الخاء. ومصححاً عليه، أعني: الذي جاء في الحديث، وكأنه على الوقف، وأما الذي في الشعر فهو مشدَّد الخاء، وكذلك قرأته في الحديث فيما أعلم، وقيل: إنما أراد ابن صياد أن يقولَ: الدُّخان فزجره النبيُّ ﷺ فقال: الدُّخ، وهذا فيه بعد. وقيل: الدُّخ: نبت موجود بين النخيل والبساتين خبَّأه له.

واخسأ: زجر للكلب، ولمن يُذمُّ ويُهان.

و (قوله: «لن تعدوَ قَدْرَكَ») أي: لن تجاوزَ حالة الكُهَّان المتخرِّصين الكذَّابين، لا يليقُ بك إلا ذلك، وإنما اختبرَه النبيُّ ﷺ بذلك لينظرَ هل طريقتُه طريقة الكُهَّان، أو لا؟ فظهرَ أنه كذلك. وأنَّ الشياطين تلعبُ به، وتُلَبِّسُ عليه.

لم يتضح له ﷺ شيءٌ من أمر ابن صياد أنه الدجال

و (قوله ﷺ لعمر ـ رضي الله عنه ـ: «إن يَكُنْهُ، فلن تُسلَّطَ عليه، وإن لم يَكُنْهُ فلا خيرَ في قتله») هذا يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ لم يتَّضحْ له شيءٌ من أمر كونه هو الدَّجَّال أم لا؟ وليس هذا نقصاً في حقِّ النبيِّ ﷺ؛ لأنه لم يكنْ يعلمُ إلا ما علَّمه الله، وهذا مما لم يُعْلِمْه الله تعالى به، ولا هو مما تُرهِقُ إلى علمه حاجةٌ لا شرعية، ولا عاديّة، ولا مصلحيّة، ولعلَّ الله تعالى قد علم في إخفائه مصلحةً فأخفاه، والذي يجبُ الإيمان به: أنه لا بُدَّ من خروج الدَّجَّال يدَّعي الإلهية، وأنه كذَّاب أعور، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي قد حَصَّلت لمن عاناها العلمَ القطعيَّ بذلك.

و (قوله: «وإن لم يكنه، فلا خيرَ لك في قتله») أي: لأنه صبيٌّ حينئذٍ. وقيل: لأنه كان لقومه عهدٌ من النبيِّ ﷺ كما عاهدَ يهودَ المدينة، أو لأنه من حلفاء بني النجار كما تقدَّم. وهذا الضمير المتصل في يكنه هو خبرها، وقد وُضع موضعَ المنفصل، واسمُها مستتر فيها، ونحوه قول أبي الأسود الدُّؤَلي:

وقال أيضاً: انطلقَ بعد ذلك رسولُ الله ﷺ وأُبيّ بن كعب إلى النَّخل التي فيها ابن صَيّاد؛ حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل طَفِقَ يَتَّقي بجذوع النخل، وهو يَخْتِلِ أن يسمع من ابنِ صيَّاد شَيْئاً، قبل أن يراه ابنُ صيَّاد، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشٍ في قَطِيفةٍ لَهُ فيها زَمْزَمَةٌ، فَرَأَتْ أمُّ ابن صياد رسولَ الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صيَّاد: يا صَافِ! ـ وهو اسم ابن صياد ـ هذا محمد! فَثَار ابنُ صيَّادٍ. فقال رسول الله ﷺ: «لو تَرَكَتْهُ بَيَّنَ». قال عبد الله: فقام رسولُ الله ﷺ في النَّاس

دَعِ الخَمْرَ تَشْرَبُها الغُواةُ فَإنَّني رأَيْتُ أَخاهَا مُغْنياً بمَكَانِها[1]

فَإنْ لا يَكُنْها أوْ تكُنْهُ فَإنَّهُ أَخُوها غَذَتْهُ أُمُّهُ بِلِبَانِها

أي: فإلا يكن هو إيّاها أو تكن هي إيّاه.

و (قوله: طَفِق يتقي) أي: أخذ وجعل، وقد تقدَّمَ أنها من أفعال المقاربة. ويتقي: يستتر بجذوع النخل؛ أي: بأصول النخل.

و (قوله: فثار ابنُ صيَّاد) أي: وثب وثبة شديدة.

و (قوله ﷺ: «لو تركتْه بيَّنَ») أي: كان يُعبِّر عن حاله في نومه، هل هو الدَّجّال، أم لا؟ وقد يُشكل هذا مع قوله: «رُفِع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظَ...»[2] وبالإجماع على أن النائم غيرُ مؤاخذ بما يقوله في حال نومه، ولا بما يصدرُ عنه، ولا يُعوَّل على هذا الإشكال؛ لأن هذا ليس من باب المؤاخذة، ولا التكليف، وإنما هو من باب النظر في قرائن الأحوال؛ فإن النائم الغالب عليه

---

(١) في اللسان والصحاح: «مجزياً بمكانها».

(٢) رواه أحمد (٦/ ١٠٠)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن ماجه (٢٠٤١).

فأثنى على الله بما هو له أهلٌ، ثم ذكر الدجّال فقال: «إنِّي لأُنذِركمُوه ما من نبي إلا وقد أَنْذَرَهُ قَومَهُ، لقد أَنْذَره نُوحٌ قَومَهُ، ولكن أَقُولُ لَكُم فِيه قولاً لم يقلْهُ نبيٌّ لقومه، إنَّه أعورُ، وإنَّ الله تبارك وتعالى ليس بأعور».

أنه يتكلَّم في نومه بما يكون غالباً عليه في يقظته، ولعلَّ النبيَّ ﷺ كان ينتظرُ أن يظهرَ له منه في حال نومه ما يدلُّ على حاله دلالةً خاصَّة به، والله تعالى أعلم.

عظيم فتنة الدجال وشدّة محنته

و (قوله: «إني لأُنذركُم الدَّجَّال، وما من نبيٍّ إلا وقد أنذرَه قومَه، لقد أنذرَه نوحٌ قومَه») إنما كان هذا من الأنبياء لما علموا من عظيم فتنته، وشدَّة محنته؛ على ما يأتي تفصيلها في الأحاديث المذكورة بعد؛ ولأنهم لما لم يُعيَّن لواحد منهم زمان خروجه، توقَّعَ كلُّ واحد منهم خروجه في زمان أمته، فبالغ في التحذير.

وفائدة هذا الإنذار الإيمان بوجوده، والعزم على معاداته، ومخالفته، وإظهار تكذيبه، وصدق الالتجاء إلى الله تعالى في التَّعوُّذ من فتنته. وهذا مذهب أهل السُّنَّة، وعامَّة أهل الفقه والحديث، خلافاً لمن أنكر أمرَه، وأبطلَه من الخوارج وبعض المعتزلة، وخلافاً للجُبَّائي من المعتزلة، ومن وافقنا على إثباته من الجهمية وغيرهم، لكن زعموا أن ما عنده مَخَارِقُ وحِيَلٌ، قال: لأنها لو كانت أموراً صحيحة لكان ذلك إلباساً للكاذب بالصادق، وحينئذ لا يكون فرقٌ بين النبيِّ والمتنبىء، وهذا هذيان لا يُلتفت إليه؛ فإن هذا إنما كان يلزمُ لو أن الدَّجَّال يدَّعي النبوة، وليس كذلك؛ فإنه إنما ادعى الإلهية، وكذبُه في هذه الدعوى واضح للعقول؛ إذ أدلة حَدَثِه ونقصه وفقره مدرك بأول الفطرة، بحيث لا يجهله من له أدنى فكرة، وقد زاد النبيُّ ﷺ هذا المعنى إيضاحاً في هذا الحديث من ثلاثة أوجه:

أحدها: بقوله: «ولكن أقولُ لكم فيه قولاً لم يقله نبيٌّ لأمته، إنه أعور، وإنَّ الله ليس بأعور» وهذا تنبيه للعقول القاصرة أو الغافلة على أن من كان ناقصاً في ذاته، عاجزاً عن إزالة نقصه، لم يصلحْ لأن يكون إلهاً لعجزه وضعفه، ومن كان عاجزاً عن إزالة نقصه كان أعجزَ عن نفع غيره، وعن مَضَرَّته.

وقال بعضُ أصحابِ رسول الله ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ يوم حذَّر النَّاس الدَّجالَ: «إنَّه مكتوب بين عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ؛ يقرؤه مَنْ كَرِه عَمَلَهُ ـ أو: يَقْرؤهُ كلُّ مؤمن ـ». وقال: تَعَلَّموا: أنَّه لن يَرى أحدُكم ربَّه حتى يموت».

رواه أحمد (٢/١٤٨) و (١٦٩) في إثر الرقم السابق، والبخاريُّ (٣٠٥٥ ـ ٣٠٥٧)، ومسلم (٢٩٣٠) (٩٥) و (٢٩٣١)، وأبو داود (٤٣٢٩)(، والترمذيّ (٢٢٣٥).

وثانيها: قوله: «إنه مكتوبٌ بين عينيْه كافر، يقرؤُه كلُّ مؤمن كاتبٌ وغير كاتب» وهذا أمر مشاهد للحسِّ يشهدُ بكذبه وكفره.

وثالثها: قوله: «تعلموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربَّه حتى يموتَ»، وهذا نص جليٌّ في أنَّ الله تعالى لا يُرى في هذه الدار، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي: في الدنيا، ولقوله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي في الدنيا. ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا..﴾ الآية [الشورى: ٥١].

وحاصل هذا: أن الصادقَ قد أخبرَ أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا، والدَّجَّال يراه الناسُ، فليس بإله، وهذا منه ﷺ نزول إلى غاية البيان بحيث لا يبقى معه ريبة لإنسان، وقد تقدَّم الخلاف في رؤية نبيِّنا محمد ﷺ ربَّه في كتاب الإيمان، وقد قلنا: إنه لم يثبتْ في الباب قاطعٌ يُعتمد عليه، والأصل: التَّمسُّكُ بما دلَّت هذه الأدلة عليه، وقد تأوَّلَ بعضُ الناس قوله ﷺ: «مكتوبٌ بين عينيْه كافر».

الخلاف في رؤيته ﷺ لربه في الدنيا

وقال: معنى ذلك ما ثبت من سمات حدثه، وشواهد عجزه، وظهور نقصه. قال: ولو كان على ظاهره وحقيقته لاستوى في إدراك ذلك المؤمن والكافر، وهذا عدولٌ وتحريف عن حقيقة الحديث من غير مُوجب لذلك، وما ذكرَه من لزوم المساواة بين المؤمن والكافر في قراءة ذلك لا يلزم لوجهين:

أحدهما: أنَّ اللَّهَ تعالى يمنعُ الكافرَ من إدراكه، لا سيما وذلك الزمان قد

[٢٨٢٦] وعن أبي سعيدٍ، وذكر بعض ما تضمنه هذا الحديث، قال فيه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما ترى؟»، قال: عرشاً على الماء. فقال ﷺ: «ترى عرش إبليس على البحر؟».

رواه مسلم (٢٩٢٥)، والترمذيُّ (٢٢٤٩).

انحرفت فيه عوائد، فليكن هذا منها. وقد نُصَّ على هذا في بعض طرقه فقال: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغير كاتب»، وقراءة غير الكاتب خارقة للعادة.

وثانيهما: أن المؤمنَ إنما يُدركه لتثبُّته، ويقظته، ولسوء ظنِّه بالدَّجَّال، وتخوُّفه من فتنته، فهو في كل حال يستعيدُ النظر في أمره، ويستزيدُ بصيرةً في كذبه، فينظر في تفاصيل أحواله، فيقرأ سطورَ كفره، وضلاله ويتبيَّن عينَ محاله. وأما الكافرُ فمصروفٌ عن ذلك كلِّه بغفلته وجهله، وكما انصرف عن إدراك نقص عوره، وشواهد عجزه، كذلك يُصرف عن فهم قراءة سطور كفره ورمزه.

الفرق بين النبي والمتنبىء

وأما الفرق بين النبيِّ والمتنبِّـىء فالمعجزة لا تظهرُ على يديْ المتنبِّـىء؛ لأنه يلزمُ منه انقلاب دليل الصدق دليل الكذب، وهو محال، وللبحث فيها مجال في علم الكلام، وأما من قال: أن ما يأتي به الدجال حيل ومخارق فهو معزول عن الحقائق؛ لأن ما أخبر به النبيُّ ﷺ من تلك الأمور حقائق لا يُحيل العقلُ شيئاً منها، فوجبَ إبقاؤها على حقائقها، وسيأتي تفصيلها. والرواية في تعلَّموا بتشديد اللام بمعنى: اعلموا وتعلَّموا.

و (قوله: «فرُفِعَت لنا غنمٌ») أي: أبصرناها على بعد، وكان الآل الذي هو السراب رفعها لهم؛ أي: أظهرَها. والعُسُّ: بضم العين: القدح الكبير.

و (قول ابن صَيَّاد لأبي سعيد: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو كافر» وأنا مسلم الخ. . .) هذا الحديث من أوله إلى آخره يدلُّ على أن هذه القصة اتفقت لأبي سعيد مع ابن صَيَّاد بعد أن كبر، وصارَ رجلاً ووُلد له، وبعد موت النبيِّ ﷺ، وأنَّ ابنَ صياد أسلم وحجَّ، وأنه حفظ الحديث عن رسول الله ﷺ، ولذلك ذكره

[٢٨٢٧] وعن ابن عمر، قال: لَقِيتُ ابن صَيَّاد مرتين، فقلت لبعضهم: هل تَحدَّثُون أنه هو؟ قال: لا والله! قال: قُلْتُ كَذَبْتَني، والله لقد أخبرني بعضكم: أنَّه لن يموتَ حتى يَكونَ أَكْثَرَكُم مالاً وولداً، فكذلك هُو زَعموا اليوم! قال: فَتَحدَّثْنا، ثم فارقْتُه. ....

ابنُ جرير وغيره في الصحابة، غير أنه قد ظهرت منه في هذا الحديث أمورٌ بعضها كفر، وذلك قوله: لو عُرِضَ عليَّ ما كرهتُ، فإن من يرضى لنفسه دعوى الإلهية، وحالة الدَّجَّال هو كافر، ولا يتصور في هذا خلاف، وبعضها يُشعر بأن الدَّجَّال، وهو قوله: والله إني لأعرفه، وأعرف مولدَه، وأين هو. زاد الترمذيُّ[1]، وأين هو الساعة من الأرض، وأعرف والده. فإن هذا يقارب النَّصَّ في أنه هو، وما لبَّسَ به من أنه مسلمٌ فسيكفر، أو هو منافق كافر في الحال، وحجُّه وغيره مُحْبَط بكفره، أو لعلَّه كان ذلك منه نفاقاً. وأما كونُه لا يُولد له، ولا يدخلُ مكَّة والمدينة، فيحتمل أن يكون ذلك منه إذا خرج على الناس، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

و (قول أبي سعيد الخدريّ له: تباً لك سائرَ اليوم)؛ أي: خساراً لك دائماً؛ لأن اليوم هنا يُراد به الزمان، وتباً: منصوب بفعل مضمر لا يُستعمل إظهاره، أي: لقيت تبّاً، أي: تباباً، أو صادفت، أو لقَّاه الله تباباً.

و (قول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: لقيت ابن صائد مرتين، فقلت لبعضهم: هل تُحدَّثون أنه هو؟) يعني: لبعض من كان معه، والذي قال: لا؛ والله هو ذلك البعض الذي خاطبَه، وله قال ابنُ عمر: كذبتني، ألا ترى أنه خاطبَه بقوله: لقد أخبرني بعضُكم، ولا يُتخيَّلُ أن الخطاب لابن صياد؛ لأنه لم يتكلم معه بهذه اللقيا، وإنما تكلَّم معه في اللُّقيَة الأخرى.

و (قوله: لقد أخبرني بعضُكم أنه لن يموتَ حتى يكونَ أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو زعموا اليوم) مثل هذا الخبر لا يُتوصَّل إليه إلا بالنقل، ولم يكن عندهم

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٤٩).

قال: فلقيتهُ لَقْيَةً أُخرى وقد نَفرتْ عَيْنُهُ. قال: فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري! قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عَصَاك هذه. قال: فَنَخَر كأشدِّ نَخير حمارٍ سَمِعْتُ. قال: فزعم بعضُ أصحابي: أنِّي ضربته بعصا كانت معي حتى تكسَّرَتْ وأمّا أَنا فوالله ما شعرت! قال: وجاء حتى دخل على أُمِّ المؤمنين فحدَّثَها، فقالت: ما تريد إليه؟ ألم تعلم أنه قد قال: «إنَّ أوّلَ ما يبعثُه على النَّاس غَضَبٌ يَغْضَبُهُ».

شيءٌ يعتمدونه إلا الخبر عن رسول الله ﷺ فهو مرفوع بالمعنى لا باللفظ، فكأنه قال: أخبرني بعضُكم عن النبيِّ ﷺ.

و (قوله: فلقيته لُقيةً أخرى، وقد نفرتْ عينه) كذا وقع لأكثرهم والصواب الفتح في اللام من لقية؛ لأنه مصدر، ولم يحكِه ثعلب إلا بالرفع، ونفرت؛ بالنون والفاء المفتوحتين: رواية جماعة الشيوخ؛ أي: ورمت، وفي أصل القاضي التميمي: نقرت وفقئت معاً، فقلت: فقئت في الموضعين، وكتب على الأول بخطه: نقرت ـ بالنون والقاف ـ. ورواه أبو عبد الله المازُريّ: نفرت بالفاء، وهي كلُّها متقاربة، وأشبهها الأولى، فإن عينه في ذلك الوقت لم تكن مفقوءة؛ إذ لو كان ذلك لكان من أعظم الأدلة على أنه الدَّجّال، ولاستدلَّ بذلك من قال: إنه هو على من خالفه في ذلك، ولم يرد ذلك، غير أنه قد حكى أبو الفرج الجوزي في أنه: وُلد وهو أعور مختون مسرور، وهذا فيه نظر؛ لأن الظاهر من هذا الحديث أشهر مما ذكر. ويحتمل أن يكون ذلك الورم مبتدأ فقءِ عينه إن كان هو الدَّجّال، والله أعلم. وكون ابن عمر لم يشعر بضربه لابن صيّاد بالعصا حتى تكسّرت، كان ذلك لشدة مَوْجِدَته عليه، وكأنه تحقَّق منه أنه الدَّجّال.

و (قوله: فنخرَ كأشدِّ نخيرِ حمارٍ سمعتُ) النخير: صوت الأنف. تقول منه: نَخَرَ يَنْخِرُ يَنْخُرُ نَخِيراً.

وفي رواية: أنَّ ابن عمر لقي ابنَ صيَّاد في بعض طرق المدينة، فقال قولاً أغضبه، فانْتَفَخَ حتى ملأ السِّكَّةَ، فدخل ابنُ عمرَ على حفصةَ وقد بلغها، فقالت له: يرحمك الله ما أردت من ابن صياد؟! أما علمت أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنما يخرج من غَضْبَةٍ يَغْضَبُها».

رواه أحمد (٦/ ٢٨٣)، ومسلم (٢٩٣٢) (٩٨ و ٩٩).

* * *

و (قوله: فقال له قولاً أغضبَه) يعني: أن ابن عمر قال لابن صيَّاد قولاً غضب ابنُ صياد لأجله، فانتفخَ حتى ملأ السِّكَّة، وهي الطريق، وتُجمع سككاً، وهذا الانتفاخ محمولٌ على حقيقته وظاهره، ويكون هذا أمراً خارقاً للعادة في حقِّ ابن صيَّاد، ويكون من علامات أنه الدَّجَّال؛ لأن هذا موافق لما قالته حفصةُ ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ: «إنما يخرجُ من غضبة يَغْضَبُها». وقد اجتمعت في أحاديث ابن عمر هذه قرائن كثيرة تفيد: أن ابن صيَّاد هو الدَّجَّال، ولذلك كان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قد اعتقد ذلك وصمَّم عليه بحيث كان يحلفُ على ذلك، وكذلك جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهم ـ.

* * *

(١٤) بـــاب
في صفة الدَّجال وما يجيء معه من الفتن

[٢٨٢٨] عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدَّجال منه! معه نهران يجريان، أحدهما: رأيَ العَيْنِ ماءٌ أبيض، والآخر: رأيَ العين نَارٌ تأجج، ....

(١٤ و ١٥) ومن بـــاب: صفة الدَّجَّال[١]

لا يعلم الدجال حقيقة ما معه

(قوله: «لأنا أعلمُ بما مع الدجال منه») هذا جواب قسم محذوف؛ أي: والله لأنا أعلمُ. أي: أنَّ الدَّجَّال لا يعلمُ حقيقة ما معه من الجنة والنار، ولا من النهرين؛ أي: أنه يظنُّهما كما يراهما غيره، فيظنُّ جنَّته جنّةً وماءَه ماءً، وحقيقة الأمر على الخلاف من ذلك، فيكونُ قد لُبِّسَ عليه فيهما، والنبيُّ ﷺ قد علمَ حقيقة كلٍّ واحد منهما، ولذلك بيَّنه، فقال: «نارُه ماء بارد». وفي اللفظ الآخر: «فجنَّته نارٌ ونارُه جنَّةٌ»، وهذا الكلام رواه مسلم عن حذيفة من قول النبيِّ ﷺ في هذه الطريق، وقد رواه من طريق أخرى موقوفاً على حذيفة من قوله، وقد رواه أبو داود من حديث رِبْعي بن خِراش قال: اجتمعَ حذيفةُ، وأبو مسعود، فقال حذيفة: لأنا أعلمُ بما مع الدجال منه[٢].

خوارق الدجال محنٌ للعباد

و (قوله: «رأيَ العين») منصوب على الظرف؛ أي: حين رأي العين، أو في رأي العين، ويصحُّ أن يُقال فيه: إنه مصدرٌ صدرُه محذوف تقديره: تراه رأيَ العين. وكلُّ ما يُظهره الله على يدي الدجال من الخوارق للعادة مِحَنٌ امتحنَ الله بها عبادَه، وابتلاء ابتلاهم به، ليتميَّزَ أهلُ التنزيه والتوحيد بما يدلُّ عليه العقل السديد

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان هذا الباب والذي يليه، وهو باب: في هَوان الدجال على الله تعالى.
(٢) رواه أبو داود (٤٣١٥).

فإمَّا أَدْرَكَنَّ أحدٌ فليأت النهر الذي يَراهُ ناراً، ولْيُغَمِّضْ، ثمّ لِيُطَأْطِىءْ رأْسَهُ فيشربَ منه، فإنَّه ماءٌ بارد. وإنَّ الدجَّال ممسوحُ العين، عليها ظَفَرةٌ غليظةٌ، مكتوبٌ بين عينيه: كافرٌ، يَقْرَؤه كُلُّ مؤمن كاتبٍ، وغيرِ كاتبٍ».

وفي روايةٍ: «الدجال أعورُ العين اليسرى،.....................

من استحالة الإلهية على ذوي الأجسام، وإن أتوا على دعواهم بامتثال تلك الطوامِّ، أو ليغترَّ أهلُ الجهل باعتقاد التجسيم، حتى يوردَهم ذلك نارَ الجحيم. وفتنةُ الدجال من نحو فتنة أهل المحشر بالصورة الهائلة التي تأتيهم فتقولُ لهم: أنا ربُّكم، فيقولُ المؤمنون: نعوذ بالله منكَ، كما تقدَّم في الإيمان. ومقتضى روايتي حذيفة: أن معه نهرين وجنَّتيْن، وأنهما مختلفتان في المعنى واللفظ لأن النهر لا يُقال عليه جنَّة، ولا الجنَّة يقال عليها نهر. هذا هو الظاهر، ويحتمل أن يُقال: إن ذَيْنِكَ النهرين في جنَّة ونار، فَحَسُنَ أن يُعبَّر بأحدهما عن الآخر.

و (قوله: «فإمَّا أَدْرَكَنَّ ذلك أحدُكم») كذا الرواية عند جميع الشيوخ، والصواب: إسقاط النون، لأنه فعل ماض، وإنما تدخل هذه النون على الفعل المستقبل كقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: ٤١]، و ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] ونحوه كثير.

صفة الدجال

و (قوله: «الدَّجَّال ممسوح العين عليها ظَفَرةٌ غليظة») هي بالظاء المعجمة والفاء، وهما مفتوحان، وهي جلدة تغشِّي العينَ، إن لم تُقطعْ غشيت العين. ومعنى ممسوح العين؛ أي: مطموس ضوؤها وإدراكها، فلا يُبصر بها شيئاً.

الدجال أعور

و (قوله: «الدَّجَّال أعورُ العين اليسرى») الأعور: هو الذي أصابه في عينه عَوَرٌ، وهو العيب الذي يُذهب إدراكَها، وهكذا صحَّ في حديث حذيفة: «اليُسرى»، وقد صحَّ من حديث ابن عمر مرفوعاً أنه أعور عينه اليمنى، كأنها عنبةٌ

جُفَالُ الشَّعْر، معه جَنَّةٌ ونارٌ، فناره جنةٌ، وجنته نارٌ».

رواه أحمد (٢/ ٣٨٣ و ٣٨٦)، ومسلم (٢٩٣٤) (١٠٤ و ١٠٥).

[٢٨٢٩] وعن النَّواس بن سمعان، قال: ذكرَ رسولُ الله ﷺ الدَّجال

طافية، ورواه الترمذي[1] أيضاً وصحَّحه، وهذا اختلاف يصعب الجمع فيه بينهما، وقد تكلَّف القاضي أبو الفضل الجمعَ بينهما، فقال: جَمْعُ الروايتين عندي صحيح، وهو أنَّ كلَّ واحدة منهما عوراء من وجه ما؛ إذ العَوَر في كلِّ شيءٍ: العيبُ، والكلمةُ العوراء: هي المعيبة. فالواحدة عوراء بالحقيقة، وهي التي وُصفت في الحديث بأنها ليست جحراء، ولا ناتئة، وممسوحة ومطموسة. وطافئة ـ على رواية الهمز ـ، والأخرى عوراء لغيبها اللازم لها لكونها جاحظة، أو كأنها كوكب، أو كأنها عِنَبة طافية ـ بغير همز ـ وكل واحدة منهما يصحُّ فيها الوصف بالعوز بحقيقة العرف والاستعمال، أو بمعنى العور الأصلي الذي هو العيب.

قلتُ: وحاصل كلامه: أنَّ كلَّ واحدة من عينيْ الدجال عوراء. إحداهما بما أصابَها حتى ذهبَ إدراكها، والثانية عوراء بأصل خِلْقتها معيبة. لكن يُبعدُ هذا التأويل: أنَّ كلَّ واحدة من عينيْه قد جاء وصفها في الروايات، بمثل ما وُصفت به الأخرى من العَور، فتأمَّلْه، فإنَّ تتبع تلك الألفاظ يطولُ.

و (قوله: «جُفالُ الشَّعْر») أي: كثيره. قال ذو الرُّمَّة يصف شعرَ امرأة:

وَأَسْوَدَ كَالأَساوِدِ مُسْبَكِرّاً[2] عَلَى المَتْنَيْنِ مُنْسَدِلاً جُفَالا

وشعرُ الدَّجَّال مع كثرته جعد قَطَط، وهو الشديد الجعودة، الذي لا يمتدُّ إلا باليد، كشعور السُّودان، وفي القطط لغتان الفتح والكسر في الطاء الأولى.

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٤١).

(٢) مُسْبَكِرّاً: منسدلاً مسترسلاً. والأساود: الحيَّات.

ذات غداةٍ، فخَفَضَ فيه ورَفَعَ، حتى ظَنَنَّاه في طائفةِ النَّخل، فلما رُحْنَا إليه عَرَفَ ذلك فينا، فقال: ما شأنُكم؟ قلنا: يا رسول الله! ذكرتَ الدَّجالَ غداةَ فخفَّضْتَ فيه ورفَّعْتَ حتى ظَنَنَّاهُ في طائفةِ النَّخل. فقال: «غيرُ الدَّجَّال أخوَفُني عليكم، إنْ يَخْرُجْ وأنا فيكم، فأنا حَجِيجُهُ دُونكُم، وإنْ يخرجْ ولَسْتُ فيكم فامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفسـه،..........................

و (قوله: «فخفضَ فيه ورفعَ») بتخفيف الفاء، أي: أكثر من الكلام فيه، فتارة يرفع صوته ليُسمعَ من بَعُدَ، وتارة يخفضُ ليستريح من تعب الإعلان، وهذه حالة المكثر من الكلام. وقيل: معناه: فحقَّره وصغَّره كما قال: «هو أهون على الله من ذلك» وتارة عظَّمه، كما قال: «ليس بين يديْ الساعة خلقٌ أكبرُ من الدَّجَّال» والأول أسبق إلى الفهم، وقد رويت ذلك اللفظ: «فخفَّض فيه ورفَّع» مُشدَّد الفاء، وهي للتضعيف والتكثير.

و (قوله: «غيرَ الدَّجَّال أخوَفني عليكم») بنون الوقاية عند الجماعة، وهو وجه الكلام، وقد روي عن أبي بحر: أخوفي ـ بغير نون ـ وهي قليلة حكاها ثابت، وقد وقع في الترمذي: «أخوف لي».

قلـتُ: وهو وجه الكلام، وفيه اختصار؛ أي: غير الدَّجَّال أخوف لي عليكم من الدجال، فحُذِفَ للعلم به.

كان ﷺ لا يعلم وقت خروج الدجال

و (قوله: «إن يخرجْ وأنا فيكم، فأنا حجيجُه دونكم، وإن يخرجْ وليست فيكـم، فامرؤٌ حجيجُ نفسه») هذا الكلام يدلُّ: على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتبين له وقتُ خروجه، غير أنه كان يتوقعُه، ويقرِّبُه، وكذلك كان يُقرِّبُ أمرَه حتى يظنُّوا أنه في النَّخْل القريب منهم. وحجيجُه: محاجُّه؛ ومخاصِمُه، وقاطِعه بالحُجَّة بإظهار كذبه وإفساد قوله.

و (قوله: «فامرؤ حجيجُ نفسه») أي: ليحتجَّ كلُّ امرىءٍ عن نفسه بما أعلمتُه

واللَّهُ خَلِيفتي على كلِّ مسلم.

إنَّه شابٌّ قَطَطٌ، عينُهُ طَافِئَةٌ كأني أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى بن قَطَنٍ، فمن

من صفته، وبما يدلُّ العقلُ عليه من كذبه في دعوى الإلهية، وهو خبرٌ بمعنى الأمر، وفيه التنبيه على النظر عند المشكلات، والتمسُّك بالأدلة الواضحات.

وجوب النظر عند المشكلات

و (قوله: «واللَّهُ خليفتي على كلِّ مسلم») هذا منه ﷺ تفويض إلى الله تعالى في كفاية كلِّ مسلمٍ من تلك الفتن العظيمة، وتوكُّلٌ عليه في ذلك، ولا شكَّ في أن من صحَّ إسلامه في ذلك الوقت، أنه يُكْفَى تلك الفتن لصدق النبيِّ ﷺ في توكُّله وصحته، لضمان الله تعالى كفاية من توكَّل عليه، بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه مشقة ما توكَّل عليه فيه، ومُوصلُه إلى ما يُصلحه منه، ومع هذا فقد أرشدَ النبيُّ ﷺ إلى ما يقرؤُه على الدَّجَّال، فيُؤمن من فتنته، وذلك عشر آيات من أول سورة الكهف، أو من آخرها، على اختلاف الرواية في ذلك. والاحتياط والحزم يقتضي: أن يقرأ عشراً من أوَّلها، وعشراً من آخرها، على أنه قد روى أبو داود من حديث النوَّاس: «فليقرأ عليه فواتحَ سورة الكهف فإنها جِوارٌ لكم من فتنته»[1].

مَن صحَّ إسلامه يأمن فتنة الدجال

ما يُقرأ على الدجال لِتؤمَن فتنته

و (قوله: «عِنَبَةٌ طافئةٌ») رويناه بالهمز، وصحَّحناه على من يُوثق بعلمه، وقد سمعناه بغير همز، وبالوجهين ذكره القاضي أبو الفضل، فقال: هو اسم فاعل من طُفِئت النَّار، تُطفأ؛ فهي طافئة، وانطفأت فهي منطفئة، وأطفأتها أنها: فهي مطفأة. فكأنَّ عينَه كانت تُنير كالسِّراج فانطفأت؛ أي: ذهب نورها، وهذا المعنى في هذه الرواية التي لم يذكر فيها عِنَبة واضح، ويبعد فيها ترك الهمز، وأما الرواية التي فيها: «كأنها عِنَبَة طافية» فالأولى ترك الهمز، فإنه شبَّهها في استدارتها وبروزها كحبَّة العِنَب، وهو اسم فاعل من طفا يطفو: إذا علا ـ غير مهموز ـ فهي طافية،

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٢١).

أدركَه منكم فليقرأْ عليه فواتحَ سُورة الكَهْفِ، إنَّه خَارجٌ حَلَّةً بَينَ الشَّامِ والعِـرَاقِ، ....

أي: قائمة جاحظة، كما جاء في بعض ألفاظ الحديث. وقد روى أبو داود من حديث عبادة بنِ الصامت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إني قد حدَّثتكم عن الدَّجَّال حتى خشيتُ ألَّا تغفلوا أن المسيحَ الدَّجَّال رجلٌ قصيرٌ أفحجُ جَعْدٌ أعورُ مطموسُ العين، ليست بناتئة، ولا جحراء»[1]. وهذا الحديث يقتضي: أن عينه ليست بالفاحشة النتوء، والجحوظ، ولا غائرة حتى كأنها في جحر؛ بل: متوسطة بحيث يصدقُ عليها: أنها قائمة وجاحظة، والله تعالى أعلم. وقد زاد عبادة في هذا الحديث من أوصافه أنه قصيرٌ أفحج، والفحج: تباعد ما بين الساقين.

و (قوله: «إنه خارجٌ حَلَّةً بين الشام والعراق») رويته وقيَّدته بفتح الحاء المهملة، وتشديد اللام، وهي رواية السِّجْزي، وقيل معنى ذلك: قبالة وسمت. وفي كتاب العين، والحَلَّة: موضع حَزْن وضمور، وسقطت هذه الكلمة من رواية العُذْرِيّ. وروي عن ابن الحذَّاء: حَلُّه بضم اللام وهاء الضمير، أي: نزوله وحلوله، وكذا في كتاب التميميّ، وهكذا ذكره الحُمَيْدِيُّ، ورواه الهَرويُّ في غريبه: خَلَّة: بالخاء المعجمة مفتوحة، وتشديد اللام، وفسَّره بأنه ما بين البلدتين، قال غيره: هو الطريق في الرمل، ويجمع: خلٌّ.

من أين يخرج الدجال؟!

قلـتُ: وقد روى الترمذي من حديث أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدَّجَّال يخرجُ من أرضٍ بالمشرق يُقال لها: خراسان يتبعُه أفواجٌ[2] كأن وجوهَهم المِجَانُّ المُطْرَقة»[3]. قال: وفي الباب عن

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٢٠).

(٢) في (ز): أقوام.

(٣) رواه الترمذي (٢٢٣٧).

فَعـاثَ يميناً وعاثَ شمالاً يا عبادَ الله ! فاثْبُتوا » . قلنـا : يـا رسولَ الله! وما لُبْثُهُ في الأرضِ ؟ قال : « أربعـونَ يوماً ، يومٌ كسَنَةٍ ، ويومٌ كشهرٍ ، ويومٌ كجُمُعَةٍ، وسائرُ أيَّامِهِ كأيَّامِكُم». قلنا: يا رسول الله! فذلكَ

أبي هريرة، وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ. وهذا حديث حسن غريب، ووجه الجمع بين هذا وبين الذي قبله: أن مبتدأ خروج الدَّجَّال من خراسان، ثم يخرجُ إلى الحجاز فيما بين العراق والشام، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «عاث يميناً وعاث شمالاً») رويناه بالعين المهملة والثاء المثلثة مفتوحة غير منوَّنة على أنه فعل ماضٍ، وبكسرها وتنوينها على أنه اسم فاعل. وهو بمعنى الفساد. يُقال: عثا في الأرض يعثو: أفسدَ، وكذلك عَثِي ـ بالكسر ـ يعثي. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

من لقي الدجال فليثبت وليصبر

و (قوله: «يا عبادَ الله اثبتوا») هذا من قول النبيِّ ﷺ يأمر من لقيَ الدَّجَّالَ أن يثبتَ ويصبرَ؛ فإن لُبْثَه في الأرض قليلٌ على ما يأتي، وأما مَن سمع به ولم يلقَه، فليُبعدْ عنه، وليَفِرَّ بنفسه، كما خرَّجه أبو داود من حديث عمران بن حُصَيْن ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سمعَ بالدَّجَّال فلينأ عنه، فوالله إنَّ الرَّجلَ ليأتيَه، وهو يحسبُ أنه مؤمنٌ فيتَّبعُه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»[1].

مدّة لبث الدجال

و (قوله: يا رسول الله! وما لُبْثُه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يومٌ كسنةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويوم كجمعةٍ، وسائرُ أيَّامه كأيَّامِكم») ظاهر هذا: أن الله تعالى يخرقُ العادةَ في تلك الأيام، فيُبطىء بالشمس عن حركتها المعتادة في أول يومٍ من تلك الأيام، حتى يكونَ أوَّلُ يوم كمقدار سنةٍ معتادة، ويُبطىء بالشمس حتى يكونَ كمقدار شهرٍ، والثالث حتى يكونَ كمقدار جمعة، وهذا ممكنٌ، لا سيما وذلك

---

(١) رواه أبو داود (٤٣١٩).

اليومُ الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صَلاةُ يومٍ؟ قال: «لا، اقْدُرُوا له قَدْرَهُ». قلنا: يا رسول الله! وما إسْرَاعُهُ في الأرضِ؟ قال: «كالغيثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ،

الزمان تنخرق فيه العوائدُ كثيراً، لا سيَّما على يدي الدَّجَّال. وقد تأوَّله أبو الحسين ابن المُنادي على ما حكاه أبو الفرج الجوزي فقال: المعنى: يهجمُ عليكم غمٌّ عظيم لشدة البلاء، وأيام البلاء طِوالٌ، ثم يتناقصُ ذلك الغمُّ في اليوم الثاني، ثم يتناقص في الثالث، ثم يُعتاد البلاء، كما يقول الرجل: اليوم عندي سنة، كما قال:

وَلَيْلُ المُحِبِّ بِلاَ آخِرِ

قال أبو الفرج: وهذا التأويل يردُّه قولهم: أتكفينا فيه صلاة يومٍ وليلةٍ؟ قال: «لا، اقدروا له قَدْرَه» والمعنى: قدِّروا الأوقات للصلاة، غير أن أبا الحسين بن المنادي قد طعن في صحة هذه اللفظات. أعني قولهم: أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قَدْرَه» فقال هذا عندنا من الدسائس التي كادنا بها ذوو الخلاف علينا قديماً، ولو كان ذلك صحيحاً لاشتهر على ألسنة الرواة، كحديث الدَّجَّال؛ فإنه قد رواه ابن عباس، وابن عمر، وجابر بن عبد الله، وحُذيفة، وعُبادة بن الصامت، وأُبيّ بن كعب، وسمرة بن جندب، وأبو هريرة، وأبو الدرداء، وأبو مسعود البدريّ، وأنس بن مالك، وعمران بن حُصَيْن، ومُعاذ بن جبل، ومُجَمِّع بن جارية ـ رضي الله عنهم ـ في آخرين، ولو كان ذلك لقوي اشتهاره، ولكان أعظمَ وأقطعَ من طلوع الشمس من مغربها.

قلــتُ: هذه الألفاظ التي أنكرها هذا الرجل صحيحةٌ في حديث النَّوَّاس خرَّجها الترمذي من حديث النوَّاس، وذكرَ الحديث بطوله نحواً ممَّا خرَّجه مسلم، وقال في الحديث: حديث حسن صحيح غريب. لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وقد خرَّجه أبو داود، وأيضاً من حديث عبد الرحمن بن يزيد المذكور، وذكرَ طرفاً من الحديث ولم يذكرْه بطوله، فصحَّ الحديث عند هؤلاء الأئمة، وانفراد الثقة بالحديث لا يخرمُ الثقة به؛ لأنه قد يسمعُ

انفراد الثقة بالحديث لا يخرم الثقة به

فيأتي على القوم، فيدعُوهم، فيُؤمنونَ به ويَستجيبونَ له. فيأمرُ السَّماءُ فتُمطرُ، والأرضَ فتُنبتُ، فتروحُ عليهم سارِحَتُهم أطولَ ما كانت ذُراً، وأسْبَغَهُ ضُروعاً، وأمدَّهُ خَوَاصِرَ، ثم يأتي القومَ فيدعوهم فيَردُّونَ عليْه قَوْلَهُ، فينصرفُ عنهم فيُصْبِحُونَ مُمحلِينَ، ليس بأيديهم شيءٌ مِنْ أمْوالهم،

ما لا تسمعُه الجماعةُ في وقت لا يحضرُ غيره، وكم يُوجد من ذلك في الأحاديث، وقد رواه قاسم بن أَصْبَغ[١] من حديث جابر بن عبد الله على ما يأتي. وتطريق إدخال المخالفين الدسائسَ على أهل العلم والتحرُّز والثقة، بعيدٌ لا يُلتفت إليه؛ لأنه يُؤدِّي إلى القدح في أخبار الآحاد، وإلى خرم الثقة بها، مع أن ما تضمَّنته هذه الألفاظ أمورٌ ممكنة الوقوع في زمان خرق العادات، كسائر ما جاء مما قد صحَّ وثبتَ من خوارق العادات التي تظهرُ على يدي الدَّجَّال. مما تضمنه هذا الحديث وغيره، فلا معنى لتخصيص هذه الألفاظ بالإنكار، والكلُّ ظنون مستندة إلى أخبار العدول، والله أعلم بحقائق الأمور.

قال القاضي في قوله: «اقدروا له» هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعَه لنا صاحبُ الشرع، ولو وُكِلْنا فيه لاجتهادنا لكانت الصلاة فيه عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام.

و (قوله: «فتغدو عليهم سارحتهم أطولَ ما كانت ذُراً، وأسبغَه ضروعاً») تغدو: تبكر. والسارحة: المواشي التي تخرجُ للسرح، وهو الرعي، كالإبل والبقر والغنم. والذرا: جمع ذُروة، وهي الأسنمة، وأسبغه: أطوله ضروعاً لكثرة اللبن. وأمدَّه خواصر: لكثرة أكلها، وخِصْب مرعاها.

و (قوله: «فيصبحون مُمْحِلينَ») وفي بعض الروايات: «آزِلينَ»، والمَحْلُ والأَزْل، والقحط، والجَدْب، كلُّها واحد، والله تعالى أعلم. ويعاسيب النحل:

---

(١) قاسم بن أصبَغ: هو مُحدِّث الأندلس، سكن قرطبة ومات فيها سنة (٣٤٠ هـ).

ويَمُرُّ بالخَرِبة، فيقولُ لها: أَخْرِجي كُنُوزَكِ فتَتْبعُهُ كُنوزُها كَيَعَاسيب النَّحْل. ثم يدعو رجلاً ممتلِئاً شباباً، فيضربُه بالسَّيْفِ فيقطعُه جَزْلَتَيْن، رَمْيَةَ الغَرضِ، ثم يَدعوهُ فيُقْبل ويَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فبينما هو كذلك إذْ بعثَ الله المسيحَ ابنَ مريمَ، فينزلُ عند المَنارةِ البيضاءِ شرقيَّ دمشقَ، بين مهرُودتَيْنِ، واضِعاً كفَّيْه على أجنحةِ مَلَكَيْن، ....

فُحولها، واحدها يعسوب، وقيل: أمراؤها، ووجه التشبيه: أن يعاسيبَ النحل يتبع كلَّ واحد منهم طائفةٌ من النحل، فتراها جماعاتٍ في تفرقة، فالكنوزُ تتبع الدَّجَّال كذلك.

و (قوله: «فيقطعه جَزْلَتَيْن رَمْيَةَ الغَرَض») هو بفتح الجيم، وحكاه ابن دُريد بكسرها.

قلــتُ: والأولى الفتح؛ لأن جَزْلتين هنا مصدر ملاقٍ في المعنى ليقطعَه، فكأنه قال: قطَعَه قطعتين، أو جزَله جَزْلتين، وجَزَلة: مصدر محدود بجزل جَزْلاً وجَزْلةً. ويجوز الكسر على أنه اسم. يعني: قسمَه قطعتين وفرقتين، رَمْيَةَ الغَرَضِ: منصوب نصب المصدر، أي: كرمية الغرض في السُّرعة والإصابة. وقيل: جُعل بين القطعتين مثل رمية الفرض، وفيه بعد، والأول أشبه.

و (قوله: «بين مَهْرُودتين») الرواية الصحيحة بالدال المهملة، والتاء باثنتين من فوقها، وبعض المحدِّثين يقولها بالذال المعجمة، وحكى ابن الأنباريّ أنها تُقال بهما، والمعروف الأوَّل. في الصحاح: هَرَدْتُ الثوب: شققته، والهِرْدى على وزن فِعلى، بكسر الهاء: نبتٌ يُصبَغ به، وثوبٌ مهرودٌ، أي: صُبغ أصفر.

ولما كان هذا هو المعروف في اللغة، اختلفَ الشارحون لهذا اللفظ في هذا الحديث فقيل: إن عيسى ـ عليه السلام ـ ينزلُ في شقتي ثوب، والشقة نصف الملاءة، أو في حلتين، مأخوذ من الهَرْد، وهو القطع والشق. وقال أكثرُهم في

إذا طأطأَ رأْسَهُ قَطَرَ، ....

ثوبين مصبوغين بالصُّفرة، وكأنه الذي صُبغ بالهردى. وقد اجترأ القتبيُّ، وخطَّأ النَّقَلة في هذا اللفظ، وقال: هو عندي خطأ من النَّقَلة، وأراه قهروَّتَين، يقال: هريتُ العِمامة؛ إذا لبستها صفراء، وكأن فعلت منه: هروت، وأنشدوا عليه:

رأَيْتُكَ هَرَّيْتَ العِمَامَةَ بَعْدَما أَراكَ زَماناً حاسِراً لَمْ تُعْصَبِ

قال: إنما أرادَ أنَّك لبستَ العمامة صفراء كما يلبسُها السَّادة، وكان السَّيدُ يعتمُّ بعمامة صفراء، ولا يكون ذلك لغيره.

قلتُ: لقد صدق من قال في ابن قتيبة: هجومٌ ولَّاجٌ على ما لا يُحسن. وقد خطَّأ ابنَ قتيبة فيما خطىء فيه الثقاتُ وأهلُ التقييد والتثبُّت والعلم من وجهين:

أحدُهما: حكمُه بالخطأ وجرأته[1] به على الأئمة الحفَّاظ الثقات العلماء، فكان حقُّه أن يتوقَّف؛ إذ لم يجد محملاً لتلك اللفظة على النحو المرويّ.

وثانيهما: إن ما استدلَّ به لا حجَّة فيه، لوجهين قد أشار إليهما أبو بكر فيما حكاه الإمام أبو عبد الله عنه. فقال: ما قاله خطأ؛ لأنَّ العربَ لا تقول: هروت الثوبَ، لكن هريت، ولا يُقال أيضاً هريت إلا في العِمامة خاصَّةً، فليس له أن يقيس على العمامة؛ لأنَّ اللغةَ روايةٌ.

قلتُ: والأصحُّ: قول الأكثر، ويشهد له ما قد وقع في بعض الروايات بدل «مهرودتين»: «ممصَّرَتين» والمُمصَّرة من الثياب هي المصبوغة بالصفرة ـ والله تعالى أعلم ـ.

و (قوله: «إذا طأطأ رأسَه قطرَ») أي: إذا خفض رأسَه سال منه ما يعني به العرق. وهذا نحو مما قال في الحديث الذي تقدَّم: «يقطرُ رأسُه ماءً، كأنَّما خرجَ من ديماس»[2] يعني: الحمَّام.

(١) في (م ٤): وجزمه.
(٢) رواه مسلم (١٦٨).

وإذا رَفَعَهُ تحدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كاللؤلؤِ، فلا يَحِلُّ لكَافرٍ يَجِدُ ريحَ نَفَسِه إلا ماتَ، ونَفَسُه ينْتَهي حيثُ ينتهي طَرْفُهُ، فيطلبُه حتى يُدركَه ببابِ لُدٍّ، فيَقْتُلُه، ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ قد عَصَمَهُمْ الله مِنْهُ، فيمسحُ عن وجوهِهم، ويُحَدِّثُهم بِدَرَجاتِهم في الجنَّة. فبينما هو كذلك إذْ أوحى الله إلى عيسى:

و (قوله: «إذا رفعه تحدَّر منه جُمانٌ كاللؤلؤ») الجمان: ما استدار من اللؤلؤ والدُّر، ويُستعار لكل ما استدار من الحليِّ، قاله أبو الفرج الجوزي. شبَّه قطرات العرق بمستدير الجوهر، وهو تشبيه واقع.

و (قوله: «فلا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نَفَسِهِ إلا ماتَ») الرواية لا يَحِلُّ بكسر الحاء، معناه: يحقُّ ويجبُ، وهو من نحو قوله تعالى: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أي: واجب ذلك ولازم، وقيل معناه: لا يُمكن، وفي بعض الروايات عن ابن الحذَّاء: فلا يحلُّ لكافر يجدُ نَفَس ريحه، ووجهُه بيِّن، وأما من رواه يَحُلُّ ـ بضم الحاء ـ فليس بشيءٍ، إلا أن يكون بعده: بكافر، بالباء، فيكون له وجه.

و (قوله: «ونَفَسُه ينتهي، حيث ينتهي طَرْفُه») نَفَسُه ـ بفتح الفاء ـ، وطرْفه ـ بسكون الراء ـ: وهو عينه، ويعني بذلك أنَّ اللَّهَ تعالى قوَّى نَفَسَ عيسى ـ عليه السلام ـ حتى يصلَ إلى المحل الذي يصلُ إليه إدراكُ بصره، فمعناه: أن الكفَّار لا يقربونه، وإنما يهلكون عند رؤيته، ووصول نَفَسِه إليهم، تأييدٌ من الله له وعصمة، وإظهار كرامة ونعمة.

الكفار لا يقربون عيسى عليه السلام

و (قوله: «فيمسحُ عن وجوههم») يعني التي بالنون، لا التي باللام؛ أي: يُزيل عن وجوههم بمسحه ما أصابَها من غبار سفر الغزو، ووعثائه، مبالغةً في إكرامهم، وفي اللُّطف بهم، والتحفي بهم. وقيل: معناه يكشف ما نزل بهم من الخوف، والمشقَّاتِ، والأَوْلى: الحقيقة، وهذا توسُّع.

إنِّي قد أَخْرَجْتُ عِبَاداً لي لا يَدَانِ لأحَدٍ بِقِتَالهم، فحَرِّزْ عِبَادِي إلى الطُّورِ. ويبعثُ الله يأجوجَ ومأجوجَ ـ وهم مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون ـ فيمُرُّ أوائلُهُمْ على بُحَيرةِ طَبَرِيَّةَ، فيشربونَ ما فيها، ويمرُّ آخِرهُمْ، فيقولون: لقد كان بهذه، مرةً مَاءٌ ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه حتى يكونَ رأسُ الثَّوْرِ لأحدِهم خيراً مِن مئةِ دينارٍ لأَحَدِكُم اليومَ. فيرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه، فيُرسلُ الله عليهم النَّغَفَ في رِقَابِهم، فيُصبحونَ فَرْسَى، كموتِ نَفْسٍ واحدةٍ. ثم يَهْبِطُ

و (قوله: «إني قد أخرجتُ عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم») أي: لا قدرة لأحد على قتال يأجوجَ ومأجوجَ. يُقال: لا يد لفلان بهذا الأمر؛ أي: لا قوة.

و (قوله: «فحرِّز عبادي إلى الطور») هذه الرواية الصحيحة بالزاي: أي ارتحل بهم إلى جبل يُحرزون فيه أنفسَهم، والطور: الجبل بالسريانية. ويحتمل أن يكون ذلك هو طور سَيْناء، وقد رواه بعضُهم: حوِّز بالواو، ولم تقع لنا هذه الرواية، ومعناها واضح، وهو بمعنى الأولى.

و (قوله: «ويبعث الله يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كل حَدَبٍ ينسلون») قد تقدَّم القول في يأجوج ومأجوج في أول كتاب الفتن. والحَدَب: النَّشَزُ من الأرض، وهي الآكام والكَدَاء. وينسلون: من النَّسَلان، وهي مقاربة الخطو مع الإسراع، كمشي الذئب إذا بادرَ، قاله القتبي. وقال الزجَّاج: ينسلون: يُسرعون. والنَّغَفُ ـ جمع نَغَفَة ـ، وهو بفتح النون والغين المعجمة، وهي دود يكون في أنوف الإبل والغنم، وهي وإن كانت محتقرة، فإتلافها شديد، ويقال للرجل الحقير: ما أنت إلا نَغَفَة.

و (قوله: «فيصبحون فَرْسَى») أي هلكى قتلى؛ من فرس الذئبُ الشاة إذا قتلها. والفريسة منه. والزَّهَم ـ بفتح الهاء ـ: النتن والرائحة الكريهة. وأصله: ما يعلقُ باليد من ريح اللحم. والبُخت: إبل غلاظ الأعناق، عِظامُ الأسنام.

نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فَلَا يجدون في الأرضِ موْضِعَ شِبْرٍ إلا ملأَهُ زَهَمُهُم وَنَتَنُهُم، فيرغبُ عيسى وأصحابُه إلى الله، فيُرسلُ الله طيراً كأَعْنَاقِ البُخْتِ، فتحملُهم، فتَطْرَحُهُمْ حيث شاءَ الله، ثم يُرسلُ الله مطـراً لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغْسِلُ الأرض حتَّى يتركَها كالزَّلَفَة، ثم يُقالُ

و (قوله: «لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَر، ولا وَبَرٍ») أي: لا يستر من ذلك المطر لكثرته بيت مبنيٌّ بالطِّين، ولا بيتُ شعر ولا وبر.

و (قوله: «حتى يتركَها كالزَّلَفة») الرواية بفتح الزاي واللام، وقيَّدته بالفاء والقاف معاً، وكذلك روي عن الأسديّ، وزاد فتح اللام وسكونها، فبالقاف: هي الأرض الملسـاء التـي لا شـيءَ فيهـا، ومنـه قـولـه: ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ [الكهف: ٤٠] وبالفاء: هي المَصْنَعة الممتلئة، والجمع زُلَف، ومنه قول الراجز:

مِن بعد ما كانتْ مِلاءً كالزُّلَفْ

وهي المصانع، والمعروف فيها فتح اللام. غير أن أبا زيد الأنصاري قال: يُقال للمِرآة: زَلَفَةٌ وزَلَقَةٌ بالقاف: الجماعة. والقحف: أعلى الجمجمة، وهي المحتوية على الدِّماغ. هذا أصلُه، واستعارة هنا للرُّمَّانة للشبه الذي بينهما. واللَّقْحَة ـ بفتح اللام ـ: التي تُحتلب من النوق. هذا أصلُها، وقد قيلت هنا على التي تُحتلب من البقر والغنم. والفئام: الجماعة من الناس، وهو بكسر الفاء. والفخذ: دون القبيلة، وفوق البطن. قال الزبير بن بكَّار: العربُ على ست طبقات: شَعْبٌ، وقبيلةٌ، وعَمارةٌ، وبَطْن، وفخذ، وفصيلة، وما بينهما من الآباء، فإنها يعرفها أهلُها، وسُمِّيت بالشعوب؛ لأن القبائل تتشعَّبت منها وسُمِّيت القبائل بذلك؛ لأن العمائر تقابلت عليها، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطون تجمع الأفخاذ. قال ابن فارس: لا يُقال في فَخْذ النسب إلا بسكون الخاء، بخلاف الجارحة، تلك يقال بكسر الخاء وسكونها، ويكسر الفاء أيضاً. وجبل الخَمَر، بفتح الميم، وهو جبلُ بيت المقدس. والخَمَر:

للأرضِ أنبتي ثَمَرتَكِ، ورُدِّي بركَتَكِ، فيومئذٍ تأكلُ العِصابةُ مِن الرُّمَّانَةِ ويَسْتَظِلُّون بِقِحْفِها، ويُبارِكُ في الرِّسْلِ، حتى أنَّ اللِّقْحَةَ من الإبلِ لَتكفي الفِئامَ من النَّاس، واللِّقْحَةَ مِن البقرِ لَتكْفِي القبيلةَ من النَّاس، واللِّقْحَةَ من الغَنَم لتكفي الفَخِذَ مِن النَّاسِ. فبينما هم كذلكَ إذ بعثَ الله ريحاً طيِّبَةً فتأخذُهم تحتَ آبَاطِهم فتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مؤمنٍ وكُلِّ مُسلمٍ، ويبقى شِرارُ النَّاسِ يَتَهارَجُونَ فيها تَهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ».

زاد في أخرى بعد قوله: «مَرَّةً ماءٌ»: «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جَبَلِ الخَمَر ـ وهو جبلُ بيتِ المَقْدِس ـ فيقولون: لقد قَتَلْنا مَنْ في الأرضِ، هَلُمّ فلنقتلْ مَنْ في السَّماءِ، فيرمُون بنُشَّابِهم إلى السَّماء، فيردُّ الله عليهم نُشَّابَهم مخضوبةً دماً».

رواه مسلم (٢٩٣٧) الفتن (١١٠ و١١١)، وأبو داود (٤٣٢١ و٤٣٢٢)، والترمذي (٢٢٤١)، وابن ماجه (٤٠٧٥).

[٢٨٣٠] وعن أبي سعيد الخدري، قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجَّال، فكان فيما حدَّثنا قال: «يأتي ـ وهو مُحرَّمٌ عليه أن يدخل نقابَ المدينة ـ فينتهي إلى بعض السِّباخِ التي تلي المدينةَ، فيخرجُ

الشجر الملتف، وأنقاب المدينة: طُرُقها وفِجاجُها. وفي كتاب العين: النُّقْبُ والنَّقْبُ: الطريق في رأس الجبل، والنَّقْب في الحائط وغيره: ثقب يخلص به إلى ما وراءه».

تحريم دخول المدينة ومكة على الدجال

و (قوله: «يأتي الدَّجَّال وهو مُحرَّمٌ عليه أن يدخل المدينة ومكَّة») أي: هو ممنوع من دخول المدينة ومكة بالملائكة التي تحرسها على ما يأتي في حديث أنس المذكور بعد هذا.

إليه يومئذٍ رجلٌ هو خيرُ النَّاس ـ أو من خَيْرِ النَّاس ـ فيقول له: أشهدُ أنَّك الدَّجَّالُ الذي حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حديثَه، فيقول الدَّجَّال: أرأيتُم إنْ قتلتُ هذا ثمَّ أَحْيَيْتُه، أتشكُّونَ في الأمر؟ فيقولون: لا. قال: فيقتلُه ثم يُحييه، فيقولُ حين يُحييه: والله ما كنتُ فِيكَ قَطُّ أشدَّ بصيرةً مِنِّي الآنَ. قال فيُريدُ الدَّجَّال أن يقتلَه فلا يُسَلَّطُ عليه».

و (قول الدَّجَّال: أرأيتم إن قتلتُ ثم أَحْيَيْتُه أتشكُّونَ في الأمر») أي: في دعواه الإلهيّة والربوبية، كما روى قاسم بن أصبَغ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يخرجُ الدَّجَّال في خَفْقَةٍ من الدِّين وإدبارٍ من العلم أربعون ليلةً يسيحُها في الأرض، يوم منها كالسنة، واليومُ منها كالشهر، واليوم منها كالجمعة، ثم سائر أيّامه كأيَّامكم هذه، وله حمارٌ يركبُه، عرض ما بينَ أذنيْه أربعون ذراعاً، فيقولُ للناس أنا ربُّكم، وهو أعورُ، وإن ربّكم ليس بأعور، ومكتوبٌ بين عينيْه كافر، يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغير كاتبٍ، يردُ كلَّ ماءٍ ومَنْهل إلا مكة والمدينة، وقامت الملائكةُ بأبوابها»[1]. فهذا نصٌّ في أنَّ الدَّجَّال إنما يَدَّعي الربوبيّة لا النبوة، ولو ادَّعاها لما صدَّقه الله بإبداء خارق للعادة على يديْه، لاستحالةِ تصديق الكاذب على اللّهِ؛ لأنه يلزم منه تكذيب الباري تعالى، والكذبُ محال على الله تعالى قطعاً، عقلاً ونقلاً، فإن قيل: فيلزم مثل هذا في دعوى الربوبيّة، ووقوع الخارق مقروناً بدعوى المُدَّعي للإلهيّة، فيكون قد صدَّقه بذلك كما صدّق النبيَّ إذا جاءَ بمثل ذلك. فالجواب: أن اقترانَ الخارق بدعوة الرُّبُوبيّة مُحال أن يشهدَ بتصديقه في دعوى الإلهية لقيام الأدلة العقلية القطعيّة على استحالة الإلهيّة عليه، التي هي: حدثه، وافتقاره، ونقصه، فهذه الأدلة العقلية دلّت على كذبه في دعوى الإلهية، فلم يبقَ معها دلالة للأدلة الاقترانية؛ لأن اقترانَ المعجزة بالتحدِّي في حق النبيِّ إنما دلَّ على صدقه من حيث تنزلت منزلة التصديق بالقول،

ادّعاء الدجال الربوبية

الأدلة العقلية تكذِّب ادعاء الدجال الربوبية

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٦٧)، والحاكم (٤/ ٥٣٠).

وفي رواية، قال: «فيأمرُ به الدَّجَّال فيُشَبَّحُ، فيقولُ: خُذوه وشُجُّوه، فيُوسعُ ظَهْرُه وبطنُه ضرباً. قال: فيقولُ: أما تُؤمنُ بي؟ قال: فيقول: أنتَ المسيحُ الكذَّابُ. قال: فيُؤمرُ به، فيؤشر بالمِئْشَارِ مِن مَفْرِقِهِ حتى يُفرَّقَ بين

أو منزلة قرائن الأحوال على اختلاف العلماء في ذلك. وذلك لا يحصلُ إلا إذا سلمت عما يشهد بنقيضها، ولم يسلمْ في حقِّ الدَّجَّال إذ المكذب لدعواه ملازم له عقلاً، فلا دلالة لذلك الاقتران على صدقه؛ إذ لا يمكنُ مع وجود ما يدلُّ على كذبه قطعاً أن نقول: إن تلك الخوارق التي ظهرت على يديه تنزَّلت منزلة قولِ الله له: صدقتَ، كما أمكنَ ذلك في حقِّ النبيِّ الذي يسلم عمَّا يُكذِّبه، وحاصلُ هذا البحث: أن ما يدلُّ بذاته لا يُعارضه ما يدلُّ بغير عينه. ولتفصيل هذا علم الكلام. وبما ذكرناه يُعلم قطعاً: أن إظهارَ هذه الخوارق على يدي الدَّجَّال لم يُقصد بها تصديقه، وإنما قُصد بها أمر آخر، وهذا ما أخبرنا به الصَّادق ﷺ أنها فتن ومحن امتحنَ الله بها عباده ليُمَحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحقَ الكافرين. وذلك على ما سبقَ به علمُه ونفذَ به حكمه، لا يُسأل عما يفعل.

و (قوله: «فيأمرُ به الدَّجَّالُ فيُشَبَّحُ») أي: يُمدُّ، ومنه قولهم: الحِرْبَاء تَشَبَّحُ على الأعواد أي: تمتد. ومشهور الرواية هكذا، وقد روى السمرقنديُّ، وابن ماهان: فشجُّوه في رأسه بشِجاج، وليس هذا بشيءٍ؛ لأنه قد جاء بعدَه ما يُبعده، ويُبيِّن أن المرادَ خلافُ ذلك.

و (قوله: «فيُؤمر به فيُوسَعُ ظهرُه وبطنُه ضرباً») أي: يَعمّم جميعه حتى لا يُتركَ منه موضعٌ إلا يُضربُه، وهو مأخوذ من السَّعة والاتساع.

و (قوله: «فيؤمر به فيُؤْشَرُ بالمِئْشَار») والرواية يؤشر بالياء، والمئشار بالهمز، وهو الصحيح المعروف، ويُقال بالنون فيهما، وهذا يدلُّ على: أن هذا الرجل المُكذِّب للدَّجَّال نشرَه الدَّجَّالُ بالمنشار، وقد تقدَّم في حديث النوّاس: أنه قطعه بالسَّيف جَزْلتين كرمية الغَرَض، فيحتمل أن يكونَ كلُّ واحدٍ منهما غير

رِجْلَيْهِ. قال: ثم يمشي الدَّجَّالُ بينَ القِطْعَتَيْنِ، ثم يقول له: قمْ فيَستوي قائماً. قال: ثم يقولُ له: أتؤمنُ بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيكَ إلا بصيرةً. قال: ثم يقول: يا أيُّها النَّاسُ إنه لا يَفْعَلُ بعدي بأحدٍ مِن النَّاس. قال: فيأخذُه الدَّجَّال ليذبَحه، فيُجْعَلَ ما بينَ رَقَبَتِهِ إلى تَرْقُوتِهِ نُحاساً، فلا يستطيعُ إليه سَبِيلاً. قال: فيأخذُ بيديْهِ ورجليْهِ فيَقْذِفُ به، فيَحْسِبُ النَّاسُ أنَّما قذفه إلى النَّار، وإنَّما أُلقيَ في الجنَّة». فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظمُ النَّاسِ شهادةً عندَ ربِّ العالمين».

قال أبو إسحاق: إنَّ هذا الرجلَ هو الخَضِرُ.

رواه أحمد (٣/ ٣٦)، والبخاريُّ (١٨٨٢ و ٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨) (١١٢ و ١١٣).

[٢٨٣١] وعن أبي قتادة، قال: كُنَّا نَمُرُّ على هشامِ بنِ عامرٍ، نأتي عمرانَ بنَ حصينٍ، فقال ذات يوم: إنَّكم لتجاوزوني إلى رجالٍ ما كانوا بأحضَر لرسولِ الله ﷺ منِّي، ولا أعلمَ بحديثه منِّي، سمعت رسول الله ﷺ

الآخر، ويحتمل أن يكونَ جمعهما عليه، والأول أمكن وأظهر. والتَّرْقُوة: بفتح التاء وضم القاف وتخفيف الواو: هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، وتجمع تراقي. ويقذفه: يرميه. ووقع في الأم: المسالح؛ وهم القوم الحاملون للسِّلاح، المستعدُّون للقتال، سُمُّوا بذلك لحملهم إيَّاها، قال القاضي: في آخر هذا الحديث من رواية السَّمرقنديّ، قال أبو إسحاق ـ يعني ابن سفيان ـ: يقال: إن هذا الرجل هو الخَضِرُ ـ عليه السلام ـ، وكذلك قال معمر في جامعه بإثر هذا الحديث.

قلتُ: وقد تقدَّم القول في الخَضِر، وفي الخلاف في طول حياته في كتاب الأنبياء.

يقول: «ما بين خلقِ آدمَ إلى قيام السَّاعةِ خَلْقٌ أكبرُ من الدَّجَّال».

وفي روايةٍ: «أَمْرٌ» بدل «خلق».

رواه مسلم (٢٩٤٦) (١٢٦).

* * *

و (قوله: «ما بين خلق آدمَ إلى قيام الساعة خَلْقٌ أكبرُ مِن الدَّجَّال») ظاهر هذا كبر الخِلْقَة والجسم، وقد تقدَّم أنَّه يركبُ حماراً عَرْضُ ما بينَ أذنيْه أربعونَ ذراعاً، وهذا يقتضي: أن يكون هذا الحمار أكبرَ حمار في الدنيا، فراكبُه ينبغي أن يكونَ أكبَرَ إنسان في الدنيا، وكذا قال تميمٌ ـ رضي الله عنه ـ في خبر الجسَّاسة: فإذا أعظمُ إنسان رأيناه، وسيأتي، غير أنه قد تقدَّم من حديث أبي داود في وصف الدجال: «أنه قصيـر أفحج»[1] وإنما يكونُ قصيراً بالنسبة إلى نوع الإنسان، فمقتضى ذلك: أن يكون فيهم من هو أطولُ منه، ولهذا قيل: إن وصفه بالأكبرية إنما يعني بذلك عِظَمَ فتنته، وكِبَرَ محنته؛ إذ ليس بين يدي السَّاعة أعظم ولا أكبر منها، ويحتمل أن يُريد به: أنه ينتفخ أحياناً حتى يكونَ في عين الناظر إليه أكبر من كلِّ نوع الإنسان، كما تقدَّم في شأن ابن صيَّاد أنه انتفخَ عن غضبه حتى ملأ الطريق، والله أعلم بحقيقة ذلك.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٢٠).

(١٥) بـــاب:

في هوان الدَّجال على الله تعالى

وأنَّه لا يدخل مكة والمدينة ومن يتبعه من اليهود

وقد تقدم من حديث المغيرة، قوله ﷺ: «هو أهون على الله من ذلك».

انظر صحيح مسلم (٢٩٣٩) (١١٤ و ١١٥).

و (قوله: «إنهم يقولون إن معه الطعام والأنهار، هو أهون على الله من ذلك») أي: الدَّجَّال على الله أهون أنْ يجعلَ ما يخلقه على بدنه من الخوارق مُضِلاً للمؤمنين ومُشكِّكاً لهم، بل: ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وليرتابَ الذين في قلوبهم مرض والكافرون، كما قال له الذي قتلَه ثم أحياه، ما كنتُ فيك قطُّ أشدَّ بصيرةً مني الآن، وقد تضمَّنت تلك الأحاديث المتقدِّمة أن عيسى ـ عليه السلام ـ ينزلُ ويقتلُ الدَّجَّالُ، وهو مذهب أهل السنة، والذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، والأحاديث الكثيرةُ الصحيحة المنتشرة. وليس في العقل ما يُحيل ذلك ولا يردُّه فيجب الإيمان به والتصديق بكل ذلك، ولا يُبالى بمن خالف في ذلك من المبتدعة، ولا حجَّةَ لهم في اعتمادهم في نفي ذلك على التمسُّك بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وبما وردَ في السُّنة من أنه: لا نبيَّ بعدَه، ولا رسولَ، ولا بإجماع المسلمين على ذلك، ولا على أنَّ شرعنا لا يُنسخ. وهذا ثابت إلى يوم القيامة؛ لأنا نقولُ بموجب ذلك كلِّه؛ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ إنما ينزلُ لقتل الدَّجَّال، ولإحياء شريعة محمد ﷺ وليعمل بأحكامها، وليُقيم العدلَ على مقتضاها، وليقهرَ الكفَّارَ، وليُظهرَ للنصارى ضلالتهم، ويتبرَّأ من إفكهم، فيقتلَ الخنزيرَ، ويكسرَ الصَّليبَ، ويضع الجزيةَ، ويأتمَّ بإمام هذه الأمَّة، كما تقدم في كتاب الإيمان.

نـزول عيسى وقَتْله الدجال

[٢٨٣٢] عن أنسِ بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلدٍ إلا سَيَطَؤهُ الدَّجال. إلا مكة والمدينة، وليس نقبٌ من أنقابها إلا عليه الملائكة صافِّين تَحْرُسُها، فينزل بالسَّبْخَة، فترجُفُ المدينة ثلاث رَجَفاتٍ يخرج إليه منها كل كافرٍ ومنافق».

وفي أخرى: «فيأتي سَبْخَةَ الجَرْفِ فيضربُ رِواقَهُ»، وقال: «فيخرج إليه كلُّ منافقٍ ومنافقة».

رواه أحمد (٣/ ١٩١)، والبخاريُّ (١٨٨١)، ومسلم (٢٩٤٣) (١٢٣).

[٢٨٣٣] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «يَتْبَعُ الدَّجالَ من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة».

رواه البخاريُّ (٣٤٥٠)، ومسلم (٢٩٤٤) (١٢٤)، وأبو داود (٤٣١٥).

والحاصل: أنه لم يأتِ برسالة مستأنفة، ولا شريعة مبتدأة، وإنما يأتي عاضِداً لهذه الشريعة، ومُلتزماً أحكامَها، غيرَ مُغيِّر لشيءٍ منها، والمنفيُّ بالأدلة السابقة: إنما هو رسولٌ يزعمُ أنه قد جاء بشرع مبتدأ، أو برسالة مستأنفة، فمن ادَّعى ذلك كان كاذباً، كافراً قطعاً.

نزول عيسى لإحياء شريعة الإسلام والعمل بأحكامها

و (قوله: «يتبعُ الدَّجَّالَ من يهود أصبهانَ سبعون ألفاً عليهم الطَّيالِسَة») هي جمع طَيْلَسان بفتح اللام، ولا تكسره العربُ في المشهور، وحكاه البكريُّ بكسر اللام، وهو الكساء. وهو أعجميٌّ مُعرَّب، والهاء في جمعه للعجمة. ويدلُّ هذا على أنَّ اليهودَ أكثرُ أتباعَ الدَّجَّال، ومن يعتقد التجسيم. والرواية المشهورة سبعون ألفاً. وعند ابن ماهان: تسعون ألفاً.

اليهود أكثر أتباع الدجال

[٢٨٣٤] وعن أمِّ شَرِيْكٍ، أنَّها سمعتْ النَّبيَّ ﷺ يقول: «لَيَفِرَّنَّ الناسُ من الدَّجال في الجبال». قالت أمُّ شَرِيْكٍ: يا رسول الله! فأين العرب يومئذٍ؟ قال: «هم قليل».

رواه أحمد (٦/ ٤٦٢)، ومسلم (٢٩٤٥).

* * *

(١٦) بـــاب

حديث الجساسة وما فيه من ذكر الدجال

[٢٨٣٥] عن فاطمةَ بنتِ قيسٍ ـ وكانت من المهاجرات الأول ـ أنَّها قالت: نكحتُ ابنَ المغيرةِ، وهو من خيار شباب قريش يومئذٍ، فأصيب في

---

(١٦) ومن بـــاب: حديـــث الجسَّاســـة

حديث فاطمة هذا في هذه الرواية مخالف للمشهور من حديثها في مواضع، فمنها: قولها فنكحتُ ابنَ المغيرة، فأُصيب في أوّل الجهاد مع رسول الله ﷺ فلما تأيَّمت خطَبني عبدُ الرحمن بن عوف. وظاهرُه أنها تأيَّمت عنه بقتله في الجهاد، وهو خلاف ما تقدَّم في كتاب الطلاق أنها بانت منه بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها، وكذلك قالت في الرواية الأخرى المذكورة في هذا الباب. قالت: طلَّقني بعلي ثلاثاً، فأذنَ لي النبيُّ ﷺ أن أعتدَّ في أهلي، وهذا هو المشهور عند العلماء على ما قاله القاضي أبو الوليد الكِنانيّ وغيره، وقد رامَ القاضي أبو الفضل تأويلَ هذا، فقال: لعلَّ قولَها: أُصيب في أول الجهاد مع النبيِّ ﷺ إنما أرادت به عدَّ فضائله وذكرَ مناقبه كما ابتدأت بالثناء عليه، وهو قولُها: من خير شباب قريش. قال: وإذا كانَ هذا لم يكن فيه معارضة.

أوَّل الجهاد مع رسول الله ﷺ فلما تأيَّمتُ خطبني عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ في

ومنها: أنَّ ظاهرَ قولها: أنه قُتل مع رسول الله ﷺ في الجهاد في أوَّله. وقد اختلف في وقت وفاته، فقيل: مع عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ باليمن إثرَ طلاقها، ذكـرَ ذلك أبو عمر بن عبد البرّ. وقيل: بل عاش إلى أيّام عمرَ، وذكرت له معه قصة في شأن خالد بن الوليد، ذكر ذلك البخاري في التاريخ، وقد تقدَّم قولُ القاضي أبي الفضل، ولعلَّ قولَها: أُصيب مع رسول الله ﷺ بغير القتال، إمَّا بجرح، أو بشيءٍ آخر، والله تعالى أعلم.

ومنها: أنها قالت: فلما كلَّمني رسولُ الله ﷺ قلت: أمري بيدك، فأنكحْني من شئتَ، فقال: «انتقلي إلى أُمِّ شريك» فظاهرُ هذا أنَّه أمرَها بالانتقال إلى أُمِّ شريك، ثم إلى ابن أُمِّ مكتوم، إنما كان بعد انقضاء عدتها، وبعد أن خُطبت، وفوَّضت أمرَها للنبيِّ ﷺ وليس الأمرُ كذلك، وإنما كان ذلك في حال عِدَّتها لمَّا خافت عورة منزلها، على المشهور، أو لأنها كانـت تؤذي أحماءَها، على ما قاله سعيد بن المسيب كما تقدَّم.

ومنها: أنها نسبت أُمَّ شريك إلى الأنصار، وليس بصحيح، وإنما هي قرشية من بني عامر بن لؤيّ، واسمها غُزَيّة، كذا وجدته مقيّداً في أصل يُعتمد عليه، وكُنيت بابنها شَريك، وقيل اسمها: غُزَيْلة، حكى هذا كلَّه أبو عمر.

ومنها: قوله: «ولكنْ انتقلي إلى ابن عمِّك عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم وهو رجل من فهرٍ، فهر قريش، وهو من البطن الذي هي منه». قال القاضي أبو الفضل: والمعروف خلافُ هذا، وليس بابن عمِّها، بل: هي من مُحارب بن فهر، وهو من بني عامر بن لؤيّ، وليسا من بطن واحد، واختلف في اسم ابن أُمِّ مكتوم، والصحيح: عبدُ الله.

و (قولها: فلما تأيَّمتُ خطبني عبدُ الرحمن بن عوف في نفر) أي: فلما انقضت عِدَّتُها، وحلَّت للأزواج، وقد تقدَّم أنَّ الأيِّم: هي التي لا زوجَ لها.

نفرٍ من أصحاب محمدٍ ﷺ، وخطبني رسولُ الله ﷺ على مولاهُ أسامةَ بن زيدٍ، وكنت قد حُدِّثْتُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّني فليحبَّ أسامة»، فلما كلَّمني رسولُ الله ﷺ قلت: أمري بيدكَ فأنكحني من شئت! فقال: «انتقلي إلى أمِّ شَرِيكٍ». ـ وأمُّ شريكٍ امرأة غنيةٌ من الأنصار، عظيمةُ النَّفقة في سبيل الله، ينزل عليها الضيفان ـ فقلت: سأفعل. فقال: «لا تفعلي! إنَّ أُمَّ شَرِيكٍ امرأةٌ كثيرة الضيفان، فإنِّي أكره أن يَسْقُطَ عَنْكِ خِمَارُكِ أو ينكشف الثوبُ عن ساقَيْكِ، فيرى القومُ منكِ ما تكرهين! ولكن انتقلي إلى ابن عمِّك عبدِ الله بن عمرو ابن أمِّ مكتوم». ـ وهو رجل من بني فهْرٍ، فهْرِ قريشٍ، وهو من البطن الذي هي منه ـ فانتقلتُ إليه، فلمَّا انقضت عِدَّتي سمعتُ نداء المنادي ـ منادي رسول الله ﷺ ـ ينادي: الصلاةَ جامعةً، فخرجْتُ إلى المسجد، فصلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ، فكنتُ في صف النِّساءِ التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاتَه جلس على المنبر وهو يضحكُ، فقال: «ليلزمْ كلُّ إنسانٍ مُصَلَّاهُ». ثم قال: «أتدرون لم جمعتكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «إنِّي والله ما جمعتكم لرغبةٍ، ولا لرهبةٍ، ولكنْ جمعتكم؛ لأن تميماً الداريَّ كان رجلاً نصرانيّاً، فجاء فبايع، وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنتُ أحدِّثُكم عن مسيح الدَّجَّال؛ حدَّثني: أنَّه ركب في سفينةٍ بحريةٍ، مع ثلاثين رجلاً من لخمٍ

صحة الوكالة في النكاح

و (قوله: أمري بيدِكَ فَأَنْكِحني مَنْ شئت) دليل على صحة الوكالة في النكاح.

و (قوله: «إنِّي أكرهُ أن يسقطَ عنك خِمَارُك، أو ينكشفَ الثوب عن ساقِك») دليلٌ على: أن أطرافَ شعرِ الحُرَّة، وساقَيْها عورةٌ، فيجب عليها سترُها في الصلاة، وقد تقدَّم ذلك.

وجُذامَ، فلعب بهم الموجُ شهراً في البحر، ثم أرفؤُوا إلى جزيرةٍ في البحر حتى مغرب الشَّمس، فجلسوا في أقْرُبِ السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابَّةٌ أهلبُ، كثيرُ الشَّعَر، لا يدرون ما قُبُلُهُ من دُبُرِهِ من كثرة الشَّعَرِ، فقالوا: وَيْلَكِ ما أنتِ؟! قالت: أنا الجسَّاسةُ؟ قالوا: وما الجسَّاسَةُ؟ قالت: أيُّها القوم! انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّير، فإنَّه إلى خبركم بالأشواق! فلما سمَّتْ لنا رجلاً فَرِقْنا منها أن تكون شيطانةً! قال: فانطلقنا سراعاً. حتى دخلنا الدَّير، فإذا فيه أعظمُ إنسانٍ رأيناه قطُّ خَلْقاً، وأشدُّه وثاقاً، مجموعةٌ يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلك ما أنتَ؟! قال: قد قَدَرْتُمْ على خبري، فأخبروني ما أنتم؟! قالوا: نحن أناسٌ من العرب، ركبنا في سفينةٍ بحريَّة، فصادَفَنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا

و (قوله: «ثم أرفؤوا إلى جزيرة في البحر») أي: لجؤوا إليها، ومرفأ السفينة: حيث ترسي. يُقال: أرفأتُ السفينةَ: إذا قرَّبتُها من الشَّطِّ، وذلك الموضع مرفأ. وأرفأتُ إليه: لجأتُ إليه.

و (قوله: «فجلسوا في أَقْرُبِ السَّفينة») كذا الرواية المشهورة. قال الإمام: هي القواربُ الصغار يتصرف بها ركَّابُ السفينة، والواحدُ قارب، جاء ها هنا على غير قياس. وأنكرَ غيرُه هذا، وقال: لا يُجمع فاعل على أفعل. قال: وإنما يقال: الأَقْرَبُ فيها: أَقْرُبَات السَّفينة وأدانيها؛ كأنَّه ما قَرُبَ منها النزول، أو كأنَّه من القرب الذي هو الخاصرة، ويُؤيِّده أن ابنَ ماهان روى هذا الحرف فقال: في أُخْرَيَاتِ السفينة، وفي بعضها: في آخر السفينة.

قلـتُ: ويشهد لما قاله الإمامُ ما رواه ابنُ أبي شَيْبة في مصنفه: «فقعدوا في قواربِ السفينة»[1] وهذا الجمعُ هو قياس قارِب، ويُقال بفتح الراء وكسرها.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٣٦٦).

الموجُ شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقْرُبِها، فدخلنا الجزيرة، فَلَقيتنا دابةٌ أهْلَبُ كثيرُ الشَّعَرِ، لا يُدْرَى ما قُبُلُهُ من دُبُرِهِ من كثرة الشَّعَرِ، فقلنا: ويلك ما أنت!؟ فقالت: أنا الجسَّاسَةُ. قلنا: وما الجسَّاسَةُ؟ قالت: اعْمِدُوا إلى هذا الرَّجل في الدَّيْرِ؛ فإنَّه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليْك سِراعاً، وفَزِعْنا منها، ولم نأمَنْ أن تكون شيطانةً! فقال: أخبروني عن نخل بَيْسانَ؟ قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها: هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشكُ أن لا تُثْمِرَ. قال: أخبروني عن بحيرة الطَّبَرِيَّةِ؟ قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماءٌ؟ قالوا: هي كثيرةُ الماء. قال: أمَا إنَّ ماءَها يوشِكُ أن يذهب! قال: أخبروني عن عين زُغَرَ؟ قالوا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماءٌ؟ وهل يَزْرَعُ

و (قوله: «فلقيتهم دابَّةٌ أهْلَبُ») أي: غليظة الشعر، والهَلَبُ: ما غَلُظَ من الشعر، ومنه المهلبة، وهو شعر الخِنزير الذي يخرز به. وذكرَ أهلبَ حملاً على المعنى، وكأنه قال: حيوانٌ أهلبُ أو شخص، ولو راعى اللفظَ لقال هلباء، لأن قياس أهلب هلباء كأحمر وحمراء.

و (قوله: «ما أنتِ؟») اعتقدوا فيها أنها مما لا يعقلُ، فاستفهموا بـ «ما» ثم إنها بعد ذلك كلَّمتهم كلامَ مَنْ يعقل، وعند ذلك رهبوا أن تكون شيطانة؛ أي: خافوا من ذلك.

و (قوله: «أنا الجَسَّاسَة») بفتح الجيم وتشديد السين الأولى. قيل: سمَّت نفسَها بذلك لتجسُّسِها أخبارَ الدَّجَّال. من التجسُّس بالجيم، وهو الفحص عن الأخبار، والبحث عنها، ومنه الجاسوس. وقد روي عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الدابَّة: هي دابَّةُ الأرض التي تخرجُ للناس في آخر الزمان فتكلِّمُهم.

أهلُها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء، وأهلُها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة، ونزل يثربَ. قال: أقاتَلَهُ العربُ؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه: أنَّه قد ظهر على من يليه من العرب، وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أمَا إنَّ ذاكَ خيرٌ لهم أن يطيعوه، وإنِّي مُخْبِركم عنِّي، إني أنا المسيح، وإنِّي أوشك أن يُؤذنَ لي في الخروج، فأخرجَ فأسيرَ في الأرض، فلا أدع قريةً إلا هبطتها في أربعين ليلةً غيرَ مكة وطيبةَ، فهما مُحَرَّمَتانِ عليَّ كلتاهما، كلَّما أَرَدْتُ أنْ أدخلَ واحدةً، أو واحداً منهما. استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صَلْتاً، يَصُدُّني عنها، وإنَّ على كل نَقْبٍ منها

و (قوله: «قد قَدَرتُم على خبري») أي: اطَّلعتُم عليه، وقَدَرْتُم على الوصول إليه.

و (قوله: «صادَفْنا البحرَ قد اغتلمَ») أي: قد هاج، وجاوز حدَّه ومنه الغُلْمَةُ، وهي شِدَّة شهوةِ النِّكاح. وبَيْسان: بفتح الباء، ولا تُقال بالكسر. وزُغَرُ: بالزاي المضمومة، والغين المعجمة على وزن نُغَر، وهما معروفان بالشام. ونبيُّ الأُمِّيِّينَ: هو محمّد ﷺ والأمِّيُّون العربُ؛ لأن الغالبَ منهم لا يكتبُ ولا يَحسِبُ، كما قال ﷺ: «إنَّا أُمَّةٌ أُميَّةٌ لا نكتبُ، ولا نَحسِبُ»[1]. فكأنَّهم باقون على أصل ولادة الأمِّ لهم، فنُسبَ الأُمِّيُّ إليها. هذا أولى ما قيل فيه. وقد تقدَّم القولُ في تسمية المدينة طيبة، وطابة، وأن كلَّ ذلك مأخوذٌ من الطِّيب.

و (قوله: «استقبلني مَلَكٌ بيده السيفُ صَلْتاً») أي: مجرداً عن غِمْدِه. قال ابن السِّكيت: فيه لغتان، فتح الصاد وضمها. والمِخْصرة؛ بكسر الميم: عصاً، أو قضيب كانت تكون مع الملك إذا تكلَّم، وقد تقدَّم ذكرها.

---

(١) رواه مسلم (٧٦١)، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائي (٥/ ١٣٩).

ملائكةً يحرسونها». قالت: قال رسول الله ﷺ: «وطعن بمِخصرته في المنبر، (هذه طيبةُ! هذه طيبةُ! هذه طيبةُ!) يعني: المدينةَ، ألا هل كنتُ حدَّثتكم ذلك؟!». فقال الناس: نعم. «فإنَّه أعجبني حديثُ تميم: أنَّه وافق الذي كنتُ أحدِّثُكم عنه، وعن المدينة، ومكةَ! ألا إنَّه في بحر الشَّام، أو بحر اليمن، لا، بل من قبل المشرق! ما هو من قبل المشرق! ما هو من قِبَل المشرق! ما هو؟» وأومأ بيده إلى المشرق قالتْ: فحفظتُ هذا من رسول الله ﷺ.

وفي رواية: أنَّ الشعبي سأل فاطمةَ بنتَ قيسٍ عن المطلَّقة ثلاثاً؛ أين تعتدُّ؟ قالت: طلقني بعلي ثلاثاً، فأذِن ليَ النَّبيُّ ﷺ أنْ أعْتَدَّ في أهلي. قالت: فَنُودِي في النَّاس: الصلاةَ جامعةً! قالت: فانطلقتُ فيمن انطلق من النَّاس. قالت: فكنتُ في الصفِّ المقدَّمِ من النساء، وهو يلي المؤخَّرَ من الرِّجال. قالت: فسمعتُ النبي ﷺ وهو على المنبر يخطبُ. وذكره. وزاد فيه، قالت: وكأنما أنظر إلى النبيِّ ﷺ وأهوى بمِخصرتِهِ إلى الأرض، وقال: «هذه طيبةُ!» يعني: المدينة.

رواه أحمد (٦/ ٣٧٣ و ٣٧٤)، ومسلم (٢٩٤٢) (١١٩ و ١٢٠)، وأبو داود (٤٣٢٦)، وابن ماجه (٤٠٧٤).

* * *

و (قوله: «ألا إنَّه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا! بل من قبلَ المشرق، ما هو من قبل المشرق») ما هو هذا كلُّه كلامٌ ابتدىء على الظَّنِّ، ثم عرضَ الشكّ، أو قَصَدَ الإبهامَ، ثم بقي ذلك كلُّه، وأضرب عنه بالتحقيق، فقال: لا! بل من قِبَلِ المشرق، ثم أكَّد ذلك بما الزائدة، وبالتكرار اللَّفظي، فما فيه زائدة، لا نافية، وهذا لا بُعْد فيه؛ لأن النبيَّ ﷺ بشرٌ يظنُّ ويشكُّ، كما يسـهو وينسى إلا أنه

(١٧) بــاب
كيف يكون انقراض هذا الخلق
وتقريب الساعة وكم بين النفختين

[٢٨٣٦] عن عبد الله بن عمرو، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تُحَدِّث به؟ تقول: إنَّ الساعة تقوم إلى كذا وكذا. فقال: سبحان الله! ـ أو: لا إله إلا الله، أو كلمةً نحوهما ـ لقد هممتُ ألا أحدِّث أحداً شيئاً أبداً! إنَّما قلت: إنّكم سترون بعد قليلٍ أمراً عظيماً، يُحرَّق البيتُ، ويكون،

لا يتمادى، ولا يُقرّ على شيءٍ من ذلك؛ بل: يُرشد إلى التحقيق، ويُسلك به سواءَ الطريق. والحاصل من هذا: أنه ﷺ ظنَّ أن الدَّجَّال المذكور في بحر الشام؛ لأن تميماً إنما ركبَ في بحر الشام، ثم عرضَ له أنَّه في بحر اليمن؛ لأنه يتصلُ ببحر متصل ببحر اليمن، فيجوز ذلك. ثم أطلعه العليم الخبير على تحقيق ذلك فحقَّقَ، وأكَّدَ. وتاهت السفينة: صارت على غير اهتداء. والتيه: الحيرة. والرُّواق: سقف في مُقدَّم البيت، ويُجمع في القِلَّة: أروقة، وفي الكثرة: روقاً.

(١٧) ومن بــاب: كيف يكون انقراض هذا الخلق

(قوله: لقد هممت ألا أُحَدِّث أحداً شيئاً أبداً) إنما قال ذلك؛ لأنهم نسبوا إليه ما لم يقل، فشقَّ ذلك عليه، ثم إنَّه لما علمَ أنه لا يجوز له ذلك، ذكرَ ما عنده من علم ذلك.

و (قوله: يُحرَّقُ البيتُ) قد كان ذلك في عهد ابن الزبير، وذلك أن يزيدَ بن معاوية وجَّه من الشام مسلمَ بن عُقبة المدنيّ في جيش عظيم لقتال ابن الزبير، فنزلَ بالمدينة، وقاتلَ أهلَها، وهزمَهم، وأباحها ثلاثة أيام، وهي وَقْعَةُ الحَرَّةِ، وقد قدَّمنا ذكرها ثم سارَ يُريد مَكَّة، فمات بقُدَيْد، ووليَ الجيشَ الحُصَينُ بن نمير، وسارَ إلى

ويكونُ. . . . ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرجُ الدَّجالُ في أمتي، فيمكُثُ أربعين ـ لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً ـ «فيبعث الله عيسى ابنَ مريمُ كأنَّه عروةُ بنُ مسعودٍ، فيطلُبه فيُهْلِكُهُ. ثم يمكث الناس سبع سنين. ليس بين اثنين عداوةٌ. ثُمَّ يرسلُ الله ريحاً باردةً من قِبَلِ الشَّامِ، فلا يبقى على وجهِ الأرضِ أحدٌ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ من خَيرٍ أو إيمانٍ إلا قَبَضته، حتى لو أنَّ أحدكم دخل في كَبِد جَبلٍ لدخَلَتْهُ عليه حتى تَقْبِضَهُ!». قال: سمعتُها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شِرارُ الناسِ في خِفةِ الطَّيرِ، وأحلام السِّباعِ، لا يعرفُون معروفاً، ولا ينكرُون مُنْكَراً، فيتمثلُ لهم الشَّيطانُ، فيقولُ: ألا تستجيبونَ؟! فيقولون: فما تأمرُنا؟ فيأمُرُهُم بعبادةِ الأوثانِ، وهم في ذلك دارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهم، ثم ينفَخ في الصُّورِ فلا يسمعُه أحدٌ إلا أصغَى لِيتاً، ورَفَعَ لِيتاً». قال: «وأوّل من

مكَّة فحاصرَ ابن الزبير، وأُحرقتِ الكعبةُ حتى انهدمَ جدارها، وسقط سقفها، وجاء الخبر بموت يزيد فرجعوا.

و (قوله: «فيمكثُ أربعين» لا أدري أربعينَ يوماً، أو شهراً، أو سنةً) هذا الشكُّ من عبد الله بن عمرو، وقد ارتفع بالأخبار السابقة أنه أربعون يوماً على التفصيل المُتقدِّم.

و (قوله: «لو أنَّ أحدَكم دخلَ في كَبِدِ جَبَل») كذا صحيح الرواية، ووقع في بعض النسخ: «كبد رجل»، وهو مثل قُصد به الإغياء، وكبد الشيء: داخلُه.

و (قوله: «ويبقى شرار الناس، في خِفَّة الطير، وأحلام السباع») أي: هم في مسارعتهم، وخِفَّتهم إلى الشرور، وقضاء الشهوات، وغلبة الأهواء، كالطير لخِفَّة طيرانه، وهم في الإفساد والعدوان كالسِّباع العادية. والصُّور: قَرْنٌ يُنفخ فيه، كما جاء في الحديث. وأصغى: أمالَ، واللِّيت: صفحةُ العُنُق، وهو جانبه.

يسمعُهُ رجلٌ يلوط حَوْضَ إبلِهِ». قال: «فيَصْعَقُ، ويَصْعَقُ الناسُ. ثم يرسل اللَّهُ ـ أو قال: يُنْزِلُ الله ـ مطراً كأنَّه الطَّلُّ ـ أو الظِّلُّ ـ (نُعْمان الشَّاكُّ) فتَنْبُتُ مِنْهُ أجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فإذا هُمْ قِيَامٌ ينظرون. ثم يقال: يا أيها الناس! هَلُمَّ إلى ربِّكم! وَقِفوهُم إنّهم مسؤولونَ». قال: «ثم يقال: أَخْرِجُوا بَعْثَ النارِ. فيقال: مِنْ كَمْ؟ فيقال: من كلِّ ألف، تسعمئة وتسعة وتسعين». قال: «فذاك يومَ يجعلُ الوالدانَ شِيباً، وذلك يوم يُكْشَفُ عن ساقٍ».

و (قوله: «كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ») هذا شكّ، والأصحّ أنه الطَّلُّ بالطاء المهملة، لقوله في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «ثم ينزلُ من السماء ماءً»، وفي حديث آخر: «كَمَنِيِّ الرجال». وهلمُّوا؛ أي: تعالوا وأقبلوا، وقد تقدَّم أن فيها لغتين، وقد روي هنا بالوجهين: هلمُّوا، وهلمَّ.

و (قوله: «ثم يُقال أخرجوا بعثَ النَّار») قد تقدَّم في الإيمان: أن الذي يُقال له ذلك: آدم ـ عليه السلام ـ، والجمع بينهما بأنَّ المأمورَ أولاً: آدم، وهو يأمرُ الملائكةَ بالإخراج، ومعنى الإخراج هنا بتمييز بعضهم من بعض، وإلحاق كلِّ طائفة بما أُعدَّ لها من الجنَّة أو النَّار.

و (قوله: «فذلك يومٌ يجعلُ الولدانَ شيباً») الوِلدان: جمع وليد، وهو الصغير. يقال عليه: من حين الولادة إلى أن يرجعَ جَفْراً. وشِيباً: جمع أشيب؛ أي: يصيرُ الصغير أشيبَ لشدَّة أهوال ذلك اليوم. وقيل: هذا على التهويل والتمثيل، كما قال أبو تمام:

خُطُوبٌ تُشَيِّبُ[1] رأْسَ الوَلِيدِ

و (قوله: «وذلك يومَ يُكشفُ عن ساقٍ») معناه ومعنى ما في كتاب الله تعالى

---

(١) في (ع): شَيبَتْ.

رواه أحمد (٢/ ١٦٦)، ومسلم (٢٩٤٠) (١١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٩).

[٢٨٣٧] عن عائشة، قالت: كانت الأعراب إذا قَدِمُوا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسانٍ منهم فقال: «إنْ يعشْ هذا؛ لم يدْرِكْه الهَرَمُ؛ قامت عليكم ساعَتُكُم».

رواه البخاريُّ (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢).

من ذلك واحد، وهو عبارة عن شِدَّة الحال وصُعوبة الأمر. قاله ابن عبَّاس في الآية. يُقال: كشفتِ الحربُ عن ساقها. قال الشاعر:

قَدْ حَلَّتِ الحَرْبُ بِكُمْ فَجُدُّوا　　　وكَشَفَتْ عَنْ ساقِها فَشُدُّوا

وقال آخر:

كَشَفَتْ لَكُمْ عَنْ سَاقِها　　　وَبَدا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحُ

وأصلُه: أن المُجِدَّ في الأمر يشدُّ إزارَه، ويرفعُه عن ساقه. قال قتادة: يُقال للواقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجِدِّ: قد كشفَ ساقَه. قال الشاعر:

في سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِها　　　حَمْراءُ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُراقِها

قلت: وهذا المعنى بَيِّنٌ في هذا الحديث فتأمَّلْ مَسَاقه، وعليه تُحمل الآية، ولا يُلتفت إلى غير ذلك مما قيل فيها.

و (قوله: «إن يعشْ هذا لم يُدْرِكْهُ الهَرَمُ، قامتْ عليكم ساعتكم») هذه الرواية: رواية واضحة حسنة، وهي المُفَسِّرَةُ لكلِّ ما يردُ في هذا المعنى من الألفاظ المشكلة، كقوله في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «حتى تقومَ الساعة»، وفي لفظ آخر: «القيامة»، فإنه يعني به: ساعة المخاطَبين وقيامَتَهم، كما تقدَّم في تفسير الراوي، لقوله: يعني بذلك: أن ينخرمَ ذلك القَرْنُ.

[٢٨٣٨] ومن حديث أنسٍ، قال: «إنْ عُمِّرَ هذا، لم يدْرِكْه الهرَمُ حتَّى تقوم الساعةُ»، قال أنس: ذلك الغلام من أترابي يومئذٍ.

رواه مسلم (٢٩٥٣) (١٣٨).

[٢٨٣٩] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين». قال: وضمَّ السَّبَّابة والوسطى.

رواه أحمد (٣/ ١٢٣)، والبخاريُّ (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) (١٣٥)، والترمذيُّ (٢٢١٤).

[٢٨٤٠] وعن أبي هريرة ـ يَبْلُغُ به النَّبيَّ ﷺ ـ قال: «تقوم الساعةُ والرجلُ يحلُبُ اللِّقْحَةَ فَمَا يَصِلُ الإناءُ إلى فيه حتى تقومَ، والرجُلانِ يَتَبَايَعانِ الثوب، فما يتبايعانه حتى تقومَ، والرجلُ يَلِطُ في حَوْضِهِ، فما يَصْدُرُ حتى تقومَ».

رواه أحمد (٢/ ٣٦٩)، والبخاريُّ (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٩٥٤).

بعثتُه ﷺ دليل على قرب الساعة

و (قوله: «بُعِثتُ أنا والسَّاعةُ كهاتين» وضمَّ بين السَّبَابة والوسطى) رويته: «أنا والسَّاعةُ» بالضم والفتح، فالضمُّ على العطف، والفتحُ على المفعول معه، والعامل بُعثت. وكهاتين: حال، أي: مقترنين، فعلى النصب يقع التشبيه بالضم، وعلى الرفع يحتمل هذا ويحتملُ أن يقع بالتفاوت الذي بين السَّبابة والوسطى فتأمَّلْه. ويدلُّ عليه قول قتادة في بعض رواياته: «كفضل إحداهُما على الأخرى»، وحاصلُه تقريب أمر الساعة التي هي القيامة، وسرعة مجيئها، وهذا كما قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] قال الحسن: أوَّلُ أشراطها: محمّد ﷺ.

و (قوله: «تقومُ الساعةُ والرجل يَحْلُبُ اللِّقحة فما يصلُ الإناء إلى فيه حتى تقوم... الحديث») وقد تقدَّم أن اللِّقحة: الناقة ذات اللبن. ويلوطُ حوضَه،

[٢٨٤١] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أرْبعون». قالوا: يا أبا هريرة! أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ! قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ! قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ!». ثم يُنْزِلُ اللَّهُ من السَّماء ماءً فَيَنْبُتُون كما يَنْبُتُ البقلُ»، قال: «وليس من الإنسان شيء إلا يَبْلى؛ إلا عَظْماً واحداً».

ويتلوَّط في حوضه؛ أي: يُصلحُه ويطيِّنُه، ويُروى: يلطُّ حوضَه بمعناه، ويُقال: لاط حوضَه يلوطه وهي المعروفة، ويُقال: ألاطَ حوضَه يليطه: إذا طيَّنه، وحاصل هذا الحديث: أنَّ الساعةَ تقومُ بغتةً كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

و (قوله: «ما بين النفختين أربعون») يعني: نفختي الصعق والبعث، يُشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

و (قول أبي هريرة: أبيتُ أبيتُ، لما سُئلَ عن الأربعين ما هي) يدل على: أنه كان عنده من ذلك علم، وامتنعَ من بَثِّه؛ لأنه لا ترهقُ إليه حاجة، ولا يتعلَّق به عمل، ويحتملُ أن لا يكون عندَه علم من ذلك.

و (قوله: أبيتُ؛ أبيتُ) يعني أبيت أن أسألَ عن ذلك النبيَّ ﷺ، وفيه بُعْد.

و (قوله: «ثم يُنزلُ اللَّهُ من السماء ماءً») يعني به بعد نفخة الصَّعْق ينزل هذا الماء الذي هو كمنيّ الرجال، فتتكون فيه الأجسام بقدرة الله تعالى، وعن ذلك عبَّر بقوله: فينبُتون كما ينبتُ البَقْل، فإذا تهيَّأت الأجسام، وكملت، نُفخ في الصور نفخة البعث، فخرجتِ الأرواحُ من المحال التي هي فيها. قال بعضُهم: فتأتي كلُّ روح إلى جسده فيُحييها الله تعالى، كلُّ ذلك في لحظة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

في روايةٍ: «لا تأكله الأرض أبداً وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يُركَّبُ الخلقُ يوم القيامة».

وفي أخرى: «منه خُلِقَ، وفيه يُرَكَّبُ».

رواه البخاريُّ (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) (١٤١ و ١٤٢)، وأبو داود (٤٧٤٣)، والنسائي (٤/ ١١١).

* * *

و (قوله: «كلُّ ابن آدم تأكلُه الأرضُ») أي: تبليه، وتُصَيِّرُهُ إلى أصله الذي هو التراب، هذا عموم مُخصَّص بقوله ﷺ: «حرَّم الله تعالى على الأرض أن تأكلَ أجسادَ الأنبياء»[١]. وبقوله ﷺ: «المُؤذِّنُ المحتسبُ كالمُتشحِّط في دمِه، وإن مات لم يُدَوَّدْ في قبره»[٢]. وظاهر هذا: أنَّ الأرضَ لا تأكلُ أجسادَ الشهداء، والمؤذنين المحتسبين، وقد شوهد هذا فيمن اطُّلِعَ عليه من الشهداء، فوُجدوا كما دُفنوا بعد آماد طويلة، كما ذُكر في السِّيَر وغيرها. وعَجْبُ الذَّنب: يُقال بالباء والميم، وهو جزءٌ لطيف في أسفل الصُّلْب، وقيل: هو رأس العُصْعُص، كما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب البعث من حديث أبي سعيد الخدري، وذكرَ الحديث: قيل: يا رسول الله! وما هو؟ قال: «مثلُ حبَّةَ خَرْدَلٍ، ومنه تنتشرون»[٣].

الأرض لا تأكل أجساد الشهداء والمؤذنين المحتسبين

و (قوله: منه خُلقَ وفيه يُرَكَّب) أي: أول ما خُلق من الإنسان هو، ثم إن الله تعالى يبقيه إلى أن يُركب الخلق منه تارة أخرى.

* * *

---

(١) رواه ابن عساكر (٣/ ١٥٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٣٥٥٤)، وانظره في الترغيب والترهيب (٣٧٧).

(٣) رواه ابن حبان (٣١٤٠) بلفظ: «. . . منه يَنْشَأُ».

(١٨) بـــاب

المبادرة بالعمل الصالح والفتن وفضل العبادة في الهرج

[٢٨٤٢] عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «بادروا بالأعمال سِتاً: طُلُوعَ الشمس من مغربها، أو الدُّخانَ، أو الدجَّالَ، أو الدَّابّةَ، أوْ خَاصّةَ أحدِكُم، أوْ أمْرَ العامَّة».

وفي روايةٍ: «الدّجّالَ، والدُّخانَ، ودابّةَ الأرضِ، وطلُوعَ الشمس من

(١٨ و ١٩ و ٢٠) ومن بـــاب:

المبادرة بالعمل الصالح الموانع والفتن[١]

الحثّ على الإسراع بالأعمال الصالحة

(قوله: «بادِرُوا») أي: سابقوا بالأعمال الصالحة، واغتنموا التَّمكُّنُ منها قبلَ أن يُحال بينكم وبينها بداهية من هذه الدواهي المذكورة، فيفوت العملُ للمانع، أو تعدمُ منفعته لعدم القبول، وقد تقدَّم القول على أكثر هذه الست.

و (قوله: «وخاصَّةُ أحدكم») يعني به: الموانع التي تخصُّه مما يمنعُه العملُ، كالمرض، والكِبَر، والفقرُ المُنْسي، والغنى المُطْغِي، والعيال والأولاد، والهموم، والأنكاد، والفِتن، والمِحن إلى غير ذلك مما لا يتمكّن الإنسان مع شيءٍ منه من عمل صالح، ولا يسلمُ له، وهذا المعنى هو الذي فصَّلَه في حديث آخر حيث قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحَّتِك قبل سُقْمِكَ، وفراغَك قبل شُغْلِكَ، وغِناكَ قبل فَقْرِكَ، وحياتَكَ قبل مَوْتِك»[٢].

---

(١) شرح المؤلف ـ رحمه الله ـ تحت هذا العنوان: هذا الباب والبابين التاليين له وهما: باب: إغراء الشيطان بالفتن. وباب: قوله ﷺ: «لتتبعنَّ سنن الذين من قبلكم. . .».

(٢) رواه الحاكم (٤/ ٣٠٦).

مغربها، وأمْرَ العامةِ، وخُوَيِّصَةَ أحدِكُمْ».

رواه أحمد (٢/ ٣٢٤)، ومسلم (٢٩٤٧) (١٢٨ و ١٢٩).

[٢٨٤٣] وعن مَعْقِلِ بن يَسارٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «العبادةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إلَيَّ».

رواه أحمد (٥/ ٢٥)، ومسلم (٢٩٤٨)، والترمذيُّ (٢٢٠١)، وابن ماجه (٣٩٨٥).

* * *

مفاسد العامة

و (قوله: «وأمر العامَّة») يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجَّه على الإنسان بعض فرضه؛ فإنهم يُفسدون من يقصد إصلاحَهم، ويُهلكون من يريدُ حياتهم، لا سيما في مثل هذه الأزمان التي قد مَرِجَتْ فيها عهودهم وخانت أماناتهم، وغلبت عليهم الجهالاتُ والأهواء، وأعانهم الظَّلَمة والسفهاء، وعلى هذا فعلى العامل بخويِّصَةِ نفسه، والإعراض عن أبناء جنسه إلى حلول رمسه، أعاننا الله على ذلك بفضله، وكرمه. وقد جاءت هذه الستة في إحدى الروايتين، معطوفةً بـ (أو) فيجوز أن تكونَ للتنويع، أي: اتقـوا أن يصيبَكم أحدُ هذه الأنواع، ويصحُّ أن تكون بمعنى الواو، كما جاء في الرواية الأخرى.

فَضْل العبادة في الهَرْج

و (قوله: «العبادةُ في الهَرْج كهجرةٍ إليَّ») قد تقدَّم: أنَّ الهرجَ: الاختلاط والارتباك، ويُراد به هنا الفتن والقتل، واختلاط الناس بعضهم في بعض، فالمُتمسِّك بالعبادة في ذلك الوقت، والمنقطع إليها المعتزلُ عن الناس أجرُه كأجر المُهَاجر إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنه يناسبُه من حيث أن المهاجرَ قد فرَّ بدينه عمن يصدُّه عنه إلى الاعتصام بالنبيِّ ﷺ وكذلك هو المنقطع للعبادة فرَّ من النَّاس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربِّه، فهو على التحقيق قد هاجرَ إلى ربِّه، وفرَّ من جميع خلقه.

(١٩) بـــاب
إغراء الشيطان بالفتن

[٢٨٤٤] عن جابرٍ، قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الشَّيطان قَدْ أيس أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جزيرة العرب، ولكنْ في التَّحريش بينهم».

رواه أحمد (٣/ ٣١٣)، ومسلم (٢٨١٢)، والترمذيّ (١٩٣٨).

[٢٨٤٥] وعنه؛ قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ عرش إبليس على البحر، فيبعثُ سراياه يفتنون النَّاسَ، فأعظمُهم عِنْدَه أعظمُهُم فتنةً».

وفي أخرى: «إنّ إبليس يضعُ عرشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه،

يأسُ الشيطان من أن يُعبد في جزيرة العرب مــا دام فيهــا صلاة

و (قوله: «إنَّ الشيطانَ قد يئسَ مِن أن يعبدَه المصلُّون في جزيرة العرب») يعني - والله أعلم -: أن المسلمينَ في جزيرة العرب ما أقاموا الصلاة فيها، وأظهروها، لم يظهرْ فيها طائفة يرتدُّون عن الإسلام إلى عبادة الطواغيت والأوثان، فإذا تركوا الصَّلاة وذهبَ عنهم اسم المُصلِّين، فإذ ذلك يكونون شرارَ الخَلْق، وهذا إنما يتمُّ إذا قبضَ الله تعالى المؤمنينَ بالرِّيح الباردة المذكورة في حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: «وحينئذ يتمثَّلُ لهم الشيطانُ فيقولُ لهم: ألا تستحيونَ؟ فيقولون: فماذا تأمرُنا؟ فيأمرُهم بعبادة الأوثان وحينئذ تضطربُ أَلْيَاتُ دَوْسٍ حول ذي الخَلَصَة، وتُعبد اللاَّت والعُزَّى». والله أعلم، وقد تقدَّم القول في جزيرة العرب.

و (قوله: «ولكن في التحريش بينهم») أي: في الخلاف، والشرور، والعداوة، والبَغْضاء بينهم حتى تكونَ من ذلك أمثال تلك الفتن العظيمة والخطوب الجسيمة.

و (قوله: «إنَّ عرشَ إبليسَ على البحر») أي سريرُه، يفعلُ ذلك تكبُّراً على جنوده وأحزابه، وهذا هو العرش الذي رآه ابنُ صيَّاد، كما تقدَّم. وأصلُ العرش:

فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فِتْنة يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا. فيقولُ: ما صنعتَ شيئاً! ثم يجيء أحدُهم، فيقولُ: ما تركتُه حتى فرَّقْتُ بينه وبين امرأته! قال: فيُدْنِيه منه، ويقولُ: نِعْمَ أنت! قال الأعمش: أُراه قال: «فيلتزِمُه».

رواه مسلم (٢٨١٣) (٦٦ و ٦٧).

* * *

(٢٠) بـــاب
في قوله عليه الصلاة والسلام: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، وهلك المتنطعون» آخر الفتن

[٢٨٤٦] عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم شِبْراً بشبرٍ، وذِراعاً بذراعٍ؛ حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ

الرفع. ومنه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] أي: منها ما هو مرفوع على ساق وهي الشجر، ومنها ما ليس كذلك، وهو النَّجم.

و (قوله: «فيُدنيه، ويلتزِمُه، ويقولُ: نعم أنتَ») كذا وجدته مقيَّداً في أصل الشيخ أبي الصبر؛ أي: يقربه منه، ويُعانقه، ويمدحه بـ (نعم) التي للمحمدة، وقد أضمر فاعلها للعلم به من غير شرط، تقديرُه: نعم الحبيب، أو الوليُّ أنتَ. وهذا الإضمار شاذٌّ؛ لأنه لا يجوز إلا إذا فُسِّر بنكرة منصوبة على التمييز، كما هو المعروف في النحو، ومن قال: إن (نعم) هنا حرف جواب، فليس على صواب إذ ليس في الكلام سؤال يقتضيه، ولا معنى يُناسبه.

و (قوله: «لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين مِنْ قبلكم») يروى سُنَن بضم السين وبفتحها،

لاتّبعتُمُوهم!». قلنا: يا رسولَ الله! آليهودُ والنَّصارى؟ قال: «فمن؟».

رواه أحمد (٣/ ٨٤)، والبخاريّ (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

[٢٨٤٧] وعن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المُتَنَطِّعُونَ ـ قالها ثلاثاً ـ».

رواه مسلم (٢٦٧٠)، وأبو داود (٤٦٠٨).

[٢٨٤٨] وعن أسامةَ بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً، هي أضرُّ على الرِّجال من النِّساء».

رواه أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاريّ (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠)، والترمذيّ (٢٧٨٠).

[٢٨٤٩] وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ. وإنّ الله مستخلِفُكُم فيها، فينظرُ كيف تعملون؟ ....

فبالضم: جمع سُنَّة، وهي: الطريقة المسلوكة، وبالفتح: هو اسم للطريق. والضَّبُّ: حِرْذَون الصحراء. والمُتنطعون: المتعمِّقون والغالون، وقد تقدَّم القول في هذا الحديث.

و (قوله: «إنَّ الدنيا حلوة خَضِرة») أي: مستطابة في ذوقها، مُعْجِبة في منظرها كالثمر المُسْتَحْلى، المعجب المَرْأى.

و (قوله: «إنَّ اللَّهَ مستخلَفكم فيها») أي: جعلكم فيها خلفاً ممن كان قبلكم؛ فإنها لم تصل إلى قوم إلا بعدَ ذهاب آخرين.

و (قوله: «فينظرُ كيف تعملون») أي: يُبصر أعمالَكم فيجازي كُلّاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌ.

فاتقوا النَّار، واتَّقُوا النِّساء، فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء».

رواه أحمد (٣/١٩)، ومسلم (٢٧٤٢)، والترمذيّ (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٠).

[٢٨٥٠] وعن عبد الله بنِ مسعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق».

رواه أحمد (١/ ٣٩٤)، ومسلم (٢٩٤٩).

* * *

التحذير من النار وفتنة النساء

و (قوله: «فاتَّقُوا النَّارَ، واتَّقُوا النِّساء») أي: احذروا الأعمال المقرِّبة من النار، واحذروا فتنةَ النساء، فإنهنَّ أوَّلُ فتنة بني إسرائيل، وفتنتهُنَّ على الرجال أشدُّ كلِّ فتنة، والمِحنةُ بهنَّ: أعظم كلِّ مِحنة؛ لأن النفوسَ مجبولةٌ على الميل إليهنَّ، وعلى اتِّباعِ أهوائهنَّ مع نقص عقولهنَّ، وفساد آرائهن، ومَن مَلَّكَ قِيادَهُ سفيهٌ ناقصٌ فجَدُّه ناكِصٌ.

* * *

(٤٢)
كـتـاب التفسـيـر

(١) بـــاب
من فاتحة الكتاب

وقد تقدم في كتاب الصلاة من حديث أبي هريرة قوله تعالى: «قسمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين».

انظر صحيح مسلم (٣٩٥) (٣٨).

* * *

---

(٤٢)
كـتـاب التفسـيـر

وهو مصدر فسَّر يفسِّر: إذا كشف المراد وبيَّنه، وأصله من الفسر، وهو البيان. يقال: فسرت الشيء أفسِره ـ بالكسر ـ فسراً. والتأويل: صَرْفُ الكلام إلى ما يؤولُ إليه من المعنى، مِن آل إلى كذا: إذا رجع إليه. وقد حدَّه الفقهاءُ فقالوا: هو إبداءُ احتمالٍ في اللفظ معضود بدليل خارج عنه. فالتفسيرُ بيانُ اللفظ، كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] أي: لا شكَّ فيه، والتأويلُ: بيانُ المعنى، كقولهم: لا شكَّ فيه عند المؤمنين؛ أو لأنه حقٌّ في نفسه، فلا تقبلُ ذاته الشك، وإنما الشكُّ وصف الشاكِّ، ونحو ذلك.

[(١) ومن بـــاب: من فاتحة الكتاب[(١)]]

وقد تقدم القولُ على قوله: «قسمت الصلاة»، وفي الملائكة.

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

(٢) ومن سورة البقرة

[٢٨٥١] عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ، وآدم مما وُصِفَ لكُم».

رواه أحمد (٦/ ١٥٣)، ومسلم (٢٩٩٦).

[٢٨٥٢] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطّةٌ يُغْفَرْ لكم خطاياكُم، فبدّلوا،

---

(٢) ومن بـــاب: ومن سورة البقرة

(قوله: «خُلِقت الملائكةُ من نور») أي: من جواهر مضيئةٍ منيرة، فكانوا خَيْراً محضاً.

و (قوله: «وخُلِق الجانُّ من مارجٍ من نار») أي: من شواظ ذي لهب، واتّقاد، ودُخان، فكانوا شرّاً محضاً، والخيرُ فيهم قليل.

و (قوله: «وخُلق آدم مما تعلمون»[1]) أي: مما أعلمكم به، أي: من تراب صُيِّر طيناً، ثم فخاراً، كما أخبرنا به تعالى في غير موضع من كتابه. والفخار: الطين اليابس، وفي الخبر: «إن الله تعالى لما خلق آدم أمر من قَبَض قبضةً من جميع أجزاء تراب الأرض، فأخذ من حزنها وسهلها، وأحمرها وأسودها، فجاء ولده كذلك»[2].

و (قوله: «ادخلوا الباب مسجداً، وقولوا حطّة») هذا الباب: هو الباب الثامن من بيت المقدس. قاله مجاهد. وقيل: باب القرية، وقال أبو علي: باب قرية فيها موسى ـ عليه السلام ـ. وسجَّداً: قال ابن عباس: منحنين ركوعاً. وقال

---

(١) في مسلم والتلخيص: مما وصف لكم.
(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٠٠)، وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥).

فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أَسْتَاهِهِم، وقالوا: حَبَّةٌ في شَعَرَةٍ».

رواه أحمد (٢/٣١٨)، والبخاريُّ (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥)، والترمذيّ (٢٩٥٦).

[٢٨٥٣] وعنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «نحن أحق بالشَّكِّ من إبراهيم؛ إذ قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن؟ قال:

غيره: خضوعاً وشكراً لتيسير الدخول. وحطة: بمعنى حطّ، عنّا ذنوبنا، قاله الحسن. وقال ابنُ جبير: معناه الاستغفار. ثعلب: التوبة. قال الشاعر:

فَازَ بالحِطَّةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّـ ـهُ بِهَا ذَنْبَ عَبْدِهِ مَغْفُورا

الكلبي: تعبّدوا بقولها كفَّارة. وهو مرفوعٌ على أنه خبرُ ابتداءٍ محذوف؛ أي: مسألتُنا وأمرُنا حطّة.

و (قوله: «فدخلوها يزحفون على استاههم») أي: ينجرّون على ألياتهم فِعْل المُقْعَد الذي يمشي على أليته. يقال: زحف الصبي: إذا مشى كذلك، وزحف البعيرُ: إذا أعيا. وقالوا ـ مستهزئين ـ: «حبة في شَعَرةٍ»، وفي غير كتاب مسلم: «حنطة في شعر»، فعصوا، وتمردوا، واستهزؤوا، فعاقبهم بالرجز، وهو العذابُ بالهلاك. قال ابنُ زيد: كان طاعوناً أهلك منهم سبعين ألفاً.

عدم جواز الشك في حقّ الأنبياء

و (قوله: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]») اختلف العلماءُ قديماً وحديثاً في هذا السؤال، هل صَدَر عن شكٍّ وقع، أم لا؟ فهم فرقتان: المثبتة للشك، والنافية له. فالمثبتون: اختلفوا فيمن وقع له هذا الشكُّ، فمنهم مَن قال: إنما وَقَعَ الشكُّ لأمَّة إبراهيم، بدليل أول القصَّة، وهو قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨]، فسأل إبراهيمُ ربَّه تعالى أن يُرِيَه وأمّته كيفيةَ إحياءِ الموتى ليطمئنَّ قَلْبُه بظهور حُجَّته عليهم، وبإزالة الشَّكِّ عنهم. قاله الضَّحَّاكُ، وابنُ إسحاق.

. . . .

ومنهم من قال: الشك من إبراهيم، لكن فيماذا اختلفوا فيه، فمنهم من قال: في الإحياء. حُكِيَ عن ابن عباس أنه قال: دخل قلبَه بعضُ ما يدخل على القلوب، وهذا لا يصحُّ نقلُه، ولا معناه؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى قد أخبر عنه في أول القصة بأنه قال للمحتجِّ عليهم: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ وكيف يجوزُ على الأنبياء مثلُ هذا الشك، وهو كُفْرٌ؛ فإنَّ الأنبياءَ متَّفقون على الإيمان بالبعث. ومنهم مَن قال: وَقَعَ له الشكُّ في كونه خليلاً، أو في كونه مُجابَ الدعوة، فسأل اللَّهَ تعالى ودعاه بأن يُرِيَه إحياءَ الموتى حتى يطمئنَّ قلبُه بذلك. ومنهم مَن قال: وقع له شكٌّ في كيفية الإحياء، لا في أصل الإحياء. قال الحسن: رأى جيفةً نصفها في البر توزّعها السباع، ونصفها في البحر توزّعها دوابُّ الماء، فلما رأى تفرُّقها أحبَّ أن يرى انضمامها، فسأل ليطمئن قلبُه برؤية كيفية الجمع، كما رأى كيفيةَ التفريق. ويتنزل قولُ نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» على هذه الأقوال واحداً واحداً، بحسب ما يليقُ به. وأما النافون للشك فاختلفوا؛ فمنهم من قال: أرى من نفسه الشك، وما شك، ولكن ليجابَ فيزداد قُرْبُه. قال القاضي: وهذا تكلُّفٌ في اللفظ والمعنى. ومنهم من قال: لم يشكَّ إبراهيم، وقولُ نبيِّنا محمد ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيـم» نفي للشكِّ عنه، لا إثبات له، فكأنه قال: نحن موقنون بالبعث وإحياء الموتى، فلو شكَّ إبراهيمُ لكنَّا نحن أولى بذلك منه، على طريق الأدب، وإكبارِ حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ، لا على جهة أنه وقع شكٌّ لواحدٍ منهما. ومنهم مَن قال: إنما جاوب نبيّنا ﷺ بقوله: «نحن أحقُّ بالشك» مَن سَمِعَه يقول: شكَّ إبراهيم، ولم يشكَّ نبيُّنا، فقال ذلك.

قلـتُ: هذه جملةُ ما سمعناه من شيوخنا، ووَقَفْنا عليه في كتب أئمتنا، وكلُّها محتملٌ يرتفعُ به الإشكال، إلا ما حكي عن ابن عباس؛ فإنه قولٌ فاسد، وليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ إبراهيم شكَّ؛ بل: الذي تضمَّنته أنَّ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ سأل أن يشاهدَ كيفيةَ جَمْع أجزاء الموتى بعد تفريقها، واتّصال

. . . .

الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقَّى من علم اليقين إلى عَيْن اليقين، بقوله: «أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية.

و (قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠]) استفهامُ تقرير، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] أي: قد عمرناكم.

و (قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]) أي: بحصول الفرق بين المعلوم برهاناً، والمعلوم عياناً. فإذاً لم يكنْ في الآية ما يدلُّ على شكٍّ وقع لإبراهيم، ولا لنبيِّنا ﷺ وإنما صَدَرَ ذلك من نبيِّنا ﷺ على الفرض الذّهني، والتقدير الشرطي، فكأنه قال: لو شكَّ إبراهيمُ في إحياء الموتى لكنا نحن أحقُّ بالشك منه، ولم نشكّ نحن، فهو أولى وأحقّ بألا يشك، وهذا هو البرهانُ المسمَّى عند أئمتنا النظّار: البرهان الشرطي المتصل، وأهل المنطق يسمُّونه بالقياس الاستثنائي الذي ينتج منه استثناء عين التالي، ونقيض المقدَّم. على ما هو معروف في موضعه.

تثبّت يوسف عليه السلام وصبره على محنة السجن

و (قوله: «ولو لبثتُ في السجن طولَ لبث يوسف لأجبتُ الداعي») يعني به: الداعي الذي دعاه إلى الخروج من السجن المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ...﴾ الآية [يوسف: ٥٠] يصف يوسف - عليه السلام - بالتثبُّت والصبر على المحنة، وأنه أقام في السجن والتَّضييق عليه مدَّةً طويلة، والنفوس متشوِّقة إلى الخروج من الضيق، والحبس الطويل، لا سيما إذا بُشِّر بالتخلُّص، ودُعِي إليه. فمقتضى الطَّبع: المبادرة إلى أول دعوةٍ، والانفلات بمرَّة، لكنه لمَّا جاءه الداعي لم يبادرْ لإجابته، ولا استخفَّه الفرح بالتخلُّص من محنته، لكنه سكن وثَبَت إلى أن ظهرتْ براءتُه وعُلِمت منزلته[1]. ثم إنَّ نبيَّنا ﷺ تأدَّب معه غايةَ الأدب، واعترف له بأنه من التثبت والصَّبر في أعلى الرُّتَب، وحمده على ذلك، وقدَّر أنه: لو امْتُحِن بذلك لبادرَ إلى التخلُّص من ذلك

---

(١) انظره في تفسير القرطبي (١/ ٤١١).

بلى! ولكن لِيَطمئِنَّ قَلبِي. ويَرْحَمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد! ولو لَبِثْتُ في السِّجن طول لَبْثِ يوسفَ لأجبتُ الدّاعي!».

رواه أحمد (٢/٣٢٦)، والبخاريُّ (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) (٢٣٨)، وابن ماجه (٤٠٢٦).

لأوَّل داع. هذا مع أنَّ النبيَّ ﷺ قد أُعطي من التثبُّت في الأمور، والصَّبر على المكاره الحظَّ الأوفرَ، والنصيبَ الأكبر، لكنه تواضع لله، وتأدَّب مع أخيه نبيِّ الله.

معاتبة لوط عليه السلام

و (قوله: «ويرحم اللَّهُ لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد»، وفي الرواية الأخرى: «يغفر اللَّهُ للوط»[1]) هذا تنبيهٌ على قول لوطٍ لضيفه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠] وهذا من النبيِّ ﷺ إشارة إلى أنَّ لوطاً لم يرضَ منه بذلك القول في ذلك الموطن؛ فإنه قد كان انتهى من كمال المعرفة بالله تعالى إلى حالٍ لا يليقُ به فيها أن يلتفتَ إلى غير الله تعالى في كفاية المحن، ودَفْع الشدائد، فلما ضَعف عمَّا كان ينبغي له عُوتِب على ذلك، ونُسِب إلى التَّقصير. والذي أصدر ذلك القولَ من لوط ضيقُ صدره بما لقي من قومه من التكذيب والأذى. وحياؤه من أضيافه عند هَمِّ قومه بالفاحشة، وأنه لم تكنْ له عشيرةٌ، ولا أصحابٌ آمنوا به حتى ينتصر بهم على قومه؛ فإنه لم يؤمنْ به أحدٌ ممن أرسِل إليه غير ابنتيه، ولما أهلك قومُه لم يَنْجُ منهم إلا هو وابنتاه، ومع هذه الأعذار كلِّها لم يُرْضَ منه بأن يصدر منه ذلك في حال تمكّنه وتمكينه. وكان النبيُّ ﷺ أراد مِن لوطٍ أن يكون على مثل حال إبراهيم - عليه السلام - في شدائده، فإنه قال حين رُمي بالمنجنيق، وهو في الهواء، وقال له جبريل - عليه السلام -: ألكَ حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا. ونحو ذلك صَدَر عن نبيِّنا ﷺ حين كان في الغار، والكفار عند فم الغار، فقال لأبي بكر - رضي الله عنه - وقد رأى جزعه: «لا تحزنْ إنَّ الله معنا»[2].

---

(١) هذه الرواية عند البخاري (٣٣٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٠٠٩).

[٢٨٥٤] وعن البراء، قال: كانت الأنصارُ إذا حَجُّوا فرَجَعُوا لَمْ يَدْخُلوا البيوت إلَّا من ظهورِها. قال: فجاء رجلٌ من الأنصار، فدخل من بابه، فقيل له في ذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

رواه البخاريُّ (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦).

والحاصل أن لأهل المعرفة بالله تعالى من الأنبياء، والأولياء حالين: حال حضور ومراقبة، فتتوجه عليهم بحسبها المناقشة والمعاتبة، وحال غيبة وبشرية، فيجرون فيها على الأمور العادية، فتارة يناقشون، وأخرى يُسامَحون، فَضْلاً من الله ونعمة، ورفقاً بهم ورحمة، وقد تقدَّم بسطُ هذا المعنى.

و (قوله: «ولو لبثتُ في السجن لبث[1] يوسف») أي: لو مكثت وأقمت. يقال: لبِث يلبَث بالكسر في الماضي والفتح في المضارع لُبْثاً بضم اللام، وسكون الباء، ولباثاً، وكلاهما على غير قياس؛ لأن المصدرَ من فَعِل بالكسر قياسه التحريك إذا لم يُعَدَّ، مثل: تعب تعباً، وقد جاء في الشعر على القياس. قال جرير:

وَقَدْ أَكُونُ عَلَى الحاجاتِ ذَا لُبَثٍ ... وَأَحْـوَذِيـاً إذا انْضَـمَّ الـذَّعَـالِيـبُ

فهو لابث، ولَبِثٌ أيضاً، وقرىء: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

و (قوله: «كانت الأنصارُ إذا حجُّوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها») إنما كان يفعلون ذلك؛ لأنهم كانوا إذا أحرموا يكرهون أن يحولَ بينهم وبين السماء سقفٌ إلى أن ينقضيَ إحرامُهم، ويصلوا إلى منازلهم، فإذا دخلوا منازلَهم دخلوها من ظهورها. قاله الزُّهري. يعتقدون أن ذلك من البِرِّ والقُرب،

---

(١) في مسلم والتلخيص: طول لبث.

[٢٨٥٥] وعن ابن عباسٍ، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخل قلوبَهُم منها شيءٌ لم يدخلْ قلوبَهُم من شيءٍ. قال النَّبيُّ ﷺ: «قولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا وسَلَّمْنا». قال: فألقى اللَّهُ الإيمانَ في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ....

فنفى اللَّهُ ذلك بقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] ثم بيَّن ما يكون فيه البِرُّ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩] أي: برُّ من اتقى الله، وعمل بما أمره اللَّهُ به من طاعته. ويُستفاد منها: أن الطاعات والقربَ إنما يُتوصَّل إليها بالتوقيف الشَّرعي، والتعريف، لا بالعقل والتخريف. فالبيوتُ على هذا محمولةٌ على حقائقها، وقد قال بعضُ العلماء: إن المراد بها إتيان الأمور من وجوهها، وهو بعيدٌ، وأبعدُ من قول من قال: إن المرادَ بها إتيانُ النساء في فروجهن، لا في أدبارهن، والصحيحُ الأول. وأما القولان الآخران فيؤخذان من موضع آخر، لا من الآية.

يتوصل إلى الطاعات بالتوقيف الشرعي

و (قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]) التكليف هو الأمر بما يشقّ عليه[1]، وتكلفت الشيء: تجشّمته. حكاه الجوهري، والوسع: الطاقة والجِدَة. وهذا خبرٌ من الله تعالى أنه لا يأمرُنا إلا بما نطيقه ويمكننا إيقاعُه عادةً، وهو الذي لم يقعْ في الشريعة غيره، ويدلُّ على ذلك تصفّحها، وقد حُكي الإجماعُ على ذلك. وإنما الخلافُ في جواز التكليف بما لا يمكننا إيقاعُه عقلاً، كالجمع بين الضدين، أو عادةً كالطيران في الهواء، والمشي على الماء، فمِن مجوِّزٍ، ومِن مانع، وقد بيّنّا ذلك في الأصول، واستيفاءُ الكلامِ عليها في عِلْم الكلام.

لا يأمر تعالى إلا بما يطيقه الناس

تنبيـهٌ: الله تعالى بلطفه بنا وإنعامه علينا، وإن كان قد كلَّفنا بما يشق علينا،

---

(١) ليست في (م ٤).

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾، قال: قد فعلت ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾، قال: قد فعلتُ ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال: قد فعلتُ».

رواه مسلم (١٢٦)، والترمذيّ (٢٩٩٥).

* * *

ويثقلُ، كثبوت الواحد للعشرة، وهجرة الإنسان، وخروجه عن وطنه، ومفارقة أهله وولده وعادته، لكنه لم يكلِّفنا بالمشقات المثقلة، ولا بالأمور المؤلمة كما كُلِّف مَن قبلنا؛ إذ كلَّفهم بقتل أنفسهم، وقرض موضع البول من أبدانهم، بل سهّل، ورفق بنا، ووضع عنا الإصر والأغلال التي وضعها على مَن كان قبلنا، فله الحمدُ والمنَّة، والفضل والنعمة.

أفعال العباد مكتسبة

و (قوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] دليل على صحة إطلاق أئمتنا على أفعال العباد: كسباً، واكتساباً؛ ولذلك لم يطلقوا على ذلك: لا خلق، ولا خالق، خلافاً لمن أطلق ذلك من مجترئة المبتدعة، ومن أطلق من أئمتنا على العبد فاعل: فالمجاز المحض كما يعرف في الكلام.

و (قوله: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]) أي: اعفُ عن إثم ما يقعُ منّا على هذين الوجهَيْن أو أحدهما، كقوله ﷺ: «رُفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه»[1] أي: إثم ذلك، وهذا لم يختلفْ فيه: أنّ الإثم مرفوع، وإنما اختلف فيما يتعلّق على ذلك من الأحكام؛ هل ذلك مرفوع لا يلزمُ

---

(١) رواه البيهقي في السنن (٦/ ٨٤) و (٧/ ٣٥٧). وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٠)، وفتح الباري (٥/ ١٦٠ و ١٦١).

(٣) ومـن سـورة آل عمران

[٢٨٥٦] عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ: أنَّ رجالاً من المنافقين، في عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج النَّبيُّ ﷺ إلى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنه، وفَرِحوا بمقعَدِهم خِلافَ رسول الله ﷺ، فإذا قَدمَ النَّبيُّ ﷺ اعتذروا له، وحلفوا،

منه شيءٌ، أو يلزم أحكام ذلك كلّه؟ اختلف فيه. والصحيحُ أنَّ ذلك يختلفُ بحسب الوقائع؛ فقسمٌ: لا يسقط بالخطأ والنسيان باتفاقٍ، كالغرامات والديات والصَّلوات، وقسم: يسقطُ باتفاق، كالقصاص، والنطق بكلمة الكفر ونحو ذلك. وقسم ثالث: يُختلف فيه، وصُوَره لا تنحصر، ويُعرف تفصيل ذلك في الفروع. (أقسام الخطأ والنسيان)

والإصر: الثقل والمشقة الفادحة. وقول ابن عباس في هذا الحديث حكاية عن الله تعالى: «قد فعلت». وقول أبي هريرة في حديثه الذي تقدم في كتاب الإيمان؛ قال: «نعم» دليلٌ على أنهم كانوا ينقلون الحديث بالمعنى، وقد قرَّرنا في الأصول: أن ذلك جائزٌ من العالم بمواقع الألفاظ، وأن ذلك لا يجوزُ لمن بعد الصدر الأول لتغيُّر اللغات، وتباين الكلمات. والمولى: الولي. والناصر: المعين على العدو. والكافر: الجاحد. (حكم نَقْل الحديث بالمعنى)

(٣) ومن سورة آل عمران

(قوله: تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم) تخلّفوا: تأخّروا. والمقعد: القعود. وحديث أبي سعيد هذا يدلُّ على: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لا تحسبن...﴾ الآية نزلتْ في المنافقين، وحديث ابن عباس الذي بعده يدلُّ على أنها نزلتْ في أهل الكتاب، ولا بُعْدَ في ذلك؛ لإمكان نزولها على السببين؛ لاجتماعهما في زمانٍ واحد، فكانت جواباً للفريقين. واللّهُ تعالى أعلم. والمفازة: الموضع الذي يفاز فيه من المكروه. (للعموم صيغ مخصوص)

وأحبُّوا أن يُحْمَدوا بما لَمْ يَفعلوا. فنَزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

رواه البخاريُّ (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).

[٢٨٥٧] عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، قال: إنَّ مروانَ قال: اذهب يا رافع! ـ لبوّابِه ـ إلى ابن عباسٍ فقل: لَئِن كانَ كُلُّ امرىءٍ مِنّا فَرِحَ بما أَتى، وَأَحبَّ أن يُحْمَد بما لَمْ يفعَل، مُعذَّباً، لَنُعَذَّبَنَّ أجْمَعونَ! فقال ابن عبَّاس: ما لَكُمْ ولهٰذِه الآية؟ إنما أُنْزِلَتْ هذِ الآية في أهل الكتاب، ثم

و (قوله: ﴿ولا تحسبن﴾) أي: لا تظننَّ. أي: لتعلموا أنهم غير فائزين من عذاب الله؛ لأنهم كتموا الحق، وأحبُّوا أن يُحمدوا به؛ أي: يُثنى عليهم بأنَّهم عليه. والذين فاعل لتحسبنَّ، ومفعولاها محذوفان؛ لدلالة «تحسبنهم» عليه، وهذا نحو قول الشاعر(١):

بِــأيِّ كِتَــابٍ أَمْ بِــأَيَّــةِ سُنَّــةٍ ... تَرى حُبَّهُمْ عـاراً عَلَيَّ وتَحْسِبُ؟!

اكتفى بذكر مفعولي الفعل الواحد عن ذكر مفعولي الثاني، وهذا أحسنُ ما قيل فيه.

و (قوله: واستحمدوا بذلك عنده) أي: طلبوا أن يُحمدوا.

و (قول مروان لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذباً، لَنُعَذبن أجمعون) دليل على صحة القول بأنَّ للعموم صيغاً مخصوصة، وأن (الذين) منها، وهذا مقطوعٌ به من بعضهم، ذلك من القرآن والسنة.

---

(١) هو الكميت بن زيد الأسدي. انظر: خزانة الأدب (٩/ ١٣٧).

تلا ابنُ عباسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ وتلا ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨٧ ـ ١٨٨]، وقال ابن عباس: سَأَلَهُم النَّبيُّ ﷺ عن شيءٍ فكَتَموه إيَّاهُ، وأَخبَرُوه بِغيْرِه، فخرجوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قد أخبروه بما سألهم عنه، واسْتَحْمَدوا بِذلك إليه، وفَرِحُوا بما أَتوا من كِتْمانهم إيّاه ما سألهم عنه.

رواه البخاريُّ (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨)، والترمذيّ (٣٠١٨).

[٢٨٥٨] وعن أنس بن مالكٍ، قال: «يُقَالُ للكافرِ يومَ القيامة: أرأيتَ لَوْ كانَ لكَ مِلءُ الأرض ذهباً، أكنت تفتدي به؟ فيقولُ: نعم. فيقال: كَذَبْتَ! لقد سئلتَ أيسرَ من ذلك».

رواه أحمد (٣/٢١٨)، والبخاريُّ (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥) (٥٢).

* * *

(٤) ومن سورة النساء

[٢٨٥٩] عن عروة بن الزُّبير، أنَّه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [النساء: ٣]، قالت: يابنَ أُختي! هِي اليتيمة تكون في حَجْرِ وَلِيِّها تُشارِكُه

---

(٤) ومن سورة النِّساء

(قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]) خفتم: فزعتم وفَرِقتم، وهو ضدُّ الأمن، ثم قد يكون الخوفُ منه معلومَ الوقوع

في مالِه، فيُعجبُه مالُها وجمالُها، فيريدُ وَليُّها أن يتزوَّجَها بغير أَنْ يُقْسطَ في صَدَاقها، فيُعْطِيها مثلَ ما يُعْطِيها غيرُه، فَنُهوا أَنْ ينكحُوهن إلا أن يُقسطوا لَهُن، ويَبْلُغُوا بهن أعلى سُنَّتِهن من الصَّداقِ، وأمرُوا أن ينكحُوا ما طاب

وقد يكون مظنوناً، فلذلك اختلف العلماءُ في تفسير هذا الحديث. هل هو بمعنى العلم، أو بمعنى الظن، فقال بعضُهم: خفتم: علمتم، وقال آخرون: خفتم: ظننتم، وحقيقةُ الخوف ما ذكرناه أولاً. وتقسطوا: تعدلوا. وقد تقدَّم: أن أقسطَ بمعنى عدل، وقسط: بمعنى جار. وقد تقدم أن اليتم في بني آدم من قِبَل فَقْد الأب، وفي غيرهم مِن قبل فَقْد الأم، وأن اليتيم إنما أصلُه أن يقال على مَن لم يبلغ، وقد أُطلق في هذه الآية على المحجور عليها ـ صغيرة كانت أو كبيرة ـ استصحاباً لإطلاق اسم اليتيم لبقاء الحَجْر عليها، وإنما قلنا: إن اليتيمةَ الكبيرة قد دخلتْ في الآية؛ لأنَّها قد أُبيح العقدُ عليها في الآية، ولا تنكح اليتيمةُ الصغيرةُ إذ لا إذنَ لها، فإذا بلغتْ جاز نكاحها لكن بإذنها، كما قال النبيُّ ﷺ فيما خرَّج الدارقطني، وغيره في بنت عثمان بن مظعون، وأنها يتيمة، ولا تنكح إلا بإذنها[1]، وهذا مذهبُ الجمهور خلافاً لأبي حنيفة، فإنه قال: إذا بلغت لم تحتج إلى وليٍّ، بناءً على أصله في عدم اشتراط الولي في صحة النكاح ـ كما قدمناه في كتاب النكاح ـ.

معنى اليتم

و (قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]) قد تقدَّم أنَّ (ما) أصلُها لما لا يعقل، وقد تجيءُ بمعنى الذي، فتطلق على مَن يعقل كما جاءت في هذه الآية؛ فإنها فيها للنساء، وهنَّ ممن يعقل، ولا يُلتفت لقول من قال: إن المرادَ بها ـ هنا ـ العقد؛ لقوله تعالى بعد ذلك (من النساء) مبيِّناً لمبهم (ما).

و (قوله: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾) قد فهم من هذا مَن بَعُدَ فهمه للكتاب

---

(١) رواه الدارقطني (٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

لهم من النساء سِوَاهُنَّ. قال عروةُ: قالت عائشةُ: ثمّ إنَّ النَّاس اسْتَفْتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهنّ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، قالت: والذي ذكرَ الله: أنَّه يُتْلَى عليكم في الكتاب الآية الأولى الذي قال الله فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا﴾ [النساء: ٣]، قالت: وقول الله في الآية الأخرى: وتَرْغَبُون أَن تَنْكِحُوهُن، رَغْبَة أحدِكم عن يتيمته التي

والسنة، وأعرض عمَّا كان عليه سلفُ هذه الأمة، وقلَّ علمُه باللسان واللغة؛ أنه يجوزُ لنا أن ننكح تسعاً، ونجمع بينهن في عصمةٍ واحدة من هذه الآية، وزعم أن الواو جامعة، وعضَّد ذلك بأن النبيَّ ﷺ نكح تسعاً، وجمع بينهن في عصمة. والذي صار إلى هذه الجهالة: الرافضة، وطائفة من أهل الظاهر. فجعلوا مثنى وثلاث ورباع مثل اثنين، وثلاث، وأربع، وبينهما من الفرقان ما بين الجماد والإنسان، فإنَّ أهلَ اللغة مُطْبِقون على الفرق بينهما، ولا نعلمُ بينهم خلافاً في ذلك، وبيانُ الفرق: أن العربَ إذا قالت: جاءت الخيلُ مثنى مثنى إنما تعني بذلك: اثنين، اثنين. أي: جاءت مزدوجة. قال الجوهري: وكذلك جميع معدول العدد.

قلتُ: وعلى هذا جاء قولُه تعالى في وصف الملائكة: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] ويعلم على القطع والبتات: أنه لم يردْ هنا توزيع هذه الأعداد على الملائكة حتى يكونوا هم: أولي تسعة أجنحة يشتركون فيها، ولا أنه جمع كلّ واحد من آحاد الملائكة تسعة أجنحة. وتلزم هذه الفضائح مَن قال بالجمع في آية النكاح، إذ لا فرقَ بين هاتين الآيتين في هذا اللفظ في العدل[١]،

---

(١) في (م ٤): العدول. وانظر في هذا بحثاً قيّماً للقرطبي في تفسيره. الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٥).

تكون في حَجْره، حين تكونُ قليلة المال والجمالِ، فنُهوا أن ينكحُوا ما رَغِبُوا في مَالِها، وجمالِها من يتامى النِّساءِ إلَّا بالقِسْط من أَجْلِ رغبتهِم عنْهنّ.

والعطف بالواو الجامعة، وإنما المراد: أنَّ اللَّهَ تعالى خلق الملائكةَ أصنافاً، فمنهم صنفٌ جَعَل لكلّ واحد منهم جناحين، ومنهم صنف جعل لكل واحد منهم ثلاثة، ومنهم صنف جعل لكل واحدٍ منهم أربعة، وكذلك آية النكاح معناها: أنَّ الله تعالى أباح لكلِّ واحدٍ منهم من الزوجات ما يقدرُ على العدول فيه، فمن يقدرُ على العدل في اثنتين أُبيح له ذلك، ومن يقدرُ على العدل في أكثر أُبيح له ذلك، فإن خافَ أَلَّا يعدلَ فواحدة كما قال تعالى، وغايةُ الإباحة أربع؛ لأنه انتهى إليهن في العدد، ولقول النبيِّ ﷺ لغيلان بن أمية: «أمسكْ أربعاً، وفارق سائرهن»[1] ولأنه لم يُسْمَعْ عن أحد من الصحابة، ولا التابعين: أنه جَمَع في عصمته بين أكثر من أربع، وما أُبيح للنبيِّ ﷺ من ذلك، فذلك من خصوصياته، بدليل: أنَّ أصحابَهُ قد علموا ذلك، وتحقَّقوه، فلو علموا أن ذلك مُسوَّغٌ لهم لاقتدوا به في ذلك، فكانوا يجمعون بين تسع، فإنهم كانوا لا يعدلون عن الاقتداء به في جميع أفعاله، وأحواله، ويبادرون إلى ذلك مبادرة مَن عَلِم: أنَّ التوفيقَ والفلاح، والحصول على خير الدنيا والآخرة في الاقتداء به، فلولا أنهم علموا خصوصيته بذلك لما امتنعوا منه، وما يروي الرافضةُ في ذلك عن علي، أو غيره من السَّلف، فغيرُ معروفٍ عند أهل السُّنَّة، ولا مأخوذٍ عن أحد من علماء الأمة، وكيف لا؟ وقوله لغيلان قد بيَّن القدرَ المباح غاية البيان، وهو مِن الأحاديث المعروفة المشهورة عند كل أحدٍ، بحيث لا يحتاج فيه إلى إقامة سند. وقد ذهب بعضُ أهل الظاهر إلى إباحة الجمع بين ثماني عشرة، تمسُّكاً بأن العدل في تلك الصِّيغ يفيدُ التكرار لما لم يمكنه لذلك إنكار، لكنه لما حمل الواو على الجمع جمع بين هذه الأعداد، وقَصَر كلّ صيغة

غاية الإباحة في النكاح أربع نسوة

زواجه ﷺ بأكثر من أربع من خصوصياته

---

(١) رواه ابن حبان (٤١٥٧ و ٤١٥٨)، والبيهقي (٧/ ١٨١).

وفي روايةٍ: قالـت: أُنزِلتْ في الرجلِ تكون له اليتيمة، وهو وليُّها ووارثُها، ولها مالٌ، ولَيس لَها أحدٌ يُخاصِمُ دُونها فلا يُنْكِحُها لِمالها فيَضُرُّ بها، ويُسيء صُحْبَتها. فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]. يقولُ: ما أَحْلَلْتُ لكُمْ. ودَعْ هَذه التي تَضُرُّ بها.

من العدد المعدود على أقله، فجعل: مثنى بمعنى: اثنين واثنين، وثلاث: بمعنى ثلاث وثلاث، ورباع: بمعنى أربع وأربع. وهذا القائلُ أعور بأي عينيه شاء، فإن كل ما ذكرناه يُبطل دعواه، ونزيدُ هنا نكتةً تضمَّنها الكلام المتقدم، وهي أن قَصْره كلَّ صيغةٍ على أقلّ ما تقتضيه بزعمه، تحكّم بما لا يوافقه أهلُ اللسان عليه، ولا يرشدُ معنى الاثنين إليه؛ لأن مقصودَ الآية إباحةُ نكاح اثنتين لمن أراد، ونكاح ثلاث لمن أراد، ونكاح أربع لمن أراد، وكلُّ واحد من آحاد كلِّ نوع من هذه الثلاثة لا ينحصرُ، فكلُّ اثنين، وثلاث، وأربع لا ينحصر، فقصره على بعض أعداد ما تضمّنه ذلك مخالفٌ لمقصود الآية، فتفهَّمْ ذلك؛ فإنه من لطيف الفهم، وللكلامُ في هذه الآية متّسع، وفيما ذكرناه تنبيهٌ ومقنع.

وبعد أن فهمتَ أفرادَ تلك الكلمات، فاعلمْ أن العلماءَ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، وفي معناها، فذهبت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ إلى ما ذكر في الأصل عنها، وحاصلُ الروايات المذكورة عنها: أنها نزلتْ في ولي اليتيمة التي لها مال، فأراد وليُّها أن يتزوَّجها، فَأُمِر بأن يوفيها صداق أمثالها، أو يكونَ لها مالٌ عنده بمشاركةٍ أو غيرها، وهو لا حاجةَ له لتزويجها لنفسه، ويكره أن يزوّجها غيره مخافةَ أخذ مالها من عنده، فأمر اللَّهُ الأولياءَ بالقسط، وهو العدلُ، بحيث: إن تزوَّجها بَذَل لها مَهْرَ مثلها، وإن لم تكنْ له رغبةٌ فيها زوَّجها مِن غيره، وأوصلها إلى مالها على الوجه المشروع، وتكميل معنى الآية: أنّ اللَّهَ تعالى قال للأولياء: إن خفتم ألَّا تقوموا بالعدل، فتزوَّجوا غيرهنّ، ممن طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين إن شئتم، وثلاثاً ثلاثاً لمن شاء، وأربعاً أربعاً لمن شاء. هذا قولُ عائشة في

وفي أخرى: أنزلتْ في اليتيمة، تكونُ عند الرَّجُلِ، فَتَشرَكُه في مالِه، فيَرْغَبُ عَنها أن يتزوجها، ويكره أن يُزوِّجَها غيره فيَشْرَكُهُ في مالِه، فيَعْضِلُها، فلا يَتزوَّجُها ولا يُزوِّجها غَيْرَه.

رواه البخاري (٤٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨) (٦ و ٨)، وأبو داود (٢٠٦٨)، والنسائي (٦/ ١١٥).

الآية. وقال ابن عباس في معنى الآية: إنه قصر الرجال على أربع؛ لأجل أموال اليتامى. فنزلت جواباً لتحرُّجهم عن القيام بإصلاح أموال اليتامى. وفسَّر عكرمة قولَ ابن عباس هذا بألَّا تكثروا من النساء، فتحتاجوا إلى أَخْذ أموال اليتامى. وقال السديُّ وقتادة: معنى الآية: إن خفتم الجَوْرَ في أموال اليتامى فخافوا مثله في النساء، فإنهن كاليتامى في الضعف، فلا تنكحوا أكثر مما يمكنكم إمساكهن بالمعروف.

قلتُ: وأقربُ هذه الأقوال وأصحُّها: قول عائشة ـ إن شاء الله تعالى ـ. وقد اتفق كلُّ من يعاني العلوم على: أن قولَه تعالى: ﴿وإن خفتم ألَّا تقسطوا في اليتامى﴾ ليس له مفهوم؛ إذ قد أجمع المسلمون على: أن من لم يَخَفِ القسط في اليتامى له أن ينكحَ أكثر من واحدة: اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، كمن خاف. فدلَّ ذلك على: أنَّ الآيةَ نزلتْ جواباً لمن خاف، وأن حُكْمها أعمُّ من ذلك، وفي الآية مباحثُ تُسْكِت الناقث[1]. والمعدولة عن أسماء العدد صفات، وقيل: للعدل والتأنيث؛ لأن أسماءَ العدد مؤنثة، وقيل: لتكرار العدد في اللفظ، والمعنى: لأنه عدل عن لفظ اثنين إلى لفظ مثنى، وإلى معنى: اثنين اثنين، ومبدأُ العدل آحاد، ومنتهاه رُباع، ولم يُسْمَعْ فيما فوق ذلك إلا في عُشار في قول الكميت:

وَلَمْ يَسْتَرِيثُوكَ حَتَّى رَمَيْـ ـتَ فَوْقَ الرِّجالِ خِصالاً عُشارا

---

(١) «الناقث»: نَقَث حديثه: إذا خلطه كخلط الطعام. ونَقَثَ العظم: استخرج مُخَّه. ونَقَث عن الشيء: إذا حَفَر عنه.

[٢٨٦٠] وعنها؛ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦]، قالت: أُنزِلَتْ في وَالي اليتيم الذي يقومُ عليه ويُصلِحهُ، إذا كان مُحْتاجاً أن يأكلَ مِنْهُ.

في أخرى: بقدر ماله بالمعروف.

رواه البخاريُّ (٤٥٧٥)، ومسلم (٣٠١٩) (١٠ و ١١).

وتختلفُ صيغ المعدول عن العدد، فيقال: موحد وآحاد وأحد، ومثنى، وثنا، وثناي، ومثلثٌ وثَلَاثٌ وثُلَثٌ، ومَرْبَعٌ ورُبَاعٌ وربَعٌ. وقرأ النخعي: (ثلث) و (ربع).

حُكم أكل الولي من مال اليتيم

و (قول عائشة في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦]: أنزلت في والي اليتيم) فعلى هذا: المراد بها أولياء الأيتام، وهو قولُ الجمهور. وقال بعضُهم: المراد به اليتيم إن كان غنياً وسّع عليه وأعفّ من ماله، وإن كان فقيراً أنفق عليه بقدره، وهذا في غاية البُعْد؛ لأن اليتيمَ لا يخاطبُ بالتصرُّف في ماله لصغره، ولسفهه؛ ولأنه إنما يأكلُ من ماله بالمعروف على الحالين، فيضيعُ التّنويعُ والتقسيم المذكور في الآية، وعلى قولِ الجمهور فالولي الغني لا يأخذُ من مال يتيمه شيئاً، ولا يستحق على قيامه عليه أجراً دنيوياً؛ بل: ثواباً أخروياً، وأما الفقير، فاختلف فيه، هل يأخذ من مال يتيمه شيئاً؛ أم لا؟ فذهب زيد بن أسلم إلى أنه: لا يأخذ منه شيئاً وإن كان فقيراً، وحكي ذلك عن ابن عباس بناءً على أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا... الآية﴾ [النساء: ١٠] وقيل: بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قلــتُ: وهذا لا يصح النسخ فيه لعدم شرطه؛ إذ الجمع ممكن؛ إذ الأخذ الذي أباحه اللّهُ تعالى ليس ظلماً، ولا أَكْلَ مالٍ بالباطل، فلم تتناوله الآيتان. وهذا هو القولُ بالموجب. وذهب جمهورُ المجوّزين إلى إباحة الأخذ، لكنهم اختلفوا

[٢٨٦١] وعن زيدِ بن ثابتٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ، خرج إلى أُحُدٍ، فرَجَعَ ناسٌ مِمَّن كان مَعَه، فكانَ أصحابُ النبيِّ ﷺ فيهم فرقتين. قال بعضهم: نَقْتُلُهُمْ. وقال بعضهم: لا. فنزلتْ: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨].

رواه البخاريُّ (٤٠٥٠)، ومسلم (٢٧٧٦)، والترمذيُّ (٣٠٣١).

في القَدْر المأخوذ، وفي قضاء المأخوذ، وفي وَجْه الأخذ، فروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن أكلتَ قضيت، وبه قال عبيدة السلماني، وأبو العالية، وهو أحدُ قولي ابن عباس وعكرمة، وقال مَنْ عدا هؤلاء: إنَّ له الأَخْذَ ولا قضاءَ عليه، لكنهم اختلفوا في وَجْه الأخذ، فذهب عطاءٌ إلى أنه يأخذُ بقَدْر الحاجة[1]، وقال الضحّاك: يضارب بماله، ويأكل من ربحه. الحسن: يسدّ الجَوْعة، ويستر العورة. الشعبي: من التمر واللبن. وقد رُوي هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يأكل، ويشرب، ويركب الظهر غير مضرٌ بنَسْلٍ ولا ناهكٍ في الحلب. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وعليه مذهبُ مالك.

قلـتُ: والصحيح من هذه الأقوال ـ إن شاء الله ـ أن مالَ اليتيم إن كان كثيراً يحتاجُ إلى كثير قيامٍ عليه، بحيث يشغلِ الولي عن حاجاته ومهماته، فرض له فيه أجرة عمله، وإن كان قليلاً مما لا يُشغِلُه عن حاجاته فلا يأكل منه شيئاً، غير أنه يستحبُّ له شربُ قليلِ اللبن، وأكلُ القليل من الطعام والتمر، غير مُضرٌ به، ولا مُستكثر له؛ بل: ما جرتْ به العادةُ بالمسامحة فيه. وما ذكرته من الأجرة، ونيل القليل من الثمر واللبن كلّ واحد منهما معروف، فصلح حَمْل الآية على ذلك، والله أعلم.

و (قوله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨]) أي: فريقين

---

(١) في (ز): الخدمة.

[٢٨٦٢] وعن قيسِ بنِ عُبَادٍ، قال: قلنا لعمَّارٍ: أرأيتَ قِتالَكم؛ أرأياً رأَيْتمُوهُ؟ ـ فإنَّ الرأي يُخطىء ويصيبُ ـ أو عهداً عَهِدَه إليكم رسولُ الله ﷺ؟ فقال: ما عَهِدَ إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يَعْهَدْهُ إلى الناس كافَّة. وقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ مِنْ أمَّتي ـ أو في أمتي ـ اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنَّة، ولا يجدون ريحها حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ

مختلفين في قتلهم، ويعني بالمنافقين: عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه الذين خذلوا رسولَ الله ﷺ يومَ أُحُد، وَرَجعُوا بعسكرهم، بعد أن خَرَجُوا معه إلى أحد، فلم يأمر اللَّهُ بقتلهم؛ لما علم من المفسدة الناشئة عن ذلك، وهي التي نصَّ عليها النبيُّ ﷺ حيث قال: «لئلا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابه»[١]. ثم قال بعد هذا: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء: ٨٨] أي: بكسبهم، عن الزجَّاج. ابن عباس: أي: ردَّهم إلى كفرهم. قتادة: أهلكهم. السدِّيّ: أضلّهم. وكلّها قريب بعضه من بعض. وقيس بن عُبَاد: هو بضم العين وفتح الباء الموحدة وتخفيفها.

و (قول عمَّار: ما عهد إلينا رسولُ الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة) تكذيبٌ من عمّار للشيعة فيما يدَّعونه، ويكذبون به على رسول الله ﷺ وعلى عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في يوم غدير خُمّ وغيره. وقد تقدَّم هذا المعنى. والدُّبيلة: الداهية. يقال: دبَلتهم الدُّبيلة؛ أي: أصابتهم الداهية. حكاها أبو عبيد، وصيغتها صيغة التصغير؛ يُراد به التكثير، كما يقال:

.... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأنَامِلُ[٢]

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٩٣)، والبخاري (٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤) (٦٣).

(٢) عجز بيت للبيد، وصدره:

وكلُّ أناسٍ سوفَ تدخُلُ بينهم

الخِيَاط، ثمانيةٌ مِنهم تَكْفيكَهُمُ الدُّبَيْلة، سِراجٌ من نارٍ، يَظهرُ في أكتافهم حتّى يَنْجُمَ مِن صدورهم».

رواه أحمد (٤/ ٣٢٠)، ومسلم (٢٧٧٩) (١٠).

[٢٨٦٣] وعن عائشة: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا...﴾ الآية [النساء: ١٢٨]، قالت: أنزلت في المرأة تكون عند الرجل، فَلَعَلّه ألّا يستكثر منها، ويكونُ لها صحبةٌ ووَلَدٌ فتكره أن يفارقها، فتقول له: أنْتَ في حِلٍّ من شأني.

رواه البخاريُّ (٤٦٠٠)، ومسلم (٣٠٢١) (١٤).

والأظهر: أنه اسمٌ سمِّي به مصغراً كما قالوا: كميت. وأراد به هنا الورم المهلك الذي يخرجُ بين الكتفين، والظاهر: أن المرادَ بالحديث: أن الله تعالى يهلك هؤلاء الثمانية من المنافقين بهذا الداء في الدنيا، ولذلك قال: «تكفيكهم الدُّبيلة» أي: يميتهم اللَّهُ بها.

و (قوله: «حتى ينجم من صدورهم») أي: تبلغ إلى قلوبهم، وتنفذ في صدورهم. والله أعلم. وسمّ الخياط: ثقب الإبرة. والسمُّ: الثقب في كلِّ شيءٍ، يقال: في فتح السين وضمها، وكذلك السمُّ القاتل، ويجمعان على سموم وسمام. ومسامّ الجسد: ثُقَبُه. والجمل: واحد الجمال، ودخول الجمل في ثقب الإبرة محال، والمعلق على المحال محال، فدخول المنافقين الجنة محال، وهذا من نحو قول العرب:

إذا شابَ الغرابُ رجعتُ أهـ ـلي وصار القارُ كاللبن الحليب

أي: شيب الغراب وبياض القار لا يكونان، فرجوعُه إلى أهله لا يكون.

و (قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨]) البعل: الزوج. والنشوز: البغض. والإعراض: الميل عنها إلى غيرها. والجناح: الإثم

[٢٨٦٤] وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: قلت لابن عباسٍ: أَلِمَن قَتَلَ مُؤمِناً مُتعمِّداً مِنْ تَوْبَة؟ قال: لا. فتَلَوْت عليه هذه الآية التي في الفرقان:

والحرج. ويصَّالحا ـ بتشديد الصاد ـ أي: يتصالحا؛ أي: يعقدان بينهما صلحاً على ما يجوز كإسقاط مَهْر، أو قَسْم، أو غير ذلك. وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: يعطيها مالاً؛ ليحوِّل قَسْمها. وقرأه الكوفيون: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ من أصلح، ويكون صلحاً مفعولاً، لا مصدراً. ويكون المعنى: أن يعقدا بينهما عقد صلح، أو يفعلا صلحاً.

و (قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]) أي: من النشوز، قاله الزجَّاج. من الفُرْقة: ابن عباس.

قبول توبة القاتل العمد

وقول سعيد بن جبير لابن عباس: ألمن قَتَل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال: لا... الحديث. هذا هو المشهور ـ عن ابن عباس ـ وقد روي عنه: أن توبته تُقبل، وهذا هو قولُ أهل السُّنَّة، والذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، وكقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وأما السنة فكثيرة، كحديث عُبادة بن الصَّامت الذي قال فيه: «تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفَّارة له، ومَن أصاب شيئاً من ذلك فَستره اللَّهُ عليه، فهو إلى اللَّهِ، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه»[1]. وكحديث

---

(١) رواه البخاري (٧٢١٣)، ومسلم (١٧٠٩)، والترمذي (١٤٣٩)، والنسائي (٧/١٤٨).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية [الفرقان: ٦٨]. قال: هذه آيةٌ مكيَّةٌ نَسَخَتْها آيةٌ مَدَنِية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣].

أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في الذي قتل مئة نفس، وكحديث جابر في الذي قتل نفسه بقطعه براجمه، وقد تقدَّم كلُّ ذلك.

و (قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذه آيةٌ مكية نسختها آيةٌ مدنية) قولٌ لا يليقُ بعلم ابن عباس، ولا بفهمه؛ لأنه إن أراد به حقيقةَ النسخ كان غير صحيح؛ لأنَّ الآيةَ خبرٌ عن وقوع العذاب بمن فعل تلك الأمور المذكورة في الآية، والنسخ لا يدخل الأخبار، كما قرَّرناه في الأصول، سَلَّمنا أنه يدخلها النسخ، لكن الجمع بين الآيتين ممكن بحيث لا يبقى بينهما تعارض، وذلك بأن يُحملَ مطلقُ آية النساء على مقيّد آية الفرقان، فيكون معناها: فجزاؤه جهنّم إلا من تاب، لا سيما وقد اتَّحد الموجِبُ، وهو القتل، والموجَبُ؛ وهو المتوعَّد بالعقاب، وقد قلنا في أصول الفقه: إن مثل هذه الصورة مُتَّفق عليها. وقد تأول جمهورُ العلماء آيةَ سورة النساء تأويلات:

النسخ لا يدخل الأخبار

إحداها: أن المتعمد: المعنى فيها هو المستحلّ لقتل المسلم، ومن كان كذلك كان كافراً.

وثانيها: أن قوله: ﴿فجزاؤه جهنم﴾ لا يلزم منه دخوله في جهنم ولا بُدَّ؛ لأنَّ معناه: إن جازاه، وقد رُفِع هذا التّقييد إلى النبي ﷺ.

قلــتُ: وتحرّي هذا القول؛ أنّ قوله: ﴿فجزاؤه جهنم﴾ هو خبرٌ عن استحقاقه لذلك، لا عن وقوع ذلك، ويجوز العفو عن المستحق، وحاصلُه راجعٌ إلى القول بموجب الآية، فلا دلالةَ فيها.

وثالثها: أن الخلود ليس نصّاً في التأبيد الذي لا انقطاعَ له، بل مقتضاه:

وفي روايةٍ: فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٧٠].

رواه مسلم (٣٠٢٣) (١٩ و ٢٠).

[٢٨٦٥] وعن ابن عباس، قال: لقي ناسٌ من المسلمين رجلاً في غُنَيْمةٍ له، فقال: السَّلام عليكم، فأَخَذُوه فقتلوه، وأخذوا تلك الغُنَيْمَةَ، فنزلت: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلَم[1] لست مؤمناً﴾ [النساء: ٩٤]. وقرأها ابن عباس: (السَّلام)[2].

رواه البخاريُّ (٤٥٩١)، ومسلم (٣٠٢٥)، وأبو داود (٣٩٧٤)، والترمذيُّ (٣٠٣٣).

تطويل الآماد، وتكرير الأزمان، ما لم يردْ معه من القرائن ما يقتضي التأبيدَ، كما ورد في وعيد الكفار، فيجوزُ أن يدخلَ القاتلُ في جهنم، ويُعذَّبَ فيها ما شاء اللَّهُ من الأزمان، ثم يلحقه ما يلحق الموحِّدين من الشفاعة والغفران، والله تعالى أعلم.

و (قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]) هذه قراءةُ ابن عباس وجماعة من القراء، السلام بألف، يعنون به التحية، وقرأه جماعةٌ أخرى: السّلم بغير ألف، يعنون بذلك: الصلح، والقراءتان في السّبع، وقرأ ابن وثاب: السِّلْم ـ بكسر السين وسكون اللام ـ: وهي لغة في السلم، الذي هو الصلح.

و (قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤]) أي: تريدون المال، وما يعرضُ من الأعراض الدنيوية.

---

(١) وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة وأبي جعفر وخلف ووافقهم الحسن والأعمش.

(٢) وهي قراءة الباقين.

[٢٨٦٦] وعن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ المنافقِ كَمَثَلِ الشّاةِ العائرةِ بين الْغَنَمين. تَعِيرُ إلى هذِه مرةً، وإلى هذه أخرى».

وفي رواية: «تكِرُّ ـ بدل ـ تعير».

رواه أحمد (٢/٦٨)، ومسلم (٢٧٨٤) (١٧)، والنَّسائي (٨/ ١٢٤).

* * *

و (قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤]) أي: إن اتقيتم الله، وكففتم عمَّا ينهاكم عنه سلَّمكم وغنَّمكم.

و (قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ [النساء: ٩٤]) أي: قبل الهجرة حين كنتم تخفون الشهادة. وقيل: من قبل أن تعرفوا الشهادة. ﴿فمنَّ الله عليكم﴾ أي: بالإسلام، وبإعزازكم بمحمد ﷺ. ﴿فتبيَّنوا﴾: من البيان، وتثبَّتوا: من التثبُّت. والقراءتان في السبع، وتفيدان: وجوب التوقف والتبيّن عند إرادة الأفعال إلى أن يتَّضح الحقُّ، ويرتفع الإشكال.

التوقف عند إرادة الأفعال

و (قوله: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنَمين تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرَّة») العائرة: المتردِّدة، وتعير: ترجع وتكرُّ، وإنما ثنَّى الغنم، وإن كانت اسم جنس؛ لأنه أراد قطعتين منها. وهذا الحديثُ مناسبٌ لقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

* * *

(٥) ومن سورة العقود

[٢٨٦٧] عن طارقِ بن شهابٍ، قال: جاء رجُلٌ من اليهود إلى عُمَرَ، فقال: يا أميرَ المؤمنين! آيةٌ في كتابكم تقْرؤونَها؛ لَوْ عَلَيْنا نزلت مَعْشَرَ اليهودِ، لاتَّخَذْنا ذلك اليومَ عِيداً! قال: وأيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقال عُمَرُ: إنِّي لأعلَمُ اليومَ الذي أنزلتْ فيه. والمكان الذي أنزلتْ فيه. نزلتْ على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم جُمُعَة.

رواه البخاريُّ (٤٦٠٦)، ومسلم (٣٠١٧) (٥)، والترمذيّ (٣٠٤٦)، والنسائي (٨/ ١١٤).

---

(٥) ومن سورة العقود[1]

(قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]) يعني باليوم: يوم عرفة في حجة الوداع التي نزلت فيها هذه الآية، كما جاء في هذا الحديث من قول عمر ـ رضي الله عنه ـ وهذا أولى من قول مجاهد: هو يومُ فتح مكة. ودينكم؛ أي: شرائع دينكم؛ فإنها نزلتْ نجوماً، وآخر ما نزلَ فيها هذه الآية، ولم ينزل بعدها حُكْم. قاله ابنُ عباس. وقال القتبي: يعني برفع النسخ. قتادة: يعني أمر حجّكم؛ إذ لم يحجّ في تلك السَّنة مشرك، ولا طاف بالبيت عُرْيان، ووقف الناسُ كلُّهم بعرفة.

شرائع الدين نزلت نجوماً

و (قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾) أي: بإكمال الشرائع والأحكام، وإظهار دِيْن الإسلام. ورضيتُ لكم الإسلام ديناً؛ أي: أعلمتكم برضاي به لكم دِيْناً، فإنه تعالى لم يزلْ راضياً بالإسلام لنا ديناً، فلا يكون لاختصاص الرِّضا بذلك اليوم فائدة إن حَملناه على ظاهره، ويحتملُ أن يريد: ورضيتَ الإسلام لكم ديناً؛ قائماً بكماله لا أنسخ منه شيئاً، والله تعالى أعلم.

إكمال الشرائع والأحكام نعمة ربانية

---

(١) هي سورة المائدة.

[٢٨٦٨] وعن ابن عمَر، قال: خطب عمرُ على منبر رسول الله ﷺ، فحَمِدَ اللَّهَ وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بَعْدُ! ألا وإن الخمر نزل تحْريمُها، يوم نزل، وهي من خمسة أشياء: من الحنطة، والشَّعير، والتَّمر، والزَّبيب، والعسل. والخمرُ ما خَامر العقلَ. وثلاثةُ أشياءَ ودِدْت ـ أيها النَّاسُ! ـ أنّ رسول الله ﷺ كان عَهدَ إلينا فيها: الجَدُّ، والكَلالَةُ، وأَبْوابٌ من أبْوابِ الرِّبا.

وفي روايةٍ: العنب ـ بدل ـ الزبيب. وكان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه.

رواه البخاريُّ (٤٦١٩)، ومسلم (٣٠٣٢) (٣٢ و ٣٣)، وأبو داود (٣٦٦٩)، والترمذي (١٨٧٤ و ١٨٧٥)، والنسائي (٨/ ٢٩٥).

[٢٨٦٩] وعن ابن شهاب، قال: سمعتُ سعيدَ بنَ المسيَّب يقولُ: إنَّ البَحِيْرة التي يُمْنعُ دَرُّها للطّواغيت فلا يحلُبُها أَحَدٌ من النَّاسِ، وَأما السائِبَةَ التي كانوا يُسَيِّبونَها لآلهتهم، فلا يُحْمَلُ عَلَيها شيءٌ. وقال

و (قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: أَلَا وإن الخمرَ نزلَ تحريمُها يوم نزل، وهي من خمسة أشياء. . . الحديث) دليلٌ واضحٌ يقاربُ القطعَ بأن النبيذَ يُسمَّى خمراً، وأن اسمَ الخمر ليس مقصوراً على ما يعتصرُ من العنب، وأن الخمر كلّ ما خامر العقل؛ فإنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قال بذلك، ونصّ عليه في معدِن الفصاحة، وبين خِيار أهل البلاغة، وهم مَن هم علماً وفضلاً، وقوّة وعدلاً، لا يخافون في الله لومةَ لائم، ولا يبالون في الحق باقتحام العظائم، فلو لم يكن ما قاله لسانُهم، ومعرفة ذلك شأنهم لبادروا بالإنكار، ولما وُجِد منهم صحيحُ ذلك الإقرار. وقد تقدَّم القولُ على هذا الحديث في الأشربة، وفي الصلاة. وتقدَّم القولُ أيضاً في البحيرة، والسائبة في الكسوف.

لا تقتصر الخمر على ما يعتصر من العنب

ابنُ المسيَّب: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بنَ عامرٍ الخُزَاعِيَّ يجرُّ قُصْبَهُ في النَّارِ، وكان أَوّلُ مَن سَيَّب السَّوَائِب».

وفي روايةٍ: «عمرو بن لُحَيِّ بنِ قَمَعَةَ بن خِنْدِفَ، أخا بني كعبٍ هؤلاء».

رواه أحمد (٢/ ٣٦٦)، والبخاريّ (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) (٥٠ و ٥١).

[٢٨٧٠] وعن أبي هريرة، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «لَوْ تَابَعَني من اليهود عشرةٌ لم يَبْقَ على ظهرها يهوديٌّ إلا أَسْلَم».

رواه البخاريُّ (٣٩٤١)، ومسلم (٢٧٩٣).

* * *

و (قوله ﷺ: «لو تابعني من اليهود عشرةٌ لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم») يعني ـ والله تعالى أعلم ـ عشرة معيَّنين، وكأنهم كانوا رؤساءَ اليهود وزعماءَهُمْ، وذوي رأيهم في ذلك الوقت، فلو أسلموا لتابعهم مَن دُونهم مِن أتباعهم، ولو كان ذلك لأصْفَقَت[1] يهودُ المدينة وجهاتها على الدخول في الإسلام، وعليها إعادة الضمير في قوله: لم يبق على ظهرها.

* * *

(١) «أصفقت»: اجتمعت.

(٦) ومن سورة الأنعام

[٢٨٧١] عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق اللَّهُ التُّربةَ يومَ السَّبتِ، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحد، وخَلَقَ الشَّجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يومَ الثُّلاثاء، وخَلَقَ النُّور يومَ الأربعاء، وبثَّ فيها الدّوابَّ يومَ الخميس، وخلق آدمَ ـ عليه السلام ـ بَعْدَ العصرِ من يومِ الجمعَة في آخرِ الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعةِ، فيما بين العصر إلى الليل».

رواه أحمد (٢/ ٣٢٧)، ومسلم (٢٧٨٩).

---

(٦) ومن سورة الأنعام

(قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي فقال: «خلق اللَّهُ التربةَ يوم السَّبت. . . الحديث») ذكر هذا الحديث هنا؛ لأنه مُفصِّل لما أجمله قـولُـه تعـالـى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، والتربة: التراب؛ أي: الأرض، وكأنه خَلَقَ الترابَ يوم السبت غير مُنْعَقِد، ولا متجمِّد، ثم يوم الأحد جمَّده، وجعل منه الجبالَ أرسى بها الأرض، وكَمُلَ خَلْقُ الأرض بجبالها في يومين.

مدّة خَلْق الأرض

و (قوله: «وخلق الأشجار يوم الإثنين، وخَلَق المكروه يوم الثلاثاء») أي: ما يُكره مما يُهلِك، أو يُؤلم كالسّموم، والخِشاش[1]، والحيوانات المضرّة، وقد ذكر هذا الحديثَ ثابتٌ في كتابه، وقال فيه: «وخلق التقن يوم الثلاثاء» بدل «المكروه» قال: والتِّقْن: ما يقومُ به المعاش، ويصلحُ به التدبير كالحديد وغيره من

(١) «الخِشاش»: حشرات الأرض وهوامّها. الواحدة: خِشاشة.

[٢٨٧٢] وعن أبي ذرٍّ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ يوماً: «أتَدْرونَ أين

جواهر الأرض، وكلّ شيءٍ يحصلُ به صلاحٌ: فهو تِقْن، ومنه: إتقان الشيء وإحكامه.

و (قوله: «والنور يوم الأربعاء») كذا الروايةُ الصَّحيحةُ المشهورة، وقد وقع في بعض نُسَخ مسلم: النون ـ بالنون ـ يعني به الحوت. وكذا جاء في كتاب ثابتٍ في الأم، وفي رواية أخرى: «البحور» مكان «النور».

قلتُ: وهذه الروايةُ ليست بشيءٍ؛ لأنَّ الأرضَ خُلِقت بعد الماء، وعلى الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] أي: قبل خلق السموات والأرض. إلا إن أراد بالبحور الأنهار التي خلق اللَّهُ تعالى في الأرض، فله وَجْهٌ، والصحيحُ رواية النور، ويعني به الأجسامَ النيِّرة كالشمس، والقمر، والكواكب، ويتضمَّن هذا أنه تعالى خلَق السَّموات يوم الأربعاء؛ لأنَّ هذه الكواكبَ في السموات، ونورها: ضوؤها الذي بين السماء والأرض، والله تعالى أعلم. وتحقيق هذا أنه لم يَذْكرْ في هذا الحديث نصاً على خَلْق السَّموات، مع أنه ذكر فيه أيام الأسبوع كلّها، وذكر ما خلق اللَّهُ تعالى فيها، فلو خَلَق السمواتِ في يومٍ زائدٍ على أيام الأسبوع، لكان خَلْق السموات والأرض في ثمانية أيام، وذلك خلافَ المنصوص عليه في القرآن، ولا صائر إليه. وقد رُوِي هذا الحديث في غير كتاب مسلم بروايات مختلفةٍ مضطربةٍ، وفي بعضها: أنه خَلَق الأرضَ يوم الأحد والاثنين، والجبال يوم الثلاثاء، والشجر والأنهار والعمران يوم الأربعاء، والسَّموات والشمس والقمر والنجوم والملائكة يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة. فهذه أخبارٌ آحادٌ مضطربة فيما لا يقتضي عملاً، فلا يُعتمد على ما تضمَّنته من ترتيب المخلوقات في تلك الأيام، والذي يُعتمد عليه في ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى

خَلْق السموات

تذهبُ هذه الشمس؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «إنَّ هذه تجري حتى تنتهي إلى مُسْتَقَرِّها تحتَ العرشِ، فتخرُّ سَاجدةً، فَلا تزالُ كذلك حتى يقال لَها: ارتفعي، ارْجِعي من حيثُ جئتِ، فترجعُ، فتُصبحُ طَالِعةً مِن مَطْلِعِها ثم تجري حتى تنتهي إلى مُسْتَقَرِّها تحتَ العرش، فتخرُّ ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفِعي، ارجعي من حيثُ جئت، فترجعُ، فتصبح طالعةً من مَطْلِعِها، ثم تجري لا يستنكرُ الناسُ منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش. فيقال لها: ارْتَفِعِي، أصبحي طالعةً من مغربك فتصبحُ طالعةً من مغربها». فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم؟ حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]».

رواه أحمد (٥/ ١٤٥)، ومسلم في الإيمان (١٥٩) (٢٥٠)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٦).

يَوْمَيْنِ﴾ الآيات [فصلت: ٩] فلينظر فيها من أراد تحقيق ذلك، وفيها أبحاث طويلة ليس هذا موضعُ ذِكرها.

معنى: مستقر الشمس

و (قوله: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها») قد كثرت أقوالُ الناس في معنى مستقر الشمس، وأشبهُ ما يُقال فيه: إنه عبارةٌ عن انتهائها إلى أن تسامتْ جزءاً من العرش معلوماً بحيث تخضعُ عنده وتذل، وهو المعبَّر عنه بسجودها، وتستأذن في سيرها المعتاد لها من ذلك المحلّ متوقعةً ألَّا يُؤذن لها في ذلك، وأن تُؤمر بالرجوع من حيثُ جاءت، وبأن تطلعَ من مغربها، فإن كانت الشمسُ ممن تعقلُ نَسَب ذلك كلَّه إليها؛ لأنه صَدَر عنها، وإن كانت مما لا يعقلُ فَعَل ذلك الملائكةُ الموكَّلون بها، واللَّهُ تعالى أعلم. وكلُّ ذلك مُمْكِن، وهذا القولُ موافقٌ لمعنى هذا الحديث، فتأمَّله.

[٢٨٧٣] وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: من جاء بالحسنةِ فلهُ عَشْر أمثالِها، وأزيد. ومن جاء بالسيئةِ، فجزاؤه سيئةٌ مثلُها، أو أغفر. ومن تقرَّب مِنِّي شِبراً؛ تقرَّبْتُ منه ذِراعاً، ومن تقرب منِّي ذراعاً؛ تقرَّبْتُ منه باعاً. ومَنْ أتاني يمشي؛ أتيتهُ هَرْوَلَةً، ومن لَقيني بِقِرابِ الأرض خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بي شَيْئاً؛ لقيته بمِثلِها مَغْفِرَةً».

وفي روايةٍ: «أو أزيد» بزيادة ألف.

رواه مسلم (٢٦٨٧).

* * *

و (قوله يقول الله: «مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وأَزِيدُ») مفتوح الهمزة مكسور الزاي مضموم الدال على أنه فعلٌ مضارع، وكذا رويته، وقد روي هذا الحرفُ بالواو الجامعة، وبأو التي معناها أحد الشَّيئين، وهو إشارةٌ إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. والحسنة تعمُّ الحسناتِ كلَّها، فأيُّ حسنة عملها المسلمُ ضُوعِفَ ثوابُها كذلك، ولا معنى لقول من قصرها على بعض الحسنات دون بعض؛ فإنه تحكُّمٌ مخالفٌ للَّفظ العام، والكَرَم التام، وقد تقدَّم الكلامُ على قوله: «من أتاني يمشي أتيتُه هرولة» وأن ذلك تمثيل.

و (قوله: «ومن لقيني بقِراب الأرض خطيئة لقيته بمثلها مغفرة») قِراب الأرض: قدر ملئها، وهو بكسر القاف، وأصله الوعاء، ومنه قِراب السيف، وهو في هذا الحديث مثل.

* * *

(٧) ومـن سـورة الأعراف

[٢٨٧٤] عن ابن عباسٍ، قال: كانتْ امرأةٌ تطوفُ بالبيتِ وهي عُرْيَانة، فتقولُ: مَنْ يُعيرُني تِطْوَافاً ـ تَجْعلهُ على فَرْجِها ـ وتقول:

اليـومَ يَبْـدو بَعْضُـهُ أَوْ كُلُّـهُ   فَمَـا بَـدَا مِنْـه فَـلا أُحِلُّـهُ

فنزلتْ هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ. . .﴾ [الأعراف: ٣١].

رواه مسلم (٣٠٢٨)، والنسائي (٥/ ٢٣٣).

* * *

---

(٧) ومن سورة الأعراف

الطـواف فـي الجاهلية

(قوله: كانت المرأةُ تطوفُ بالبيت وهي عُرْيانة، فتقول: من يعيرني تِطْوافاً، ـ تجعله على فرجها ـ») التِّطْواف: بكسر التاء: ثوب تطوفُ به، وقد تقدَّم أنَّ قريشاً، كانت ابتدعتْ في الحجِّ أموراً، منها: أنه كان لا يطوفُ أحدٌ بالبيت إلا عُرْياناً إلا أن يكون أحمسياً، وهم من ولد كِنانة، أو مَن أعاره تِطوافاً أحمسيٌّ؛ فإن طافَ مَن لم يكنْ كذلك في ثيابه ألقاها، فلا ينتفعُ بها هو، ولا غيره، وتُسمَّى تلك الثيابُ باللَّقى، حتى قال شاعر العرب:

كَفَـى حَـزَنـاً كَـرِّي[1] عَلَيْـهِ كَـأنَّـهُ   لَقًـى بَيْـنَ أَيْـدِي الطَّـائِفِيـنَ حَـرِيـمُ

وكان هذا الحكمُ منهم عامّاً في الرجال والنساء، ولذلك طافت هذه المرأةُ عُرْيانة، وأنشدت الشعرَ المذكورَ في الأصل. قال القاضي: وهذه المرأةُ هي: ضباعة بنت عامر بن قرط، فلما جاء الإسلامُ ستر اللّهُ تعالى هذه العورات، ورفع هـذه الآثـام، فـأنـزل اللّـهُ تعـالـى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأذَّن مؤذنُ رسول الله ﷺ ألَّا يطوف بالبيت عُرْيان. وفُهِم من

---

(١) كذا في (ع) و (م) وتفسير القرطبي (٧/ ١٨٩). وفي (ز): كوني.

(٨) ومن سورة الأنفال وبراءة

[٢٨٧٥] عن أنسِ بن مالكٍ، قال: قال أبو جهل: اللَّهم إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتِنا بعذابٍ أليم. فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣ ـ ٣٤].

رواه البخاريُّ (٤٦٤٨)، ومسلم (٢٧٩٦).

هذا الأمر وجوبُ ستر العورة للصلاة على خلافٍ فيه تقدَّم ذكرُه، وحاصلُه: أنَّ الجمهورَ على أنها فرض، واختلف فيها عن مالك على ثلاثةِ أقوال: الوجوب مطلقاً، والسنة مطلقاً، والفرق، فتجبُ مع العمد، ولا تجبُ مع النِّسيان والعذر.

(٨) ومن سورة الأنفال وبراءة

(قول أبي جهل: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) غَلَب على أبي جهل جَهْلُه فساء قولُه وفِعْلُه. انظر كيف غلبتْ عليه جهالتُه وشقوتُه، فاستجِيبتْ منه دعوته، فجدل صريعاً، وسُحب على وجهه إلى جهنم سحباً قصيفاً. حُكيَ أن ابنَ عباس لقيه رجلٌ من اليهود، فقال اليهودي: ممن أنت؟ قال: من قريش. قال: أنت من القوم الذين قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم؟ فهلاَّ عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهْدِنا له، إن هؤلاء قوم يجهلون. قال ابن عبَّاس: وأنت يا إسرائيلي من القوم الذين لم تجفَّ أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجي موسى وقومُه، حتى قالوا: اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال لهم موسى: إنكم قومٌ تجهلون، فأطرق اليهوديُّ مفحماً.

نهاية أبي جهل

[٢٨٧٦] وعن عائشة، قالتْ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «لا يذهبُ الليلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَد اللاتُ والعُزَّى». فقلتُ: يا رسول الله! إنْ كنتُ لأظُنُّ حينَ أنزَلَ اللَّهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. أنَّ ذلك تامٌّ! قال: «إنَّه سيكون من ذلك ما شاء اللَّهُ، ثم يبعثُ اللَّهُ ريحاً طيِّبَة فتَوَفَّى كُلَّ مَنْ

و (قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ [الأنفال: ٣٣])(أي: إكراماً لك، واحتراماً لوجودك بينهم؛ فإنك رحمةٌ عامَّة للعالمين، ونعمة خاصَّةٌ للمؤمنين، فلما نقله اللَّهُ عنهم أوقع عذابَه بهم.

و (قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣]) أي: وما كان اللَّهُ مهلكَ جميعهم، ومنهم من يستغفره. وقد اختلف في هذا الاستغفار، فقال ابنُ عباس: كانوا يقولون في الطّواف: غُفرانك. مجاهد: هو الإسلام. قتادة: لو استغفروا. السدي: في أصلابهم من يستغفره. الضحاك: فيهم من يصلي، ولم يهاجرْ بَعْدُ. وأولاها: قول ابن عباس؛ لأنَّ الاستغفار ـ وإن وقع من الفجار ـ يُدْفَعُ به ضروبٌ من الشرور والأضرار.

فوائد الاستغفار

و (قوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ [الأنفال: ٣٤]) أي: مستحقُّون العـذاب لما ارتكبوا من القبائح والأسباب، لكن أخَّره عنهم حِلْمُ الحليم، وإن لكلِّ أجلٍ[١] كتاب.

معنى: ﴿ليظهره على الدين كله﴾

و (قول عائشة: يا رسولَ الله! ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبـة: ٣٣] [إن كنتَ لأظن][٢] أن ذلك تامٌّ إلى يوم القيامة) كأنَّ عائشةَ فهمتْ من هذا أنَّ الأصنامَ لا تُعْبَدُ أبداً، وأنَّ دينَ الإسلام

---

(١) في (ز): أمة.

(٢) ما بين حاصرتين ورد في التلخيص وفي صحيح مسلم مُقدَّماً على الآية الكريمة.

كان في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فيَبْقَى مَنْ لا خيرَ فيه، فيَرجِعُونَ إلى دِينِ آبائهم».

رواه مسلم (٢٩٠٧).

[٢٨٧٧] وعن سعيدِ بن جُبيرٍ، قال: قلتُ لابنِ عباسٍ: سُورة التوبة؟ قال: آلتَّوبةِ؟ بل هي الفاضحةُ، ما زالت تنزلُ: وَمِنْهُم، ومنهم، حتى ظنّوا أنَّها لا تبقي مِنّا أحداً إلا ذُكر فيها. قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورةُ بدرٍ، قال: قلتُ: فالحشْرُ؟ قال: نزلتْ في بني النَّضير.

رواه البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١).

وقد تقدم في كتاب التوبة قصةُ الثلاثة الذين خلِّفوا.

انظر صحيح مسلم (٢٧٦٩) (٥٣).

وكذلك قصة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤] تقدمت في الجنائز.

انظر صحيح مسلم (٢٧٧٤) (٣).

وقد تقدمت قصة بدرٍ في الجهاد.

انظر صحيح مسلم (١٧٧٩) (٨٣).

* * *

لا يزالُ ظاهراً غالباً على الأديان كلِّها إلى أن تقومَ الساعة، وهو على ذلك، فأجابها النبيُّ ﷺ بما يقتضي أنَّ ذلك يكون في أغلب البلدان، وفي أكثر الأزمان، لا أنَّ عبادةَ الأوثان تنقطعُ من الأرض، ولا أنَّ جميعَ الأديان تذهب بالكليَّة، حتى لا يبقى إلا دينُ الإسلام، لأنه تعالى لم يقلْ: يمحو به الأديان كلها وإنما قال:

(٩) ومن سورة إبراهيم

[٢٨٧٨] عن البَراءِ بن عازبٍ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. قال: نزلت في عذاب القبر.

رواه البخاريُّ (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) (٧٤)، وأبو داود (٤٧٥٠)، والترمذيُّ (٣١١٩)، والنسائي (٦/ ١٠١)، وابن ماجه (٤٢٦٩).

[٢٨٧٩] وعن سَهْلِ بن سعدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ القيامة على أرض بيضاءَ، عفراءَ، ....

﴿ليظهره على الدين كله﴾ وقد أظهره على كلِّ الأديان، وأبقاه مع تجدُّد[1] الأزمان، كيف لا، وقد امتدَّ الإسلامُ في معمور الأرض من مشرقها إلى أقصى مغربها حتى غلب أهلُه الأكاسرة، والقياصرة، والهراقلة، والتابعة، والبلاد اليمنية، وكثيراً من البلاد الهندية، فغلبوا على متعبداتهم ومواضع قُرباتهم وصلواتهم. فلقد صدق اللَّهُ وعده، ونَصَر عبده، وهَزَم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

(٩) ومن سورة إبراهيم

(قوله: «يُحشر الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء») أي: تضربُ إلى الحُمْرة. والعُفْرة: بياضٌ ليس ناصعاً، بل يضربُ إلى الحُمرة، وكأنها تغيَّرتْ من لهب النار.

---

(١) في (ز): اتحاد.

كقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فيها عَلَمٌ لأَحَدٍ».

رواه البخاريُّ (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

و (قوله: «كقُرْصَةِ النَّقِيِّ») القُرْصة: الخُبزة. النَّقي: - بفتح النون وكسر القاف -: هو الحوّارى، وهو الدَّرمك، سُمِّي بذلك؛ لأنه ينقى ويصفّى من نُخالته، ومما يغيّره.

و (قوله: «ليس فيها عَلَم لأحد») الرواية المشهورة بفتح العين المهملة واللام؛ أي: ليس فيها علامةٌ لأحد، ولا أثرٌ، أي: لم يكن فيها أحدٌ فيكون له أثر. قال ابنُ عباس: لم يُعْمَلْ عليها خطيئة، وقد وجدتُه في أصل الشيخ أبي الصبر أيوب: ليس بها عِلْمٌ لأحد: بالباء الموحدة وبكسر العين، وسكون اللام؛ أي: لم يتقدَّمْ بها لأحدٍ من الخلق علم. وهذا الحديثُ والذي بعده يدلُّ على: أن المرادَ بتبديل الأرض المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] إنه تبديلُ ذاتٍ بذات، فيُذهَبُ بهذه الأرض ويُؤتى بأرضٍ أخرى، وهو قولُ جمهور العلماء، وقال الحسن: تُبدَّل صورتُها، ويُطهَّر دَنَسُها. وقال ابنُ عباس: تبدَّل آكامُ الأرض، ونجومُ السماء. ورُوي عن النبي ﷺ: «تُمَدُّ الأرضُ مدَّ الأديم»[١]، وأما تبديلُ السموات، فروي عن عليٍّ - رضي الله عنه -: تبدل الأرضُ فضَّة والسماءُ ذهباً[٢]. كعب: الأرض ناراً والسماء جنة[٣]؛ أي: يزاد فيها. القاسم بن محمد: تُطوى السماءُ كطيّ السجل. ابن الشجريِّ[٤]: تنشق، فلا تظل. ابن الأنباري: تختلف أحوالُها كالمهل، والدهان.

معنى تبديل الأرض والسماء

---

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور رقم (٦٦٩).
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٧/ ٤٨١).
(٣) المصدر السابق.
(٤) هو هبة الله بن علي بن الشجري، من أهل العلم باللغة والأدب وأحوال العرب، توفي سنة (٥٤٢ هـ).

[٢٨٨٠] وعن عائشةَ، قالتْ: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فأين يكون النّاس يومئذٍ يا رسول الله؟! قال: «على الصِّراط».

رواه مسلم (٢٧٩١)، والترمذيُّ (٣١٢٠).

و (قوله ﷺ في جواب عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «على الصراط») ظاهره: الصراط الذي هو جسرٌ ممدودٌ على متن جهنم، كما قد قال في الحديث المتقدم: «هم في الظلمة دون الجسر»[1] أي: على الجسر.

قلــتُ: وهذا كله ممكنٌ، والقدرةُ صالحة، ومن الممكن أن يعدمَ اللَّهُ الأرضَ التي يخرجون منها، ويُوجِدَ أرضاً أخرى، وهُم عليها، ولا يشعرون بذلك.

و (قوله: «تكون الأرضُ يوم القيامة خبزةً واحدةً») يعني: الأرض التي يخرجون منها يقلبُها اللَّهُ تعالى بقدرته، كما يقلبُ أحدُنا خبزَته، وهو تمثيلٌ لسرعة الانقلاب، وسهولته. ويكفؤها: مهموز، من كفأت الإناء: إذا قلبته، ووقع في بعض النسخ: «يتكفؤها كما يتكفؤ» بزيادة تاء. والمعنى واحد: وظاهره: أنَّ هذه الأرضَ تُقلـب، فيعاد ما كان أسفلَها أعلاها. كما يُفعل بالخبزة، وهو تبديلٌ صحيح؛ لأنَّ الوجهَ الذي كان أسفل هو أرضٌ أخرى غير الوجه الذي كان أعلى، فهو تبديلٌ مُحقَّق، فيجوزُ أن يكونَ هذا هو التبديلَ الذي أراد اللَّهُ تعالى في الآية المتقدِّمة، والله تعالى أعلم. وعلى هذا فيكون قوله: «نزلاً لأهل الجنة» [مفعولاً بفعل مُضمر تقديره: يُعَدُّ نزلاً لأهل الجنة][2]. والنّزل: هو ما يُعَدُّ للضيف من طعام وشراب وكرامة، وهو بضم النون والزاي. وقد يُقال: النزل: على المنزل

---

(١) رواه مسلم (٣١٥).

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من (ز).

[٢٨٨١] وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «تكون الأرضُ يوم القيامةِ خُبْزَةً واحدةً يكفؤها الجبَّارُ بيده كما يكفأ أحدُكم خُبْزته في السَّفر؟ نُزُلاً لأهلِ الجنة». فأتى رجلٌ من اليهود، فقال: باركَ الرَّحمنُ عليك أبا القاسم! أَلَا أخبرك بِنُزُلِ أهل الجنةِ؟ قال: «بلى». قال: تكون الأرضُ خُبْزَةً واحدةً. . . (كما قال رسول الله ﷺ). قال: فنظر إلينا رسولُ الله ﷺ، ثم ضَحِك حتى بدتْ نواجذُهُ. فقال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: «بلى»، قال: إدامهم بَالاَمٌ ونُونٌ. قالوا: وما هذا؟ قال: ثَوْرٌ ونونٌ، يأكل من زيادة كَبِدِهما سبعون ألفاً.

رواه البخاريُّ (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢).

* * *

أيضاً، وعلى الإنزال. والنواجذ: يُراد بها الضواحك، وقد تقدّم استيعابُ الكلام فيه.

و (قوله: ألا أخبرك بإدامهم؟) هذا قولُ اليهودي، لا قول النبيِّ ﷺ. والنبي ﷺ هو القائلُ: «بلى» يستخرج بذلك ما عند اليهودي من ذلك؛ ليظهر للحاضرين موافقةَ اليهودي للنبيِّ ﷺ فيما كان يخبرهم عنه من إدام أهل الجنة، فقد جاء في حديثٍ آخر أن النبي ﷺ كان أخبر أصحابه بذلك، وأن اليهود سألوا النبيَّ ﷺ عن ذلك، كما تقدم في الطهارة من حديث ثوبان[1].

إدام أهل الجنة

و (قوله: إدامهم بالام ونونٌ) هكذا الروايةُ الصَّحيحةُ التي لا يُروى غيرها. فأمَّا بالام فيعني به اليهودي: الثور الذي كان يأكلُ من أطراف الجنَّة، كما في حديث ثوبان، فكانت هذه كلمةً عبرانيةً تكلَّم بها اليهودي على لسانه، وقد قال

---

(١) رواه مسلم (٣١٥).

(١٠) ومن سورة الحجر

[٢٨٨٢] عن عبدِ اللَّهِ بن عُمَر، قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحِجْرِ، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تَدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أَنْفُسَهم، إلَّا أن تكونُوا باكينَ؛ حذراً أن يصيبكم مِثلُ ما أصابهم». ثُمَّ زجر، فأسرع.

رواه أحمد (٢/ ٦٦)، والبخاريُّ (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠) (٣٩).

[٢٨٨٣] وعنه؛ أنَّ الناسَ نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْرِ

بعضُ أئمتنا: إنَّ هذه الكلمةَ صحَّفها بعضُ الرواة، وإنَّما هي اللأى على وزن اللَّعا: وهو الثور الوحشيُّ، وهذا لا يُلتفت إليه؛ لأنَّه يخرمُ الثِّقة بالعدول العلماء؛ ولأنَّه لو كان كذلك لما أشكلتْ على أصحاب النبيِّ ﷺ ولا سألوه عنها، فإنَّهم يعرفون: أنَّ اللّأى: الثور، والله أعلم. وأمَّا النون: فهو الحوت، وقد قدَّمنا في الصحاح: أنَّ النون: الحوت، ويجمع أنواناً ونيناناً. وذو النون: يونس ـ عليه السلام ـ. وزيادة الكبد: هي القطعة المتعلقة به المنفردة عنه.

(١٠) ومن سورة الحجر

ما يفعله المارُّ بديار الظالمين

(قوله: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم») أي: خوفاً من أن تعاقبوا كما عوقبوا، لأن أكثر المخاطبين والموجودين في ذلك الوقت كانوا ظالمين لأنفسهم؛ إمَّا بالكفر، وإمَّا بالمعاصي، وإذا كان سببُ العقوبة موجوداً تعين الخوفُ من وجود العقوبة. فحقّ المارِّ بموضع المعاقبين أن يُحدِّد النظر والاعتبار، ويكثر من الاستغفار، ويخاف من نقمة العزيز القهار، وألّا يطيل اللبثَ في تلك الدار.

و (قوله: ثم زجر فأسرع) أي: زَجَر ناقته فأسرع بها في المشي. ويُستفاد منه كراهةُ دخول أمثال تلك المواضع والمقابر؛ فإن كان ولا بدَّ من دخولها فعلى الصفة التي أرشدَ إليها النبيُّ ﷺ من الاعتبار، والخوف، والإسراع، وقد قال ﷺ:

ـ أرض ثَمُود ـ فاسْتَقَوا من آبارِها، وعَجَنُوا به العجينَ، فَأَمَرهُم رسولُ الله ﷺ أن يُهرِيقُوا ما اسْتَقَوا، ويَعْلِفُوا الإبلَ العَجِينَ، وأمرهم أنْ يسْتَقُوا مِنْ البِئرِ التي كانت تَرِدُها الناقةُ.

رواه البخاريُّ (٣٣٧٨)، ومسلم (٢٩٨١) (٤٠).

* * *

«لا تدخلوا أرض بابلَ فإنها ملعونة»[١]. وأَمْرُه ﷺ بإراقة ما استقوا من بئر ثمود، وعلف العجين الذي عُجن به للدواب حُكْمٌ على ذلك الماء بالنجاسة؛ إذ ذاك هو حكمُ ما خالطته نجاسة، أو كان نَجساً، ولولا نجاستُه لما أُتلِف الطعامُ المحترمُ شرعاً من حيث إنه مالية، وإنه غذاءُ الأبدان وقوامها. وأمره لهم أن يستقوا من بئر الناقة دليلٌ على التبرُّك بآثار الأنبياء والصَّالحين، وإن تقادمت أعصارُهم، وخفيت آثارهم، كما أن في الأول دليلاً على بغض أهل الفساد، وذمّ ديارهم وآثارهم. هذا؛ وإن كان التحقيقُ أنّ الجمادات غيرُ مؤاخذات، لكن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض، كما قال كثيِّر:

حكم الطعام المتنجِّس

أُحِبُّ بِحُبِّها السُّودانَ حَتَّى أُحِبُّ لِحُبِّها سُودَ الكِلَابِ

وقال آخر:

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى[٢] أُقَبِّلُ ذا الجِدَارَ وذَا الجِدارا
وَمَا تِلْكَ الدِّيَارُ شَغفْنَ قَلْبِي وَلٰكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارا

وفي أمره بعلف الإبل العجين دليلٌ على جواز حَمْل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها، خلافاً لمن منع ذلك من أصحابنا، وقال: تُطلق الكلاب عليها ولا يحملها لهم.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠) من حديث علي أنه قال: «نهاني ﷺ أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة».

(٢) في (ز): سلمى.

(١١) ومن سورة الإسراء

قد تقدمت في كتاب الإيمان أحاديث الإسراء.

انظر هذه الأحاديث في التلخيص في كتاب الإيمان.

[٢٨٨٤] عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: بينما أنا أمشي مع النَّبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وهو متكىءٌ على عَسِيْبٍ، إذ مرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلُوه عن الروح فقالوا: ما رابكم إليه؟ لا يستقبلكم بشيء تكرهونه! فقالوا: سلوه. فقام إليه بعضُهم فسأله عن الرُّوح. قال: فأسكتَ النَّبيُّ ﷺ. فلم يردَّ عليه شيئاً. فعلمتُ أنَّه يوحى إليه. قال: فقمْتُ مكاني، فلمَّا نزل الوحيُ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي رواية: «وما أوتوا».

رواه أحمد (١/ ٣٨٩)، والبخاريّ (١٢٥)، ومسلم (٢٧٩٤) (٣٢ و ٣٣)، والترمذي (٣١٤٠).

---

(١١) ومن سورة الإسراء

قد تقدم الكلامُ في الإسراء، وفي أحاديثه في كتاب الإيمان، وتقدم الكلامُ في الروح في كتاب الصلاة، وقد اختلف الناسُ في الروح التي سألت اليهودُ عنها النبيَّ ﷺ فقيل: هو عيسى ـ عليه السلام ـ، وقيل: هو جبريل ـ عليه السلام ـ، وقيل: هو روح الإنسان، وهذا الأخيرُ هو الأولى؛ لأن اليهودَ لا تُقِرُّ بأن عيسى ـ عليه السلام ـ وُلِد بغير أب، وجبريل عندها ملك معروف، فتعين الثالث، وهو الذي يناسبُ الإبهامَ في قوله حيث أجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: هو أمرٌ عظيم، وشأنٌ كبيرٌ من أمر الله تعالى، مُبْهِماً له،

المقصود بالروح

[٢٨٨٥] وعنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، قال: كان نَفَرٌ من الإنس يعبدون نفراً من الجنِّ؛ فأسلم النفرُ من الجنّ. واسْتَمسكَ الإنسُ بعبادَتهم، فنزلتْ.

رواه البخاريُّ (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠) (٢٩).

وتاركاً تفصيلَه ليعرف الإنسانُ على القطع عجزَه عن علم حقيقةِ نفسه مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسانُ في معرفة نفسه هكذا، كان بعجزه عن إدراك حقيقةِ الحقِّ أولى.

و (قوله: فأسكت رسول الله ﷺ) بمعنى: سكت. يقال: سكت، وأسكت لغتان، وقيل معنى أسكت: أطرق ساكتاً.

و (قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]) هي: نحو مما قال الخضر لموسى ـ عليه السلام ـ: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر. وقد تقدَّم معناه.

و (قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان نفرٌ من الإنس يعبدون نفراً من الجن، فاستمسك الإنسُ بعبادتهم فنزل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]) هذا هو المشهورُ عن ابن عباس، وروي عنه أنها نزلتْ فيمن كان يعبدُ العُزير، وعيسى وأمه.

قلـتُ: والآيةُ بحكم عمومها متناولةٌ للفريقين؛ لأن (أولئك) إشارةٌ إلى الذين زعمتم من دونه، والمخاطب بـ: ﴿قل ادعوا﴾ كلّ من كان كذلك. والنفر من الإنس قيل: إنهم كانوا من خزاعة. وزعمتم: ادَّعيتم، ومعمولها محذوف تقديره: زعمتم أنَّهم آلهة غير الله، فلا يملكون: أي: لا يستطيعون. والضر: هو قحط سبع سنين، والأحسن حمله على جنس الضرّ؛ فإنهم لا يملكون كشف شيء منه كائناً ما كان، ولا تحويلاً. ولا يملكون تحويل شيءٍ من أحوالهم، ولا تبديله بغيره.

[٢٨٨٦] وعن عائشة، في قوله عز وجل: ﴿ولاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخافِتْ بها﴾ قالت: أُنزِل هذا في الدعاء.

رواه البخاريّ (٤٧٢٣)، ومسلم (٤٤٧) (١٤٦).

وقد تقدم في كتاب الصلاة: قول ابن عباس، هذه الآية: إنها نزلتْ مخافة سبِّ المشركين للقرآن إذا قرىء جهراً.

انظر صحيح مسلم (٤٤٦) (١٤٥).

* * *

ويبتغون: يقصدون ويطلبون. وهذه الجملةُ هي خبر أولئك، والذين يدعون: نعت لأولئك. والوسيلة: القربة إلى الله تعالى. وأيُّهم أقرب؛ أي: كلّ واحد منهم يجتهدُ في التقرب إلى الله تعالى بعبادته، يريدُ بذلك أن يكون أقربَ إليه من كلِّ أحد. وهذا المعنى: أمكن في حقِّ العزير وعيسى وأمِّه. وبهذا يتأيّد القولُ الثاني لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

المؤمن بين الرجاء والخوف

و (قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]) هكذا حالُ العارف بالله تعالى بين الرجاء والخوف، ولا بدُّ منهما للمؤمن، ولذلك قال بعضُ السلف: لو وُزِنَ رجاءُ المؤمن وخوفُه لاعتدلا؛ إلا أن الخوفَ أولى بالمسيء، لكن بحيث لا يقنطُ من رحمة الله، والرجاءُ أولى بالمحسن؛ لكن بحيث لا يغتر، فيكسلُ عن الاجتهاد في عبادة الله.

و (قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]) أي: شيئاً عظيماً يجبُ أن يحذرَه المؤمنُ، فهو محذورٌ للمؤمن العارف، ومتروكٌ للجاهل الآمن.

و (قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]) قد ذكر في الأصل اختلاف عائشة وابن عباس في سبب نزولها، وأيهما كان فمقصودُ الآية

(١٢) ومن سورة الكهف

[٢٨٨٧] وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة لا يزنُ جناحَ بعوضةٍ. اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

رواه البخاريُّ (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

التوسطُ في القراءة والدعاء، فلا يُفْرِط في الجهر، ولا يفرط في الإسراء، ولكن بين المخافتة والجهر، وخيرُ الأمور أوساطُها.

(١٢) ومن سورة الكهف

(قوله: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة») أي: لا قيمة له ولا قدر. إذ لا عملَ له يُوزن، فإن الأعمالَ هي التي تُوزن، أي: صحتها لا أشخاص العاملين، وقد قال ﷺ في عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «أتعجبون من حموشة ساقيه؟! لهي أثقل في الميزان من أحد»[١]، أو كما قال. أي: الأعمالُ التي عَمِل بها أثقلُ في الميزان، لا أنَّ ساقيه تُوضعان في الميزان، ولا شخصه، كما قد ذهب إليه بعض المتكلمين على هذه الآية فقال: إنَّ الأشخاص توزن. ويُفهم من هذا الحديث أن السِّمنَ المكتسبَ للرجال مذمومٌ، وقد قال ﷺ: «إن أبغضَ الرجال إلى الله الحبرُ السَّمين»[٢]. وقال في حديث عمران: «ويظهر فيهم السِّمن»[٣]. وسبب ذلك: أن السمنَ المكتسبَ

السِّمن المكتسب للرجال مذموم

---

(١) رواه أحمد (١/ ١١٤).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ٦٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) (٢١٥).

وقد تقدمت قصة موسى مع الخضر في كتاب الأنبياء.

انظر صحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٠ ـ ١٧٤).

[٢٨٨٨] وعن أبي الدرداء، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مَن حفِظَ عَشْر آياتٍ من أوّلِ سورة الكهفِ، عُصِمَ من الدَّجّال». ـ وفي روايةٍ: «من آخر سورة الكهف» ـ.

رواه مسلم (٨٠٩)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والترمذيّ (٢٨٨٨).

* * *

إنما هو من كثرة الأكل، والشرب، والدّعة، والراحة، والأمن، والاسترسال مع النفس على شهواتها.

وحاصلُ هذا الحديث يرجعُ إلى قوله في الحديث الآخر: «إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»[1]. وقد تقدَّم القولُ في حديث الخَضِر في كتاب الأنبياء، وعلى قراءة عشر آيات من أول سورة الكهف في كتاب الصلاة.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٣٩)، ومسلم (٢٥٦٤) (٣٤)، وابن ماجه (٤١٤٣).

(١٣) ومن سورة مَرْيَم

[٢٨٨٩] عن خَبَّابٍ، قال: كان لي على العَاصِ بنِ وائلٍ دَيْنٌ؛ فأتيتُه أتقاضاه، فقال لي: لن أقضيك حتى تَكْفُرَ بمحمَّدٍ! قال: فقلت له: لن أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث! قال: وإني لمبعوث من بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد! قال: فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠].

وفي روايةٍ: قال خبَّابٌ: كنت قَيْناً في الجاهلية، فعملت للعاص بن وائل عملاً، فأتيته... وذكره.

رواه البخاريُّ (٤٧٣٣)، ومسلم (٢٧٩٥) (٣٥ و ٣٦)، والترمذيُّ (٣١٦١).

* * *

---

(١٣) ومن سورة مريم

(قول خباب: كنت قيناً في الجاهلية) أي: حدَّاداً؛ وهذا أصلُ هذا اللفظ، وقد يقال: على كلِّ صانع، وقد تقدَّم ذلك.

و (قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]) أي: أَنَظَر في اللوح المحفوظ فرأى أمنيته، أم أعطاه اللّهُ موثقاً بذلك، وهذا توبيخٌ له على جهله وتحكّمه، ثم إنَّه تعالى نفى ذلك، وزَجَره عنه، وتوعَّده عليه بقوله: كلا! سنكتب ما يقول؛ أي: نكتب في ديوان أعماله، أو نُريه ذلك مكتوباً عليه في القيامة. ونمدُّ له من العذاب مدّاً؛ أي: نزيده منه أضعافاً من قولهم: مدَّ النهر، ومدَّه نهر آخر. ونرثه ما يقول؛ أي: نسلبه ما يقول بالموت. ويقول: بمعنى قال، يعني به: ماله أو ولده. وعبَّر عن الحال بالماضي لقربه، أو لتماديه على ذلك

(١٤) ومـن سـورة الأنبياء

[٢٨٩٠] عن أبـي هـريرة، قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ويطوي السَّماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك! أين ملوك الأرض؟!».

رواه البخاريُّ (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧)، ولم يذكره المؤلف في التلخيص، وقد شرح ما أشكل فيه في المفهم.

القول. وفرداً: وحيداً مسلُوباً، لا نصيرَ له ولا مُجير.

(١٤) ومن سورة الأنبياء

(قوله: «يقبض الله تبارك وتعالى») في هذه الرواية، وفي الرواية الأخرى: «يطوي»، وفي الثالثة: «يأخذ». هذا الاختلافُ يدلُّ على أنّه نَقْلٌ بالمعنى، وأنَّ اللفظَ الذي قاله النبيُّ ﷺ لم يتعيَّن. وحاصلُ مدلولِ هذه الألفاظ: أنه تعالى يفعل في السَّموات والأرض فِعْلاً؛ وهو أنه يقبضُ مبسوطهما، ويطمس أنوارهما، فعبَّر عن ذلك بعباراتٍ مختلفة كالطيِّ والتكوير، وغير ذلك مما في معناه ممَّا جاء في الكتاب. وقد تقدَّم: أن اليدَ تُطلق في اللسان على القدرة والنعمة، والمراد بها هنا: القدرة، وكذلك الإصبع، وسيأتي تكميلُ هذا المعنى في الزّمر.

و (قوله تعالى: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]) اختلف المفسرون في السجل، فقال يزيد: هو اسمُ كاتب النبيِّ ﷺ. وقال ابن عباس: السجل بلغة الحبش: الرجل. وقد رَوَى ذلك أبو داود من حديث أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كان للنبيِّ ﷺ كاتبٌ يُسمَّى السجل[١]. وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) رواه أبو داود (٢٩٣٥).

[٢٨٩١] وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي (بدل) يقبض». وفي روايةٍ: «يأخذ».

رواه البخاريُّ (٧٤١٣)، ومسلم (٢٧٨٨) (٢٤ و ٢٥)، وأبو داود (٤٧٣٢)، وابن ماجه (١٩٨) ولم يذكره المؤلف في التلخيص. وقد شرح ما أشكل فيه في المفهم.

* * *

(١٥) ومن سورة الحج

[٢٨٩٢] عن قَيْسِ بن عُبَادٍ، قال: سمعتُ أبا ذَرٍّ يُقْسِم قَسَماً: إنّ ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ . . . ﴾ [الحج: ١٩]: أنَّها نزلت في الذين

قلتُ: وفي إسناده مقال، وقال السُّدِّي: اسم ملك يكتب أعمال العباد، وقال مجاهد: هو الصَّحيفة. واللام بمعنى على، أي: على المكتوب، وقيل: هي على أصلها، ويكون معناه: ليصير كتاباً. والمساجلة: المكاتبة، وأصله: منازعة الدلو. قال:

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَاجِداً يَمْلأُ الدَّلْوَ إلَى عَقْدِ الكَرَبْ[1]

(١٥) ومن سورة الحج

الفريقان المتبارزان يوم بدر

(قوله: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ [الحج: ١٩]) إشارة إلى الفريقين اللذين ذكرهما أبو ذرّ، وهما: عليّ، وحمزة، وعبيدة، وهم المؤمنون؛ والفريق الآخر: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة. التقيا يوم بدر في أول الحرب، فافتخر المشركون

---

(١) «الكَرَب»: الحبلُ الصغير يصلُ حَبْلَ الدَّلْو بالخشبة المعترضة على الدَّلْو.

بَرَزُوا يوم بدرٍ: حَمزةُ، وعليٌّ، وعُبَيْدَةُ بنُ الحارثِ، وعتبَة، وشيبة ابنا ربيعةَ، والوليدُ بن عتبةَ.

رواه البخاريُّ (٣٩٦٨)، ومسلم (٣٠٣٣).

* * *

بدينهم، وانتسبوا إلى شركهم، وافتخر المسلمون بالإسلام، وانتسبوا إلى التوحيد. ولما خرج المشركون، ودعوا إلى البراز، خرج إليهم عوف ومعوّذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، فلما انتسبوا لهم قالوا: أكفاء كرام، ولكنا نريد قومَنا، فخرج إليهم حمزةُ بن عبد المطلب، وعبيدةُ بن الحارث، وعليٌّ ـ رضي الله عنهم ـ، فأمّا حمزة وعليّ فلم يُمْهِلا صاحبيهما، فقتلاهما، واختلفت بين عبيدة وشيبة ضربتان، كلاهما أثبت[1] صاحبه، وكرَّ حمزة وعليٌّ على شيبة، فقتلاه، واحتملا صاحبيهما، فمات من جرحه ذلك بالصفراء عند رجوعه. وقال قتادة: هم: أهل الكتاب افتخروا بسبق دينهم وكتابهم، فقال المسلمون: كتابنا مهيمن على الكتب، ونبينا خاتم الأنبياء. وقال مقاتل: أهل الملل في دعوى الحق.

و (قوله: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]) أي: أُعدَّت كما يُقطع من الثوب القميص والسراويل، كما قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فَأُلبِسُوا والله ثياباً. العريُ خيرٌ منها. كما أُطْعِمُوا طعاماً، وسُقُّوا شراباً، الجوعُ والظمأُ خيرٌ منهما.

و (قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[2] [الحج: ٢٠]) أي: يقطع به، ويُنضج، ويُذاب.

---

(١) «أثبت»: أثبتَ الرمح فيه: أنفذه.

(٢) هذه الآية لم ترد في التلخيص.

(١٦) ومـن سـورة النُّور

[٢٨٩٣] عن عائشةَ، زوج النَّبيِّ ﷺ قالتْ: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرجَ سَفَراً، أَقْرعَ بين نسائه، فأيَّتُهُنَّ خرج سَهْمُها، خرجَ بها رسول الله ﷺ. قالت: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها، فخرج فيها سَهْمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أُنزِلَ الحجابُ، فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي، وأُنْزَلُ فيه مَسِيرَنا، حتى إذا فَرَغ رسولُ الله ﷺ من غزوهِ، وقَفَلَ،

---

(١٦) ومن سورة النور

العمل بالقرعة

(قولها: كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمُها خرج بها معه) دليل على: أنَّ للقرعة مدخلاً شرعياً في الحقوق المشتركة، وهو قولُ الكافَّة. قال أبو عبيدة وقد عمل بها ثلاثة من الأنبياء: يونس وزكريا ومحمد ـ صلّى الله عليهم أجمعين ـ. قال ابنُ المنذر: واستعمالُها كالإجماع بين أهل العلم فيما يُقْسَمُ بين الشركاء، ولا معنى لقول مَن ردَّها، وحُكي عن أبي حنيفة إجازتها. قال: ولا تقسيم في القياس، ولكنا تركنا القياسَ للآثار.

قلــتُ: ومقتضى هذا: أنه قَصَرها على المواضع التي وردتْ في الأحاديث دون تعديتها إلى غيرها، وهو قولُ مالك أيضاً والمغيرة وبعض أصحابنا. وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة ترك القول بها، وأنكرها بعضُ الكوفيين، وقال: هي كالأزلام. وبإجازتها في المشكلات قال الشافعي. قال القاضي: وهو مشهورُ مذهبِ مالك.

القرعة بين النساء عند السفر

وأما القرعة بين النساء إذا أراد سفراً، فقد اختلف العلماءُ في ذلك، فذهب مالكٌ في أَحَد قوليه، والشافعي، وأبو حنيفة إلى: أنه لا يخرجُ منهن إلا من خرجتْ عليها القرعةُ؛ تمسُّكاً بظاهر هذا الحديث؛ فإنه كالنص في ذلك، وقال مالِك أيضاً: إنَّ له أن يسافرَ بمن شاء منهن بغير قرعة، وإن القسمة هنا سقطتْ

ودَنَوْنَا من المدينة، آذَنَ ليلةً بالرَّحيل. فقمتُ حين أذَّنُوا بالرحيل، فمشَيْتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمّا قضيتُ من شأني أقبلتُ إلى الرَّحلِ، فَلَمَسْتُ صدري فَإذا عِقْدِي مِنْ جَزْعِ ظَفارِ قد انقطع، فرجعتُ، فالتمستُ عِقدي فَحَبَسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهطُ الذين كانوا يَرْحَلُون بي، فحملوا هودجي،

للضرورة؛ إذ قد تكون إحداهُنَّ أخفَّ محملاً، وأقلَّ مؤونة، وأصلحَ للسفر، والأخرى أصلح للمقام في بيته لسدِّ ضَيْعته، وللقيام بولده، وقد تكونُ أثقلَ جسماً، وأكثرَ مؤونة.

قلــتُ: والذي يقعُ لي: أنَّ هذا ليس بخلافٍ في أصل القرعة في هذا، وإنما هذا لاختلافِ أحوالِ النساء، فإذا كان فيهن مَن تصلحُ للسفر ومن لا تصلح تعيَّن من تصلح. ولا يمكن أن يقال: يجبُ أن يسافرَ بمن لا تصلح؛ لأن ذلك ضررٌ ومشقّة عليه، ولا ضررَ ولا ضرار، وإنما تدخل القرعة إذا كنّ كلهن صالحات للسفر، فحينئذٍ تتعيَّن القرعة؛ لأنه لو أخرجَ واحدةً منهن بغير قرعة لخيف أن يكونَ ذلك ميلاً إليها، ولكان للأخرى مطالبته بحقِّها؛ فإذا خرج بمن وقعتْ عليها القرعةُ انقطعتْ حُجَّةُ الأخرى، وارتفعتِ التهمةُ عنه، وطاب قلبُ مَن بقي منهن، والله تعالى أعلم.

و (قوله: آذن ليلةً بالرحيل) هو بالمدّ، وفتح الذال بمعنى أَعْلَم. والهودجُ: القبّةُ التي تكون فيها المرأةُ على ظهر البعير، وهو الخدر، ويُجمع: هوادج.

و (قولها: فإذا عقدي من جَزْع ظفار قد انقطع) قال ابنُ السكيت: الجَزْع ـ بفتح الجيم، وإسكان الزاي ـ: الخرز اليماني. وظَفار ـ بفتح الظاء ـ: قرية باليمن.

قلــتُ: هكذا صحيحُ الرواية. ظفار كما قاله ابنُ السكيت، وفي الصحاح ظفار: مثل قطام: مدينة في اليمن. يقال: من دَخل ظفار حمَّر، وجَزَع ظفاريٌّ:

فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنت أركبُ، وهُم يحْسَبُون أنِّي فيه. قالتْ: وكانت النساءُ إذ ذاك خفافاً. لم يُهَبِّلْنَ ولم يَغشَهُنَّ اللحمُ، إنَّما يَأْكُلنَ العُلْقَةَ من الطعام، فلم يستنكرِ القومُ ثِقَلَ الهَوْدجِ حين رَحَلوه، ورفعُوه، وكنتُ جاريةً حديثة السنِّ، فبعثُوا الجَمَلَ وساروا، ووجدتُ عِقْدِي، بَعْدَما استمرّ الجيش، فجئتُ منازِلَهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فتيمَّمتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القوم سيفقدونّي، فيرجعونَ إليّ. فبَيْنا أنا

منسوب إليها، وكذلك عودٌ ظفاريّ، وهو العودُ الذي يُتبخر به، وعلى هذا فمن قيَّده جزع أظفار بألف، فقد أخطأ، وبالوجه الصحيح رويته.

و (قولها: وكانت النساءُ إذ ذاك خِفافاً لم يُهبَّلن، ولم يغشهنَّ اللحم، إنما يأكلن العلق) اختلف الرواةُ في تقييد هذا الحرف، فرواه العذريُّ بضم الياء وفتح الهاء وتشديد الباء على ما لم يُسمَّ فاعلُه: يُهَبَّلْن، ومن طريق الطبري: بفتح الياء وسكون الهاء وفتح الباء: يَهْبَلْن، والصواب: بضمها؛ لأن ماضيه فَعُلَ، وفي بعض الروايات عن ابن الحذاء: لم يُهَبِّلْن: بضم الياء، وفتح الهاء، وكسر الباء مُشدَّدة، وهذه الروايةُ هي المعروفةُ في اللغة. قال في الصِّحاح: هبّله اللحم: إذا كثر عليه، وركب بعضُه على بعض. وأهبله أيضاً، يقال: رجل مهبّل. قال أبو كبير:

.... فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ[1]

قال: وقالت عائشةُ في حديث الإفك: والنساء يومئذ لم يهبلهن اللحم. والعلق: جمع علقة، وهو القليلُ من الطعام، وكأنّه الذي يمسكُ الرَّمق، ويعلق النفس للازدياد منه. أي: يشوقها إليه.

و (قولها: فتيمَّمتُ منزلي الذي كنتُ فيه) أي: قصدته. وقد تقدم أنَّ التيمُّمَ

---

(١) هذا جزء من عجز بيت، والبيت بتمامه:

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِه وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ

جالسةٌ في منزلي غَلَبَتْني عيني فنمتُ. وكان صفوان بنُ المُعطِّلِ السُّلَمِيُّ، ثُمَّ الذَّكْوانيُّ، قَدْ عَرَّسَ مِن وراء الجيش، فادَّلج، فأصبحَ عند منزلي، فرأى سَوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رآني، وقدْ كان يراني قَبْلَ أن يُضْربَ الحجابُ عليَّ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي. وواللَّهِ ما يُكلِّمُني كَلِمَةً، ولا سَمِعْتُ منه كَلِمَةً غير استرجاعِهِ، حتى أناخ راحلتَهُ، فوطىء على يدِها فركبتُها، فانطلق يقُود بي الرَّاحلَةَ، حتى أتَيْنا الجيشَ بعدما نزلوا مُوغِرينَ في نَحْرِ الظَّهِيرة، فهلك مَنْ هَلَكَ في شأْنِي، وكان الذي تولى كِبْرَهُ عبدُ الله بن أبيٍّ ابن سلول، فقدمنا المدينةَ.

في الأصل هو القصدُ. والتعريسُ: النزولُ من آخر الليل. وقال أبو زيد: هو النزولُ في أيِّ وقت كان، وأدلج: سار من أوَّل الليل، وادّلج ـ مُشدَّداً ـ سار من آخره. وقيل: هما لغتان، والأول المعروف.

و (قولها: فخمَّرتُ وجهي بجلبابي) أي: غطّيتُه بثوبي.

و (قولها: بعدما نزلوا مُوغِرين في نحر الظهيرة) الرواية الصحيحة بالغين المعجمة، والراء المهملة من الوغْرة، بسكون الغين، وهي: شدَّة الحرِّ، ومنه قيل: في صدره على وغْر: بالتسكين، أي: ضغن وعداوة، تقول: وغر صدره عليَّ، يوغر، وغراً، فهو واغرُ الصدر عليه، وقد أوغرتُ صدره على فلان. وقد رواه مسلم من حديث يعقوب بن إبراهيم: موعزين، بالعين المهملة والزاي، ويمكن أن يقال فيه: هو من وعزت إليه، أي: تقدَّمت. يقال: وعزت إليه وعزاً، مخففاً، ويقال: وعَّزت إليه توعيزاً، بالتشديد، والرواية الأولى أصحُّ وأولى، والظهيرة: شدَّةُ الحرِّ، وهي الهاجرة. ونَحْرُها: صدرها؛ أي: أوّلها. وقد صحَّفه بعضُهم فقال: مُوعِرين بالعين المهملة، والراء، ولا يُلتفت إليه.

و (قولها: فهلك مَن هَلَك في شأني) أي: بقول البهتان والقذف. وكبر

فاشتكيتُ حين قدمنا المدينةَ شهراً، والنَّاس يُفِيضُونَ في قولِ أَهْلِ الإفكِ، ولا أشعر بشيءٍ من ذلك. وهو يَرِيبُني في وجعي أنِّي لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللُّطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنّما يدخلُ رسولُ الله ﷺ فيُسَلِّمُ، ثم يقول: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فَذَاك يَرِيبُني، ولا أشعر بالشرِّ، حتى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، وخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وهو مُتَبَرَّزُنا، ولا نخرجُ إلّا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قَبْلَ أن نتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا، وأَمْرُنا أَمْرُ العربِ الأول في التَّنزُّه، وكُنّا نَتَأَذَّى بالكُنفِ أن نتَّخِذها عِنْد بُيُوتِنا. فانطلقتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحٍ، وهي بنتُ أبي رُهْمِ بنِ

الشيء: معظمه. والناس يفيضون: أي: يخوضون فيه، ويكثرون القول. ويريبني: من الرّيبة، وهي اسمٌ للتهمة والشك. تقول: رابني فلان: إذا رأيتَ منه ما يريبك، وهُذيل تقول: أرابني فلان. قال الهذلي:

يَـا قَـوْمِ! مَـا لِـي وَأَبـا ذُؤَيْـبِ
كَـأَنَّنِـي أَرَبْتُـهُ بِـرَيْـبِ

وأراب الرجل: صار ذا ريبة، فهو مريب، حكاه الجوهريُّ، وقال غيره: يقال: أرابني الأمر: يريبني: إذا توهَّمته، وشككت فيه، فإذا استيقنته قلت: رابني منه كذا، يريبني، وقال الفراء: هما بمعنى واحدٍ في الشَّكِّ.

و (قولها: بعدما نَقَهت من مرضي) هو بفتح القاف؛ أي: أفقت، فأما بكسر القاف فهو بمعنى فهمت الحديث. والمناصع: مواضع معروفة. والمتبرَّز: بفتح الراء: هو موضعُ التبرُّز، وهو الخروجُ إلى البراز، وهو الفضاءُ من الأرض التي مَن خرج إليها فقد برز، أي: ظهر، وكني به ـ هنا ـ عن الخروج للحَدَث. والكُنُف: جمع كنيف، وهو الموضعُ المتَّخذ للتخلِّي، وأصلُ الكنيف: الساتر، والمرط: الكساء.

المُطَّلبِ بنِ عبدِ منافٍ، وأُمُّها ابنةُ صَخْرِ بن عامرٍ، خالةُ أبي بكرِ الصديقِ، وابنُها مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَة بنِ عَبَّادِ بنِ المطَّلبِ، فأقبلتُ أنَا وبنتُ أبي رُهْمٍ قِبَل بَيْتِي. حين فرَغْنا من شأْنِنا، فَعَثَرتْ أُمُّ مِسْطحٍ في مِرْطِها، فقالت: تَعِسَ مِسْطَح! فقلتُ لَها: بِئْسَ ما قُلْتِ! أَتَسُبِّينَ رجلاً قَدْ شَهِدَ بَدْراً؟! قالتْ: أيْ هَنْتَاهُ! أولَمْ تَسْمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقولِ أهل الإفك، فازددتُ مَرَضاً إلى مَرَضِي، فلما رجعتُ إلى بيتي، فدخل عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ، فسلَّم، ثُم قالَ: «كَيفَ تِيكُم؟»، قلتُ: أَتَأْذَنُ لِي أن آتِي أَبوَيَّ؟ قالتْ: وأَنا حينئذٍ أُريدُ أن أتيقَّن الخبَر من قِبَلهِمَا. . فأذِنَ لِي رسولُ الله ﷺ، فجئتُ أَبويَّ، فقُلْتُ لأمِّي: يا أُمَّتَاه! مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فقالت: يا بنية! هوِّني علَيْكِ! فوالله! لَقَلَّما كانتْ امرأةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهـا، ولها ضَرَائرُ إلا كثَّرْنَ عَلَيْها. قالتْ: قلتُ: سبحان الله! وقد

و (قولها: تَعِس مسطح) هو بكسر العين، معناه: انتكس، وسقط على وجهه، دعتْ عليه لِما قال. والمِسطح: عودٌ من أعواد الحنّاء، وهو ـ هنا ـ لقبٌ لهذا الرجل، واسمه: عوف بن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف.

و (قولها: يا هَنْتَاه[1]) أي: يا امرأة. ويقال للرجل: يا هناه، ولا يُستعملان إلا في النداء، وهما في الأصل عبارةٌ عن كلِّ نكرة، وقد تقدم الكلامُ عليها، ونونها مُخفَّفةٌ، وحكى الهرويُّ عن بعضهم تشديد النون، فأنكره الأزهري.

و (قولها: فوالله لقلما كانت امرأةٌ وضيئة قطّ عند رجل يحبُّها، ولها ضرائر إلا كثَّرن عليها) وضيئة: فَعِيلة من الوضاءة، وهي الحُسْن والنَّظافة. أي: جميلة، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كذلك. والضرائر: الضَّرات. وكثَّرن؛ أي: بالقول والأذى، تُهوِّن عليها ما سمعت.

---

(١) في التلخيص ومسلم: أي هَنْتَاه.

تحدّثَ الناسُ بهذا؟ قالتْ، فبَكَيْتُ تِلْكَ الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرْقأ لي دَمْعٌ، ولا أكْتَحِلُ بنوْمٍ، ثُمّ أصبحتُ أبْكِي. ودَعَا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ وأسامةَ بنَ زيدٍ حيْنَ استَلْبَثَ الوحْيُ يستشيرهُما في فراقِ أهْلِهِ. قالَتْ: فأمّا أسامة بن زيد فأشار عَلَى رسول الله ﷺ بالذي يعلمُ من بَراءَةِ أهلِهِ، وبالذي يعلمُ في نفسه لَهُمْ من الوُدِّ، فقال: يا رسول الله! هُم أهْلُكَ، وَلا نعلمُ إلا خَيْراً. وأمَّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ علَيْكَ! والنساءُ سِواها كثيرٌ! وإن تسألِ الجاريةَ تصدُقْكَ! قالتْ: فدعا رسولُ الله ﷺ بريرَةَ فقال: «أيْ بَريرةُ! هل رأيتِ من شيءٍ يَريبُك من عائشةَ؟»، قالتْ له بريرة: والذي بَعَثَكَ بالحق! إنْ رأيتُ عَلَيْها أمراً قطُّ أَغْمِصُهُ عليها، أكثرَ من أنَّها جاريَةٌ حديثةُ السنِّ، تَنامُ عن عَجِيْنِ أهْلِها،

و (قولها: لا يرقأ لي دمع) أي: لا ينقطع، وهو مهموز. يقال: رقأ الدمُ يرقأ: إذا انقطع، ومنه قولهم: «لا تسبوا الإبل، فإن فيها رَقُوءَ الدم»[1] بفتح الراء، والهمز. واستلبث الوحيَ؛ أي: استبطأه، فيكون الوحيُ منصوباً على المفعول، ويصحُّ رفعُه على أن يكون استلبث بمعنى لبث، كما قال: استجاب بمعنى أجاب، وهو كثير.

و (قولها: أهْلَكَ، ولا نعلمُ إلا خيراً) منصوب على أنه مفعول بفعل مضمر؛ أي: أمسكْ أهلكَ، أو الزمْ. هكذا وقع في نسخة بالنصب، وفي رواية: هم أهلُك، على الابتداء والخبر؛ أي: العفائف واللائقاتُ بك. وأغمصُه: أعيبُه، من الغَمْص، وهو العيب. والدَّاجن: الشاة المقيمة في البيت. ويُقال على الحمام أيضاً. ودجنَ: إذا أقام.

---

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية (٢/٢٤٨).

فَتَأْتِي الدّاجنُ فتأكُلُه. قالتْ: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاسْتَعْذَر من عبدِ الله بن أُبيٍّ بنِ سلول. قالتْ: فقالَ رسولُ الله ﷺ وهو على المنبرِ: «يا معشر المسلمين! منْ يَعْذِرُنِي من رجل قد بلغ أذاهُ في أهلِ بَيْتي؟ فواللَّهِ! ما علمتُ على أَهْلِي إلَّا خَيْراً! ولَقدْ ذَكَروا رجُلاً ما علمتُ عليه إلَّا خيراً! وماكانَ يدخل على أهْلِي إلا مَعِي». فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ فقال: أنا أعْذِرُكَ منه يا رسول الله! إنْ كَانَ من الأوْسِ ضَرَبْنا عُنُقَه! وإنْ كانَ من إخْوانِنا الخَزرجِ أَمَرْتَنا فَفَعَلْنا أَمْرَكَ! قالتْ: فقام سعدُ بن عُبادة ـ وهو سيِّدُ الخَزْرَج، وكانَ رَجُلاً صالحاً، ولكن اجْتَهَلَتْهُ الحميَّةُ ـ فقال لسعدِ بن معاذٍ: كَذَبْتَ! لَعَمْرُ اللَّهِ لا تَقْتلُهُ، ولا تقْدِرُ عَلَى قَتْلِه! فقامَ أُسيْدُ بنُ حُضَيْرٍ ـ وهو ابنُ عَمِّ سعدِ بن معاذٍ ـ فقَال لسعد بن عُبَادةَ: كذَبْتَ! لَعمرُ اللَّهِ لنَقْتُلَنَّه! فإنّك منافقٌ تجادلُ عن المنافقينَ! فثار الحيَّانِ الأَوْسُ والخزرج حتى هَمُّوا أن يَقْتَتِلُوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبرِ، فلَمْ يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُخفِّضُهُمْ حتى سَكَتُوا وسَكَتَ. قالت: وبَكَيْتُ يومي ذلك، لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكْتَحِلُ بنوْمٍ. ثم بَكَيْتُ لَيْلَتي المُقْبِلَة، لا يرْقأ لي دَمْعٌ، ولا أكْتَحِلُ بِنَومٍ. وأبواي يَظُنَّانِ أن البكاء فالقٌ كبدي! فبينما هما

و (قولها: فاستعذرَ من عبد الله بن أُبيٍّ) أي: طلبَ من يقبلُ عذرَه، كما قال: «مَنْ يعذرُني من رجل قد بلغَ أذاه في أهلي» أي: من يقبل عذري في حقِّه وعقوبته. فقال سعد: أنا أعذرُكَ منه، أي: أقبلُ عذرَكَ فيه.

و (قولها: ولكن اجتهلته الحميَّةُ) كذا رواية الجَلوديّ، وعند ابن ماهان احتملته، أي: حملته، والمعنى واحد. وهو أنَّ الحميّة حملته على الغضب حتى صدرَ عنه خلق الجاهلية. وبينَ السعدين ما بين الكلمتين، والله يؤتي فضلَه من يشاء. وثار الحيَّان: تواثبَ القبيلان؛ الأوس والخزرج.

جالسان عندي، وأنا أبْكي، استأذنَتْ عليَّ امرأةٌ مِن الأنصارِ فأذِنْتُ لها، فجلستْ تَبْكي. قالتْ: فبَيْنا نحنُ على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ، ثم جلسَ. قالت: وَلَمْ يجلسْ عندي مُنْذ قِيل لي ما قيل، وقد لَبِثَ شَهْراً لا يُوحى إليه في شأني بشيءٍ. قالتْ: فتشهَّد رسولُ الله ﷺ حين جلسَ، ثم قال: «أمّا بعد! يا عائشةُ! فإنّه قَد بلَغَني عَنْكِ كذا وكذا. فإن كنت بريئةً فسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وإن كنتِ ألْمَمْتِ بذنبٍ، فاستغفري الله وتُوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذَنْبٍ ثم تابَ، تابَ الله عليه!». ....

و (قوله: «فإنه قد بلغني كذا وكذا») هو كناية عما رُميت به من الإفك، وهذا يدلُّ على أن: كذا وكذا يُكنى بها عن الأحوال، كما يُكنى بها عن الأعداد، وقد تقدَّم.

و (قوله: «إن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري اللَّهَ وتوبي إليه») من الإلمام، وهو النزول النادر غير المتكرر، كما قال:

مَتَى تَأْتِنا تُلْمِم بِنَا فِي دِيَارِنا[1] ....

أي: متى يقع منك هذا النادر؟ وهو أصلُ اللمم.

و (قوله: «فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه[2] ثم تابَ تابَ الله عليه») دليل على: أنَّ مجرَّدَ الاعتراف لا يُغني عن التوبة، بل إذا اعترفَ به متَّصلاً نادماً، وقد تقدَّم القول في التوبة في كتابها.

مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة

---

(١) هذا صدر بيت وعجزه:

تجدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تَأَجَّجا

وفي (ز): دَارِنا.

(٢) في التلخيص ومسلم: «بذنْبٍ».

قالتْ: فلمّا قضى رسولُ الله ﷺ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي، حتّى ما أُحِسُّ مِنه قطرةً.

فقلت لأبي: أجبْ عَنِّي رسولَ الله ﷺ فيما قال! فقال: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ! فقلت لأمِّي: أجيبي عَني رسولَ الله ﷺ! فقالت: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ! ـ وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ، لا أقرأ كثيراً من القرآن ـ: إنِّي واللَّهِ! لَقَدْ عَرَفْتُ أنَّكُم قَدْ سَمِعْتُم بهذا حتّى استقرّ في نُفُوسِكُمْ وصَدَّقْتُم به، فإنْ قلتُ لَكُمْ إنِّي بريئةٌ ـ والله يعلمُ أنِّي بريئةٌ ـ لا تُصدِّقُوني بذلِك! ولئن اعترفتُ لَكُم بأمْرٍ، والله يعلمُ أنِّي بريئةٌ لَتُصدقُونَنِي، وإني واللَّهِ! ما أجدُ لي ولكُم مَثَلاً إلَّا كَمَا قالَ أبُو يوسُف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، قالتْ: ثم تحوّلتُ، فاضطجعت على فراشي. قالتْ: وأنا والله حينئذٍ أعلمُ أني بريئةٌ، وأن الله مبرِّئي بِبَراءتِي، ولكنْ والله! ما كُنْتُ أظنُّ أن يُنْزلَ في شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلى. ولَشَأْني كان أحقرَ في نَفْسِي مِن أَنْ يتكلم اللَّهُ عزّ وجلَّ فيَّ بأمرٍ يُتْلى،

و (قولها: فلما قضى رسولُ الله ﷺ مقالتَه قَلَصَ دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرةً) أي: انقبض وارتفع، وإنما كان ذلك؛ لأن الحزن والموجدة، قد انتهت نهايتها، وبلغت غايتَها، ومهما انتهى الأمر إلى ذلك جفَّ الدمع لفرط حرارة المصيبة، كما قال الشاعر:

عَيْنَيَّ سُحَّا ولاَ تَشُحَّا ... جَلَّ مُصابِي عَنِ الدَّوَاءِ
إنَّ الأَسَى وَالبُكَا جَميعاً ضِدَّانَ كالدَّاءِ والدَّوَاءِ

ما يتعيّن على أهل الفضل والعلم

و (قولها: ولشأني كان في نفسي أحقر من أن يتكلم اللَّهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى) دليلٌ على: أن الذين يتعيَّن على أهل الفضل، والعلم، والعبادة، والمنزلة: احتقار

ولكِنِّي كُنتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ في النَّوم رُؤيَا يُبَرِّئني اللَّهُ بِها. قالتْ: فواللَّهِ! ما رَامَ رسولُ الله ﷺ مَجلسَهُ، ولا خَرَجَ من أهْلِ البيت أحدٌ؛ حتى أَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ على نبيِّه ﷺ، فأَخَذَهُ ما كانَ يأْخُذُهُ من البُرحَاء عند الوحي، حتى إنّه ليتَحدَّر منه مثلُ الجُمَانِ من العَرَقِ في اليوم الشَّاتي، مِن ثِقَلِ القولِ الذي أُنزلَ عَلَيْه. قالَتْ: فلَمَّا سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ وهو يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كلمةٍ تكلَّم بها أنْ قال: «أبشري! يا عائشة! أمَّا الله فقد برأكِ»، فقالتْ لي أمِّي: قومي إليه! فقلتُ: واللَّهِ

أنفسهم، وترك الالتفات إلى أعمالهم، ولا إلى أحوالهم، وتجريد النظر إلى لطف الله، ومنَّته، وعفوه، ورحمته، وكرمه، ومغفرته. وقد اغترَّ كثيرٌ من الجهَّال بالأعمال فلاحظوا أنفسَهم بعين استحقاقِ الكرامات، وإجابة الدَّعوات، وزعموا أنَّهم ممن يُتبرَّك بلقائهم، ويُغتنم صالحُ دعائهم، وأنهم يجب احترامُهم وتعظيمُهم، فيُتمسَّحُ بأثوابهم، وتُقَبَّل أيديهم، ويرون أنَّ لهم من المكانة عند الله بحيثُ ينتقم لهم ممن تنقَّصَهم في الحال، وأن يُؤخَذَ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وهذه كلُّها نتائجُ الجهل العميم، والعقل غير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدرُ من جاهلٍ مُعْجَبٍ بنفسه، غافل عن جُرْمه وذنبه، مُغْترٌّ بإمهال الله ـ عز وجل ـ له عن أَخْذه، ولقد غلب أمثالُ هؤلاء الأنذال في هذه الأزمان فاستتبعوا العوامّ، وعظمت بسببهم على أهل الدِّين المصائبُ والطوامّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وهذه نفثاتُ مصدور، وإلى الله عاقبة الأمور.

و (قولها: فما رامِ رسولُ الله ﷺ مجلسَه) أي: ما برحه، ولا قام عنه. يقال: رامه يريمه ريماً؛ أي: برحه ولازمه، ويقال: رمت فلاناً، ورمت من عند فلان. قال الأعشى:

أبـانـا فَـلاَ رِمْـتَ مِـنْ عِنْـدِنـا فَـإنَّـا بِخَيْـرٍ إذا لَـمْ تَـرِمْ

لا أقوم إليهِ! ولا أحْمَدُ إلا اللَّهَ هو الذي أنزل بَراءَتي! قالتْ: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ [عَشْر آيات [النور: ١١ ـ ٢٠]، فأنزل الله عز وجلّ هؤلاء الآياتِ بَراءتي. قالتْ: فقال أبو بكر ـ وكان يُنفق على مسْطَح لِقرابَتِه منه وفَقْره ـ: والله! لا أُنفِقُ عليْه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [النور: ٢٢].

قال عبد الله بن المبارك: هذِه أَرْجَى آيةٍ في كتابِ اللَّهِ ـ فقال أبو بكرٍ: والله! إنّي لأُحِبُّ أنْ يَغْفِر الله لي، فرَجَع إلى مِسْطحِ النَّفَقَةَ التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنْزِعُها مِنه أبداً.

قالتْ عائشة: وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ سَأل زينب بنت جحش زَوْجَ النَّبيِّ ﷺ عن أمْرِي: «مَا عَلِمْتِ؟ ـ أو: ما رأيتِ ـ؟»، فقالتْ:

وأما رام: بمعنى: طلب. فيقال منه: رام يروم روماً. والبرحاء على فعلاء: شدة الحمى وغيرها، وهو البَرَح أيضاً. يقال: لقيتُ منه بَرَحاً بارحاً، ولقيت منه البُرحين والبِرحين ـ بضم الباء وكسرها ـ أي: الشدائد، والدواهي. وسُرِّي عن رسول الله ﷺ أي: انكشف ما كان به، وزال عنه، وهو بالتشديد مبني لما لم يُسَمَّ فاعلُه.

و (قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ...﴾ الآية [النور: ٢٢]) أي: لا يحلف. يقال: آلى يؤلي، وائتلى يأتلي: بمعنى واحد، والفضلُ هنا: المال والسَّعة في العيش والرزق.

و (قولها: تساميني) أي: تعاندني، وتضاهيني في الجمال والمكانة عند رسول الله ﷺ، من السمو، وهو الارتفاع.

يا رسولَ الله! أَحْمِي سَمْعي وبَصَرِي. واللَّهِ! ما علمتُ إلا خيراً. قالتْ عائشة: وهي التي كانَتْ تُساميني من أزواج النبي ﷺ فعَصَمَها الله بالورع، وطَفِقَت أُخْتُها حَمْنَة بنتُ جَحْشٍ تُحاربُ لَها، فهَلَكتْ فيمن هَلَك.

قال الزُّهرِي: فهذا ما انتهى إلينا.

و (قول زينب: أحمي سمعي وبصري) أي: أمنعهما من عقوبة الله تعالى بالكفّ عن قول: سمعت، أو رأيت. أي: لم أرَ ولم أسمع، وما علمتُ إلا خيراً، فعصمها اللَّهُ مِنَ الهلاك بما رَزَقَها من التثبُّت، والدِّين، والورع، مع أنها كانت تُناصبها، وتنافسها في المرتبة، فكان كما قال من لا يجوزُ عليه الخطأُ ولا الكذب: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

و (قولها: وطفقتْ أختُها حمنة بنت جحش تحاربُ لها، فهلكت فيمن هلك) أي: حُدَّت حدَّ القذف فيمن حُدَّ.

و (قوله: أسقطوا لها به) كذا عند الجلودي. أي: كلّموها بسقط من القول. يقال: أسقط الرجل: إذا قال كلاماً رديئاً سقط فيه. وعلى هذا فيكون الضمير في (به) عائداً على القول. أي: أسقطوا لها بالقول. وقيل معناه: صرَّحوا لها بالفحش، ولذلك لما سمعته بريرة أعظمتْ ذلك، وأنكرته، وقالت: سُبحان الله! والله ما علمتُ عليها إلا ما يعلم الصائغُ على تِبْر الذهب الأحمر. وقد وقعتْ هذه الكلمة التي هي: سبحان الله، في هذا الحديث على نحو ما جاءت في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦] والمقصودُ بذكرها في هذه المواضع إعظامُ نسبة السوء إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ وتحقيق براءتها، وكأن المتكلِّمَ بها يريدُ أن يقول: التنزيه والبراءة لله من أن يجريَ ذلك على مثل عائشة، وأن يوقعَه في الوجود، والله تعالى أعلم.

زاد في رواية: قال عروة: كانتْ عائشةُ تكرَهُ أن يُسبَّ حَسَّانُ عندها. وتقولُ: إنه قال:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وعِرْضِي   لِعرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُم وِقَاءُ

وفي أخرى: قالتْ: لما ذُكِر مَن شأني الذي ذُكِرَ، وما عَلِمْتُ بِهِ، قام رسولُ الله ﷺ خطيباً فَتَشهَّدَ، فَحَمد الله وأثنى عليهِ بمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثمّ قال: «أَمّا بَعْدُ: أشِيروا عليَّ في أُناس أَبَنُوا أَهْلِي، وايم الله! ما عَلِمتُ عَلى أَهْلِي من سوءٍ قَطُّ، وأَبَنُوهُم، بِمَنْ، والله! مَا علمتُ عليه من سوءٍ قطُّ، ولا دَخل بيتي قَطُّ إلَّا وأنا حاضِرٌ ولا غِبْتُ في سَفَرٍ إلَّا غابَ مَعِي». وساقَ الحديثَ بقصته. وفيه: ولقَدْ دخل رسولُ الله ﷺ بَيْتي فسأل جارِيتي، فقالتْ: واللَّهِ! ما علمتُ عَلَيها عيْباً، إلَّا أنها كانت ترقدُ حتى تدخل الشاةُ فتأكلَ عَجِينَها ـ أو قالتْ: خَميرها ـ فانتهَرَها بعضُ أصحابه، فقال: اصدُقي رسولَ اللَّهِ ﷺ! حتى أسقَطوا لها به. فقالتْ: سُبحانَ اللَّهِ! واللَّهِ! ما عَلِمْتُ عَلَيْها إلَّا ما يعلمُ الصائغ على تِبْر الذَّهب الأحمر! وقد بلغَ الأمر ذلك الرجلَ الذي قيل له. فقالَ: سبحانَ الله! والله! ما كشفتُ عن كَنَف أُنْثى قَطُّ! قالت عائشةُ: وقُتِلَ شهيداً في سبيل الله.

و (قوله: «أشيروا عليَّ في أناسٍ أَبَنُوا أهلي») أي: اتَّهموهم، وقذفوهم بالفاحشة، ويقال: رجل مأبون: أي: معروفٌ بِخَلَّةٍ من السوء؛ أي: مُتَّهم. ويقال: أَبَنَه ـ بالفتح ـ في الماضي، يأبِنَه ـ بالضم والكسر ـ في المضارع.

و (قول صفوان ـ رضي الله عنه ـ: واللَّهِ ما كشفتُ عن كنف أنثى قطّ) هو بفتح النون، وهو الثوبُ هنا، وأصله السَّاتر، وهو كنايةٌ عن الجِماع. أقسم أنه ما جامع امرأةً قط. وكأنه لم يكنْ له أربٌ في النساء، والله تعالى أعلم.

وكان الذين تكلّموا بهِ: مِسْطَحٌ، وحمنةُ، وحسَّانُ. وأمَّا المنافقُ عبدُ

و (قوله: وكان الذين تكلَّموا به: مسطح[1]، وحَمْنَة، وحسان)، وقد ذكرنا الخلافَ في حسان في باب فضائله. هل صرَّح بالقذف أم لا؟ وهل حُدَّ أم لا؟ والصحيح: أنه حُدَّ بما رواه أبو داود عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نزل عُذْري قام النبيُّ ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أَمَر بالرجلين والمرأة فضُرِبوا حدَّهم وسمَّاهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحش[2]. وفي كتاب الطحاوي: ثمانين ثمانين. وأما حمنة ومسطح، فحُدَّا، ولم يُسْمَعْ بحدٍّ لعبد الله بن أبيٍّ، والظاهر مِن الأخبار والأحاديث: أنه لم يُحَدَّ. وإنما لم يُحَدَّ عدو الله؛ لأن اللَّهَ قد أعدَّ له في الآخرة عذاباً عظيماً؛ لكان نقصاً من عذابه في الأخرى، وتخفيفاً عنه، وقد أشار اللَّهُ تعالى إلى هذا بقوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]. مع أنَّ اللَّهَ تعالى قد شهد ببراءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبكذب كلِّ مَن رماها، فقد حصلت فائدةُ الحدِّ؛ إذ مقصودُه إظهارُ كذب القاذف وبراءة المقذوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون ليكفِّر عنهم إثمُ ما صدر عنهم من القذف، حتى لا يبقى عليهم تبعةٌ من ذلك في الآخرة. وقد قال النبي ﷺ في الحدود إنها كفارة لمن أقيمت عليه، كما تقدم في حديث عبادة بن الصامت. ويحتمل أن يقال: إنما ترك حدَّ ابن أبيٍّ استئلافاً لقومه، واحتراماً لابنه، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقَّعة من ذلك، وقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة، ومِن قومه كما تقدَّم. ومعنى يستوشيه: يطلبه، ويبحث عنه، ويشنِّعه. يقال: فلان يستوشي فرسه: يعقبه؛ أي: يطلب ما عنده من الجري، ويستخرجه.

من حُدَّ في قذف السيدة عائشة

ثبوت براءة السيدة عائشة

وحديث الإفك هذا فيه أحكامٌ كثيرة، لو تُتُبِّعتْ لطال الأمر، وأفضى إلى الملال، ومَن تفقَّدها مِن أهل الفطنة وجدها.

---

(١) جاءت هذه اللفظة في جميع نسخ المفهم بالنصب، بينما جاءت في التلخيص بالرفع.

(٢) رواه أبو داود (٤٤٧٤)، والترمذي (٣١٨٠)، وابن ماجه (٢٥٦٧).

الله بنُ أُبيٍّ فهُوَ الذي كان يَسْتَوشِيهِ، ويجمعهُ، وهو الذي تولى كِبره، وحمنةُ.

رواه أحمد (٦/ ١٩٥)، والبخاريُّ (٤٧٥٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)((٥٦ ـ ٥٨)، والترمذيُّ (٣١٧٩)(، والنسائي (١/ ١٦٣).

ووقعتْ هذه القضية في غزوة المريسيع، وهو ما في ناحية قديد مما يلي الساحل. أغار النبيُّ ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون؛ أي: غافلون، وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل المقاتلةَ، وأسر، وكانت هذه الغزوةُ في شعبان سنة ست من الهجرة. هذا أشهرُ الأقوال عند أهل السِّير، وعلى هذا ينشأ بحثٌ يلزمُ منه وَهْمُ بعضِ النقلة؛ فإنه قد تقدَّم في هذا الحديث أنَّ سعدَ بن معاذ هو الذي راجَعَ سعدَ ابن عُبادة حتى سَرَى أمرُهما، ولم يختلفْ أحدٌ من الرواة في أنَّ سعدَ بن معاذٍ ـ رضي الله عنه ـ مات في منصرف رسولِ الله ﷺ من بني قريظة، بعد أن حَكَم بحكم الله، وذلك سنة أربع، ولم يدرك غزوة المريسيع. هذا قولُ أهلِ النَّقْل.

قلــتُ: فعلى هذا يكونُ ذِكْرُ سعد بن معاذ في هذا الحديث وهماً وغلطاً، وكذلك قال أبو عمر بن عبد البر. قال: وإنما تَراجَعَ في ذلك سعد بن عبادة وأسيد ابن حضير، وكذلك ذَكَر ابنُ إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، وهو الصَّحيح. قال القاضي أبو الفضل: قال ابنُ عقبة: إن غزوة المريسيع كانت سنة أربع في سنة غزوة الخندق، وقد ذكر البخاريُّ اختلافَ ابنِ إسحاق، وابن عقبة في ذلك. قال: وقد وجدتُ الطبريَّ ذَكَر ذلك عن الواقدي: أنَّ المريسيعَ سنة خمس، قال: وكانت الخندقُ وقريظةُ بعدها. قال: ووجدتُ القاضي إسماعيل قال: اختلفوا في ذلك، والأولى: أن تكونَ المريسيعُ قبلها.

قلــتُ: فعلى هذا يستقيمُ ما رواه مسلم والبخاري من ذِكْر سعد بن معاذ، ولا يكون ذكرُه وهماً، والله تعالى أعلم.

[٢٨٩٤] وعن جابرٍ، أنَّ جاريةً لعبد الله بن أُبيّ يقال لها: مُسَيْكَةُ، وأُخرى يقالُ لها: أُميمَةُ. فكان يريدهما على الزِّنى، فشَكَتا ذلك إلى النَّبيِّ ﷺ. فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

وفي روايةٍ: كان يقول لجاريته: اذهَبِي فَابْغِينا شَيئاً.

رواه مسلم (٣٠٢٩) (٢٦ و ٢٧)، وأبو داود (٢٣١١).

* * *

و (قول جابر: إن عبد الله بن أبي كانت له جاريتان: مسيكة وأميمة)، يريدُهما على الزنى. رَوَى غيرُه: أنهن كن ستّاً. قال: معاذة، ومسيكة، وأروى، وقتيلة، وعمرة، ونبيهة[1]، فكن يحملهن على الزنى، ويأخذُ منهن أجورهُنَّ. والفتيات: جمع فتاة، والفتيان: جمع فتى. وهم المماليكُ. والبِغاء: الزنى.

و (قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]) أي: عفافاً، ولا دليلَ خطابٍ لهذا الشرط، ولا يجوزُ إكراههن عليه بوجهٍ، سواء أردن تحصُّناً، أو لم[2] يُرِدْن، وإنما علَّق النهي على الإكراه على إرادة التحصُّن؛ لأنَّ الإكراه لا يُتصوَّر إلَّا مع ذلك. فأما إذا رغبتْ في الزنى فلا إكراهَ يُتصوَّر.

و (قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]) أي: لمن تاب من ذلك. وكان الحسنُ يقول: غفورٌ لهن والله، لا لمكرهن، مستدلّاً على ذلك بإضافة الإكراه إليهن.

---

(١) ورد في التفسير الكبير للفخر الرازي: أميمة بدلاً من نبيهة.
(٢) في (ز): لا.

(١٧) ومن سورة الفرقان

[٢٨٩٥] عن ابن عباسٍ، قال: نزلتْ هذه الآية بمكة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، إلى قوله: ﴿مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩]، فقال المشركون: وما يُغْنِي عَنّا الإسلامُ وقد عَدَلْنا باللَّهِ، وقَتلنا النفسَ التي حرّم اللَّهُ، وأَتَيْنا الفواحِشَ؟ فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...﴾ إلى آخر الآية [الفرقان: ٧٠].

---

(١٧) ومن سورة الفرقان

صفات عباد الرحمن

(قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ...﴾ الآيتين [الفرقان: ٦٨ - ٦٩]) هذه الآيةُ معطوفةٌ على ما قبلها من الأوصاف التي وصف بها عباد الرحمن، وهو من باب عطف الصِّفات بعضها على بعض، وكذلك ما بعد هذه الآية من الآيات معطوفٌ بعضها على بعض، والكلُّ معطوفٌ على قوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا...﴾ إلى قوله: ﴿وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥ - ٧٦]، وهذه الجملةُ هي خبرُ المبتدأ الذي هو: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وما بين المبتدأ والخبر أوصافٌ لهم، وما تعلَّق بها، وقد تضمنت هذه الآيةُ مدحَ مَن لم تقعْ منه هذه الفواحشُ الثلاث؛ التي هي: الشِّرك بالله، والقتل: العدوان، والزنى، وذمّ من وقعتْ منه، ومضاعفة العذاب عليه، وهي محمولةٌ على ظاهرها عند الجمهور، وعليه فيكون معنى قوله: ﴿إلا بالحق﴾ أي: بأمر موجبٍ للقتل شرعاً. وذلك الأمرُ هو المذكورُ في قوله ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: زنىً بعد إحصان، أو كفر بعد إيمان، أو قتل نفس بغير نفس»[1]. وقد صَرَفَ هذه الآية عن ظاهرها بعضُ

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٠٢)، والترمذي (٢١٥٩)، والنسائي (٧/ ٩٢).

قال: فأمّا مَن دَخَلَ في الإسلام وعَقَلَهُ، ثم قَتَلَ، فلا توبة له.

رواه مسلم (٣٠٢٣) (١٩).

أهلِ المعاني فقال: لا يليقُ بمن أضافهم الرحمنُ إليه إضافةَ الاختصاص، ووصفهم بما ذكرهم من صفاتِ المعرفة والتشريف، وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يُمْدَحُوا بنفيها؛ لأنَّهم أعلى وأشرف. فقال: معناها: لا يدعون الهوى إلهاً، ولا يذلُّون أنفسهم بالمعاصي فيكون قَتْلاً لها. ومعنى: ﴿إلا بالحق﴾ أي: إلا بسكين الصبر، وسيف المجاهدة، ولا ينظرون إلى نساء[1] ليست لهم بمحرم بشهوة، فيكون سِفاحاً، بل: بالضَّرورة، فيكون كالنِّكاح مُباحاً.

قلـــتُ: وهذا كلامٌ رائق، غير أنَّه عند السَّبر مائق[2]، وهي نبعةٌ باطنية، ونزعةٌ باطليّة، وإنما يصحُّ تشريفُ عبادِ الرَّحمن باختصاص الإضافة بعدَ أن تحلوا بتلك الصِّفات الحميدة، وتخلّوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذَّميمة، فبدأ في صَدْر هذه الآيات بصفات التحلِّي تشريفاً لها، ثم أعقبها بصفات التخلِّي تقعيداً لها. والله تعالى أعلم. وقد تقدَّم القولُ على: ﴿إلا من تاب﴾ وعلى قول ابن عباس في سورة النساء. وفي هذه الآية دليلٌ على: أنَّ الكفارَ مُخاطَبُون بالفروع. وقد استوفينا ذلك في الأصول، وفي الآية مباحثُ تطول.

الكفار مخاطَبُون بالفروع

* * *

---

(١) في جميع نسخ المفهم (دينا)، وما أثبتناه من تفسير القرطبي، وبه يستقيم المعنى.
(٢) «المائق»: قليل الثبات.

(١٨) ومن سورة الشعراء

[٢٨٩٦] عن أبي هريرة، قال: لمَّا نَزَلَتْ هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجْتَمعُوا، فعمَّ وخصّ. فقال: «يا بني كعْب بنِ لُؤيّ! أنقذُوا أنفسكم من النّارِ! يا بني مُرّةَ بن كَعْبٍ! أنقذُوا أنفسكم من النار! يا بني عَبْدِ شمسٍ! أنقذوا أنفسَكم من النار! يا بني هاشمٍ! أنقذوا أنفسَكم من النار! يا بني عبد المطلبِ! أنقذُوا أنفسكم من النار! يا فاطمةُ! أنقذي نفسك من النار! فإني لا أملكُ لكم من الله شيئاً، غير أنّ لَكُم رَحِماً سَأَبُلُّها ببلالها».

رواه البخاريُّ (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤)، والترمذيُّ (٣١٨٤)، والنسائيُّ (٦/ ٢٤٨).

[٢٨٩٧] وعن عائشة، قالت: لما نزلتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قامَ رسولُ الله ﷺ على الصَّفا فقال: «يا فاطمةُ بنتَ

---

(١٨) ومن سورة الشعراء

(قوله: «فإني لا أملكُ لكم من الله شيئاً») أي: لا أقدرُ على دَفْع عذابه عن أحد، ولا على جَلْب ثوابٍ لأحد، أي: فلا ينفعُ القربُ في الأنساب مع البعد في الأسباب.

لا ينفع القرب في الأنساب مع البعد في الأسباب

و (قوله: «غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببلالها») أي: سأبلُّها الصلة التي تليقُ بها، فَصِلَةُ المؤمن: إكرامُه، ومَبَرَّته. وصلةُ الكافر: إرشادُه ونصيحتُه، وقد تقدَّم القولُ في تفصيل صلةِ الأرحام.

و (قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] «ورهطك منهم المخلصين») ظاهر هذا: أنَّ هذا كان قرآناً يُتلى، وأنه نُسِخ؛ إذ لم يثبت نقلُه في

محمدٍ! يا صفيّةُ بنتَ عبدِ المطلبِ! يا بني عبد المطلب! لا أملكُ لَكُم من الله شيئاً. سَلُوني مِنْ مَالِي مَا شِئْتُم».

رواه أحمد (٦/ ١٨٧)، ومسلم (٢٠٥)، والترمذي (٣١٨٤)، والنسائي (٦/ ٢٥٠).

[٢٨٩٨] وعن ابن عباسٍ، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ورَهْطَكَ منهم المخْلَصِين. خرج رسولُ الله ﷺ حتى صَعِدَ الصَّفَا، فهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاه!» فقالوا: مَنْ هذا الذي يهتفُ؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: «يا بَني فلانٍ! يا بني فلانٍ! يا بني فلانٍ! يا بني عَبْدِ منافٍ! يا بني عبد المطلبِ!»، فاجتمعُوا إليه فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هذا الجَبَلِ أكنتُم مُصَدِّقِيَّ؟»، قالوا: ما جرَّبْنَا عليك كَذِباً. قال: «فإني نَذِيرٌ لكُمْ بَيْنَ يَدي عذابٍ شديدٍ».

قال: فقال أبو لهب: تبّاً لك! أمَا جَمَعْتَنَا إلَّا لِهَذا؟ ثم قام. فنزلتْ هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١ ـ ٥]. وقد تبَّ. هكذا قرأه الأعمش إلى آخر السورة.

المصحف، ولا تواتر، ويلزم على ثبوته إشكال، وهو أنَّه كان يلزمُ عليه ألا ينذرَ إلا مَن آمنَ مِن عشيرته؛ فإنَّ المؤمنين هم الذين يُوصَفُون بالإخلاص في دِيْن الإسلام، وفي حُبِّ النبيِّ ﷺ لا المشركون؛ لأنهم ليسوا على شيءٍ من ذلك، والنبيُّ ﷺ دعا عشيرته كلَّهم ـ مؤمنهم وكافرهم ـ وأنذر جميعهم، فلم يثبتْ ذلك نقلاً ولا معنىً، فالحمدُ لله الذي رَفَع عنا الإشكالَ والعناء. وسفح الجبل: جانبه، وهو بالسين.

و (قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]) أي: قد خسرت، والتَّباب:

رواه أحمد (١/ ٢٨١)، والبخاريّ (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨) (٣٥٥)، والترمذيّ (٣٣٦٣).

* * *

الخُسْران، ونَسَب التباب لليد، والمراد صاحب اليد؛ لأنَّ اليدَ أصلٌ في الأعمال. ولهب: فيها لغتان؛ السكون في الهاء وفتحها، واسم أبي لهب: عبد العزَّى، ولُقِّب بأبي لهب لإشراق وجنتيه؛ كأنهما كانتا تلتهبان ناراً.

قلتُ: وأولى من ذلك كلِّه أنَّ اللَّهَ تعالى أجرى عليه هذا اللقبَ لعلمه بمآل أمره، وأنه مِن أهل النار، كما أجرى على أبي جَهْل لقب: الجهل، وسَلَبه أبا الحكم، وحُكِي في قولٍ مصيب: لكل امرىء من اسمه نصيب، ألا يقتضي العجب من قوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]؟!.

و (قوله: ﴿ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١]) معطوفٌ على الأوَّل، وكلاهما بمعنى الدعاء، وقيل: الأول: دعاء، والثاني: إخبار بإجابة الدُّعاء فيه، ويُؤيِّده قراءةُ ابن مسعود، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: (وقد تب)، وقيل: كلاهما خبر، فالأول: خسرت يداه مُرادَه من الرسول ﷺ؛ إذ كان مراده قتله، وإخفاء كلمته. وتبَّ: هو بما أصابه من العذاب، وقيل: تبَّ في نفسه، وتبّ في ولده وكسبه؛ إذ لم يُغنيا عنه شيئاً، ولا جرَّا له نفعاً.

و (قوله: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ [المسد: ٤]) الجمهورُ: على رفع حمالة على الصفة أو البدل، أو على أنه خبرُ ابتداءٍ محذوف، وقرأه عاصم بالنصب على الذَّمِّ، ويجوزُ أن يكون حالاً، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها كانت تُلْقِي الشوكَ في طريق النبيِّ ﷺ لتؤذيه، قاله الضحَّاك. وقيل: لأنها كانت نقَّالةً للحديث نمَّامة، فكانت تشعلُ نارَ العداوة، كما تُشْعَلُ النارُ في الحطب. قال الشاعر:

إنَّ بَنِـي الأَدْرَمِ حَمَّـالُـو الحَطَـبْ
هُمُ الوُشَاةُ فِي الرِّضَا وَفي الغَضَبْ

(١٩) ومـن سـورة: الٓمٓ السجدة

[٢٨٩٩] عن أبيٍّ بن كعبٍ، في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، قال: مصائبُ الدُّنيا، والرُّومُ، والبطشة، أو الدخان ـ شعبة الشاكُّ ـ.

رواه مسلم (٢٧٩٩).

* * *

وقال قتادة: لأنَّ مصيرَها إلى النار كالحطب. يُقال: فلان يحتطبُ على ظهره، أي: يجني على نفسه.

و (قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]) الجيد: العُنُق، وجمعه: أجياد. والمسد ـ هنا ـ: الليف، وسُمِّي الليفُ مَسَداً؛ لأنَّه يُمْسَدُ منه المسد، وهو: الحبل؛ أي: يُفْتَل. قال الشاعر:

أَعُـوذُ بـاللَّـهِ مِـنْ لَيْـلٍ يُقَـرِّبُنـي   إلَـى مَضـاجِعِـهِ كَـالـدَّلْـوِ بـالمَسَـدِ

أي: الحبـل المفتـول، وأصـلُ المسـد: الفتـل. يقـال: دابـة ممسـودة؛ أي: شديدة الأسر. أي: يُجْعَلُ في عنقها حبل من نار مفتول، ولعلَّه السلسلة التي قال الله تعالى: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢]، والله تعالى أعلم.

(١٩ و ٢٠) ومن سورة الٓم تنزيل السجدة والأحزاب

(قول الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]) فسَّرها أبيٌّ بالأربعة التي ذكرَ، مصائب الدنيا: رزاياها من الأمراض والآلام، وذهاب الأموال والأهلين، ونحو ذلك. والروم: يعني بها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . . .﴾ [الروم: ١ ـ ٢]. والدخان يعني به قوله

(٢٠) ومن سورة الأحزاب

[٢٩٠٠] عن عائشة، في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. قالت: كان ذلك يومَ الخندق.

رواه البخاريُّ (٤١٠٣)، ومسلم (٣٠٢٠).

* * *

تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وقد تقدَّم الخلاف فيه. والبطشة الكبرى: هي ما أوقع الله تعالى بقريش يوم بدرٍ من الأسر والقتل، وقال مجاهد: الأدنى: عذاب القبر، والأكبر: عذاب الآخرة. وقال جعفر الصَّادق: الأدنى غلاء الأسعار، والأكبر خروج المهدي بالسيف. وقال أبو سليمان الدَّاراني: الأدنى: الهَوان. والأكبر: الخذلان.

و (قوله: ﴿لعلَّهم يرجعون﴾) أي: لكي يرجعوا عن غيِّهم. قاله الفرَّاء، وعلى مذهب سيبويه: ليصلوا إلى حالٍ يُرجى لهم ذلك. وقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠] كان ذلك في غزوة الخندق الذي حفره المسلمون حولَ المدينة برأي سلمانَ، وتسمَّى غزوة الأحزاب؛ لأن الكفَّار تحزَّبوا أحزاباً وتجمَّعوا جموعاً حتى اجتمع في عددهم خمسة عشر ألفاً من أهل نجد وتِهامة، ومِن حولهم أو نحوهم، وحاصروا المسلمينَ في المدينة شهراً، ولم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنَّبْل والحَصَى، ونقضتْ قريظةُ ما كان بينهم، وبينَ رسول الله ﷺ من العهد، وحينئذ جاء المسلمين عدوُّهم من فوقهم ومن أسفلَ منهم. وزاغتِ الأبصارُ: يعني مالت عن سَنَن القصد فعلَ المرعوب. وقال قتادةُ: شخصت. وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ، أي: قاربت الخروج من الضِّيق والرَّوْع وشدَّة البلاء والجَهْد، وكان وقتَ بلاءٍ وتمحيص، ولذلك نجم في كثير من الناس النفاق، وظهرَ منهم الشقاق.

(٢١) ومـن سـورة تنزيل

[٢٩٠١] عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ، قال: جاء رجلٌ من أهل الكتابِ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إنَّ الله يُمْسِكُ السمواتِ على إصْبَعٍ، والأَرَضينِ على أصبعٍ، والشجرَ والثَّرى على أصبع.

و (قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]) أي: تشكُّون في الوعد بالنصر، يُخبر عن المنافقين. أو يكون معناه: أنهم خافوا من أن يُخذلوا في ذلك الوقت؛ فإنَّ وقتَ وقوعِ النصر الموعود غيرَ مُعيَّن. وهذا أحسنُ من الأول، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. امتُحنوا بالصبر على الحصار وشِدَّة الجوع، وزُلزلوا بالخوف من أن يخذلَهم الله في ذلك الوقت، ويديلُ عدوَّهم عليهم، كما فعلَ يومَ أُحد. وقد تقدَّم الخلاف في غزوة الخندق متى كانت.

(٢١) ومن سورة تنزيل[١]

(قول اليهوديّ: إن الله يُمسكُ السموات على أُصبع... الحديث إلى آخره).

هذا كلُّه قول اليهودي. لا قولَ النبي ﷺ، والغالب على اليهود أنهم يعتقدون الجسميّة، وأن اللَّهَ تعالى شخص ذو جوارح، كما تعتقده غلاة الحشويّة في هذه المِلَّة، وضِحْكُ النبي ﷺ منه إنما هو تعجُّبٌ من جهله، ألا ترى أنه قرأ عند ذلك: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] أي: ما عرفوه حقَّ معرفته، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه. وهذه الرواية هي الرواية الصحيحة المُحقَّقة، فأما رواية من زاد في هذا اللفظ تصديقاً له فليست بشيءٍ؛ لأنها من قول الراوي، وهي باطلة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يُصدِّقُ الكاذبَ، ولا المحال، وهذه الأوصاف في حقِّ الله تعالى مُحال، بدليل

موقف السلف من صفات الله

---

(١) هي سورة الزمر.

. . . .

ما قدَّمناه غيرَ مرَّة، وحاصلُه أنه لو كان تعالى ذايد[١] وأصابع وجوارح على نحو ما هو المعروف عندنا لكان كواحدٍ منا، ويجبُ له من الافتقار والحدَث والنقص والعجز ما يجبُ لنا، وحينئذ تستحيل عليه الإلهيّة، ولو جازت الإلهيّة لمن كان على هذه الأوصاف لجاز أن يكون كلُّ واحد منا إلهاً، ولصحَّت الإلهيَّة للدَّجَّال، ولصدقَ في دعواه إياها، وكل ذلك كذبٌ ومُحال، والمفضي إليه كذبٌ ومحال، فقول اليهوديّ كذبٌ ومُحالٌ، ولذلك أنزلَ الله تعالى في الرد عليه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾. وإنما تعجَّبَ النبيُّ ﷺ من جهله، فوَهِمَ الراوي وظنَّ أن ذلك التعجُّبَ تصديقٌ، وليس كذلك. فإن قيل: فقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن قلوبَ بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»[٢]. فقد أخبرَ بأنَّ له أصابع. فالجواب: أنه إذا جاءنا مثل هذا في كلام الصَّادق تأوَّلْناه، أو توقَّفْنا فيه إلى أن يتبيَّنَ وجهُه، مع القطع باستحالة ظاهره، لضرورة صدق من دلَّت المعجزة على صدقه. فأما إذا جاءَنا مثل هذا على لسان من يجوز عليه الكذب، بل: من أخبرنا الصَّادق عن نوعه بالكذب والتحريف كذَّبناه، وقبَّحناه، ثم لو سلَّمنا أن النبيَّ ﷺ صدَّقه، وقال له: صَدَقْتَ لما كان تصديقاً له في المعنى، بل: في النقل، أي في نقل ذلك عن كتابه أو عن نبيِّه، وحينئذ نقطعُ بأن ظاهرَه غير مراد، ثم هل نتوقَّفُ في تعيين تأويلٍ ونسلِّم، أو نُبدي تأويلاً له وجه في اللِّسان وصحة في العقل على الرأيين اللذين لأئمتنا وقد تقدَّما. وقد قلنا: إن الأصبع يصحُّ أن يرادَ به القدرة على الشيء ويسارة تقليبه، كما يقولُ من استسهلَ شيئاً واستخفَّه مخاطباً لمن استثقَلَه: أنا أحملُه على أصبعي أو أرفعه بأصبعي وأمسكه بخنصري. وكما يقول من طاعَ بحمل شيء: أنا

---

(١) الأَوْلى أن نثبتَ لله تعالى ما أثبته لنفسه في قرآنه، من غير تشبيه ولا تجسيم ولا تعطيل ولا تأويل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١].

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٢٦٥٤).

في روايةٍ: «ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، ثم يقول: أنا المَلِكُ! أنا المَلِكُ!»، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه.

أحملُه على عيني وأرفعُه على رأسي. يعني به: الطواعية، وما أشبه ذلك مما في معناه، وهو كثير، ولما كان ذلك معروفاً عند العقلاء متداولاً بينهم، خُوطبوا بذلك جرياً على منهاجهم، وتوسُّعاً معلوماً عندهم. وعلى هذا فيمكن حملُ الحديث وما في معناه على نحو من هذا، وبيان ذلك: أنَّ السموات والأرض، وهذه الموجودات عظيمة أقدارها في إدراكنا، وكبيرٌ خلقها في حقِّنا، فقد يسبقُ الوهم الغالب على الإنسان، أن خلقَها وإمساكَها على الله تعالى كبير، وتكلُّفها عسيرٌ، فنفى النبيُّ ﷺ هذا الوهم بهذا الحديث، وبيَّنه على طريق التمثيل بما تعارفناه، فكأنَّه قال: خَلَقَ بيده المذكوراتِ العظيمة، وإمساكُها في قدرة الله تعالى كالشيء الحقير الذي تجعلونه بين أصابعكم، وتهزُّونه بين أيديكم، وتتصرفون فيه كيف شئتم، ولهذا أشارَ بقوله: «ثم يقبضُ أصابعَه ويبسطَها». وبقوله: «ثم يهزُّهنَّ» أي: هن في قدرته كالحبَّة مثلاً في حقِّ أحدنا؛ أي: لا يُبالي بإمساكها، ولا بهزِّها، ولا تحريكها، ولا القبض والبسطُ عليها، ولا يجدُ في ذلك صعوبةً، ولا مشقَّةً، ومن لا يُقنعه هذا التفهيم فليس له إلا سلامةُ التسليم، والله بحقائق الأمور عليم.

و (قوله تعالى: «أنا المَلِكُ») أي: الحقيق بالمُلْكِ والمَلْكِ؛ إذ لو اجتمع ملوكُ الدنيا من أولها إلى آخرها، وجميع المخلوقات لما استطاعوا على إمساك مقدار ذرَّة من الأرضين، ولا من السموات، وهذا معنى قوله: أنا المَلِكُ في حديث اليهوديّ. فأما قوله: «أنا المَلِكُ» في حديث ابن عمر، فمقصوده إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المُدَّعين، وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهبَ كلُّ مَلِكٍ ومُلْكَه، وكلُّ جبار ومُتكبِّر وملكَه، وانقطعت نِسَبُهم، ودعاويهم، وهو نحو قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. والإمساك المذكور في حديث اليهوديّ خلاف الطَّيِّ والقبض الذي في حديث ابن عمر؛ فإن

وفي أخرى: تصديقاً له وتعجباً لما قال، ثم قال: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾» [الزمر: ٦٧].

رواه البخاريُّ (٧٤١٥)، ومسلم (٢٧٨٦) (٢١ و ٢٢)، والترمذيُّ (٣٢٣٨).

[٢٩٠٢] وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبضُ الله الأرضَ يوم القيامة، ويَطْوي السَّماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ! أين ملوكُ الأرض؟».

رواه أحمد (٢/ ٣٧٤)، والبخاريُّ (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

[٢٩٠٣] وعن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة. ثم يأخُذُهُنَّ بيده اليُمْنَى! ثم يقول: أنا الملِك! أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملكُ! أينَ الجبارونَ؟ أين المتكبرون؟».

رواه مسلم (٢٧٨٨) (٢٤)، وأبو داود (٤٧٧٨).

ذلك الإمساك هو استدامةُ وجود السموات والأرض إلى يوم يطويها ويقبضها ويُبَدِّلُها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. وقد بيَّنَّا القبض والطيَّ في الأنعام.

و (قوله في حديث ابن عمر: «ثم يطوي الأرضَ بشماله») كذا جاء في هذه الرواية بإطلاق لفظ الشمال على يد الله تعالى، ولا يكادُ يوجد في غير هذه الرواية، وإنما الذي اشتهر في الأحاديث: «وبيده الأخرى» كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري المتقدم، وقد تحرَّز النبيُّ ﷺ من إطلاق لفظ الشمال على الله تعالى

[٢٩٠٤] عن عبد الله بن مِقْسَم: أنَّه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي رسولَ الله ﷺ قال: «يأخذ الله سمواته وأراضيه بيديه، فيقول: أنا اللَّهُ! ـ ويقبضُ أصابِعَهُ ويَبْسُطُها ـ أنا الملِكُ!»، حتى نظرتُ إلى المنبر يتحركُ من أسفل شيءٍ منه حتى إنِّي لأقول: أساقطٌ هو برسولِ الله ﷺ؟!.

رواه البخاري (٧٤١٣)، ومسلم (٢٧٨٨) (٢٥)، وأبو داود (٤٧٣٢)، وابن ماجه (١٩٨).

* * *

فقال: «وكِلتا يديْه يمينٌ»، لئلا يُتَوهَّم نقص في صفة الله تعالى، فإن الشمال في حقنا أضعف من اليمين وأنقص، كما تقدَّم، فنفى النبيُّ ﷺ عن الله ذلك، لكنه جاء في هذا الحديث كما ترى على المقابلة المتعارفة في حقوقنا، والله تعالى أعلم.

و (قوله: «ويقبض أصابعَه ويبسطُها») ظاهرُه: أنه خبر عن الله تعالى، ووجهُه ما ذكرناه، وقال بعضُ علمائنا: هو خبر عما فعلَه النبيُّ ﷺ فإنه قبضَ أصابعَه وبسطَها، فيخفُّ الإشكال، ويكون ذلك إشارة بالحواسِّ إلى المعاني، والله تعالى أعلم.

و (قوله في المنبر: أنه تحرَّك من أسفل شيءٍ منه) أي: أنه تحرك من أسفله إلى أعلاه. أو تحرَّكَ الأسفلُ بتحريك الأعلى. وظاهرُ حركة المنبر أنها: إنما كانت لحركة رسول الله ﷺ، ويحتملُ أن تكونَ حركة المنبر مُساعِدةً لحركة النبيِّ ﷺ كرامةً وزيادةً في دلالة صدقه، كحنين الجِذْع، وتسبيح الحصى وما أشبه ذلك.

* * *

(٢٢) ومن سورة حَمّ السجدة

[٢٩٠٥] عن ابنِ مسعودٍ، قال: اجتَمَعَ عند البيتِ ثلاثةُ نَفَرٍ: قُرشيَّانِ، وثَقَفيٌّ. ـ أو: ثَقفيّانِ، وقُرَشِيٌّ ـ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ. فقال أحَدُهُم: أترونَ اللَّهَ يَسْمَعُ ما نقولُ؟ وقال الآخرُ: يسمعُ إن جَهَرْنا، ولا يسمعْ إن أخفيْنا. وقال الآخر: إن كان يسمع، إذا جهرنا، فهو يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢].

رواه البخاريُّ (٧٥٢١)، ومسلم (٢٧٧٥)، والترمذيُّ (٣٢٤٥).

* * *

---

(٢٢) ومن سورة حم السجدة

(قوله: قليلٌ فقهُ قلوبهم) أي: فقههم قليل، أو معدوم، وكثير شحم بطونهم: أي: هم سمان، إذ ليس لهم هَمٌّ في عبادة، ولا حظٌّ من صوم، ولا مُجاهدةٌ. وإنما همُّهم أن يأكلوا أكلَ الأنعام من غير مبالاة باكتساب الآثام. وفيه تنبيهٌ على سبب قلّة فهمهم، فإن البِطْنةَ تُذهبُ بالفطنة.

البطنة تذهب الفطنة

و (قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢]) أي: ما كنتم تتقون شهادة تلك الجوارح، فتستتروا عنها بالامتناع عن المعاصي، قاله مجاهد. قال قتادة: وما كنتم تظنون ذلك.

و (قوله: ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]) أي: شككتم في ذلك لجهلكم.

و (قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]) أي: وذلك ظنكم الواقع بكم اللازم لكم، فهي جملة ابتدائية، وأرداكم: خبر ثانٍ، قاله

(٢٣) ومـن سـورة الدخان

[٢٩٠٦] عن مسروقٍ، قال: جاء إلى عبدِ الله رجلٌ فقال: تَركتُ في المسجد رجلاً يُفَسِّر القرآن برأيهِ، يفسِّر هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]. قال: يأتي الناسَ يومَ القيامةِ دُخانٌ فيأخذُ

الزجّاج، وقال غيره: حال؛ أي: قد أرداكم؛ أي: أهلككم. مقاتل: أغواكم. وقيل: هو خبر المبتدأ الأوَّل، وظنكم بيان ذلك.

و (قوله: فأصبحتم من الخاسرين)، أي: صرتم خاسرين في صفقتكم، مغبونين في بيعكم.

(٢٣) ومن سورة الدخان

قد تقدَّم ذكر من خالفَ ابن مسعود في تفسيره للدُّخان المذكور في هذه الآية فيما تقدَّم، وما أنكره يُروى فيه حديث مرفوع من حديث أبي سعيد الخدريِّ - رضي الله عنه - على نحو ما ذكر وزاد: «فيدخلُ الدُّخانُ جوفَ الكافر والمنافق حتى ينتفخَ»[١] واستعصت: بمعنى: عصت بترك إجابة النبيِّ ﷺ.

و (قوله: تصعَّبت عليه) أي: أبت الدخول في الإسلام.

وسبع[٢] يوسف هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]. وقد تقدَّم أن الجدبَ والقحط يُقال عليه: سَنَة، ويُجمع: سنين.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، كما في: الدر المنثور (٧/٤٠٨).

(٢) كذا في نسخ المفهم، ولم يرد هذا اللفظ في التلخيص، وإنما هو في صحيح مسلم (٢٧٩٨) (٣٩).

بأنفاسهم حتى يأخذَهُم منه كهيئة الزُّكام. فقال عبد الله: مَنْ علم علماً فَلْيَقُلْ بِهِ. ومَنْ لم يعلمْ فليقلْ: اللَّهُ أعلمُ. فإن من فِقْهِ الرَّجُل أن يقول لِمَا لا عِلْمَ له بِهِ: اللَّهُ أَعْلمُ. إنَّما كان هذا: أن قُرَيْشاً لما اسْتَعْصَتْ على النَّبيِّ ﷺ، دَعَا عليهم بسنينَ كسنيِّ يوسفَ، فأصابهم قحطٌ وجَهْدٌ؛ حتى جعلَ الرجلُ ينظر إلى السماءِ فيرى بينَه وبينها كهيئة الدُّخَان من الجهْدِ، وحتى أكلوا العظام، فأتى النَّبيَّ ﷺ رجلٌ ـ في رواية أبي سفيان: فقال: يا محمَّد! إنَّك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرَّحم، وإنَّ قومك قد هلكوا فادع الله لهم ـ وفي الرواية الأولى: فقال: يا رسولَ الله! استغفر الله لِمُضر فإنَّهم قد هلكوا. فقال: «لمضر؟ إنَّك لَجَرِيء!». قال: فدعا اللَّهُ لهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]. قال: فمُطِروا، فلما أصابتْهُم الرفاهيةُ، قال: عادوا إلى ما كانوا عليه. قال: فأنزل الله

و (قوله: حتى جعل الرَّجلُ ينظر إلى السماء فيرى بينها وبينه كهيئة الدخان من الجَهْد) لا شكَّ في أن تسمية هذا دخاناً تَجوُّزٌ، وحقيقة الدخان ما ذكر في حديث أبي سعيد، والذي حملَ عبدَ الله بنَ مسعود على هذا الإنكار قوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، ولذلك قال: أفيكشف عذابُ الآخرة؟ وهذا لا دليلَ فيه على نفي ما قاله ذلك القائل؛ لأنَّ حديثَ أبي سعيد إنما دلَّ على: أن ذلك الدخان يكون من أشراط الساعة قبل أن تقومَ القيامةُ، فيجوز انكشافُه كما تنكشف فِتنُ الدَّجَّال ويأجوج ومأجوج، وأما الذي لا ينكشفُ فعذاب الكافر بعد الموت، فلا معارضة بين الآية والحديث، والشأن في صحة الحديث.

الدخان من أشراط الساعة

و (قوله: استغفرِ الله لمُضَرَ) كذا صحَّ في كتاب مسلم من الاستغفار، ووقع في كتاب البخاري: استسقِ اللَّهُ لمُضَرَ، من الاستسقاء، وهو مناسب للحال التي

عز وجل: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٠ ـ ١١]، ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦]، قال: يَعْني: يومَ بدْرٍ.

وفي روايةٍ: قال: أفيُكْشَفُ عذابُ الآخرة؟ قال: وقد مضت آيةُ الدُّخان، والبطشةُ، واللِّزام، وآيةُ الرُّوم. في أخرى: والقمر.

رواه البخاريُّ (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩ ـ ٤١)، والترمذيُّ (٣٢٥١).

* * *

كانوا عليها من القحط، غير أن الذي يُبعده إنكار النبيِّ ﷺ على القائل بقوله لمضر: فإنَّ طلبَ السُّقيا لهم لا يُنكر، وإنما الذي يُنكر طلب الاستغفار لهم. وقد فسَّر البطشةَ بأنها يومُ بدر. وأما اللِّزام: فهو المذكور بقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، وقد اختلف فيه فقيل: هو العذاب الدائم، وأنشدوا:

فإما ينجوا من خسْف[1] أرضٍ فقد لقيا حتوفَهما لِزاما

وقال آخر:

ولم أجزعْ مِن الموت اللِّزام

وقال أُبيّ: هو القتل بالسيف يوم بدر، وإليه نحا ابنُ مسعود، وهو قول أكثر النَّاس، وعلى هذا فتكون البطشةُ واللِّزام شيئاً واحداً. وقال القرطبيُّ[2] وأبو عُبيدة: هو الهلاكُ والموت، وأما الروم؛ فقد روى الترمذي من حديث نيار بن مُكرَّم الأسْلميّ قال: لما نزلت: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ الآيتين [الروم: ١ ـ ٢] فكانت

---

(١) في اللسان: حَتف. مادة: لزم.
(٢) المقصود به هنا: بقيّ بن مَخْلَد المتوفى سنة (٢٧٦ هـ).

(٢٤) ومن سورة الحجرات

[٢٩٠٧] عن أنسِ بن مالكٍ، لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إلى آخر الآية [الحجرات: ٢]، جلس ثابتٌ في بيته وقال: أنا من أهل النَّار، واحتبس عن النَّبيِّ ﷺ، فسأل النَّبيُّ ﷺ سعدَ بنَ معاذٍ.

فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يُحبُّون ظهور الروم على فارس؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وكانت قريش يُحبُّون ظهور فارس على الروم؛ لأنهم وإيّاهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان، ولما نزلت هذه الآية خرجَ أبو بكر يصيح في نواحي مكة بالآية، فقال كبراء المشركين: ألا نراهنُك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهنَ أبو بكر والمشركون، وأقبضوا الرِّهانَ، وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ البِضْعَ؟ البضعُ ثلاث سنين إلى تسع، فسِّم بيننا وبينَك وسطاً ننتهي إليه، فسمُّوا بينهم ست سنين، فمضت السِّتُّ سنين قبل أن يظهروا، فأخذَ المشركون رهن أبي بكر، ولما دخلت السنة السابعةُ ظهرتِ الرومُ على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية سِتِّ سنينَ، لأن الله تعالى قال: ﴿في بضع سنين﴾. قال: وأسلم بعد ذلك ناسٌ كثير. قال: هذا حديث حسن صحيح[١]، وسيأتي القول في انشقاق القمر في سورته.

(٢٤) ومن سورة الحجرات

ثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شمَّاس بن مالك الخزرجيّ، يُكنى أبا محمد بابنه، وقيل: أبا عبد الرحمن، قُتل له يوم الحرّة ثلاثةٌ من الولد: محمد ويحيى وعبد الله، وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك، كان يُقال له: خطيبَ رسول الله ﷺ كما يُقال لحسان: شاعر رسول الله ﷺ. ولما قدمَ وفدُ بني تميم على رسولِ الله ﷺ

---

(١) رواه الترمذي (٣١٩٤).

فقال: «يا أبا عمرو! ما شأن ثابت؟ أشْتَكى؟»، قال سعدٌ: إنه لَجَاري، وما علمتُ له بشكوى. قال: فأتاهُ سعدٌ، فذكرَ لَهُ قولَ رسولِ الله ﷺ، فقال ثابت: أنْزِلتْ هذه الآية، ولقد علمتم أنّي من أَرْفَعِكم صَوْتاً على

وطلبوا المفاخرةَ، قام خطيبُهم فافتخرَ في خطبته. ثم قام ثابتُ بن قيس فخطبَ خطبةً بليغةً جَزْلةً فغلبَهم، وقام شاعرُهم وهو الأقرعُ بن حابِس فأنشد:

أَتَيْنـاكَ كيمـا يعرفَ النـاسُ فَضْلَنـا ... إذا خَـالفُـونَـا عِنْـدَ ذِكْـرِ المَكَـارِمِ

وإنـا رؤوسُ النَّـاسِ مِـنْ كُـلِّ مَعْشَـرٍ ... وَأَنْ لَيْـسَ فِـي أَرْضِ الحِجـازِ كَـدارِمِ

فقام حسانُ فقال:

بنـي دارِمٍ لا تَفْخَـرُوا إنَّ فَخْـرَكُـمْ ... يَعُـودُ وَبـالاً عِنْـدَ ذِكْـرِ المَكَـارِمِ

هُبِلْتُـمْ عَلَيْنـا تَفْخَـرُونَ وَأَنْتُـمُ ... لَنـا خَـوَلٌ مـن بيْـن ظِئْـرٍ وخـادِمِ

فقالوا: خطيبُهم أخطبُ من خطيبنا، وشاعرهم أشعرُ من شاعرنا، فارتفعت أصواتُهم فأنزلَ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [الحجرات: ٢] ولما نزلت جلسَ ثابتٌ في بيته، فكان كما ذكرَ في الأصل، وقال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس، قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ. . . ﴾ الآية[الحجرات: ٢]، دخل أبوها بيتَه، وأغلق عليه بابَه، ففقدَه النبيُّ ﷺ، فأرسلَ إليه يسألُه: ما خبره؟ فقال: أنا رجلٌ شديدُ الصوت أخافُ أن يكون حَبِطَ عملي. فقال النبيُّ ﷺ: «لستَ منهم، بل تعيشُ بخير، وتموتُ بخير». قال: ثم أنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨]، فأغلقَ بابَه وطَفِقَ يبكي، ففقدَه النبيُّ ﷺ فأرسل إليه ما خبره؟ فقال: يا رسول الله! إني أحب الجَمالَ وأحبُّ أن أسودَ قومي، فقال:

رسولِ الله ﷺ، فأنا من أهلِ النَّار! فذكر ذلك سعدٌ للنَّبيِّ ﷺ. فقال رسولُ الله ﷺ: «بَلْ هو من أهل الجنةِ».

وفي روايةٍ: قال: فكُنَّا نراهُ يَمْشِي بينَ أَظْهُرِنا رجلٌ من أهْلِ الجنة.

رواه البخاريُّ (٤٨٤٦)، ومسلم (١١٩) (١٨٧ و ١٨٨).

* * *

«لستَ منهم بل تعيش حميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخلُ الجنة». قالت: فلما كان يوم اليمامة خرجَ مع خالد إلى مُسيلمة، فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفرَ كلٌّ واحد منهما له حفرةً، فثبتا، وقاتلا حتى قُتلا. وعلى ثابت يومئذ درعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذَها، فبينا رجلٌ من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: أُوصيك بوصيّة، وإيَّاكَ أن تقولَ هذا حلمٌ فتضيِّعَه، إني لما قُتلت أمسِ مرَّ بي رجلٌ من المسلمين فأخذَ درعي، ومنزلُه في أقصى الناس، وعند خبائه فرسٌ يَسْتَنُّ في طِوَلِه، وقد كفأ على الدِّرع برمةً، وفوق البرمة رَحْلٌ، فأتِ خالداً فمرْه أن يبعث إلى درعي، فيأخذَها، وإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله ﷺ يعني أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقل له: إن عليَّ من الدَّيْن كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيقٌ وفلانٌ. فأتى الرَّجلُ خالداً فأخبره، فبعث إلى الدرع، فأُتي بها، وحدَّث أبا بكر برؤياه فأجازَ وصِيَّتَه. قال: ولا نَعْلَمُ أحداً أُجيزت وصيته بعد موْته غير ثابت.

و (قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢]) أي: لا تخاطبوه يا محمد ويا أحمد! ولكن: يا نبيَّ الله، أو يا رسولَ الله. توقيراً له ﷺ.

و (قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]) أي: من أجل أن تحبط؛ أي: تَبْطُلَ. فإما أصل الأعمال إن كان ذلك عن كفر، وإما ثوابها إن كان عن معصية.

(٢٥) ومن سورة قٓ

[٢٩٠٨] عن عبدِ الله بن مسعود، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ إلَّا وَقَدْ وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ». قالوا: وإيَّاكَ؟ يا رسولَ الله! قال: «وإيَّايَ، إلا أنَّ اللَّهَ أعانني عليه فأسلَم، فلا يأمُرُني إلا بخيرٍ».

وفي روايةٍ: «وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجِنِّ، وقرينُه من الملائكة».

رواه أحمد (١/ ٣٨٥)، ومسلم (٢٨١٤).

---

(٢٥) ومن سورة قٓ

اختلف فيه، فقال ابن عباس: هو اسم لله عز وجل، وقال قتادة: اسم للقرآن، وقال الضحَّاك: اسم الجبل المحيط بالأرض، وهو من زبرجدة خضراء، وعروق الجبال منها، وقال عطاء: هو قوة قلب نبيِّنا محمد ﷺ وعلى تلك الأوجه: هو قسمٌ، وعُطِفَ: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ عليه. والقرين: فعيل بمعنى المقارن الملازم الذي لا يُفارق، وأصلُه من القَرَن: وهو الحبلُ الذي يُجمعُ به بين شيئين فيتلازمان بسببه، كما قال الشاعر:

وَابْـنُ اللَّبُـونِ إِذَا مَـا لُـزَّ فِـي قَـرَنٍ لمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ

وقد تقدَّم أن الشيطان وزنه فَيْعَال، من شطن؛ أي: بَعُدَ عن الخير، أو من شاط إذا احتدَّ واحترق، وإنه إنما يقال على المارد من الجِنِّ، وهو الكثير الشر الشديد الضُّرِّ.

و (قوله: «إلا أنَّ اللَّهَ أعانني عليه فأسلم»). جمهور الرواة يقولون فأسلمَ بفتح الميم، ويُريدون أن الشيطان صارَ مسلماً. وكان سفيان بن عُيينة يقول: فأَسْلَمُ هل يُسْلم الشيطان؟!

[٢٩٠٩] وعن عائشة، أنَّ رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً. قالت: فغِرْتُ عليه، فرأى ما أصنعُ. فقال: «ما لك يا عائشة؟ أَغِرْتِ؟!»، فقلتُ: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَقَدْ جاءَكِ شيطانُكِ؟»، قالت: يا رسول الله! أوَمعيَ شيطانٌ؟ قال: «نَعَمْ»، قلتُ: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: «نَعَمْ». قلتُ: ومعكَ يا رسول الله؟! قال: «نَعَمْ! ولكن ربِّي أعانني عليه حتى أسلَم».

رواه أحمد (٦/ ١١٥)، ومسلم (٢٨١٥).

* * *

بضم الميم، والمعنى فأسلمُ أنا من شرِّه، وكان يُنكر القول الأول، ويقول: الشيطان لا يُسلمُ.

قلـتُ: وهذا له موقع، غير أنه يُبعده قوله: «فلا يأمرُني إلا بخير»، فحينئذ يزول عنه اسم الشيطان ويصيرُ مسلماً، ويكون هذا مؤيِّداً لرواية الجمهور. فالذي لأجله فرَّ سفيانُ من إسلام الشيطان، يلزمه في كونه لا يأمرُه إلا بخير. وقد رُوي هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل بلفظ آخر، وقال: «لا يأمرني إلا بخير». وأما لفظ حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ فهو في الوجه الأول واضح، فإنها قالت فيه: «ولكنْ ربِّي أعانني عليه حتى أسلمَ». والظاهر منه: أنَّ الشيطان هو الذي أسلمَ مع أنه يحتملُ أنْ يكونَ حتى: بمعنى كي، ويكونُ فيه راجع إلى النبيِّ ﷺ أي: أعانني كي أسلمَ منه، والله تعالى أعلم.

* * *

(٢٦) ومـن سـورة القمر

[٢٩١٠] عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بِمِنًى؛ إذ انفلق القمرُ فِلْقَتَيْن. فكانت فِلْقَةٌ وراء الجبلِ، وفِلْقَةٌ دُونَه. فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «اشهَدُوا!».

وفي روايةٍ: فَسَتَرَ الجبلُ فلقةً، وكانت فلقةٌ فوق الجبل.

رواه أحمد (١/ ٤٤٧)، والبخاريُّ (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠) (٤٤ و ٤٥)، والترمذيُّ (٣٢٨٥).

---

(٢٦) ومن سورة القمر

معجزة انفلاق القمر له ﷺ

(قوله: انفلقَ القمرُ) أي: انشقَّ نصفين، أي: وقع ذلك الانشقاق على حقيقته، ووُجد ذلك بمكة بمنى، بعد أن سألت قريش رسولَ الله ﷺ آيةً، فأراهم انشقاقَه، على نحو ما ذُكر، ثم إنَّ عبدَ الله بن مسعود أوضح كيفية هذا الانشقاق حتى لم يتركْ لقائل مقالاً، فقال: وكانت فِلْقَةَ وراءَ الجبل، وفِلْقَةَ دونه. وفي روايةٍ: فسترَ الجبلُ فِلْقَةَ، وكانت فِلْقَةَ فوق الجبل، ونحو ذلك. قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقد روى هذا الحديثَ جماعةٌ كثيرة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ. منهم: عبد الله بن مسعود، وأنس، وابن عبّاس، وابن عمر، وحذيفة، وعليّ، وجُبير بن مطعم، وغيرهم. وروى ذلك عن الصحابة أمثالهم من التابعين، ثم كذلك ينقلُه الجمُّ الغفير، والعددُ الكثير إلى أن انتهى ذلك إلينا، وفاضتْ أنوارُه علينا، وانضاف إلى ذلك ما جاءَ من ذلك في القرآن المتواتر عند كلِّ إنسان، فقد حصلَ بهذه المعجزة العلمُ اليقينُ الذي لا يشكُّ فيه أحدٌ من العاقلين. وقد استبعدَ هذا كثير من الملحدة، وبعض أهل المِلَّة من حيث إنه لو كان كذلك للزمَ مشاركة جميع أهل الأرض في إدراك ذلك.

[٢٩١١] وعن ابن عمر مثل ذلك.

رواه مسلم (٢٨٠١)، والترمذيُّ (٣٢٨٨).

[٢٩١٢] وعن أنسٍ، أنَّ أهل مكةَ سألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يُرِيَهُم آيةً، فَأَرَاهُم انْشِقاقَ القَمَرِ مرتين.

والجواب: إن هذا إنما كان يلزم، لو استوى أهلُ الأرض في إدراك مطالعه في وقت واحد، وليس الأمرُ كذلك، فإنه يطلعُ على قوم قبلَ طلوعه على آخرين، فقد يكون الكسوفُ عند قومٍ، ولا يكون عند آخرين، وأيضاً: فإنما كان يلزمُ ذلك لو طال زمانُ الانشقاق، وتوفَّرت الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه، ولم يكن شيء من ذلك، وإنما كان ذلك في زمن قصير شاهدَه من نُبِّه له، وذلك أنَّ أهلَ مكة طلبوا من النبيِّ ﷺ انشقاق القمر فخرجَ بهم إلى منى، فأراهم انشقاق القمر. فلما أراهم اللَّهُ ذلك قال: «اشهدوا». فقالت قريش: هذا سحرٌ. فقال بعضُهم لبعض: إن كان محمّدٌ سحرنا، فما يبلغ سحرُه إلى الآفاق، فابعثوا إلى أهل الآفاق، فبعثوا إلى آفاقِ مكَّة، فأخبروهم أنهم عاينوا ذلك. هكذا نقلُ النَّقَلَةُ، وكم من نجمٍ يَنْقضّ وصاعقةٍ تنزلُ! وهو سمائيٌّ يختصُّ بمشاهدته بعض الناس دون بعضٍ، ثم إنها كانت آية ليلية، وعادة الناس في الليل كونهم في بيوتهم نائمين، ومُعرضين عن الالتفات إلى السماء إلا الآحاد منهم، وقد يكون منهم من شاهدَ ذلك، فظنَّه سحاباً حائلاً، أو خيالاً حائلاً، وعلى الجملة فالموانعُ من ذلك لا تنحصرُ، ولا تنضبطُ، والذي يحسمُ مادَّة الخلاف بين أهل مِلَّتنا أن نقول: لا بعدَ في أن يكونَ الله تعالى خرقَ العادةَ في ذلك الوقت، فصرفَ جميعَ أهل الأرض عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة لتختصَّ مشاهدة تلك الآية بأهل مكة كما اختصُّوا بأكثر مشاهدة آياتِه؛ كحنين الجِذْع، وتسبيح الحَصى، وكلامِ الشجر، إلى غير ذلك من الخوارق التي شاهدوها، ونقلوها إلى غيرهم، كما قد نقلنا ذلك في كتابنا المسمى: بكتاب «الإعلام بما في دين النَّصارى من الفساد والأوهام» وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ،

وفي روايةٍ: انشق القمر فرقتين.

رواه البخاريُّ (٤٨٦٧)، ومسلم (٢٨٠٢) (٤٦ و ٤٧)، والترمذيُّ (٣٢٨٢).

* * *

وهذا الكلام خاص للمنكر للانشقاق من أهل الإسلام، وأما الملاحدة فالكلام معهم في إبطال أصولهم الفاسدة، وقد تأوَّل من أنكر وقوعَ انشقاق القمر من الإسلاميين قوله تعالى: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] بمعنى ينشقُّ في القيامة، وممن حُكي عنه هذا التأويل: الحسن البصريّ. وتأول غيره؛ انشقَّ: تحقَّق الأمرُ ووضحَ، وقال آخر: انشقَّ الظلامُ عنه بطلوعه.

قلــتُ: وهذه تحريفات لا تأويلات. والحسن البصري أعلمُ وأفضلُ من أن يذهبَ إلى شيءٍ من ذلك، لا سيما مع شهرة القضية، وكثرة الرواة لها، واستفاضتها، وعلمه هو بالأخبار، وسلوكه طريق الصحابة والأخيار، وقد أدركَ منهم جملةً صالحةً، وحصلت له بهم صفقةٌ رابحة.

و (قراءة رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]) بالدال وعليها الجماعة، ومدَّكر: اسم فاعل من إذدكر؛ أي: تذكر، أدغمت الذال في الدال.

و (قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]) أي: للحفظ، فليس شيءٌ من الكتب يُحفظ كحفظ القرآن. والمُدَّكِر: المتَّعظ. وقيل: المزدجر. وقيل: المتحفِّظ.

* * *

(٢٧) ومن سورة الحديد والحشر

[٢٩١٣] عن ابن مسعود، قال: ما كان بين إسلامِنا وبينَ أن عاتبَنا اللَّهُ بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، إلا أربعُ سِنين.

رواه مسلم (٣٠٢٧).

---

(٢٧) ومن سورة الحديد والحشر

(قوله: لم يكن بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربعَ سنين). قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال، ومذاكرة المَوْجِدة، تقولُ: عاتبتُه معاتبةً. قال الشاعر:

أُعـاتِـبُ ذا المَـوَدَّةِ مِـنْ صَـدِيـقٍ ... إذَا مــا رابَنِــي مِنْــهُ اجْتِنَــابُ
إذَا ذَهَــبَ العِتَــابُ فَلَيْــسَ وِدٌّ ... وَيَبْقَــى الــوِدُّ مــا بَقِــيَ العِتَــابُ

و (قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]) أي: ألم يحِنْ، قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أن أتركَ الجهلا[(١)]

وماضيه: أنى يأني، فأما «آن» الممدود فمضارعه يئين. وأنشد ابن السكيت:

أَلَمَّـا يَـأْنِ لـي أَنْ تَجَلَّـى عَمَـايَتـي ... وَأُقْصِـرَ[(٢)] عَنْ لَيْلِي بَلَى قد أنى لِيا

فجمعَ بين اللغتين. وأن تخشع: أي تذلّ وتَلين لذكر الله وتعظيمه. وقيل

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه:

وأنْ يُحْدِثَ الشيبُ المنير لنا عقلا

(٢) في تفسير القرطبي (١٧/٢٤٨): وأَقْصِرُ عن ليلى.

[٢٩١٤] وعن عائشة، قالت لعروة: يابن أختي! أُمِرُوا أن يستغفروا لأصحابِ النَّبيِّ ﷺ. فسَبُّوهم. وقد تقدم.

رواه مسلم (٣٠٢٢).

* * *

معناه: تجزع من خشية الله، وقيل: الذكر هنا: القرآن، وفيه بعد، لأن قولَه: ﴿وما نزل من الحقِّ﴾ هو القرآن فيكون تكراراً.

و (قوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦]) أي: رأوا الموتَ بعيداً، يعني أنهم لطول أملهم لا يرونَ الموت يقع بهم، فقست قلوبُهم؛ أي: جفيت وغلظت، فلم يفهموا دلالةً، ولا صدَّقوا رسالة. وكثيرٌ منهم فاسقون؛ أي: خارجون عن مقتضى العقل من التوحيد، وعن مقتضى الرسالة من التصديق. وفائدة هذه الآية: أنه لما رسخَ الإيمان في قلوبهم أرشدَهم إلى الازدياد في أحوالهم، والمراقبة في أعمالهم، وحذَّرهم عن جفوة أهل الكتاب بأبلغ خطاب وألطف عتاب.

نتائج رسوخ الإيمان

و (قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أمروا أن يستغفروا لأصحاب محمد ﷺ فسبُّوهم) أشارت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]. فسبُّوهم: تريد عائشة بهذا أن التابعين حقُّهم الواجب عليهم أن يُحبُّوا أصحابَ رسول الله ﷺ وأن يُعظِّمُوهم، ويستغفروا لهم، وكذلك كلُّ من يجيء بعد التابعين إلى يوم القيامة، ويحرمُ عليهم أن يسبُّوهم، أو يَسبُّوا أحداً منهم، كما قد صرَّح بذلك بعضُ بني أمية، وإيَّاهم عنت بقولها، ولقد أحسن مالك ـ رحمه الله ـ في فهم هذه الآية، فقال: من سبَّ أصحابَ رسول الله ﷺ فلا حقَّ له في الفيء، واستدلَّ بالآية. ووجهُه: أنه رأى هذه الآية معطوفة على قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] وأن هذه الآية معطوفة على قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]،

حبّ أصحاب رسول الله والاستغفار لهم

(٢٨) ومـن سـورة المنافقين

[٢٩١٥] عن جابرِ بن عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّة، ثَنِيَّةَ المُرَارِ فإنَّه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيلَ».

فظهر له: أن المهاجرينَ والأنصار استحقُّوا الفيءَ بأنهم مهاجرين، وأنصار ممن غير قيد زائد على ذلك، وأنَّ من جاء بعدَهم قُيِّدوا بقيد: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] فإن لم يُوجد هذا القيد لم يجز الإعطاء لعدم تمام الموجب. وقد فهمَ عمر ـ رضي الله عنه ـ أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعمُّ كلَّ من يأتي إلى يوم القيامة، وأنها معطوفة على ما قبلَها، فوقفَ الأرضَ المَغنومة المُفتتحة في زمانه على من يأتي بعد إلى يوم القيامة، وخصَّص بهذه الآية الأرض من جملة الغنيمة التي قال الله فيها: ﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١] وقد تقدَّم الكلام على هذا في الجهاد.

(٢٨) ومن سورة المنافقين

(قوله: «مَنْ يَتَسَوَّرْ ثنيَّة المُرار») يتسور: يعلو. وتسوَّرْتُ الجدارَ: علوتُه، وفي الرواية الأخرى: «من يصعد» وهذا واضح، والثنيَّةُ: الطريق في الجبل. والمُرار ـ بضم الميم ـ: وهي ثنية معروفة وعرة المرتقى، فحثَّ النبيُّ ﷺ على صعودِها، ولعلَّ ذلك للحراسة.

و (قوله: «حُطَّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل») أي: غُفرت خطاياه كما وُعِدَ بنو إسرائيل حين قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] يعني بذلك: أن من صَعِدَ تلك الثنية غُفرت خطاياه كما كانت خطايا بني إسرائيل تُحَطُّ وتغفر لو فعلوا ما أُمروا به من الدخول، وقول الحِطَّة، لكنهم لم يفعلوا ما أُمروا به بل تمرَّدوا واستهزؤوا فدخلوا يزحفون على أسْتاهِهم، وقالوا

قال: فكان أولَ من صَعِدَها خَيْلُنا خَيْلُ بني الخزرج، ثم تتامَّ النَّاسُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «وكلُّكُمْ مغفورٌ لَه، إلا صاحبَ الجَمَلِ الأحمر». فأتيناه فقلنا له: تعالَ. يستغفرْ لك رسولُ الله ﷺ، فقال: واللَّهِ! لأنْ أجد ضالَّتي أَحَبُّ إليَّ من أن يستغفرَ لي صاحبُكُم! قال: وكان رجلٌ يَنشدُ ضالَّة له.

رواه مسلم (٢٧٨٠) (١٢).

[٢٩١٦] وعن زيدِ بن أرقم، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، أصابَ الناسَ فيه شدةٌ، فقال عبدُ الله بن أُبَيٍّ لأصحابه: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧] من حَوْلِهِ. ـ قال زهير: وهي في قراءة عبدالله ـ، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، قال: فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ فأخبرتُه بذلك،

حنطة في شعرة، وقد لا يبعد أن يكون بعضهم دخل على نحو ما أُمرَ به فغُفر له، غير أنه لم يُنقل ذلك إلينا.

و (قوله ﷺ: «كلُّكم مغفورٌ له إلا صاحبَ الجمل») لما صَعِدوا كما أُمروا أُنجزَ لهم ما به وُعدوا، فإنَّ اللَّهَ تعالى لا يُخلف الميعادَ ولا رسولَه. وقيل: إن صاحبَ الجمل هو الجَدُّ بن قيس المنافق. وينشدُ ضالَّته: يطلبُها، ونشدتُ الضالَّة: طلبتها، وأنشدتها: عرَّفتها.

و (قوله: حتى يَنْفَضُّوا) أي: يتفرَّقوا. و (من حَوْلِهِ): في قراءة عبد الله، ولم يثبتْ في شيءٍ من المصاحف المتفق عليها، ويُمكن أن تكون زيادة بيان من جهة ابن مسعود.

و (قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]) يعني المنافق

فأرسلَ إلى عبدِ الله بنِ أُبيٍّ، فسَأله، فاجتهدَ يمينَهُ ما فعل. فقال: كَذَبَ زيدٌ رسول الله ﷺ. قال: فوقَعَ في نفسي ممَّا قالوه شِدَّةٌ، حتى أنزل اللَّهُ تصديقي: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قال: ثم دعاهُم النَّبي ﷺ ليستغفرَ لهم. قال: فلووا رؤوسهم وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: كانوا رِجالاً أجْمَلَ شيءٍ.

رواه البخاريُّ (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢)، والترمذيُّ (٣٣٠٩ و ٣٣١٠).

* * *

بالأعز: نفسُه وعشيرته. وبالأذل: النبيّ ﷺ والمؤمنين، جهلَ فقال، وحيث وجبَ أن يَسْكُن حالَ غَلَبَتْ عليه شقوتُه، فانعكست فكرتُه[1]، فظنَّ الأرضَ سماءً والسَّرابَ ماءً فنبَّهَهِ ولدُ نطفته على قبيح غلطته، فقال له: أنت والله الأذلُّ، ورسولُ الله الأعزُّ، فأنزلَ الله تصديقَه في كتابه لعلَّهم يسمعون: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ثم إنَّ النبيَّ ﷺ تلطَّف بهمٍ على مقتضى خُلُقه الكريم، وحلمه العظيم، ودعاهم للاستغفار، فأبت الشقوة إلاَّ التَّمادي على الجهل والاستكبار، فلوَّوا رؤوسَهم معرضين، وصدُّوا مُسْتكبرين، فقُوبلوا بلن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين، حشرنا الله مع المؤمنين، وجنَّبنا أحوالَ المنافقين بفضله وكرمه.

و (قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]) يعني: أنهم أشباحٌ بلا أرواح، وأجسامٌ بلا أحلام، فصورُهم مُعْجِبَةٌ، وبواطنُهم قبيحةٌ خَرِبة، ومُسَنَّدة إلى الجُدُر؛ شبَّههم بالجذوع المُسْندة الممالة إلى جدار، كما قال الشاعر:

قَدْ مَضَيْنا بَعْدَهُمْ نَتْبَعُهُمْ فَرَأَيْنَاهُمْ قِيَاماً كَالخُشُبْ

(١) في (ز): فطنته.

(٢٩) بـاب من أخبار المنافقين

[٢٩١٧] عن أبي الطُّفيل، قال: كان بين رجلٍ من أهل العَقَبة وبين حذيفة بَعْضُ ما يكون بينَ النّاس. ....

وهو جمع خَشَبة. يُقال: خُشْبَةٌ وخُشْب بضمّهما، ويقال: خَشَبٌ بفتحهما، وقد قُرِىء بهما.

[(٢٩) بـاب: من أخبار المنافقين][١]

(قول أبي الطُّفَيْل: كان بين رجلٍ من أهل العقبة وبين حذيفةَ بعضُ ما يكون بين الناس) ليست هذه العقبةُ عقبةَ بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ في أوّل الإسلام، ومن ظنَّ ذلك فقد جهل، وإنما هي عقبةٌ بطريق تبوك، وقف له فيها قومٌ من المنافقين ليقتلوه، كما قد رواه أحمد بن حنبل من طريق أبي الطّفيل هذا، قال: لما أقبلَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً يُنادي: أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ العقبةَ، فلا يأخذْها أحدٌ، فبينما رسولُ الله ﷺ يقودُه حذيفةُ، ويسوقُه عمَّار ـ رضي الله عنهما ـ إذ أقبل رَهْطٌ مُتلثِّمون على الرَّواحل غشوا عمَّاراً، وهو يسوقُ برسول الله ﷺ، وأقبل عمَّار يضرب وجوهَ الرَّواحل، فقال رسولُ الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسولُ الله ﷺ، فلما هبط نزل، ورجع عمَّار، فقال: «هل عرفتَ القوم؟» فقال: قد عرفتُ عامَّة الرواحل، والقوم مُتلثِّمون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه. وذكر أبو الطفيل، في تلك الغزاة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال للنَّاس؛ وذكر له: أن في الماء قلَّة فأمر رسولُ الله ﷺ منادياً يُنادي: ألاَّ يرد الماء أحد قبل رسول الله ﷺ، فورده رسولُ الله ﷺ، فوجد رهطاً قد وردوا قبله، فلعنهم

---

(١) هذا العنوان لم يردْ في نُسخ المفهم، واستدركناه من التلخيص.

فقال: أَنْشُدُكَ اللهَ! كمْ كانَ أصحاب العَقَبة؟ قال: فقال له القومُ: أَخْبِرْهُ إذ سَألك. قال: كُنّا نُخْبَرُ أنّهم أربعةَ عَشَرَ، فإن كنتَ مِنهم فَقدْ كانَ القومُ خمسةَ عشرَ. وأشهدُ باللَّهِ! أنَّ اثْنَي عَشَرَ منهم حَرْبٌ للَّهِ ولرسولِهِ في الحياة الدُّنْيَا ويوم يقومُ الأشهادُ. وعَذَرَ ثلاثةً قالوا: ما سمعنا مُنَادِيَ رسولِ الله ﷺ، ولا عَلِمْنا بما أراد القومُ. وقد كان في حرَّةٍ فمشى فقال: إن الماءَ قليلٌ. فلا يسبقِني إليه أحدٌ» فوجَدَ قوْماً قد سبقُوه، فَلَعَنَهُم يومئِذٍ.

رواه أحمد (٥/ ٣٩١)، ومسلم (٢٧٧٩) (١١).

[٢٩١٨] وعن أنس بن مالك، قال: كان منَّا رجلٌ من بني النَّجَّار، قد قرأ البقرةَ وآلَ عِمْرانَ، وكان يكتبُ لرسول الله ﷺ، فانطلق هارباً حتَّى

رسول الله ﷺ[١]. وعنى أبو الطفيل بقوله: بعض ما يكون بين الناس: الملاحاة والمعاتبة؛ التي تقع غالباً بين الناس.

بعض أعمال المنافقين

و (قوله: أنشدك الله) أي: أسألك بالله، والقائلُ: أنشدك بالله؛ هو الرجل الذي لاحاه حذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ والقائلُ: كنَّا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت فيهم فالقومُ خمسة عشر: هو حذيفة، والمخاطبُ بذلك القول: هو الرجلُ المعاتِب السَّائلُ له بأنشدك الله، وظاهرُ كلام حذيفة: أنه ما شكَّ فيه، لكنه ستر ذلك إبقاءً عليه. وهؤلاء الأربعة عشر، أو الخمسة عشر هم الذين سبقوا إلى الماء، فلعنهم النبيُّ ﷺ؛ غير أنه قَبِلَ عُذْرَ ثلاثةٍ منهم لما اعتذروا له بأنهم ما سمعوا المنادي، وما علموا بما أراد من كان معهم من المنافقين؛ فإنهم أرادوا مخالفةَ رسول الله ﷺ وأن يسبقوا إلى الماء، ويُحتمل أن يُريدَ بهم الرّهط الذين عرضوا لرسول الله ﷺ بالعقبة ليقتلوه، والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٥٣).

لَحقَ بأهل الكتاب. قال: فرفعُوه. قالوا: هذا قد كانَ يكتبُ لمحمَّد، فأُعْجِبوا بِهِ، فما لَبِثَ أنْ قَصَمَ اللَّهُ عُنُقَهُ فيهم، فَحفروا له، فَوَارَوْهُ، فأصبحتِ الأرضُ قد نبذتْه على وَجْهِها، ثم عادُوا فحفرُوا لَه، فَوَارَوْه، فأصبحتِ الأرضُ قد نبذتْهُ على وجْهِهَا، ثُمّ عادُوا فحفروا لَه، فَوَارَوْه، فأصبحتِ الأرضُ قد نبذتْهُ على وَجْهِهَا، فتركُوه منبوذاً.

رواه أحمد (٣/ ٢٢٢)، والبخاريُّ (٣٦١٧)، ومسلم (٢٧٨١).

[٢٩١٩] وعن جابرٍ، أنَّ رسول الله ﷺ قَدِمَ من سَفَرٍ، فلَمَّا كانَ قُرْبَ المدينةِ هَاجَتْ ريحٌ تكاد أن تَدْفِنَ الراكبَ، فزعم أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «بُعِثَتْ هذه الريحُ لموتِ مُنَافِقٍ»، قال: فقدم المدينةَ فإذا منافِقٌ عظيمٌ من المنافقينَ قد ماتَ.

رواه مسلم (٢٧٨٢).

[٢٩٢٠] وعن إياس قال: حدثني أبي، قال: عُدْنَا مع رسول الله ﷺ رجلاً مَوْعُوكاً. قال: فوضعتُ يَدِي عليه فقلتُ: واللَّهِ! ما رأيتُ كاليوم

و (قوله: فما لبث أن قصم اللَّهُ عُنُقه) أي: ما طال مقامُه حتى أهلكه الله. وواروْه: غطَّوْه. ونَبَذَتْهُ: ألقته، وأخرجته. ومنبوذاً: مطروحاً على وَجْه الأرض. وإنما أظهر اللَّهُ تلك الآية في هذا المرتدّ؛ ليوضِّح حُجَّةَ نبيِّه ﷺ لليهوديّ عياناً، وليقيمَ لهم على ضلالة من خالفَ دينَه بُرهاناً، وليزدادَ الذين آمنوا يقيناً وإيماناً.

و (قوله: هاجتْ ريحٌ تكاد أن تدفنَ الراكب) أي: هبَّتْ ريحٌ شديدةٌ تحملُ معها الترابَ والرَّمل لشدَّتها، حتى لو عارضها راكبٌ على بعيره لدفنته بما تسفي[1]

---

(١) في (ز): تلقي.

رجُلاً أشدَّ حَرّاً. فقال نَبِيُّ الله ﷺ: «ألا أخبرُكُمْ بأشدَّ حرّاً مِنهُ يومَ القيامةِ؟ هٰذَيْنِكَ الرّجُلَيْنِ الرّاكبَينِ المُقفِّيَيْن». لرَجُلَيْنِ حينئذٍ من أصحابه.

رواه مسلم (٢٧٨٣).

* * *

(٣٠) ومن سورة التحريم

[٢٩٢١] عن عبدِ الله بن عباسٍ، قال: حدَّثني عُمرُ بنُ الخطَّاب،

عليه من التراب والرمل. وكأنَّ هذه الريحَ إنما هاجتْ عند موت ذلك المنافق العظيم لِيُعَذَّب بها، أو جَعَلها الله علامةً لنبيِّه ﷺ على موت ذلك المنافق، وأنه مات على النفاق ـ والله تعالى أعلم ـ.

و (قوله: «ألَا أخبركم بأشدّ حراً منه يوم القيامة؟ هذينك الرجلين الرَّاكبين المقفِّيين») الروايةُ بخفض هذينك على البدل من أشدّ، وهو بدل المعرفة من النكرة، وما بعد هذينك نعوتٌ له. ومعنى المقفِّيين: الموليان أقفيتهما.

و (قوله لرجلين حينئذ من أصحابه) إنما نسبهما الراوي لأصحاب النبيِّ ﷺ؛ لأنهما كانا في غمارهم، ودخلا بحكم ظاهرهما في دينهم، والعليم الخَبير يعلم ما تجنُّه الصُّدور، وما يختلجُ في الضمير، فأعلم اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بخبث بواطنهما، وبسوء عاقبتهما، فارتفع اسمُ الصُّحبة، وصدق اسم العداوة والبغضاء.

(٣٠) ومن سورة التحريم

حديثُ ابن عباس هذا قد تقدَّم في الإيلاء، لكن بطريقٍ غير هذا. وألفاظِ تخالف هذا. فلذلك كرَّرناه في المختصر.

قال: لمَّا اعتزل رسولُ الله ﷺ نساءَه قال: دخلتُ المسجدَ، فإذا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بالحَصى، ويقولون: طلَّق رسولُ الله ﷺ نساءَه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. قال عمر: فقلت: لأعلَمَنَّ ذلك اليومَ. قال: فدخلتُ على عائشة فقلتُ: يابنة أبي بكر! أَقدْ بلغ من شأنِكِ أن تؤذي رسولَ الله ﷺ! فقالت: ما لي ومالك يابن الخطابِ! عليك بِعَيْبَتك! قال: فدخلتُ على حفصة بنتِ عُمَرَ. فقلت لها: يا حفصة! قد بلغ من شأنك أن تؤذي رسولَ الله ﷺ! واللَّهِ! لقد علمتِ أنَّ رسول الله ﷺ لا يُحبُّكِ! ولولا أنا لطلَّقَكِ رسولُ الله ﷺ! فبكتْ أشدَّ البكاء! فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالتْ: هو في خِزانَتِهِ في المَشْرُبَةِ. فَدَخَلْتُ فإذا أنا برباحٍ غلامِ رسول الله ﷺ قاعداً على أُسْكُفَّةِ المشْرُبَةِ، مُدَلٍّ رِجلَيْهِ على نَقِيرٍ من خَشَبٍ ـ وهو جذع يَرْقَى عليه رسول الله ﷺ وينحدرُ ـ فناديتُ، يا رباح! استأذنْ لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباحُ إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ فلم يقل

(قولـه: فإذا الناسُ ينكتُون بالحصى) أي: يخطّون بها في الأرض، فِعْل المهتمّ بالشيء، المتفكّر فيه.

و (قولها: يـا بن الخطاب عليك بِعَيْبَتِكَ) أي: بخاصَّتك وأهل بيتك، ومنه قوله ﷺ: «الأنصارُ كرشي وعيبتي»[1]. وقد تقدَّم. والمشرُبة: الغرفة، تُقال: بفتح الراء وضمها، والأُسكفة بضم الهمزة والكاف: عتبةُ الباب السُّفلى. والنقير من الخشب، وهو الذي يُنْقَرُ فيه مثل الدرج ليُرقى عليه.

و (قوله: يا رباحُ! استأذنْ لي عندكَ) أي: بحضرتِك وقربك، أي: لا تُؤخِّره،

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٨٨ و ٢٠١).

شيئاً، قلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ؟ ـ فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ فلم يقل شيئاً، ثم رفعتُ صوتي فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإنِّي أظن: أنَّ رسول الله ﷺ ظنَّ أنِّي جئتُ من أجل حفصة، والله! لئن أمرني رسولُ الله ﷺبضرب عنقها لأضربنَّ عُنُقَها! ورفعت صوتي، فأومأ إليّ: أنِ أرقَهْ، فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجعٌ على حصيرٍ، فجلستُ، فأدنى عليه إزارَه، وليس عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضةٍ من شعير نحو الصَّاع، ومثلها قَرَظاً في ناحية الغرفة، وإذا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ. قال: فابْتَدَرْت عيناي! قال: «ما يبكيك يابن الخطاب؟!»، قلت: يا نبيَّ الله! ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصيرُ قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا مـاأرى، وذاك قيصر وكسرى في الثِّمار والأنهار، وأنت رسولُ الله وصفوتُه، وهذه خزانتك! فقال: «يابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرةُ ولهم الدُّنْيَا؟!»، قلت: بلى! قال: ودخلـتُ عليـه حيـن دخلـتُ وأنـا أرى فـي وجهـه الغضـب. فقلـت: يا رسول الله! ما يَشُقُّ عليك من شأن النساء؟ فإن كُنْت طلَّقْتَهُنَّ، فإنَّ الله معك، وملائكته، وجبريلَ، وميكائيلَ، وأنا، وأبو بكر، والمؤمنون معك!

وسكوت رباح ونظره لعمرَ احترامٌ لحضرة النبيِّ ﷺ فكأنّه كان يسمعُه. والقَرَظ: شجر يُدبغ به. والأَفِيقُ: الجلد قبل الدِّباغ. وابتدرتْ عينايَ، يعني: بالدُّموع. أي: غلبَه البكاءُ فلم يملكْه.

و (قوله: فإن طلَّقْتَهُنَّ فإنَّ الله معك) أي: بالمعونة على مرادك من الطلاق، وعلى أنْ يُبدلَك خيراً منهنَّ، كما قال الله تعالى في الآية. ومعية الملائكة هي موافقتُهم له على مراده، ونصرُه على أضداده، والله تعالى أعلم.

وقلَّما تكلمتُ، ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوتُ أن يكون اللَّهُ يصدِّق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية؛ آية التخيير: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥]، ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] ـ وكانت عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ، وحفصةُ تَظَاهران على سائر نساء النبيِّ ﷺ فقلتُ: يا رسول الله! أَطَلَّقتَهنَّ؟ قال: «لا». قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجدَ والمسلمون ينكتون بالحصى؛ يقولون: طلَّقَ رسولُ الله ﷺ نساءَه! فأَنْزِلُ فأخبرَهُم أنك لم تُطلِّقْهُنَّ؟ قال: «نعم إن شئتَ!»، فلم أزل أحدِّثُه حتَّى تَحَسَّرَ الغضبُ عن وجهه، وحتى كَشَر، فضحك، وكان من أحسن الناس ثَغْراً! ثم نزل نبيُّ الله ﷺ، فنزلتُ أَتَشَبَّثُ بالجِذْع، ونزل رسول الله ﷺ كأنَّما يمشي على الأرض ما يمسَّه بيده. فقلتُ: يا رسولَ الله! إنما كنتَ في الغرفة تسعةً وعشرين. قال: «إنَّ الشهر يكون تسعاً وعشرين». فقمتُ على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يُطلِّقْ رسولُ الله ﷺ نساءَه!

و(قوله: قلَّ ما تكلَّمتُ ـ وأحمدُ الله ـ بكلام إلا رجوتُ أن يكونَ الله يُصدِّق الذي أقول) قد شهدَ له بهذا النبيُّ ﷺ حيث قال: «إنَّ الله جعلَ الحقَّ على لسان عمرَ وقلبه»[1].

و(قوله: فلم أزل أُحدِّثه حتى تحسَّر الغضبُ عن وجهه) أي: انكشفَ الغضبُ. وكشرَ: كشفَ عن أسنانه ليضحكَ، فضحكَ، وقد سبق القول على ما في هذا الحديث مما يُحتاج إلى التنبيه عليه في النكاح والإيلاء.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٩٥)، والترمذي (٣٦٨٢).

ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، فكنتُ أنا أستنبط ذلكَ الأمر، فأنزل الله عز وجل آية التخيير.

رواه مسلم (١٤٧٩) (٣٠).

* * *

(٣١) ومن سورة الجن

[٢٩٢٢] عن ابن عباسٍ، قال: ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجنِّ وما رآهم. انطلق رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصْحَابِه عامدين إلى سوق

و (قوله: ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٨٣]). ظاهر هذا أن هذه الآية نزلتْ بسبب هذه القضية لأجل استنباط عمر ـ رضي الله عنه ـ ما استنبطَ فيما وقع له فيها ووافقه اللّهُ تعالى على ما وقعَ له، فأُنزلَ القرآنُ على نحو ذلك. والاستنباط: الاستخراج، وقد تقدَّم. وأذاعوا به: أفشوه، يقال: ذاعَ الحديثُ يذيعُ ذَيْعاً وذُيوعاً، أي: انتشرَ، وأذاعه غيرُه إذا أفشاه، ويقال: ذاع به بمعناه. وأولو الأمر: العلماء في قول قتادة وغيره. وفي الآية من الفقه وجوبُ الرجوع إلى أقوال العلماء على من لا يُحسنُ فهمَ الأحكام واستنباطَها. قال الحسن: هي في الضعفاء أُمروا أن يستخرجوا العلمَ من الفقهاء والعلماء. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في المنافقين كانوا يشيعون ما يهمُّ به رسول الله ﷺ من أمن من أرادَ تأمينَه، وإغزاء من أرادَ غزوه؛ إرادة الإفساد.

(٣١) ومن سورة الجن

(قول ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجنِّ ولا رآهم) يعني: لم يقصدْهم بالقراءة عليهم، وإنما قرأ النبيُّ ﷺ في الصلاة

عُكَاظٍ، وقد حِيْلَ بينَ الشياطين وبين خَبَرِ السّماء. وأُرسلت عليهم الشُّهب، فرجعتِ الشياطينُ إلى قَوْمِهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء. وأرسلت عليهم الشهب. قالوا: ما ذاك إلا من شيءٍ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربونَ مشارق الأرضِ ومغاربَها، فمرّ النفرُ الذين أَخَذُوا نحو تِهامَةَ ـ وهو بنخلٍ عامدين إلى سوق عُكَاظٍ، وهو يُصلِّي بأصحابِهِ صلاة الفجرِ ـ فلمّا سمعوا القرآنَ استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بَيْنَنا وبين خبر السَّماء، فرجعُوا إلى قومهم فقالوا: يا قَوْمَنا! إنّا سَمِعْنا قُرآناً عَجَباً يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمَنّا بِهِ، ولَنْ نُشْرِكَ بِربِّنا أحداً. فأنزل اللَّهُ عز وجل على نبيه محمدٍ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

رواه البخاريُّ (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩)، والترمذيُّ (٣٣٢٣).

لأصحابه؛ لكن لما تفرَّقت الشياطينُ في الأرض يطلبون السبب الحائلَ بينهم وبين ما كانوا يَسترِقونَ من السمع صادفَ هذا النَّفَرُ من الجِنِّ النبيَّ ﷺ بسوق عُكاظ، وهو يُصلِّي بأصحابه فاستمعوا له، فقالوا: ما أخبر الله به عنهم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ الآيات [الجن ١ـ٢]. وقيل: كان عدد هؤلاء النفر اثني عشرة، وقيل: تسعة. وقيل: سبعة، وعلى هذا فالنبيُّ ﷺ ما علمَ باستماع الجِنِّ ولا رآهم، ولا كلَّمهم، وإنما أوحى الله تعالى إليه فعلمَ ذلك لما أنزلَ عليه القرآنَ بذلك، وهذا بخلاف حديث ابن مسعود، فإن مقتضاه: أن النبيَّ ﷺ خرجَ بعبد الله بن مسعود[١] معه، فجاءَه داعي الجِنِّ، فانطلقَ النبيُّ ﷺ نحو حِراء، فقرأ عليهم القرآنَ، فآمنوا وأسلمُوا،

(١) رواه مسلم (٤٥٠) (١٥٠).

[٢٩٢٣] وعن علقمة، قال: سألتُ ابنَ مسعودٍ: هل شهِدَ أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلةَ الجنّ؟ قال: لا؛ ولكنَّا كنَّا مع رسولِ الله ﷺ ذات ليلةٍ، ففقدنَاه؛ فالتمسناه في الأودية والشِّعابِ، فقلنا: اسْتُطِيرَ ـ أو: اغتِيل ـ قال: فبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلةٍ باتَ بها قومٌ! فلما أصْبَحْنا إذا هو جاءٍ من قِبَلِ حِرَاءٍ. قال: فقُلْنا: يا رسول الله! فقدنَاكَ، فطلبنَاكَ، فلم نجدك، فبِتْنَا بِشَرِّ ليلةٍ باتَ بها قوم! فقال: «أَتَانِي دَاعِي الجنِّ، فذهبتُ مَعَهُ، فقرأتُ عليهم

الجن والشياطين موجودون ومتعبَّدون بالأحكام

فهذه قضية أخرى، وجِنٌّ آخرون. والحاصل من الكتاب والسُّنة: العلمُ القطعيُّ بأن الجِن والشياطين موجودون متعبَّدُون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليقُ بخلقتهم وأحوالهم، وأن نبينا محمداً ﷺ رسولٌ إلى الإنس والجِنِّ أجمعين، فمن دخلَ في دينه، وآمنَ به، فهو من المؤمنين، ومعهم في الدنيا والآخرة. والجنَّةُ مستقرُّ المؤمنين. ومن كذَّبَه وصدَّ عنه فهو الشيطان المبعد عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، والنَّار مستقر الكافرين أبدَ الآبدين. وظاهرُ هذا الحديث يقتضي: أنَّ رجمَ الشياطين بالنجوم إنما صدرَ عند بعث النبيِّ ﷺ، وكذلك روى الترمذيُّ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان الجِنُّ يصعدون إلى السماء يستمعونَ الوحيَ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فلما بُعثَ الرسولُ ﷺ مُنعوا مقاعدَهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبلَ ذلك[١]، وذكرَ نحو ما تقدَّم لمسلم[٢]. وقد تقدَّم في آخر كتاب الطب من حديث ابن عباس[٣] ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنها كانت يُرمى بها في الجاهلية، وقد اختلف النَّاسُ في ذلك لاختلاف هذين الحديثين، فذهبت طائفةٌ منهم الجاحظ: إلى أن الرَّجمَ لم يكن قبل مبعث النبيِّ ﷺ، وقالت طائفة، منهم الغزالي: كان يُرمى بها؛

منع الجنّ من استراق السمع بعد بعثته ﷺ

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٢٤).
(٢) رواه مسلم (٤٤٩) (١٤٩).
(٣) رواه مسلم (٢٢٢٩) (١٢٤).

القرآن». قال: فانْطلقَ بنا فأَرانا آثارهم وآثارَ نِيرانِهم، وسألُوه الزّادَ، فقال: «لَكُم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللَّهِ عليه يقعُ في أيديكُم أَوْفَر ما يكونُ لَحْماً، وكُلُّ بعْرة عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ». فقال رسولُ الله ﷺ: «فلا تَسْتَنْجُوا بهما فإنَّهُما طعامُ إخْوَانِكُمْ».

رواه مسلم (٤٥٠) (١٥٠)، وأبو داود (٨٥)، والترمذيُّ (١٨).

ولكنه يزيد عند المبعث، وبهذا القول يرتفع التعارُضُ بين الحديثين. وقول عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه لم يشهدْ ليلة الجِنِّ مع رسول الله ﷺ أحدٌ، هو أصحُّ من الحديث الذي يحتج به الحنفيُّون، مما روي عن ابن مسعود أنه كان مع النبي ﷺ وأنه خطَّ عليه خطّاً وقال: «لا تبرحْ حتى آتيكَ» فذهبَ في سواد الليل ثم جاءَه فقال: ما في إداوتِكَ، فقال: نبيذ، فقال: «تمْرَةٌ طيِّبة وماءٌ طهور»[1]، ثم أخبرَه خبرَ الجن؛ لأن إسنادَه مجهولٌ على ما قاله أهلُ الحديث. واستُطير: أي استطيل، وأصله من استطالَ الفجرُ: إذا انتشرَ وطالَ. واغتيلَ: إذا هُجِمَ عليه بالمكروه، أو القتل. وحِرَاء: جبل معروف بمكَّة، وهو ممدود مهموز.

هل شهد ليلة الجن مع رسول الله ﷺ أحدٌ؟

و (قوله: وسألوه الزَّادَ) أي: ما يحلُّ لهم من الزَّاد ولدوابِّهم، فأجابهم بقوله: «لكم كلُّ عظم، وكلُّ بَعْرة لعلف دَوابِّكم» أي: هذان محلَّل لكم، ويحتمل أن يكونوا سألوه أن يدعوَ لهم بالبركة في أرزاقهم، وفي علف دَوابِّهم، ويدلُّ على هذا قولُه: «يقع في أيديكم أوفرَ ما يكونُ لحماً»، وفي كتاب مسلم، قال رسول الله ﷺ: «دعوتُ الله ألّا يمرُّوا بعظم إلا وجدوه أوفرَ ما كان وأسمنَه»[2] أي: بالنسبة إلى تغذِّيهم ونَيْلهم. وهل نَيْلُهم من ذلك شمٌّ، أو لحسٌ؟ كلُّ ذلك ممكن، وقد قيل بكل واحدٍ منهما.

و (قوله: «ذكرَ اسمَ الله عليه») أي: على تذكيته، ويحتمل على أكله،

---

(١) رواه أبو داود (٨٤)، والترمذي (٨٨)، وابن ماجه (٣٨٤).

(٢) رواه البخاري بنحوه (٣٨٦٠) عن أبي هريرة، ولم نجده في صحيح مسلم.

[٢٩٢٤] وعن ابن مسعودٍ، قال: آذَنتِ النَّبيَّ ﷺ بهِمْ شَجَرَةٌ.
رواه مسلم (٤٥٠) (١٥٣).

* * *

(٣٢) ومن سورة المدثر

[٢٩٢٥] عن سلمة، قال: سألتُ جابرَ بنَ عبدِ الله: أيُّ القرآنِ أُنْزِلَ قبلُ؟ قال: يا أيها المدثر، قلت: أو اقرأ؟ قال جابر: أُحدِّثكم ما حدّثنا رسول الله ﷺ. قال: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شهراً، فلمّا قضيتُ جِوَارِي نزلتُ فاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الوادي، فنُودِيتُ، فنظرتُ أمامي، وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أرَ أحداً، ثم نوديتُ. فرفعتُ رأسي، فإذا هو على العرشِ في الهواء ـ يعني: جبريلَ عليه السلام ـ فأخذتني رَجْفةٌ شديدةٌ،

والأول أولى، وقد تقدَّم القول في الاستنجاء بالعظام والرَّوْث في الطهارة.

و (قوله: آذنتْ النبيَّ ﷺ ليلة الجن بهم شجرة) أي: أعلمته بهم، وظاهره: أن الله تعالى خلق فيها نطقاً فهمه النبيُّ ﷺ كما خلق في الذراع المسمومة نطقاً.

(٣٢) ومن سورة المدثر

قد تقدم القولُ فيما أُنزل من القرآن أوّلاً، في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وتبيَّن هناك أنَّ الأخذ بحديثها أولى؛ لأنَّها زادتْ على جابر بذكر ما سكت عنه من حديث لقاء جبريل النبيَّ في الغار، وإلقائه إليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] على ما ذكرتْهُ عائشة، وقد دلَّ على هذا أنَّ حديثَ جابر قال فيه: «فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء». قد تقدَّمَ القولُ على «فجُئِثْتُ» في الإيمان.
والمدثر: المدثر في ثيابه.

فأتيتُ خديجةَ، فقلتُ: دثِّروني! فدثَّروني، فصبُّوا عليَّ ماءً، فأنزل الله عزّ وجلْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

وفي روايةٍ: «فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صَوْتاً من السَّماء. فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بِحِراء جالساً على كرسيٍّ بين السَّماء والأرضِ، فجُئِثْتُ منه فَرَقاً! فرجعتُ، فقلتُ: زمِّلوني... الحديث».

وفي أخرى: «فَجُئِثْتُ منه فَرَقاً حتى هَوَيْتُ إلى الأرض».

رواه أحمد (٣/٣٠٦)، والبخاريّ (٤٩٢٣)، ومسلم (١٦١) (٢٥٥ و ٢٥٧)، والترمذيّ (٣٣٢٥).

* * *

(٣٣) ومن سورة القيامة[١]

[٢٩٢٦] عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾ [القيامة: ١٦]، قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي؛ كان مما يُحرّك به لسانَه وشفتيْه فيشتدُّ عليه، فكان ذلك يُعْرَفُ منه، فأنزل الله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ [القيامة: ١٦]، أَخْذَه: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾

و (قوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤]) حُجَّةٌ لمن قال بوجوب غسل النجاسة، إذ الأصلُ حَمْلُ الثياب والطهارة على الحقيقة اللغوية، ويحتملُ أن يكونَ ذلك كنايةً عن طهارة القلب عن مذموم الأخلاق، كما قال الشاعر:

ثِيَـابُ بَنِـي عَـوْفٍ طَهـارَي نَقِيَّـة[١] ....

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه:

وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

[القيامة: ١٧] إنَّ علينا أن نجمَعه في صَدْرِكَ، وقرآنه فتقرأُهُ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨] قال: أنزلنا فاسْتَمِع له: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٩] أن نبيِّنه بلسانك، فكان إذا أتاه جبريلُ أَطْرَقَ، فإذا ذهبَ قَرَأَه كما وَعَدَهُ اللَّهُ.

رواه البخاريُّ (٤٩٢٨)، ومسلم (٤٤٨) (١٤٧)، والترمذيُّ (٣٣٢٦)، والنسائي (٢/ ١٤٩).

* * *

(٣٤) ومن سورة الأخدود

[٢٩٢٧] عن صهيبٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «كان ملك فيمن كان قَبْلَكم، وكان له ساحرٌ، فلما كَبِرَ قال للملك: إنِّي قد كَبِرْت، فابعثْ إليَّ غلاماً أعَلِّمْهُ السِّحرَ، فبعثَ إليه غلاماً يعلِّمُه، فكان في طريقه ـ إذا سلك ـ راهبٌ، فقعدَ إليه، وسمع كلامَه، فأعْجبَه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهِب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحرَ ضربَه، فشكا ذلك إلى الرَّاهِب، فقال: إذا خَشيْتَ الساحرَ فقُلْ: حَبَسَنِيْ أَهْلِي، وإذا خَشِيْتَ أهْلَكَ فقُلْ:

والرُّجْز: الأوثان، سمَّاها بذلك لاستحقاق عابديها الرِّجز، وهو العذاب. كقوله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. واهجر: اترك. ولربك فاصبر: أي على ما تلقاه من الأذى، والتكذيب عند الإنذار.

(٣٣[١] و ٣٤) ومن سورة الأخدود

جواز الكذب في الإسلام

(قول الراهب للغلام: «إذا خشيتَ الساحرَ فقُلْ: حَبَسَنِي أهلي») دليلٌ على: إجازة الكذب لمصلحة الدِّين، ووَجْهُ التمسُّك بهذا أن نبيَّنا ﷺ ذكر هذا الحديث

---

(١) لم يتعرَّض المؤلف ـ رحمه الله ـ لشرح ما أشكل في عنوانه: ومن سورة القيامة.

حَبَسنِي السَّاحرُ، فبينما هو كذلك؛ إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَتِ النَّاسَ. فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل، أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً، فقال: اللهم! إنْ كانَ الرَّاهب أحبَّ إليك من السَّاحرِ فاقتلْ هذه الدابةَ، حتى يمضي الناسُ! فرماها، فقتَلها، ومضى الناسُ، فأتى الراهبَ، فأخبره، فقال له الراهب: أيْ بُنيَّ! أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنَّك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عليَّ. وكان الغلام يبرىء الأَكْمَه، والأَبْرَص، ويداوي النَّاس من سائر الأدواء، فسمع جليسٌ للملكِ كان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرةٍ، فقال: ما ها هنا لك أجمعُ إن أنت شفَيْتَني! قال: إني لا أشْفِي أحداً، إنما يشفي الله! فإن آمنتَ باللَّهِ دعوتُ

كلَّه في معرض الثناء على الرَّاهب والغُلام عل جهة الاستحسان لما صَدَر عنهما، فلو كان شيءٌ مما صَدَر عنهما مِن أفعالهما مُحَرَّماً، أو غير جائز في شرعه لبيَّنه لأمَّته، ولاستثناه من جُملة ما صَدَر عنهما، ولم يفعل ذلك. فكلُّ ما أخبر به عنهما حُجَّةٌ ومسوغ الفعل.

فإن قيل: كيف يجوزُ في شرعنا ما فعل الغلامُ من دلالته على الراهب للقتل، ومن إرشاده إلى كيفية قتل نفسه؟! فالجوابُ مِن وجهين:

أحدهما: أنَّ الغلامَ غير مكلَّف؛ لأنه لم يبلغ الحلم، ولو سلم أنه مكلّف لكان العذرُ عن ذلك أنه لم يعلمْ أن الراهبَ يُقتل، فلا يلزم من دلالته عليه قتله. وعن معونته على قتل نفسه: أنه لما غلب على ظنِّه أنه مقتولٌ ولا بُدَّ، أو علم بما جعل اللَّهُ في قلبه، أرشدهم إلى طريقٍ يظهر اللَّهُ بها كرامته، وصحة الدِّين الذي كانا عليه، لِيُسْلِمَ الناس، وليدينوا دينَ الحقِّ عند مشاهدة ذلك كما كان. وقد أسلم عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ نفسَه عند عِلْمه بأنه يُقتل ـ ولا بُدَّ ـ بما أخبر النبيُّ ﷺ كما بيَّنَّاه.

الله فشفاك! فآمن بالله، فشفاه اللَّهُ، فأتى الملكَ، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له المَلِكُ: من ردّ عليك بَصَرَك؟ قال: ربي! قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّك الله! فأخذه، فلم يزل يُعَذِّبُه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أيْ بنيَّ! قد بلغ من سِحْرِكَ ما تُبْرِىءُ الأكمهَ، والأبرصَ، وتفعل، وتفعل! قال: إنِّي لا أَشْفِي أحداً، إنَّما يَشْفِي اللَّهُ! فأخذه فلم يزل يعذِّبُهُ حتى دلَّ على الراهب، فجيء بالرَّاهب، فقيل له: ارجع عن دينك! فأبى. فدعا بالمئشارِ، فوضع المئشار في مَفْرِقِ رأسِه، فشقَّه حتى وقع شِقَّاه، ثم جيء بجليسِ الملك، فقيل له: ارجع عن

الصبر على الأذى في سبيل الله

وهذا الحديثُ كلُّه إنما ذكره النبيُّ ﷺ لأصحابه ليصبروا على ما يلقون من الأذى، والآلام، والمشقّات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره، وتصلُّبه في الحقِّ، وتمسُّكه به، وبذله نفسه في حقِّ إظهار دعوته، ودخول الناس في الدِّين مع صِغَر سنّه، وعظيم صبره، وكذلك الرَّاهب صبر على التمسُّك بالحق حتى نُشِر بالمئشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى، ورسخ الإيمانُ في قلوبهم صبروا على الطّرح في النار، ولم يرجعوا عن دينهم، وهذا كلُّه فوق ما كان يُفعل بمن آمن مِن أصحاب النبيِّ ﷺ فإنه لم يكنْ فيهم مَن فُعِل به شيءٌ مِن ذلك؛ لكفاية الله تعالى لهم؛ ولأنَّه تعالى أراد إعزازَ دينه، وإظهارَ كلمته. على أنِّي أقولُ: إنَّ محمداً ﷺ أقوى الأنبياء في الله، وأصحابه أقوى أصحاب الأنبياء في الله تعالى، فقد امتحن كثيرٌ منهم بالقتل، وبالصلب، وبالتعذيب الشديد، ولم يلتفت إلى شيءٍ من ذلك، وتكفيك قصَّةُ عاصم وخُبيب وأصحابهما، وما لقي أصحابُه من الحروب، والمِحن، والأسر، والحرق، وغير ذلك، فلقد بذلوا في الله نفوسَهم، وأموالَهم، وفارقوا ديارهم وأولادهم، حتى أظهروا دينَ الله، ووفّوا بما عاهدوا عليه الله، فجازاهم اللَّهُ أفضلَ الجزاء، ووفَّاهم مِن أجر مَن دخل في الإسلام بسببهم أفضلَ الإجزاء.

دينك! فأبى، فوضع المئشار في مَفرِق رأسه، فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه، ثم جيء بالغلامِ، فقيل له: ارجع عن دينك! فأبى، فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحَابِه، فقال: اذهبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصْعَدوا به الجبلَ، فإذا بلغتُم به ذرْوَتَه، فإن رجع عن دينه وإلَّا فاطْرحُوه! فذهبوا به فصَعِدُوا به الجبلَ، فقال: اللهمْ اكْفِنِيهم بما شئتَ! فرجف بهم الجبلُ، فسقطُوا، وجاء يمشِي إلى الملك! فقال له: الملكُ: ما فعل أصحابُك؟ فقال: كفانِيْهِمُ اللَّهُ! فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه على قُرْقُورٍ، فتوسَّطُوا به البحرَ، فإن رَجَعَ عن دينِهِ وإلَّا فاطرحوه! فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ! فانكفأتْ بهم السفينةُ، فغَرِقُوا، وجاء يمشي إلى الملكِ. فقال الملكُ: ما فعل أصحابُكَ؟ قال: كَفانيهم الله! فقال للملكِ: إنَّك لستَ بقاتِلي حتى تفعل ما آمُرُكَ به. قال: وما هو؟ قال:

وقد تقدَّم أن المئشار يُقال بالنون وبالياء المهموزة، وهي الأفصحُ، وقد تُسهل همزتها. والدابَّة العظيمة، كانت أسداً، كما جاء في حديث آخر. والقُرقُور ـ بضم القافين ـ: هو السفينةُ الكبيرة. قاله الهروي، وقد أُنكِر هذا عليه. وقيل: إن السُّفُنَ الكبارَ لا تُستعملُ في مثله.

قلــتُ: وهذا إنكارٌ ينبغي أن يُنكر، فلعلَّ هذا الملكَ قَصَدَ إلى أعظم السفن حتى يتوسَّط البحرَ بهذا الغلام ليلقوه في أبعده عنه، أو لعلّه جعل معه في السَّفينة من يملؤها أو ما يملؤها، والمرجعُ فيه إلى أهل اللغة. وقد قال ابنُ دُريد في «الجمهرة»: القرقور: ضربٌ من السفن، عربي معروف، والمعروف عند الناس فيه استعمالُه فيما صَغُر منها، وخفَّ للتصرُّف فيه.

و (قوله: «فرجف بهم الجبل») أي: تحرَّك، وتزلزل بهم. وخدّ الأخدود؛ أي: حَفَر في الأرض شِقاً مستطيلاً عظيماً، ويُجمع: أخاديد.

تجمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصلُبني على جِذْعٍ، ثم خُذْ سَهْماً من كِنَانَتِي، ثم ضَع السَّهمَ في كَبِدِ القوسِ ثم قـل: باسمِ اللَّهِ ربِّ الغلامِ! ثم ارمني، فإنَّك إذا فعلت ذلك قتلتنِي! فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جِذْعٍ، ثم أخذ سهماً من كنانتِه، ثم وضع السَّهمَ في كَبِدِ القوسِ، ثُمَّ قال: باسمِ اللَّهِ ربِّ الغلامِ! ثم رماه، فوقع السَّهمُ في صُدْغِهِ، فوضعَ يده في صُدْغِه في موضع السَّهمِ، فمات! فقال الناسَ: ؛ آمنّا بربِّ الغلامِ! آمنا بربِّ الغلامِ! فأتى الملكُ، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر! قد والله نزل بك حذرك! قد آمن الناس! فأمر بالأخدُود بأفواهِ السِّكَكِ. فخُدَّتْ، وأَضْرَمَ النيرانَ. وقال: مَنْ لم يرجع عن دينِه فأَحْمُوه فيها! أو قيل له: اقتحِمْ. ففعلوا، حتى جاءتِ امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعستْ أن تقعَ فيها. فقال لها الغلام: يا أمَّه! اصْبِري، فإنّك على الحق!».

رواه أحمد (٦/ ١٧)، ومسلم (٣٠٠٥)، والترمذيّ (٣٣٤٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦٦١).

* * *

و (قوله: «فَأَحْمُوه فيها، أو قيل: اقتحم») هذا شكٌّ من بعض الرواة، فَأَحْمُوه فيها؛ معناه: أَلْقُوه فيها، وأَدْخِلُوه إيَّاها. يقال: أحميت الحديد والشيء في النار: إذا أدخلته فيها. قال القاضي أبو الفضل: واقتحمْ: ادخلْ على كره ومشقة.

و (قوله: «فتقاعستْ») أي: تأخَّرتْ وامتنعتْ، وقد أظهر اللَّهُ لهذا المَلِك الجبَّار الظالم من الآيات والبيِّنات ما يدلُّ على القطع والثبات أن الراهبَ والغلامَ على الدِّين الحقِّ، والمنهج الصِّدْق، لكنْ من حُرِم التوفيق استدبر الطَّريق. وفي هذا الحديث إثباتُ كرامات الأولياء، وقد تقدَّم القولُ فيها.

(٣٥) ومن سورة الشمس وضحاها

[٢٩٢٨] عن عبدِ اللَّهِ بنِ زَمْعَةَ. قال: خطبَ رسولُ الله ﷺ، فذكر الناقةَ، وذكر الذي عَقَرَها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] انبعثَ بها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ مَنِيعٌ في رَهْطِهِ؛ مثل أبي زمعة» ثم ذكر النساءَ، فوعظ فيهنَّ، ثم قال: «إلامَ يجلدُ أحدُكُم امرأتَه؟».

---

(٣٥) ومن سورة الشمس وضحاها

(قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ أي: قام مُسْرِعاً. وضميرُ المؤنث عائدٌ على ثمود، وهي مؤنثةٌ؛ لأنها قُصِد بها قصد قبيلة؛ ولذلك مع التعريف لم تُصرف. والعزيز: القليل المثل، ويكون بمعنى: الغالب. والعارم: الجبَّار الصَّعب على من يرومه، والممتنع بسلطانه وعشيرته. وأبو زمعة هذا يحتملُ أن يكون هو الذي قال فيه أبو عمر: أنه بلويٌّ، صحابي، ممن بايع تحت الشَّجرة، وتوفي بإفريقية في غزاة معاوية بن خديج الأولى، ودُفِن بالبلويَّة بالقيروان.

قلــتُ: فإن كان هو هذا؛ فإنه إنما شبَّهه بعاقر الناقة في أنه عزيزٌ في قومه، ومنيعٌ على مَن يريده من أهل الكفر. ويُحتملُ أن يريدَ به غيره ممن يسمَّى بأبي زمعة ٢٣ ـ ٢٤]، قاله ابنُ إسحاق وغيره.

النهي عن سوء المعاشرة الزوجية

و (قوله: «إلام يَجْلِدُ أحدُكم امرأتَه جَلْدَ العبد؟!») هذا إنكارٌ على من يجلدُ زوجتَه، ويُكْثِر من ذلك حتى يعامِلَها معاملةَ الأَمَة، ثم إنه بعد ذلك باليسير يرجعُ إلى مُضاجعتها، وإلى قضاء شهوته منها، فلا تُطاوعه، ولا تتحسَّنُ له، وقد تبغضه، وقد يكون هو يحبُّها، فيفسد حاله، ويتفاقم أمرُهما، وتزول الرحمةُ والمودَّةُ التي جعلها اللَّهُ تعالى بين الأزواج، ويحصل نقيضُها، فنبَّه ﷺ بهذا اللَّفظ الوجيز على ما يطرأ من ذلك من المفاسد.

وفي روايةٍ: «جَلْدَ العبدِ، ولعلّه يُضَاجِعُها من آخرِ يومه». ثم وعظَهُم في ضحِكهم من الضَّرْطَةِ، فقال: «إلامَ يضحكُ أحدُكم مما يَفْعَلُ؟».

رواه أحمد (٤/ ١٧)، والبخاريّ (٣٣٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥)، والترمذيّ (٣٣٤٣)، وابن ماجه (١٩٨٣).

* * *

(٣٦) ومن سورة الليل

[٢٩٢٩] عن عَلْقَمةَ، قال: قَدِمْنَا الشامَ، فأتانا أبو الدرداء، فقال: أفيكُم أحدٌ يقرأ عليَّ قراءة عبد اللَّهِ؟! فقلت: نعم، أنا! قال: فكيف سمعتَ عبدَ اللَّهِ يقرأ هذه الآية؟: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]؟ قال: سمعتُه يقرأُ: والليلِ إذا يَغْشَى، والذكرِ والأنثى قال: وأنا واللَّهِ! هكذا سمعتُ

و (قوله: ثم وَعَظَهم في ضحكم من الضَّرطة) أي: نَهاهم وزجرهم عن ذلك؛ لأنه فِعْلٌ عاديٌّ يستوي فيه الناسُ كلُّهم؛ وإن كان ممَّا يُستقبح، فحقُّ الإنسان أن يستترَ به؛ فإن غلبه بحيث يسمعه أحدٌ فلا يضحك منه، فإنه يتأذَّى الفاعلُ بذلك، ويخجل منه، وأذى المسلم حرام، فالضحكُ من الضَّرطة حرام.

(٣٦) ومن سورة والليل إذا يغشى

قراءة عبد الله بن مسعود، وأبي الدَّرداء ـ رضي الله عنهما ـ (والذكر والأنثى) ليستْ قرآناً، هكذا بإجماع الصَّحابة والمسلمين بَعْدَهم واتّفاق المصاحف على خلافها، وأنَّ القراءةَ المتواترة: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ وبقي عبدُالله وأبو الدرداء على ما سمعاه، وأَبَيا أن يقرآ على قراءة الجماعة. وعليهما في ذلك إشكالٌ، وعلى قراءتهما يكون الذكر: هو آدم، والأنثى: حواء، وهو المُقسَم

رسولَ الله ﷺ يقرؤُها، ولكن هؤلاء يُريدون أن أقرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ [الليل: ٣] فلا أتابِعُهُم!.

رواه أحمد (٦/ ٤٥١)، والبخاريُّ (٤٩٤٣)، ومسلم (٨٢٤) (٢٨٢)، والترمذي (٢٩٣٩).

* * *

(٣٧) ومن سورة الضحى

[٢٩٣٠] عن جندبِ بنِ سُفْيان، قال: أبطأ جبريلُ عن رسول الله ﷺ، فقال المشركون: قد وُدِّع محمّد، فأنزل الله عز وجل:

بهما، وعلى قراءة الجماعة: المُقْسَم به: ما خلق، وهو بمعنى الذي، ويعني به الخالق. وقد قيل: يعني بذلك المصدر، فكأنَّه قال: وخَلْق الذكرِ والأنثى، وعلى هذا فيكون الذكرُ والأنثى يُراد به النوعُ كلُّه، والله تعالى أعلم.

(٣٧) ومن سورة والضحى

(قوله: أبطأ جبريلُ ـ عليه السلام ـ عن رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد وُدِّع محمد) هذا إنما كان بمكة في أول الإسلام، وذلك أنَّ المشركين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الخَضِر، وذي القرنين، والروح، فوعدهم بالجواب إلى غد، ولم يستثنِ، فأبطأ عليه جبريلُ. قيل: اثنتي عشرة ليلة، وقيل أكثر من ذلك، حتى ضاق صَدْرُ النبيِّ ﷺ، وقال المشركون ذلك القول، فعند ذلك نزل عليه جبريلُ ـ عليه السلام ـ بهذه السورة، وبجواب ما سألوا عنه، وقال له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍْء إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]، قاله ابنُ إسحاق وغيره.

﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣].

رواه مسلم في الجهاد (١٧٩٧) (١٤).

[٢٩٣١] وعنه؛ قال: اشتكى رسولُ الله ﷺ، فلم يَقُمْ ليلتينِ، أو ثلاثاً، فجاءته امرأةٌ فقالتْ: يا محمّد! إنّي لَأَرجو أن يكونَ شيطانُك قد تركَكَ! ولم أره قَرِبَكَ منذ ليلتينِ أو ثلاثٍ! قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣].

رواه البخاريُّ (١١٢٤)، ومسلم (١٧٩٧) (١١٥)، والترمذيُّ (٣٣٤٥).

* * *

و (قول جندب في الرواية الأخرى: إنها نزلت جواباً لمن قالت: تركه شيطانُه). لا يعارضُ بما قاله ابن إسحاق؛ إذ يجوزُ أن تكون نزلتْ جواباً لذينك الشيئين، وجواباً لمن قال ذلك كائناً مَن كان. وقد تقدَّم أنَّ الضحى: صَدْرُ النهار. وسجى: أقبل ظلامه. وما ودَّعك ـ مشدداً ـ: هي القراءةُ المتواترة. أي: ما تركك تَرْك مودّع. وقراءة ابن أبي عبلة: وَدَعك ـ مخففاً ـ على الأصل المرفوض كما قدَّمناه، وذلك أنَّ العربَ أماتت ماضيه واسم فاعله، وصيغة مفاضلته، استغناء عنه بـ (ترك)، وقد نُطِقَ بذلك قليلاً. والقِلى: البغض.

* * *

(٣٨) ومـن سورة اقرأ باسم ربك

[٢٩٣٢] عن أبي هريرة، قال: قال أبو جهلٍ: هل يُعفِّر محمدٌ وَجْهَه بين أظهرِكم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاتِ والعزّى! لئنْ رأيتُه يفعل ذلك لأَطَأَنَّ على رَقَبتِه! أو لأعفرنَّ وَجْهَه بالتُّراب! قال: فأتى رسولَ الله ﷺ، وهو يُصَلِّي. زعم لِيَطأَ على رقبته. قال: فما فجئهم منه إلا وهو يَنْكِصُ على عقبيه ويتَّقِي بيديه! قال: فقيل له: مَا لَكَ!؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ، وهولاً وأجنحةً! فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا

---

(٣٨) ومن سورة اقرأ

تَعْفِيرُ الوجه: تَتْرِيبُه. وينكصُ على عقبيه: يرجع القهقرى وراءه.

و (قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]) أي: اذكر اسم ربك بالتوحيد والتعظيم. والباء صِلة. قاله أبو عبيدة، وقيل عنه: الاسم صِلة. أي: بعونه وتوفيقه، وأشبه منهما أن يقال: إنَّ معناه: ابْتَدِىء القراءة ببركة اسم ربِّك وعَوْنِه، وخلق: أي: آدم ـ عليه السلام ـ من تُراب. وخَلَق الإنسانَ من عَلَق: يعني ولده، والعَلَق: الدم. جمع علقة، وسُمِّيت بذلك لتعلُّقها بما مرَّت عليه، وأنشدوا:

تَـرَكْنَـاهُ يَخِـرُّ علـى يـديـه   يَمُـجُّ عَلَيْهِمـا عَلَـقَ الـوَتِيـنِ

واقرأ الثاني: توكيدٌ للأول لفظيٌّ، ولذلك حَسُنَ الوقفُ عليه. وربك الأكرم، وهو مرفوعٌ بالابتداء، وخبره: علَّم الإنسان ما لم يَعْلَمْ؛ قيل: آدم ـ عليه السلام ـ علَّمه الأسماء كلَّها. وقال قتادة: هي للجنس، أي: الخطّ.

قلتُ: (ما) لإبهامها للعموم؛ إذ اللَّهُ تعالى علَّم كلَّ واحدٍ من نوعِ الإنسان ما لم يكن يَعْلم، لكن الامتنان إنما يحصلُ بالعلوم النافعةِ لا غير، فهي المقصودةُ بهذا العموم، والله أعلم.

مِنّي لاختطفتهُ الملائِكةُ عُضْواً عُضْواً». قال: فأنزل اللّهُ عزَّ وجلَّ: لا ندري في حديثِ أبي هريرة، أو شيءٌ بلغه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. يعني أبا جهل ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ إلى قوله ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ٦ ـ ١٩]، وقال: وأمره بما أمره.

وقد تقدَّم: أن أول ما نزل من القرآن مِن أول هذه السُّورة إلى آخر هذه الآية، ثم بعد آمادٍ نزل قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦] فهذا نمطٌ آخرُ افتتحَ الكلام به، ولذلك قال أبو حاتم: إن (كلَّا) هنا بمعنى ألَا التي للاستفتاح. وقال الفرّاء: إنها تكذيبٌ للمشركين. وقول أبي حاتم أولى. والإنسانُ هنا: أبو جهل. و (ليطغى) أي: تكبّر وارتفع حتى تجاوز المقدارَ والحدَّ. و (أن رآه استغنى) أي: مِن أجل استغنائه بماله، وشدّته، وعشيرته، وعلى هذا فالضميرُ عائدٌ إلى أبي جهل، أعني: الضَّمير في (رآه). وقيل: هو عائدٌ على محمد ﷺ؛ أي: أنَّ أبا جهل طَغَى، وتجاوزَ الحدَّ في حَسَده لمحمد ﷺ، من أن استغنى محمدٌ ﷺ بربه، وبما منحه مِن فَضْله عن كلِّ أحدٍ من جميع خَلْقِه.

و (قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] أي: الرُّجوع إليه يوم القيامة، فيجازي كُلّاً بفعله.

و (قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩ ـ ١٠]) يعني به: أبا جهل، نهى رسولَ الله ﷺ عن أن يُصَلِّي، وقال ما ذكره في الحديث، و (أرأيت) هذه فيها معنى التعجب، فكأنّه قال: اعجب من هذا الجاهل الضَّعيف العقل، كيف ينهى عن عبادة الله تعالى مثلَ محمد ﷺ.

و (قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق: ١١ ـ ١٢]) قيل: هو خطابٌ لأبي جهل، وهو خطابُ توبيخ له، واحتجاج عليه، فكأنه قال: أخبرني أيها المنّاع لمحمد من العبادة إن كان محمد على الهدى، أو أمر بالتقوى، فصددته

في روايةٍ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ يعني: قومه.

رواه أحمد (٢/ ٣٧٠)، ومسلم (٢٧٩٧)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٣).

* * *

عن ذلك، ألم تعلم أن اللَّهَ يراك، وهو قدير على أَخْذك ومعاقبتك؟! وقيل: جوابه محذوف، تقديره: ألست تستحقُّ مِن الله النكالَ والعِقاب؟ ثم أَخَذ بعد هذا في تهديده ووعيده، فقال: (كلا)! أي: ويلٌ له وهلاك.

و (قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]) هذا قسمٌ من الله تعالى على تعذيبه، وإهلاكه إن لم يُؤمِن. ومعنى: ﴿لنسفعاً﴾: لنأخذن، ولنجذبن. والناصية: شعر مقدم الرأس، وهذا الوعيدُ مثل قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. ثم وصف ناصيته بأنها كاذبة خاطئة، والمقصود: صاحبها.

و (قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧]) أي: إذا أخذناه، فلينتصرْ بأهل مجلسه إن صحَّ له ذلك. والنادي: المجلس، وأراد به أهلَ ناديه، ويقال عليهم: النّدي.

و (قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]) أي: لِتعذيبه، وهم خزنةُ النَّار الموكَّلون بتعذيب الكفَّار، وهم الملائكةُ الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وسُمُّوا زبانيةً من الزّبن، وهو الدفعُ؛ لشِدَّة دَفْعِهم وبطشهم. قال الشاعر:

.... زَبَانِيَةٌ غُلْبٌ عِظَامٌ كُلُومُها[1]

---

(١) هذا عجز بيتٍ، وصدره:

مَطَاعِيمُ في القُصْوَى مَطَاعِينُ في الوَغَى

(٣٩) ومن سورة النصر

[٢٩٣٣] عن عبد الله بن عُتبة، قال: قال لي ابنُ عباس: تعلمُ آخرَ سورةٍ من القرآن نزلت جميعاً؟ قلتُ: نعم: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [الفتح: ١]. قال: صدقت.

وفي روايةٍ: تعلم أيّ سورةٍ ولم يقل: آخر.

رواه مسلم (٣٠٢٤).

و (قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾ [العلق: ١٩]) تأكيدُ زجرٍ لأبي جهل، ونهي لمحمد ﷺ عن طاعته في ترك الصَّلاة، وفيما يأمرُ به، وينهى عنه. و(اسجدْ واقترب) أي: صَلِّ لله، وتقرَّب إليه بعبادته، وأفعال البِرِّ، وقد تكلَّمنا على سجود القرآن في كتاب الصلاة.

(٣٩) ومن سورة النَّصر

نصرُ الله: عَونُه على إظهار نبيِّه ﷺ على قُريش وغيرهم. والفتح: فتح مكة، كما فسَّره النبيُّ ﷺ في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولا يُلتفت لما قيل في ذلك ممَّا يُخالِفُه. والأفواج: الزّمر. يعني: زمرة بعد زمرة، وهذا كان بعد فتح مكة، فإنَّ أهلَ مكة كانوا عظماءَ العرب وقادتَهم، ومكة بيت الله تعالى، فتوقفتِ العربُ في إسلامها على أهل مكة ينظرون ما يفعلون، فلما فتح اللَّهُ تعالى مكةَ على نبيِّه ﷺ وأسلم أهلُها، أصفقت العربُ على الدخول في الإسلام، وهَجَرت الأوثان، وعطَّلت الأزلام، وحَصَل التَّمام، وكَمُل الإنعام، فوجبَ الشُّكرُ لهذا المنعِم الكريم، واستغفار هذا المولى الرحيم، لا سيما وقد أفصحَ خِطاباً: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣]. أي: قُلْ يا محمدا سبحان الله وبحمده، وأستغفر اللَّهَ، وأتوبُ إليه. فكان ﷺ يُكْثِر من قول ذلك شُكراً

[٢٩٣٤] وعن عائشة، قالت: كان رسولُ الله ﷺ يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر اللَّهَ وأتوب إليه؟»، فقال: «خبّرني ربِّي: أنِّي سأرىٰ علامةً في أمَّتي، فإذا رأيتُها أكثرتُ من قولِ:

لله تعالى، وامتثالاً لما أُمِر به هنالك. وقد تقدَّم: أنَّ عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ فَهِما من هذه السُّورة: أنَّ الله تعالى نَعَى لنبيِّنا محمد ﷺ نفسه، وكذلك فهمه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ. وقال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: نزلتْ هذه السُّورةُ بمنى في حَجَّة الوداع، ثم نزلتْ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] فعاش بعدها النبيُّ ﷺ ثمانين يوماً، ثم نزلتْ آيةُ الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: سبعة أيام. إنه كان تواباً على النَّادمين ـ وإن كثروا ـ ومحَّاءً ذنوبَ الخطَّائين إذا استغفروا.

نسأل[1] اللَّهَ العظيمَ الكريمَ أن يُلْهِمنا النَّدَم الذي هو أعظمُ أركان التوبة، وأن يمحوَ ذنوبنا، ويُلْهِمنا الاستغفارَ الموجبَ لذلك إن شاء الله تعالى.

* * *

تم الجزءُ الرابعُ من كتاب «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» وبتمامه يتمُّ جميعُ الديوان، والله المستعان، وذلك في شهر شوال سنة أربع وعشرين وسبعمئة على يد الفقير إلى الله تعالى محمد بن عيسى بن محمد بن رزيك الشافعي مذهباً، الغسَّاني نسباً، رحمهم الله تعالى برحمته الواسعة وسائر المسلمين[1].

---

(١) هذا خاتمة (ع).

سبحانَ اللَّهِ وبحمده! أستغفرُ الله وأتوبُ إليه! فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فتح مكة. ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا...﴾ إلى آخرها [النصر: ١ ـ ٣].

رواه البخاريّ (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤) (٢٢٠).

تم هذا الكتاب الشريف

وهو تلخيص كتاب مسلم، وهو آخر الكتاب

الحمد لله حقَّ حَمْدِه

وصلواتُه على سيدنا محمد، وآله، وأصحابه، وسلامه

وكان الفراغ منه

في الثامن من شهر شعبان المكرّم سنة سبعٍ وثلاثين وستمئة

* * * *

* * *

* *

*

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة


الفهارس العلمية



حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام ألف

حرف الياء

● ● ●

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام ألف

• • •

أنصــاف الأبيات والرجز

(٣) كتاب الصلاة ٢/ ٥

(١١) أبواب الاعتكاف وليلة القدر

(١٩) كتاب الوصايا والفرائض

(٤٠) كتاب ذكر الموت وما بعده

٤١ - كتاب الفتن وأشراط الساعة

● ● ●